

الدكتور محمد
محمد أبو شهبة

المُدْخُلُ لِلدِّرَاسَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

« الْقُرْآنُ بِحَرْفٍ لَا يَذُرُّكَ غَوْرُهُ وَلَا تَنْفَعُ
دُرَرُهُ ، وَلَا تَنْقُضِي نَجَائِيهِ ، فَمَا أَحَقُّ الْأَعْمَارَ
أَنْ تَعْنِيَ فِيهِ ، وَالْأَزْمَانُ أَنْ تَشْغَلَ بِهِ »

تَأَلِيفُ
الْأَسَاطِذِ الدُّكْتُورِ
مُحَمَّدَ مُحَمَّدٍ أَبُو شَهْبَةَ
رَحِمَهُ اللَّهُ

دارُ اللُّهَاءِ
لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

المدخل للدراسة القرآن الكريم

دار اللهواء

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثالثة

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

المملكة العربية السعودية - الرياض ١١٤٦١

دار اللواء ص. ب : ٢٨٥٦ شارع الملك فيصل

هاتف : ٤٠٢٨٠٨٤-٤٠٥١٧٥٤ - برقية : نشر دار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذى علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، والصلاة والسلام على نبينا محمد القائل : ما من نبي من الأنبياء إلا وآتاه الله من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ،

وعلى آله ، وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين
« وبعد »

فقد نفذت الطبعة الأولى من هذا الكتاب القويم ، الذى يدور فى فلك القرآن الكريم ، من منذ بضع سنين .

وقد رغب إلى الكثيرون من قرأوه ، وانتفعوا به ، من طلاب جامعة الأزهر الشريف ، وغيرهم من طلاب المعرفة وعشاق الثقافة الإسلامية الأصيلة ، هذه الثقافة التى تدور حول الأصلين الشريفين : القرآن الكريم ، والسنة النبوية المنيفة

وقد رأيت أن تجيء هذه الطبعة الثانية - كما هى سنة الله فى التطور والارتقاء - مشتملة على مزيد من التحقيقات ، ومن الموضوعات التى لا يستغنى عنها الدعاة الذين نصبوا أنفسهم للدعوة إلى الله بالحكمة ، والموعظة الحسنة ولا سيما فيما أورده المستشرقون والمبشرون على القرآن من شبهات ، فقد عرضت للشبه التى أثبتت على الوحى ، وردتها بالقواعد العلمية الصحيحة لا بالعاطفة والعصية .

وكذلك زدت بحوثا حول ثبوت النص القرآنى بالتواتر المفيد للقطع واليقين ، وسلامة هذا النص من التحريف والتبديل ، وهى خصيصة للقرآن لم تتوافر لآى كتاب آخر سماوى

وكذلك زدت فيه بحوثاً حول القراءات والقراء ، ورد شبه بعض
المستشرقين في هذا ، والكتاب المعاصرين الذين لم يأخذوا من الدراسات
القرآنية بخط وافر .

والله أسأل أن ينفع به كما نفع بأصله ، وأن يجعل عملي مقبولا ، وأجرى
موصولا ، إنه سميع مجيب . وهو حسبي ، ونعم الوكيل .

أبو عمر

محمد بن محمد أبو شهبه

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى أنزل على عبده محمد، القرآن مشتملاً على الحكم والأحكام والمواعظ والآداب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الذى خصه الله بمجامع الكلم، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله وصحابه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الحساب.

«أما بعد».

فإن أحق ما يشتغل به الباحثون، وأفضل ما يتسابق فيه المتسابقون — مدارسة كتاب الله، ومداومة البحث فيه، والغوص عن لآئنه، والكشف عن علومه وحقائقه، وإظهار إعجازه، وتجليه محاسنه، والدفاع عن ساحته ونفى الشكوك والريب فيه، والقرآن بحر لا يدرك غوره، ولا تنفذ درره ولا تنقضى عجابه، فما أحق الأعمار أن تنفى فيه، والأزمان أن تشغل به وكل ساعة يقضيها الباحث فى النظر فى كتاب الله، والتأمل فيه أو فى البحث فيما يتصل به، فى سبيل الله، وفى سبيل الإسلام.

والأأسند إلى تدريس «علوم القرآن» بقسم الدراسات العليا، بكلية أصول الدين من كليات الجامعة الأزهرية رأيت أن أضع فى هذا مؤلفاً وسطاً: لاهو بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل؛ ليكون مرجعاً لطلاب هذا القسم وغيرهم من عشاق القرآن وعلومه.

ولما كانت مباحث هذا العلم مدخلاً وسبيلاً لدراسة «القرآن الكريم» وفهمه وتدبره لم أجد نفسى فى حاجة إلى أن أتكلف لهذا المؤلف اسماً، ومسميته: «المدخل لدراسة القرآن الكريم».

ويعتبر هذا «المدخل» أول كتاب ألف فى هذا الفن، من أحد رجال الطبقة التى تلى طبقة شيوخنا وأول باكورة شبيهة، لقسم الدراسات العليا شعبة «التفسير وعلومه، والحديث وعلومه»، أقول هذا تحدياً بنعمة الله على ولله الحمد، والمنة

والله أسأل أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه، وأن يجعل نفعه عاماً موصولاً لى «أبو عمر» — محمد محمد أبو شهبه

القرآن الكريم

القرآن الكريم : هو كتاب الله - عز وجل - المنزل على خاتم أنبيائه محمد ﷺ بلفظه ومعناه ، المنقول بالتواتر المفيد للقطع واليقين المكتوب في المصاحف من أول سورة الفاتحة ، إلى آخر سورة الناس .

أحكمه الله فأتقن إحكامه ، وفصله فأحسن تفصيله ، وصدق الله : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (١) ، لا يتطرق إلى ساحته نقض ولا إبطال ، وصدق العلي العظيم حيث يقول : « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. تنزيل من حكيم حميد » (٢)

وهو المعجزة العظمى ، والحجة البالغة ، الباقية على وجه الدهر لرسول البشرية سيدنا ومحمد ، صلوات الله وسلامه عليه . . تحدى به الناس كافة ، والإنس والجن أن يأتوا بمثله ، أو يبعثه فباءوا بالعجز والبحر ، وقد وقع التحدى « بالقرآن » على مرات متعددة ، كي تقوم عليهم الحجة تلو الحجة ، وتنقطع المexcuse.

تحداهم أولاً أن يأتوا بمثله فعجزوا وما استطاعوا ، قال عز شأنه في سورة الإسراء ، المكية الآية (٨٨) « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن .. لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ثم تحداهم : أن يأتوا بعشر سور مثله ، فما قدرُوا . قال تعالى في سورة « هود » المكية الآية (١٣ - ١٤) « أم يقولون افتراء ، قل ، فاتوا بعشر سور مثله مفتريات (٣) ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم

(١) هود - ١ (٢) فصلت ٤١ - ٣٢

(٣) هذا من قبيل التزل مع الخصم . والمساهلة معه في الحجاج ، كي يكون الإخام أدل على الإعجاز ، أى إن كان مفترى - كما تزعمون - فاتوا بعشر سور مثله مفتريات . والمراد : المائلة في الفصاحة والبلاغة وجزالة المعنى وسمو المقاصد والاشتغال على العلوم والمعارف .

يستجيبوا لكم فاعلموا : إنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو .. فهل أنتم مسلمون ، ؟ أى أسلموا ، فهو طلب برفق ، ولين ، وهو لون من ألوان أدب الخطاب فى القرآن

ثم تحداهم مرة ثالثة : بأن يأتوا بسورة منه ، أى سورة مهما قصرت ، كسورة « السكوثر » ، فأرفعوا بذلك رأساً ، قال تعالى فى لزورة « يونس » ، المكينة الآية (٣٨ - ٣٩) : « أم يقولون اقترأه ، قل . فاتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله لئن كنتم صادقين بل كذبوا بهام محيطوا بطلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ،

وهذا الذى ارتضاء جمهور العلماء وارتضيته فى ترتيب آيات التحدى هو ما يجب أن يصار إليه ومن العلماء من يحمل آية يونس متقدمة على آية هود لتقدم نزول سورة يونس على نزول سورة هود فيجعل التحدى لسورة قبل التحدى بعشر سور (تفسير البغوى - ٤ ص ٣٤٩) والجواب أنه على فرض تسليم ذلك فلا يمنع من تأخر نزول آية فى سورة متقدمة ، على نزول آية فى سورة متأخرة ، على أن بعض العلماء يرى تقدم سورة هود على سورة يونس وحينئذ يكون « اذهبنا إليه هو الحق والصواب » ، وإذا كان مستقبها فى الكلام العادى التحدى بشيء فإذا عجز تحداه بعشرة أمثاله فبالك بأبلغ الكلام ، وأحكمه ؟ .

ثم كرر التحدى بسورة ما ، فقال فى سورة « البقرة » المدنية الآية (٢٣ - ٢٤) « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ، فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا - ولن تفعلوا - فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين . »

فألقوا حجراً . ولم ينبسوا فى المعارضة بكلمة .. !

وبذلك ثبت إعجاز القرآن ، على أبلغ وجه وآكده ، وإذا ثبت عجز العرب فغيرهم بالعجز أخرى وأولى (١)

القرآن كتاب العربية الأكبر

والقرآن هو كتاب العربية الأكبر ، ورمز وحدة العرب الكبرى . وجامعتهم العظمى ، وبه اكتسبت لغة العرب بقاءها ، وحيويتها ؛ وبه صار العرب أمة واحدة مؤمنة موحدة ، متآلفة القلوب متجانسة المزاج ، متحدة اللسان ، متشابهة البيان ومنه استمد العرب علومهم ومعارفهم ، فما من علم من علومهم إلا وله بالقرآن سبب ، وله منه ورد ومدد ، ولولا هذا الكتاب العربي المبين لاستعجمت لغة العرب ، وأضحت في عداد اللغات الميتة ، فهو الذي يحدد شبابها كلما اعتراها الهرم والضعف ، ويأخذ بيدها إذا ألم بها التخلف والركود ولولا هذا الكتاب لما كانت هذه الثروة الطائلة من العلوم التي تدور حول القرآن ، ولغة القرآن وتجول في رحابه الواسعة وما من عربي - أيا كان دينه - إلا وله بهذا الكتاب مفخرة واعتزاز وحب ووفاء ، لأنه يخاطب فطرته اللغوية ووجدانه البياني ، وروحه العربية الصافية الشفافة .

القرآن كتاب الهداية الكبرى

والقرآن . هو هداية الخالق لإصلاح الخلق ، وشريعة السماء لاهل الأرض . وهو التشريع العام .. الخالد ، الذي تكفل بجميع ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم ودنياهم . في العقائد ، والأخلاق وفي العبادات والمعاملات والمدنية ، والجنائية ، وفي الاقتصاد ، والسياسة ، والسلم ، والحرب ،

(١) اكتفيت في هذا الموضع بهذا القدر ، أما إشباع القول في الإعجاز فلذلك محل آخر ان شاء الله

والمعاهدات ، والعلاقات الدولية وهو في كل ذلك حكيم كل الحكمة ، لا يعتبره خلل ولا اختلاف ، ولا تناقض وصدق الله . « أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (١) » ، وأصيل غاية الأصاله ، وعدل غاية العدالة ، ورحيم غاية الرحمة ، وصادق غاية الصدق ، وصدق الله . « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » (٢)

فلا عجب .. أن كانت السعادة الحقة لا تنال إلا بالاهتداء بهديه ، والتزام ما جاء به . وأن كان الشفاء لأمراض النفوس وأدواء المجتمع ؛ فاهتدت به القلوب بعد ضلال ، وأبصرت به العيون بعد عمى ، واستنارت به العقول بعد جهالة ، واستضاءت به الدنيا بعد ظلمات ، وصدق الله : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات . أن لهم أجراً كبيراً .. وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً (٣) » . ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً (٤) . « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام .. ويخرجهم من الظلمات إلى النور - بإذنه - ويهديهم إلى صراط مستقيم » (٥)

« القرآن حارب التقليد ، ودعا إلى النظر ، والتأمل في الكون ، وهو الكتاب الذي فك العقول من عقالها ، وأطلق النفوس من مسارها ، وانحى على التقليد والمقلدين بالذم والتبويخ .. وإذا قيل لهم . اتبعوا ما أنزل الله . قالوا . بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم

(١) سورة النساء الآية ٨٣ (٢) سورة الانعام الآية ١١٥

(٣) سورة الإسراء الآية ٩ - ١٠ (٤) سورة الإسراء الآية ٨٢

(٥) سورة المائدة الآية ١٥ - ١٦

لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، (١) « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ، (٢) ! » .

وهو الكتاب الذى وجه العقول والأنظار إلى النظر فى الأنفس ، وما فيها من عجائب وأسرار وغرائز واستعدادات : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟ » (٣) والنظر فى الآفاق والآيات الكونية علوها وسفليها ، ظاهرها وخفيها وعما تنطوى عليه من حكم ، وما أودع الله فيها من خواص وسنن وأفاض فى ذلك فى غير ماسورة وآية ، وإن شئت البقين فى ذلك فافقرأ قول الحق تبارك وتعالى - . « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون » ، (٤) « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الألباب » (٥)

وقد روى : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : لما نزلت « ويل لمن قرأها ولم يتفكر » . وقال الله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » (٦) . وقال - سبحانه - : « أفلا ينظرون إلى الإبل . . كيف خلقت ؟ » (٧)

(١) سورة البقرة الآية ١٧٠

(٢) سورة المائدة . الآية ١٠٤

(٣) سورة الذاريات الآية ٢١

(٤) سورة البقرة الآية ١٩٤

(٥) سورة آل عمران الآية ١٩٠

(٦) سورة ق الآية ٦ - ٨

وإلى السماء . كيف رفعت ؟ ! وإلى الجبال كيف نهبت ؟ ! وإلى الأرض كيف سطحت ؟ ! فذكر إنما أنت مذكر ، است عليهم بمسيطر » (١) ؟ وقال : « وفي الأرض قطع متجاورات ، وজনات من أعتاب ، وزرع ، ونخيل : صنوان وغير صنوان (٢) يسقي بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، (٣) . إلى غير ذلك من الآيات التي لا يحصها العد .

وقد زخر القرآن العظيم بهذا النوع من الآيات ، وكثرت كثرة زادت على آيات الأحكام ، ولا سيما في القسم المسكى ولذلك سر : ذلك أن هذا النظر ، وذلك التأمل غالبا ما ينتهيان بالإنسان العاقل المجرد عن الأهواء والشهوات ، إلى الوصول إلا الإيمان بالحائق - جل وعلا - ووحدانيته وتفرد بصفات الكمال ، والجلال ، والجمال والإيمان بالبعث والمعاد ، وأن هناك حياة أخرى خيرا من هذه الحياة ، والإيمان بالملائكة والرسل الكرام وإذا ما آمن البشر بهذه العقائد سهل عليهم بعد تلقى الشرائع ، والتزامها علما ، وعملا ، وسلوكا ، وخير الإيمان ما كان عن بينة ودليل ، وخير العلم والعمل ما كان عن اطمئنان وبحث ، واقتناع .

و القرآن فتح الباب للعلوم التجريبية ، والقرآن حينما دعانا إلى النظر في الآيات الآفاقية والآنفسية لم يقف بنا عند حد الاعتبار والاتعاظ بالظواهر والصور والأشكال فحسب . وإنما أراد - إلى ذلك - استكشاف المستور ، واستكناه الأسرار . والتقصي عما فيها من عجائب وسنن وخواص عن طريق الملاحظة حينما والتجارب أحيانا أخرى ؛ وبذلك يكون القرآن

(١) سورة الفاشية الآية ١٧ - ٢٢

(٢) جمع صنو أى نخلات أصلها واحد ونخلات ايست كذلك

(٣) الرعد الآية ٤

فتح أبوابا للعلوم التجريبية من منذ أربعة عشر قرناً من الزمان .
ولو أن المسلمين استفادوا بما في هذا الكتاب الكريم من توجيهات
وإرشادات ؛ لكانوا — كما كان الشأن في سلفهم الأولين — أسبق الأمم
إلى الكشف العلية والاختراع والابتداع ، ولصاروا سادة الدنيا ،
وأضحى بيدهم زمام الأمور ، ولكنهم جمدوا ولم يستفيدوا بهدى القرآن
وإرشاداته ، فكانوا على ما ترى ! ! !

« القرآن حارب العنصرية ، والعنجهية الجاهلية ،
والقرآن هو الذى قضى على العنجهية ، ودعاوى الجاهلية ، وقضى على
التفرقة العنصرية والنسبية واللونية ، ووضع أساس المساواة بين الناس كافة ،
فالناس ربهم واحد وكلهم لآدم » لافضل لعربي على عجمي ، . ولا لعجمي
على عربي ، ولا لأبيض على أسود ولا لآسود على أبيض ، . وإنما
التفاضل بالتقوى ، والتقوى جماع كل هدى وحق وخير . وصدق الله :
« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا
إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، إن الله عليم خبير ، (١) . فالناس مهما تعددت
شعوبهم ، وتباينت أئمتهم فيجمعهم رباط واحد ، وهو رباط الإنسانية العام ،
وهذا أسمى ما يطمع فيه من تشريع !
« القرآن كون أمة مثالية »

وهو الكتاب الذى صلحت به الدنيا ، وحول مجرى التاريخ ، وأقام
أمة كانت مضرب الأمثال في الإيمان والإخاء والعدل والوفاء ، والوفاق
والوئام ، وأظل العالم بلواء الأمن والسلام حقبا من الزمان ، وصير من
رعاة الإبل والشاء علماء حكماء رحماء ، وسادة قادة في الحكم والسيادة
والحرب ، عمقت الدنيا عن أن تجود بمثلهم .
وهو الكتاب الذى لا تنفى ذخائره ، ولا يخلق على كثرة الرد ،
ولا يزداد على التكرار إلا حلاوة وطلاوة ، وصدق القائل :

تزداد منه - على ترداده - مقه وكل قول - على الترداد - مملول
وتلك لعمر الحق خصيصة من خصائص القرآن ، ومن كان في شك من
هذا فليستف الذوق والوجدان والقلب والأذان ، وليوازن في هذا بين كلام
الله وكلام الإنسان ، وحينئذ سيتذوق ، ومن ذاق عرف ، ومن عرف
اعترف .

ومهما تعاقبت على هذا الكتاب العزيز الأجيال والسنون لا يزداد
إلا جدة وطرافة ولا يزال غصاً طرياً كما أنزل ، وكلما تقدمت العلوم
والمعارف الإنسانية تكشف للناس منه العجب العجيب وصدق الحق
وتبارك وتعالى حيث يقول : «سنبهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم ؛
حتى يتبين لهم أنه الحق . أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد^(١)» بلى وأنا
على ذلك من الشاهدين .

وقصارى القول وحماهه : أنك لن تجد في الكشف عن حقيقة
هذا الكتاب وخفائيه وفضائله ومزايه أوفى مما وصفه به نبينا محمد
ابن عبد الله ، :

روى الترمذى^(٢) بسنده عن الحارث الأعور قال : مررت في المسجد
فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على «علي» فقلت : يا أمير
المؤمنين ، ألا ترى الناس قد خاضوا في الأحاديث ؟ قال : أوقد فعلوها ؟

(١) سورة فصلت الآية ٥٣ .

(٢) قال الترمذى فيه : حديث غريب ، وإسناده مجهول ، وفي حديث الحارث
مقال ولكن ذكره الحافظ السيوطى ، في الإتيان ، وقال أخرجه الترمذى ،
والدارى وغيرهما ، وسكت عنه ، وكذا ذكره الحافظ ابن كثير ، فضائل
القرآن ، له ، وتمعن بكلام الترمذى بما يدل على اعتناؤه بالحديث ، والمتأمل فيه
يجد قبساً من نور النبوة ، وحكماً من ينابيع الوحى ، مما يجعل القلب يطعم من إليه .

قلت نعم . قال : أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا إنها ستكون فتنة » ، قلت : وما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم . وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء^(١) ولا تلتبس به الألسنة^(٢) ، ولا يشبع منه العلماء^(٣) ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم ينته الجن إذ سمعته حتى قالوا : إنا سمعنا قرآناً عجاً يهدي إلى الرشد فأما ، « من قال به صدق » ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

إن كتاباً هذا بعض شأنه لجدير أن يضعه الإنسان بين عينيه ، ويجعله أنيسه في خلوته ، ورفيقه في سفره ، وصديقه الصدوق في يسره وعسره ومستشاره الأمين في أمور دينه ودنياه ، وحجته البالغة في حياته وآخره .

(١) بفتح التاء : أي لا تميل عن الحق إما تباعه الأهواء أو بغضها : أي لا تميله الأهواء المضلة عن نهج الاستقامة إلى الاحوجاج . من الإراطة : بمعنى : الإمالة والياء لتأكيد التعمية .

(٢) أي لا تقصر عليه ألسنة المؤمنين ، ولو كانوا من غير العرب قال تعالى . « واقد يسرنا القرآن لذكره » وقال « فإنما يسرناه بلسانك » .

(٣) أي لا يحيطون بكنهه إحاطة من يشبع من الشيء . بل كلما اطلعوا على شيء منه اشتاقوا إلى غيره ، ومعنى « ولا يخلق عن كثرة الرد » يخاف — بفتح الياء وضم اللام ، وبضم الياء وكسر اللام — : من « خلق » الثوب : إذا بلى ، أو من « اخلق » . ومن على بابها : أي لا يصدر الخلق عن كثرة تكراره . وقال الحافظ « ابن حجر » : « عن » : بمعنى « مع » ، وفي بعض النسخ « لتمر منى » : « على » ، مكان « عن » . وهو يؤيد ما ذهب إليه « ابن حجر » .

عناية الأمة الإسلامية بالقرآن :

فلا عجب - والقرآن كما سمعت - أن عنيت الأمة الإسلامية به عنايه فائقة ، من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا ، فحفظوا لفظه ، وفهموا معناه ، واستقاموا على العمل به وأفنوا أعمارهم في البحث فيه ، والكشف عن أسرارهِ ، ولم يدعوا ناحية من نواحيه الخصلة إلا وقتلوا بها بحثاً وتمحيصاً ، وألفوا في ذلك المؤلفات القيمة ، فمنهم من ألف في تفسيره ، ومنهم من ألف في رسمه ، وقرآته ، ومنهم من ألف في استنباط الأحكام منه ، ومنهم من ألف في ناسخه ومنسوخه ، ومنهم من ألف في أسباب نزوله ، ومنهم من ألف في إعجازه ، ومنهم من ألف في مجازه ، ومنهم من ألف في أمثاله . ومنهم من ألف في أقسامه ، ومنهم من ألف في غريبه ، ومنهم من ألف في إعرابه ، ومنهم من ألف في قصصه ، ومنهم من ألف في تناسب آياته وسوره إلى غير ذلك من العلوم المتكاثرة .

وقد تبارى علماءنا في هذا المضمار الفسيح ، وجروا فيه أشواطاً بعيدة حتى زخرت المكتبة الإسلامية بميراث مجيد من تراث سلفنا الصالح ، وعلمائنا الأعلام ، وكانت هذه الثروة - ولا تزال - مفخرة تتحدى بها أمم الأرض ، ونباهى بها أهل الملل في كل عصر ومصر . وأضحت هذه العناية بحق أروع مظهر عرفة التاريخ لحراسة كتاب هو سيد الكتب وأجلها ، وأبعدها من التحريف والتغيير ، وبذلك هيأ الله الأسباب المتكاثرة لحفظ كتابه ، وهل هذا إلا مصداق قوله - سبحانه وتعالى - : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» . ٤ .

البحث الأول

معنى علوم القرآن

يقتضينا منهج البحث التحليلي أن نبين معنى كل من طرفي هذا المركب الإضافي ، ثم نبين بعد ذلك المراد منه بعد التركيب ثم بعد ما صار فنا مدونا طرفا هذا المركب ، هما لفظ « علوم » ولفظ « القرآن » .

أما « العلوم » : فهو جمع « علم » . والعلم في اللغة العربية : مصدر بمعنى الفهم والمعرفة ، ويطلق ويراد به : اليقين أيضا (١) .

أما في الاصلاح .. فقد اختلفت فيه عبارات العلماء باختلاف الاعتبارات ، فعرفه الشرعيون بتعريف ، وعلماء الكلام بتعريف آخر وعرفه الفلاسفة والحكماء بتعريف ثالث (٢) .

وليس شيء من هذه التعريفات بمرادها ، وإنما المراد : العلم في اصطلاح أهل التدوين وعرفهم ، و « العلم » في عرف التدوين العام عبارة عن : « جملة من المسائل المضبوطة بجهة واحدة » سواء أكانت وحدة الموضوع أم وحدة الغاية والغالب أن تكون تلك المسائل كلية نظرية وقد تكون ضرورية وقد تكون جزئية ، مثل : « مسائل علم الحديث رواية » كقولهم : « إنما الأعمال بالنيات ... » بعض قوله صلى الله عليه وسلم . أما « العلم » بمعنى : « الملئكة التي بها تستحصل هذه المسائل » أو بمعنى « إدراك المسائل » فغير مراد هنا ؛ لأن بحثنا في « العلم » بمعنى « الفن المدون »

(١) في «قاموس المحيط» [عليه كسمعه علما - بالكسر - عرفه ، و علم هو في نفسه] وفي المصباح المنير ١ « العلم اليقين ، يقال « علم يعلم » . إذا تيقن . وجاء بمعنى المعرفة أيضاً » .

(٢) عرفه الشرعيون بأنه « العلم بالله تعالى وما يتعلق به من جليل صفاته وحكيم أفعاله ، ومعرفة حلاله وحرامه » .

وعرفه المتكلمون بأنه « صفة تنكشف بها الأشياء لمن قامت به » . وعرفه الحكماء بأنه « صورة الشيء الخاصة في العقل » .

ومعلوم . أن الذى يدون ويؤلف هي المسائل والقواعد ، لا الملكة
ولا الإدراك .

وأما القرآن ، :

لفظ القرآن ، قد اختلف فيه العلماء من جهة الاشتقاق أو عدمه ، ومن
جهة كونه مهموزاً أو غير مهموز ، ومن جهة كونه مصدراً أو وصفاً على
أقوال نجملها فيما يأتى : —

أما القائلون : بأنه مهموز ، فقد اختلفوا على رأيين —

الأول . قال جماعة منهم « اللحياني » . القرآن : مصدر قرأ ، بمعنى :

تلا ، كالرجحان والغفران ، ثم نقل من هذا المعنى المصدرى وجعل
اسماً للكلام المنزل على نبيينا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، من باب « تسمية
المفعول بالمصدر » ، ويشهد لهذا الرأى ورود القرآن مصدراً بمعنى : القراءة
فى الكتاب الكريم ، قال تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه » . فإذا قرأناه
فأتبع قرآنه^(١) . أى قرأته .

وقول حسان بن ثابت ، يرثى ذا النورين ، عثمان — رضى الله عنه — :
ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً

أى قراءة .

الثانى : قال جماعة منهم « الزجاج » إنه وصف على ، فعلان ،
مشتق من « القرء » بمعنى الجمع ، يقال فى اللغة : « قرأت الماء فى الحوض ،
أى جمعته » ، ثم سمي به : الكلام المنزل على النبي — صلى الله عليه وسلم —
لجمع السور والآيات فيه أو القصص والأوامر والنواهي ، أو لجمعه
ثمرات الكتب السابقة .

وهو على هذين الرأيين مهموز ، فإذا تركت الهمزة ، فذلك للتخفيف ،

(١) سورة القيامة الآيتان ١٧ ، ١٨ .

ونقل حركتها إلى الساكن قبلها والالف واللام فيه ليست للتعريف .
ولأنما للبح الأصل .

والقائلون بأنه غير مهموز اختلفوا في أصل اشتقاقه .

(١) فقال قوم منهم « الأشعري » ، هو مشتق من « قرنت الشيء بالشيء » .
إذا ضمنت أحدهما إلى الآخر وسمى به « القرآن » ، لقران السور والآيات
والحروف فيه .

(٢) وقال « الفراء » : هو مشتق من « القرائن » ، لأن الآيات منه يصدق
بعضها بعضا ، ويشابه بعضها بعضا ، وهي قرائن . أى أشباه ونظائر
وعلى هذين القولين : فنونه أصلية ، بخلافه على القولين الأولين .
فنونه زائدة

رأى خامس . مقابل للأقوال السابقة .

وهو أنه اسم علم غير منقول ، وضع من أول الأمر علما على الكلام
المنزل على « محمد » ﷺ وهو غير مهموز . وهذا القول مروى عن الإمام
« الشافعي » ، أخرج البيهقي والخطيب وغيرهما عنه . أنه كان يهمز قراءة ،
ولا يهمز « القرآن » ، ويقول . « القرآن » اسم وليس بمهموز ولم يؤخذ من
قراءة واسكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل .

وبالتخفيف قرأ « ابن كثير » وحده : أما بقية السبعة فقرأوا بالهمزة

وأرجح الآراء وأخلقها بالقبول « الأول » ، يليه الرأي الثاني

وبما يقوى مذهب القائلين بالهمز . أنهم خرجوا التخفيف تخريجاً عليها
صحيحاً ، ولا أدري ماذا يقول القائلون بالرأى الأخير في توجيه قراءة
لفظ « القرآن » بالهمز ، مع أن عليها معظم القراء السبعة ، كما ذكرنا آنفاً ١٤ .

رأى آخر :

يرى بعض الباحثين (١) . أن « قرآن » مأخوذ من « قرأ » بمعنى « تلا » ، وهذا الفعل أصله في اللغة الآرامية ثم دخل العربية قبل الإسلام بزمان طويل ولو صح هذا ، فلا ضير فيه ، لأن هذه الكلمة وأمثالها - وإن كانت في الأصل أعجمية - فقد صارت بعد التعريب عربية بالاستعمال وياخضاعها لأصول العرب في نطقهم ولغتهم ، واندججت فيها حتى صارت جزءاً منها فنزل القرآن بها ، وهي على هذا الحال .

تعريف القرآن ، عند الأصوليين ، والفقهاء ، وأهل العربية

هو كلام الله المنزل على نبيه « محمد » ﷺ المعجز بلفظه ، المتعبد بتلاوته المنقول بالتواتر ، المكتوب في المصاحف ، من أول سورة « الفاتحة » إلى آخر سورة (الناس) .

وقد خرج بقولنا . المنزل على نبيه (محمد) المنزل على غيره من الأنبياء كالنوراة والإنجيل والزبور والصحف ، وخرج بالمعجز بلفظه المتعبد بتلاوته الأحاديث القدسية ، على الرأي بأن لفظها من عند الله ، فإنها ليست معجزة ولا متعبداً بتلاوتها . وخرج بقولنا (المنقول بالتواتر .. الخ) جميع ما سوى القرآن المتواتر من منسوخ التلاوة ، والقراءات غير المتواترة سواء نقلت بطريق الشهرة كقراءة (ابن مسعود) في قوله تعالى في كفارة الإيمان (فهيام ثلاثة أيام) (٢) بزيادة (متابعات) ، أو بطريق الأحاد مثل قراءة . (ممكنين على رفارف خضرو عباقرى حسان) (٣) بالجمع فإنها ليست قرآناً ، ولا تأخذ حكمه .

(١) الأستاذ عبد الوهاب حمودة د ب ج - لواء الإسلام ، اله - دد الأول

من السنة الأول ص ٢٨ (٢) المائة ٨٩

(٣) الرحمن ٧٦

ثم إن العلماء بحثوا في الصفات الخاصة ؛ (القرآن) فوجدوا أنها تنحصر في الإنزال على — النبي ﷺ — والإعجاز ، والنقل بالتواتر ، والكتابة في المصاحف ، والتعبد بالتلاوة .

فرأى بعض العلماء زيادة التوضيح والتمييز ، فعرفه بجميع هذه الصفات كما ذكرنا آنفاً .

واقصر بعضهم على ذكر الإنزال على النبي ، والإعجاز لأن ما عداهما من الصفات ليس من الصفات اللازمة ، لتحقيق القرآن بدونها في زمن النبي - ﷺ - فقالوا في تعريفه (هو الكلام المنزل على محمد ﷺ ، المعجز) .

واقصر بعضهم على الإنزال والكتابة في المصاحف ، والنقل تواتراً ، لأن المراد تعريفه لمن لم يدرك زمن النبوة . وإنزال الالفاظ والكتابة في المصاحف والنقل تواتراً من أبين اللوازم للقرآن وأوضحها بخلاف الإعجاز فليس من اللوازم البينة . إذ لا يعرفه إلا الخواص الواقفون على أسرار اللغة وأساليبها . كما أنه ليس شاملاً لكل جزء . إذ المعجز هو السورة أو مقدارها .

واقصر البعض على النقل في المصاحف تواتراً ، لأنه كاف في الغرض المقصود ، وهو تمييز القرآن عن جميع ما عداه . فقد ثبت أن الصحابة — رضوان الله عليهم — بالغوا في ألا يكتب في المصحف ما ليس منه . مما يتعلق به . حتى النقط والشكل . واحتاطوا في ذلك غاية الاحتياط . حتى لا يختلط القرآن بغيره .

واقصر بعضهم على ذكر الإعجاز فحسب . لأنه وصف ذاتي للقرآن إذ هو الآية العظمى المثبتة لرسالة نبينا محمد ، صلى الله عليه وسلم . ولكون القرآن المنزل عليه من عند الله لا من عند البشر .

ولما كان بحثنا في هذا العلم . إنما يتعلق بنظمه العربي المبين . فقد آثرت ألا أعرض للقرآن من حيث كونه كلام الله . وصفة من صفاته . لأن

هذا البحث محله : علم الكلام ، (١)

وذهب المحققون من الأصوليين ، والفقهاء ، وأهل العربية : إلى أن لفظ القرآن : علم شخصي ، مذكوله : الكلام المنزل على النبي — صلى الله عليه وسلم — من أول سورة : الفاتحة ، إلى آخر سورة : الناس ، وعليته : باعتبار وضعه للنظم المخصوص ، الذي يختلف باختلاف المتلفظين ، ولا عبرة بتعدد القارئ والمحال .

وعلى هذا فما ذكره الأصوليون ، وغيرهم من تعاريف القرآن ، ليس تعريفاً حقيقياً ، لأن التعريف الحقيقي لا يكون إلا للأمر السكينة ، وإنما أرادوا بتعريفه : تمييزه : عما عداه بما لا يسمى باسمه ، كالتوراة والإنجيل ، والأحاديث القدسية ، وما نسخت تلاوته .

ويرى بعض العلماء : أن لفظ القرآن موضوع للقدر المشترك بين الكل وأجزائه . فسماه : كلي . كالمشترك المعنوي .

(١) كما بحث المتكلمون في القرآن من جهة كونه كلام الله وصفة له ، بحثوا فيه أيضاً من جهة لفظه العربي المنزل على النبي . . وهم في تعريفهم للقرآن من هذه الجهة لم يخوجوا عما ذكره الأصوليون والفقهاء وعلماء العربية في تعريفه وعرفوه من الجهة الأولى بأنه : الصفة القدسية القائمة بذاته تعالى المتعلقة بالكلمات الحكيمية من أول سورة : الفاتحة ، إلى آخر : الناس . . وهذه الكلمات الحكيمية أزلية مجردة عن المواد مطلقاً . حسية كانت أو خيالية أو روحانية . وهي مترتبة غير متعاقبة وذلك مثل الصور تنطبع في المرأة . مترتبة غير متعاقبة . وقالوا : إنها حكيمية . لأنها ليست ألفاظاً حقيقية مضمورة بصورة الحروف والأصوات . وقالوا : إنها أزلية . ليلتبوا لها معنى القدم . وقالوا : إنها مجردة عن المواد مطلقاً — أي الحروف اللفظية أو الذهنية أو الروحية — لينفرد عنها أنها مخلوقة ، وقالوا : إنها غير متعاقبة ، لأن التعاقب يستلزم الزمان والزمان حادث .

ويرى فريق ثالث أنه مشترك لفظي بين الكل وبين أجزائه . فهو موضوع لكل منهما بوضع .

والحق : أنه علم شخصي ، مشترك لفظي بين الكل وأجزائه فيقال لمن قرأ اللفظ المنزل كله : قرأ قرآنًا . ويقال لمن قرأ بعضه : قرأ قرآنًا . وهو ما يفهم من كلام الفقهاء . حينما قالوا : « يحرم على الجنب قراءة القرآن ، فإنهم يقصدون : قراءة كله أو بعضه على السواء .

أسماء القرآن :

للقرآن الكريم أسماء كثيرة : أشهرها . (القرآن) ومنها (الفرقان) ، لأنه فارق بين الحق والباطل قال تعالى : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا (١)) ومنها (الكتاب) وهو مصدر لكتب بمعنى . الجمع والضم . أريد به القرآن لجمعه العلوم والقصاص والأخبار على أبلغ وجه ، قال تعالى : « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجًا قيمًا لينذر بأسًا شديدًا من لدنه ، ويبدش المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا (٢) »

ومنها : التنزيل . مصدر أريد به المنزل ، لنزوله من عند الله ، قال تعالى « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (٣) » ، وغيرها من الآيات كثير

ومنها : « الذكر » ، سمي به القرآن ، لاشتغاله على المواعظ والزواجر . وقيل : لاشتغاله على أخبار الأنبياء ، والأمم الماضية . وقيل . من الذكر ، بمعنى : الشرف . قال تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك (٤) » ، أي . شرف

(١) سورة الفرقان الآية ١ (٢) - والكهف الآية ١ - ٢

(٣) فصلت الآية ٤١ - ٤٢ (٤) أمطت الآية ٤١ - ٤٢

(٥) الزخرف ٤٤

لأنه نزل بلغتكم وقال تعالى . «إنا نحن نزلنا الذكر» . وإنا له لحافظون (١) ، وهذه الأربعة هي أشهر الأسماء بعد لفظ «القرآن» ، وقد صارت أعلاما بالعلبة على القرآن في لسان أهل الشرع وعرفهم

وقد تسامح «أبو المعالي» . عزيزى بن عبد الملك» - المعروف بـ «شيدلة» في كتابه «البرهان في مشكلات القرآن» - في عدم ما ليس باسم اسما ، بلغ بها خمسة وخمسين اسما وقد نقل ذلك عنه «السيوطى» في «الإتقان» ووافقه ثم شرع يوجه ما ذكره من الأسماء (٢) ، وبلغ بها صاحب «التبيان» نيفا وتسعين اسما

وبما ينبغي أن يتنبه إليه أن أغلب ما ذكره أسماء للقرآن هو في الحقيقة أوصاف له ، فمثلا : عدوا من الأسماء لفظ «كريم» ، أخذنا من قوله تعالى . «إنه لقرآن كريم» (٣) ولفظ «مبارك» ، أخذنا من قوله تعالى . «وهذا ذكر مبارك» . (٤) ، مع أن الظاهر كونهما وصفين للقرآن لا اسمين

كما أن في بعض ما عدوه اسما للقرآن بعدا وتكلفا في أن المراد به القرآن . وذلك مثل عدم من الأسماء . «مناديا» ، لقوله تعالى . «ربنا ، إنا سمعنا مناديا ينادى للإيمان» (٥) ، ومثل عدم من الأسماء «زبور» ، لقوله تعالى : «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون» (٦) مع أن الظاهر . والذي عليه جمهور المفسرين ، أن المراد بالمتنادى الرسول وبالزبور . الكتاب المنزل على داود - عليه السلام - . والذكر النوراة وقيل الزبور . جميع الكتب المنزلة ، والذكر . اللوح المحفوظ ، ويكون المراد بالزبور الوصفية لا العلية ، فهو بمعنى الزبور أى المكتوب (٧)

(١) الحجر الآية ٩ . (٢) انظر الإتقان ج ١ ص ٥١-٥٢

(٣) الواقعة / ٧٧ (٤) الأنبياء / ٥

(٥) آل عمران الآية ١٩٣ (٦) الأنبياء الآية ١٠٥

(٧) انظر تفسير ابن كثير والبغوى ج ٥ ص ٤١١

علوم القرآن بالمعنى الإضافى

والآن وقد وضع لنا المراد من كل طرفى « المركب الإضافى » ، يتبين لنا المراد من الإضافة التى بينهما . فهى تشير إلى كل المعارف والعلوم المتصلة بالقرآن ، ومن ثم جمع لفظ « علوم » ، ولم يفرد . لأن المراد شمول كل علم يبحث فى القرآن من أى ناحية من نواحيه المتعددة . فيشمل ذلك « علم التفسير ، و « علم الرسم العثمانى ، و « علم القراءات ، و « علم غريب القرآن ، و « علم إعجاز القرآن ، و « علم النسخ والمنسوخ ، و « علم المحكم والمتشابه ، و « علم إعراب القرآن ، و « علم مجاز القرآن » و « علم أمثال القرآن » . إلى غير ذلك من العلوم للكثيرة التى توسع العلماء فى بحثها ، وأفردوا لها المؤلفات المتكاثرة .

علوم القرآن بالمعنى اللقبى

أى الفن المدون

ثم اختصرت هذه المباحث والعلوم المتعددة ، وجمعت جل أصولها ومسائلهما فى كتاب واحد . وصار هذا العنوان « علوم القرآن » ، (١) علما ولقبا لهذه المباحث المدونة فى موضع واحد ، بعد أن كانت مبعثرة فى عشرات الكتب ، وصار علما واحدا بعد أن كان جملة من العلوم ، وبذلك يمكننا أن نعرف هذا الفن بمعناه « العلمى » - بفتح العين واللام - بأنه .

« علم ذو مباحث ، تتعلق بالقرآن الكريم . من حيث نزوله وترتيبه وكتابته وجمعه وقراءاته وتفسيره وإعجازه ، وناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه

(١) وإمل الإبقاء على الجمعية بعد صيرورته هذا واحدا لما الأصل ، والإشارة إلى أنه خلاصة علوم كثيرة تجمعت فى مصب واحد وهو هذا العلم

إلى غير ذلك من المباحث التي تذكر في هذا العلم.

وموضوع هذا العلم . القرآن الكريم من أية ناحية من هذه النواحي السابقة في تعريفه . بخلاف علوم القرآن بالمعنى الإضافي ، فإن موضوع كل علم منها إنما هو « القرآن الكريم » من هذه الناحية فحسب ، فعلم « التفسير » مثلاً ؛ موضوعه . القرآن الكريم من حيث بيان شرحه ومعناه والمراد منه بقدر الطاقة البشرية ، وعلم « القراءات » موضوعه - هـ . القرآن الكريم من حيث لفظه وأداؤه ، وعلم الرسم موضوعه القرآن الكريم من حيث طريقة كتابته ، وهكذا

وفائدة علوم القرآن .

(أ) إنه يساعد على دراسة « القرآن الكريم » ، وفهمه حق الفهم واستنباط الأحكام والآداب منه ، إذ كيف يتأتى لدارس القرآن ومفسره أن يتوصل إلى إصابة الحق والصواب ، وهو لا يعلم كيف نزل ؟ ولا متى نزل ؟ وعلى أى حال كان ترتيب سور وآياته ؟ وبأى شيء كان إعجازه ؟ وكيف ثبت ؟ وما هو ناسخه ومنسوخه ؟ . إلى غير ذلك مما يذكر في هذا الفن ، وإلا كان عرضة للزلل والخطأ .

فهذا العلم بالنسبة للمفسر مفتاح له . ومثله مثل (علوم الحديث) بالنسبة لمن أراد أن يدرس الحديث دراسة حقة . وقد صرح بذلك الإمام (السيوطي) في مقدمة (الإتقان) حيث قال : (ولقد كنت في زمان طلب أتعجب من المتقدمين . إذ لم يدونوا كتاباً في أنواع (علوم القرآن) كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى (علم الحديث) .

(ب) إن الدارس لهذا العلم يتسلح بسلاح قوى حاد . ضد غارات

أعداء الإسلام. التي شنوها على (القرآن الكريم) زورا وبهتانا واختلقوا عليه ما شاء لهم هواهم أن يخلقوا. ولا شك أن الدفاع عن القرآن - الذي هو أصل الإسلام - من أوجب الواجبات على الأمة الإسلامية . ولا سيما علماءها وأهل الرأي فيها . وإنه لشرف عظيم . وفضل كبير أن يكون المسلم متأخفا عن هذا الكتاب الجليل .

(ج) إن المدارس لهذا العلم يكون على حظ كبير من العلم بالقرآن . وبما يشتمل عليه من أنواع العلوم والمعارف . ويحظى بثقافة عالية وواسعة فيها يتعلق بالقرآن الكريم وإذا كانت العلوم ثقافا للعقول . وصلاحا للقلوب وتهذيباً للأخلاق . وإصلاحاً للنفوس والأكوان . وعنواناً للتقدم والرفق . وباعثة للنهضات . ففي القمة - من كل ذلك - (علوم القرآن) فالقرآن أحسن الحديث . وأصدق . وعلومه أشرف العلوم وأوجبها على كل مسلم أيا كان تخصصه وأيا كانت حرفته .

تاريخ علوم القرآن

قبل عصر التدوين :

كان (القرآن الكريم) ينزل على النبي - صلى الله عليه وسلم - مستجماً على حسب الوقائع والحوادث وحاجات الناس . وقد تكفل الله لنبيه : أن يقرئه (القرآن) ويفهمه معناه ، قال تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه) (١) أي : جمعه في صدرك . وإثبات قراءته على لسانك . وبيان ما يخفى من معانيه . وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعلم من القرآن وعلومه ما لا يعرفه أحد . وذلك بسبب الوحي والقبوضات الإلهية التي كانت تلقى في قلبه . ثم بلغ الرسول ما أنزل عليه

لأصحابه فقرأه على مكث (١) . ليحفظوا لفظه ويفهموا معناه . ويقفوا على أسرارهِ . وشرحه لهم بأقوالهِ . وأفعاله وتقريراته وأخلاقهِ - أى بسنته الجامعة لكل ذلك - قال تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر . لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) (٢) وقال . (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله . الآية (٣)

وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - يحرصون غاية الحرص على حفظ ما ينزل من القرآن ، على حسب ما يتيسر لكل واحد منهم وتفاوتهم في الحفظ قلة وكثرة . كما كانوا يعرفون من معاني القرآن ، وعلومه وأسارهِ الشئ الكثير ، لسكونهم عرباً خلصاً متمتعين بمزايا هذه العروبة ومن صفاء القلوب ، وذكاء العقول ، وسيلان الأذهان ، وقوة الحافظة ولأنهم شاهدوا الوحي والتنزيل ، وعلوا من الظروف والملايسات ما لم يعلمه غيرهم ، وسمعوا من النبي - صلى الله عليه وسلم - ما لم يسمعه غيرهم ، ورأوا من أحواله ما لم يره غيرهم وكان ابن مسعود - رضى الله عنه - من أعلم الصحابة بعلوم القرآن ولا سيما علم أسباب النزول . وعلم المكي والمدني . وعلم قراءاته روى البخاري بسنده عنه أنه قال : « والله الذي لا إله غيره ما من آية من كتاب الله إلا وأعلم أين نزلت ؟ ، وفيما نزلت ؟ ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه المظن لركبت إليه . »

فإن خفي عليهم من القرآن شيء لم يدركوه بفطرتهم اللغوية ، ومعارفهم المكتسبة . رجعوا فيه إلى النبي ، فيعلمهم إياه . فمن ثم تجمع لهم من علم القرآن ، شيء كثير .

(١) تودة ونملى ، ومن لوازم ذلك التحقق من اللفظ ، وتفهم المعنى

(٢) سورة النحل الآية ٤٤ .

(٣) سورة النساء الآية ١٠٥ .

روى أنه لما نزل قوله تعالى : « الذين آمنوا ، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم . أولئك لهم الأمن ، وهم مهتدون »^(١) . اهتم الصحابة ، وقالوا : أين لم يظلم ، فبين لهم النبي — صلى الله عليه وسلم — أن المراد بالظلم : الشرك ، أخذاً من قوله الله تعالى . (يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم)^(٢) .

وروي : أنه لما نزل قوله تعالى : « وكلوا واشربوا ، حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر »^(٣) ، عهد « عدى بن حاتم ، إلى عقالين ، أحدهما : أبيض ، والآخر : أسود ، ووضعهما تحت وساده حتى بين له النبي — صلى الله عليه وسلم — أن المراد بالخيطين : بياض النهار وسواد الليل . . . وغير ذلك كثير .

ولم يكن هم الصحابة حفظ ألفاظ القرآن لحسب . بل جمعوا إلى حفظ اللفظ فهم المعنى ، وتدبر المراد . والعمل بمقتضى ما تضمنه من الأحكام والآداب . قال « أبو عبد الرحمن السلمي » (٤) . « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن . . . كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود . وغيرهما . أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي — صلى الله عليه وسلم — عشر آيات ، لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل . . . قالوا . فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً . ولهذا كانوا يتقون مدة في حفظ السورة الواحدة . وهذا هو السرفجاء روى

(١) سورة الانعام الآية ٨٢ .

(٢) سورة لقمان الآية ١٣ .

(٣) سورة البقرة / ١٨٧ .

(٤) هو « عبد الله بن حبيب بن ربيعة ، تلميذ امير المؤمنين « عثمان » . و « علي » ، واضراهما من علماء الصحابة . كابن مسعود . وزيد بن ثابت . وابي بن كعب وكان من خيار التابعين ، ومن علمائهم بالقرآن .

أن « ابن عمر » أقام على حفظ « البقرة » ثمان سنين ذكره مالك في « الموطأ » وما يفسر لنا قول « أنس » - رضى الله عنه - . « كان الرجل إذا قرأ « البقرة » و « آل عمران » جد في أعيننا (١) » ، أى . عظم .

وعلى ما كان عليه الصحابة من العروبة الخالصة . والتصرف في فنون القول . وأخذهم بزمam الفصاحة . فقد خفيت عليهم بعض ألفاظ « القرآن » اللغوية . ولم يعرفوا معناها . أخرج « أبو عبيد » في « الفضائل » عن إبراهيم التيمي . أن أبا بكر - الصديق - سئل عن قوله تعالى . « وفاكهة وأبا » فقال « أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى ؟ إذا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم » .

وأخرج عن « أنس » أن « عمر بن الخطاب » - رضى الله عنه - قرأ على المنبر « وفاكهة وأبا » فقال : « هذه » الفاكهة « قد عرفناها .. فما الأب ؟ » ثم رجع إلى نفسه فقال : « إن هذا هو السكف يا عمر ! وما عليك يا ابن أم عمر . أن لا تدري : ما الأب ؟ » لأن عدم معرفة معنى كلمة من القرآن لا تضر المسلم مادام حافظاً للقرآن عاملاً بكل فيه من الأحكام والآداب

وأخرج أيضاً من طريق « مجاهد » عن « ابن عباس » قال . « كنت لا أدرى . ما « فاطر السموات » (٢) ؟ حتى أتاني أعرابيان يختصمان فى بشر فقال أحدهما . أنا فطرتها ، أى ابتدأتها . وروى عنه أيضاً أنه قال ، « ما كنت أدرى . ما قوله . « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » (٣) حتى سمعت بنت « ذى وزن » - وقد جرى بيني وبينها كلام - تقول « تعال أفتحك » تريد . أقاضيك وأخاصمك (٤) .

(١) أصول التفسير لابن تيمية ص ٦ ط السلفية

(٢) سورة فاطر ١ (٣) الأعراف ٨٩ (٤) الإنقان ١٦ ص ١١١ .

مقدمة تفسير القرطبي ج ١ ص ١٨٠١٤

وبلغ الصحابة ما حملوه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من تفسير القرآن وعلومه ، وما فهموه منه باجتهدهم إلى من جاء بعدهم من التابعين ، وبلغه التابعون إلى من جاء بعدهم ، فقد كان المعول عليه في القرون الأولى ، في علوم القرآن ، وكذلك الحديث وعلومه - هو الرواية والتلقي عن الغير والمشافهة لا على الخط والكتابة ، وقد استمر الأمر على هذا ، إلى أن جاء عصر التدوين ، فدونت المعارف والعلوم في الصحف والسطور ، بعد أن كانت مقيدة محفوظة في الصدور .

عصر التدوين :

لم تكن علوم القرآن ، وغيرها من العلوم مدونة في « العصر الأول » ، في الكتب والصحف . بل كانت مدونة على صفحات القلوت ، وإنما كان المدون والمكتوب هو « القرآن الكريم » ، فحسب^(١) ، وذلك لما ورد في الصحيح : من النهى عن كتابة القرآن :

روى مسلم في صحيحه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « لا تكتبوا عني غير القرآن ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه وحدثوا عني ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

(١) والقرآن الكريم . مع كونه كان مكتوباً في عهد النبي . ثم جمع في عهد « أبي بكر » ، في الصحف ، وفي عهد « عثمان » ، في المصاحف ، فقد كان يعتمد - الحفاظ والقراء على الرواية ، وهي التلقى من الشيوخ ، وأداء ما تلقى - وه إلى من جاء بعدهم ، ولم يعرف عنهم أنهم كانوا يعتمدون في الحفظ والافراء على المكتوب فحسب ، ولم توجد هذه البدعة إلا في العصر الأخير وإن كان القراء المجيدون لا يزالون في عصرنا يعتمدون على التلقى الشفاهي ، والاختصاص بالشيوخ .

فمن ثم تخرج الصحابة والتابعون من كتابة وتدوين غير القرآن حتى الحديث الشريف لم يدونوه ، واكتفوا فيه وفي علومه بالحفظ والرواية .. إلى أن كان عهد « علي » - رضى الله عنه - فأمر « أبا الأسود الدؤلى » بوضع علم « النحو » فكان هذا فاتحة خير لتدوين علوم الدين ، واللغة العربية :

وفي العهد الأموى : اتسعت دائرة التدوين والتأليف عن ذى قبل ، وفى هذا العهد رأى الخليفة الراشد « عمر بن عبد العزيز » - رضى الله عنه - أن يجمع الأحاديث : فأمر علماء الأمصار بجمع أحاديث الرسول ؛ مخافة أن يذهب شيء منها بذهاب العلماء ، وحتى يتميز الصحيح من السقيم ، والمقبول من المردود .

وفي العصر العباسى : اتسعت دائرة التأليف ، واتسعت حتى شملت معظم علوم الدين واللغة العربية بل وغير علومها كالفلسفة وفروعها ، فقد ترجم كثير من كتب الفلسفة فى هذا العصر .

وهكذا نرى : أن حركة التأليف والتدوين نشطت نشاطاً قوياً فى هذا العصر ، وكان « لعلوم القرآن » من هذا النشاط حظ غير قليل .

التدوين فى علوم القرآن بالمعنى الإضافى أى العام :

وكان من الطبيعى أن يكون أول ما يدون من « علوم القرآن » هو علم « التفسير » ، إذ هو الأصل فى فهم القرآن وتدبره ، وعليه يتوقف استنباط الأحكام ، ومعرفة الحلال من الحرام .

فألف فى تفسير القرآن سفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١ هـ وسفيان ابن عيينة ، المتوفى سنة ١٩٨ هـ . و « وكيع بن الجراح » م سنة ١٩٧ هـ . و « شعبة بن الحجاج » المتوفى سنة ١٦٠ هـ و « مقاتل بن سليمان » المتوفى سنة ١٥٠ هـ وكانت تفاسيرهم جامعة لأقوال الصحابة والتابعين .

ثم تلامه محمد بن جرير الطبري ، المتوفى سنة ٣١٠ هـ . فألف تفسيره المشهور ، وهو من أجل التفاسير ، وأعظمها ، لأنه أول من تعرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض . وبذلك يعتبر أول من حاول مزج التفسير بالمأثور بالتفسير بالرأى والاجتهاد .

وكان تفسير ابن جرير الطبري ، قطرة تلاها غيث كثير ، فألف في التفسير بقسميه : المأثور وغير المأثور ، خلق لا يحصون ، من أجله العلماء ، ما بين مطب وموسط وموجز ، وما بين مفسر للقرآن كله ، ومفسر لبعضه .

وقد شملت هذه الحركة التأليفية كل نوع من أنواع علوم القرآن ، تقريباً فألف في أسباب النزول ، علي بن المديني ، شيخ البخاري المتوفى سنة ٢٣٤ هـ ،

وفي الناسخ والمنسوخ ، أبو عبيد القاسم بن سلام ، المتوفى سنة ٢٢٤ هـ ، وأبو جعفر أحمد بن محمد النحاس م سنة ٣٣٨ هـ ، وابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ .

وألف في مشكله وغريبه ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ،

كما ألف في غريبه ومفرداته ، أبو عبيدة معمر بن المثنى ، المتوفى سنة ٢٠٩ هـ ، وأبو بكر السجستاني م ٢٣٠ هـ ، و الراغب الأصفهاني ، المتوفى سنة ٥٠٢ هـ .

وألف في إعرابه ، محمد بن سعيد الحوفي ، المتوفى سنة ٤٣٠ هـ وأبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري المتوفى سنة ٦١٦ هـ .

كما ألف في إعجاز القرآن ، الرمانى ، م ٢٨٤ هـ ، و الخطايبى ، م سنة ٣٨٨ هـ ، و أبو بكر الباقلاني ، المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، وغيرهم .

وفى مجاز القرآن « ابن قتبية » المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، والشريف الرضى
م ٤٠٦ هـ و « العز بن عبد السلام » م سنة ٦٦٠ هـ .

وفى قراءاته (علم الدين السخاوى) م ٦٤٣ هـ ، و (ابن الجزرى)
م ٨٣٣ هـ .

وفى أقسامه (ابن القيم الجوزيه) المتوفى سنة ٧٥١ هـ .

وفى أمثاله : (أبو الحسن الماوردى) المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، وألف فى جده
(نجم الدين الطوفى) م ٧١٦ هـ وفى فضائله أبو عبيد (م ٢٢٤) و (النسائى)
المتوفى سنة ٣٠٣ هـ ، و (ابن كثير) المتوفى سنة ٧٧٤ هـ إلى غير ذلك من
المؤلفات المتكاثرة ، التى تناولت كل نواحى القرآن العديدة .

وقد سلك هؤلاء العلماء فى تأليفاتهم طريقة الاستيعاب والانسقواء
لأجزاء الأنواع التى ألفوا فيها . فمن دون فى (مجاز القرآن) يتتبع كل آية
فيها مجاز ، ومن يؤلف فى أمثاله يتتبع كل آية فيها مثل ، ومن يؤلف فى
أقسامه يتتبع كل آية فيها قسم ، حتى تكونت من كل ذلك ثروة ضخمة
فى (علوم القرآن) وبحسبك أن تتناول فهرسا لمكتبة من المكاتب العامة ،
وستجد ما يبهرك ، وأن المؤلفات التى تدور فى فلك (القرآن) فى العصور
المتعاقبة تملأ خزنة كبيرة فسيحة .

علوم القرآن ، بمعنى الفن المدون

وهناك طريقة أخرى فى التأليف ، فقد رأى بعض العلماء أن
يجمعوا هذه الأنواع فى كتاب مستقل على غرار ما صنع المحدثون فى
« علوم الحديث » فاستخلصوا من هذه العلوم علما واحدا ، يكون
كالفهرس لها ، يجمع خصائصها ومقاصدها ، وإن لم يحط بكل مسائلها وأجزائها ،
فكان هذا العلم الذى سموه « علوم القرآن » .

وتد جاء التدوين على هذه الطريقة متأخرا عن التدوين على الطريقة

الأولى ثم سارا بعد ذلك جنبا إلى جنب ، فكان بعض العلماء يؤلف
فى العلم كمن مستقل ، والبعض يؤلف فى نوع من أنواعه .
مضى ظهر هذا الاصطلاح ؟ :

كان المعروف لدى الكتّاب فى هذا الفن أن ظهور هذا الاصطلاح
كان فى القرن السادس الهجرى ، على يد « أبى الفرج ابن الجوزى » ، استنتاجا
بما ذكره « السيوطى » ، فى مقدمة « الإتقان » .

ولكنى وقفت على مؤلف بعنوان . « مقدمتان فى علوم القرآن » ، طبع
فى عام ١٩٥٤ ، ووقف على التصحيح والطبع الأستاذ المستشرق « آرثر
جفرى » ، وإحدى هاتين المقدمتين لمؤلف لم يعرف ، لفقدان الورقة الأولى
من المخطوطة (١) . التى نقل عنها الطابع ، إلا أنه ذكر فى الصحيفة
الثانية منها : أنه بدأ فى تأليف كتابه فى سنة أربع مائة وخمس وعشرين ،
وسماه « كتاب المباني فى نظم المعاني » ، وهو تفسير للقرآن الكريم وقد
صدره بهذه المقدمة ، وهى تقع فى عشرة فصول ، وهى إحدى المقدمتين
المنشورتين ، والأخرى : مقدمة التفسير للإمام « عبد الحق بن أبى بكر » ،
المعروف « بابن عطية » ، المتوفى سنة ٥٤٣ هـ .

وقد ذكر صاحب كتاب (المباني) فى فصول هذه المقدمة العشرة :
المسكى والمدنى ، ونزول القرآن ، وجمع القرآن وكتابة المصاحف ، واختلافها ،
ورد الشبه الواردة على الجمع والمصاحف وبيان عدد السور والآيات
والتفسير والتأويل ، والمحكم والمتشابه « ونزول القرآن على سبعة أحرف
إلى غير ذلك من مباحث (علوم القرآن) .

وقد بلغت هذه المقدمة مائتين وخمسين صحيفة من هذا الكتاب
المطبوع وتمتاز هذه المقدمة بإشراق اللفظ ونهوض البيان ، وقوة الحجج ،

(١) هذه المخطوطة هى الوحيدة من هذا الكتاب ، وتوجد فى دار الكتب ببرلين

مما يلقي ضوءاً على أن المؤلف من علماء الأندلس كما استنتج المصحح ،
وعسى أن يتاح لى ، أو لأحد الباحثين الوقوف على مؤلف هذا الكتاب
- إن شاء الله تعالى - .

وإن أغلب ما ذكره (السيوطى) فى مقدمة (الإيتقان) من الكتب
المؤلفة فى هذا الفن ، لا يدانى هذه المقدمة ، بل بعضها لا يزيد عن فصل
من فصولها فهى جديرة بأن تذكر فى كتب هذا الفن ، وهى - بحق -
تعتبر محاولة جديده فى التأليف فى هذا العلم ، ولا يغض من قيمتها أنها مقدمة
لتفسير ، فكتاب الإيتقان الذى هو عمدة كتب الفن ، قد جعله مؤلفه مقدمة
لتفسيره الكبير كما ذكر .

ولا يفوتنى بهذه المناسبة أن أذكر : أن بعض المفسرين فى القديم
والحديث صدروا كتبهم بمقدمات قيمة فى « علوم القرآن » ، لتكون
مفتاحاً لهذه التفسيرات ، ولا تزال إلى اليوم مرجعاً للكاتبين فى هذا الفن ،
وذلك كما فعل « ابن جرير الطبرى » و « القرطبى » و « الألوسى » فى
تفسيرهم . ولعل أطول هذه المقدمات وأحفظها هى مقدمة تفسير
« القرطبى » ، وهى - على طولها - لا تبلغ ما بلغته هذه المقدمة فى طولها ،
وتنوع موضوعاتها .

ويرى أستاذنا الشيخ « محمد عبد العظيم الزرقانى » - رحمه الله
وأثابه - فى كتابه « مناهل العرفان » : إن هذا الإصطلاح ظهر فى مستهل
القرن الخامس على يد « الحوفى » المتوفى سنة ٤٣٠ هـ فى كتابه (البرهان
فى علوم القرآن) . والرأى عندى : إن هذا الكتاب لا يخرج عن كتب
التفسير ، التى تعرض لذكر التفسير ، وأسباب النزول والقراءات ،
والوقف والتمام ، ولا فرق بين صنيعة وصنيع (القرطبى) و (الفخر
الرازى) فى تفسيرهما ، فكتاب هذا أمس بالتفسير منه بعلوم القرآن ،
وإن كانت التسمية تشعر أنه بعلوم القرآن أمس وقد ذكر - رحمه الله - :

أن الجزء الأول مفقود ، ولا أدري من أين عرف التسمية ؟ ولعله اعتمد على فهرس دار الكتب المصرية وقد رجعت إلى كتاب كشف الظنون (الجزء الأول ص ٢٤٢) فتبين لي إن اسم الكتاب (البرهان في تفسير القرآن) وبذلك زالت الشبهة في عده من علوم القرآن ، وثبت أنه كتاب تفسير ، وهو الحق والصواب .

وفي القرن السادس الهجري . ألف الإمام (أبو الفرج بن الجوزي) المتوفى سنة ٥٩٧ هـ كتابا سماه : افنون الأفنان ، في علوم القرآن) وكتابا آخر سماه : (المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن ^(١)) .

وفي القرن السابع : ألف الشيخ (علم الدين علي بن محمد السخاوي) المتوفى سنة ٦٤٣ هـ كتابا سماه (جمال القراء) . وألف العلامة (أبو شامة . المتوفى سنة ٦٦٥ هـ كتابا سماه (المرشد الوجيز . في علوم تتعلق بالقرآن العزيز) . وهذه الكتب - كما قال (السيوطي) - : (عبارة عن طائفة يسيرة ، ونبذ قصيرة) بالنسبة للمؤلفات التي ألفت بعد في هذا العلم .

ثم أهل القرن الثامن : فألف فيه الإمام (بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى) المولود سنة ٧٤٥ والمتوفى سنة ٧٩٤ هـ كتابا سماه : (البرهان في علوم القرآن) ، ذكر فيه سبعة وأربعين نوعاً من أنواع علوم القرآن ، وقد سردها (السيوطي) في مقدمة إتيقانه ، ثم نقل عن (الزركشى) قوله : ، واعلم أنه ما من نوع من هذه الأنواع إلا ولو أراد الإنسان استقصاءه لآفرغ عمره ، ثم لم يحكم أمره ، وليكنّا اقتصرنا من كل نوع على أصوله ، والرمز إلى بعض فصوله ، فإن الصناعة طويلة والعمر قصير ، وماذا عسى أن يبلغ لسان التقصير . .

وهو كتاب جليل ، لا يفوقه في هذا العلم إلا كتاب (الإتيقان)

(١) هما مخطوطان بدار الكتب .

للسيوطي ، وقد اعتمد عليه السيوطي في تأليف إتقانه . كما ستعلم فيما بعد .
وللإمام (تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني) المتوفى سنة ٧٢٨ هـ رسالة
في (أصول التفسير) وهي على وجازتها قيمة جدا ، وقد اشتملت على بعض
أنواع (علوم القرآن) .

ثم طلع القرن التاسع : فترعرع فيه هذا العلم ، وخطا خطوات فسيحة ،
فقد ألف فيه الإمام (محمد بن سليمان الكافيجي) المتوفى سنة ٨٧٣ هـ ، كتابا
يقول مؤلفه عنه : « لأنه لم يسبق إليه ، وهو صغير جدا في بابه ، وقد رتبته
على بابين وخاتمه :

الاول : في ذكر معنى التفسير والتأويل ، والقرآن والسورة والآية .
والثاني : في شروط القول بالرأى . والخاتمة : في آداب العالم والمتعلم .
وفي هذا القرن أيضا ، وضع الإمام (جلال الدين البلقيني) المتوفى سنة
٨٢٤ هـ كتاباً أسماه : (مواقع العلوم من مواقع النجوم) قال في مقدمته . « قد
اشتهرت عن الإمام (الشافعي) - رضي الله عنه - مخاطبة لبعض خلفاء
بني العباس ^(١) ، فيها ذكر بعض أنواع القرآن . يحصل منها المقصدنا الاقتباس
وقد صنف في (علوم الحديث) جماعة في القديم والحديث ، وتلك الانواع

(١) ذلك أنه قد وشى به حساده عند (الرشيد) بأنه يعمل له - لو يمين ، وأنه
يؤثر بلسانه ما لا يؤثره المقاتل بسيفه ، فأمر به هرون الرشيد لحمل على بقل وهو
مكبل بقيود الحديد حتى قدم عليه ببغداد ، فدافع عن نفسه حتى ظهرت براءته .
ولقد كان لزيارة هذه أكبر شافع له في هذه المحنة فقد تناظر بين يدي الرشيد
هو ، ومحمد بن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة فأدهش الحاضرين بحجته وفلجه
بالصواب ، ولما أعجب به الرشيد سأله عن علمه بكتاب الله . فقال الشافعي : عن
أى كتاب من كتب الله تسألني يا أمير المؤمنين ؟ فإن الله قد أنزل كتباً كثيرة .
فقال الرشيد . قد أحسنك ، لكنني إنما سألت عن كتاب الله الذي أنزل على ابن
عمي (محمد) صلى الله عليه وسلم فقال الشافعي . إن علوم القرآن كشـ . . . فوهل
تسألني عن حكمه ومتشابهه ؟ أو عن تقديمه وتأخيريه ؟ أو عن ناسخه ومنسوخه ؟ =

في سنده دون متته ، أو في مسنده وأهل فنه^(١) ، وأنواع علوم القرآن شاملة ، وعلومه كاملة ، فأردت أن أذكر في هذا التصنيف ما وصل إليه على ، بما حواه القرآن الشريف من أنواع علمه المنيف ، وقد ذكر في كتابه هذا خمسين نوعا من علوم القرآن وقد سردها (السيوطي) في مقدمة (الإتقان) .

ثم جاء فارس هذه الحلية . الإمام د جلال الدين عبدالرحمن بن السكال الأسيوطي ، المولود سنة ٨٤٩ والمتوفى سنة ٩١١ هـ ، ألف كتابا سماه : «التجوير في علوم التفسير» ضمنه ما ذكره شيخه البلقيني من الأنواع مع زيادة مثلها ، وقد فرغ منه سنة ٨٧٢ هـ ، لكن نفسه التواقة إلى المعرفة والاستقصاء لم تقنع بهذا المجهود ، فعزم على تأليف كتاب جامع يسلك فيه مسلك الإحصاء والجمع ، والضبط مع حسن الترتيب ، والتبويب ، وفي هذه الآونة . وقف على كتاب «البرهان» للزركشي ولم يكن اطلع عليه من قبل فقوى عزمه على إبراز ما أراد ، وسأدع «السيوطي» يتحدث عن نفسه في هذه الفترة ، التي خطر له فيها تأليف هذا الكتاب الجامع فيقول .

فينا أنا أجيل في ذلك فتكرى ، أقدم رجلا وأؤخر أخرى^(٢) ، إذ بلغني أن الشيخ الإمام د بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، ألف كتابا حافلا يسمى «البرهان في علوم القرآن» ، فتطلبته ، حتى وقفت عليه ، ثم قال : «ولما وقفت عليه ازددت به سرورا ، وحمدت الله كثيرا ، وقوى العزم على إبراز ما أضمرته ، وشددت الحزم في إنشاء التصنيف الذي قصدته ،

= أو عن ... أو هن ... وصار يسرد عليه من علوم القرآن ، ويوجب على كل سؤال بما أدهش الرشيد والحاضرين وهذه قصة تدل على أن مباحث علوم القرآن كانت معلومة للعلماء مركوزة في نفوسهم قبل أن تدون ، وتقيد في الكتب .
(١) رجالة وأئمة .

(٢) أي وأؤخرها أخرى كتابة عن التردد في الشيء . فالفعل محذوف وهو الضمير د أخرى ، صفة لموصوف محذوف أي د وأخرها مرة أخرى ،

فوضعت هذا الكتاب العلى الشأن، الجلى البرهان، الكثير الفوائد والإتقان ورتبت أنواعه ترتيباً أنسب من ترتيب البرهان، وأدجت بعض الأنواع فى بعض، وفصلت ماحقه أن يبان، وزدته على ما فيه من الفوائد والفرائد والقواعد والشوارد ما يشنف الآذان، وسميته بـ «الإتقان فى علوم القرآن» وقد جعله مقدمة للتفسير الكبير الذى شرع فيه، والجامع بين الرواية والدراية، والمسمى : «مجمع البحرين ومطالع البدرين» .

«الإتقان فى الميزان»

الإمام «السيوطى» - عليه رحمة الله - رجل طلمعة باقعة، (٢) لم يدع شاردة ولا واردة، إلا اطلع عليها، فلا عجب أن جاء كتابه كالفهرس لعلوم القرآن، وقد ذكر فيه خلاصات مئات الكتب المؤلفة فى هذه العلوم، وفى غيرها، وبحسبك أن تقرأ أسماء الكتب التى اعتمد عليها فى تأليف كتابه، وقد سردها فى مقدمته، لتبين صدق هذا القول .

ومن محاسن «الإتقان» أن يذكر فى مقدمة كل نوع من أنواعه الكتب التى ألفت مستقلة فى هذا النوع وهو بهذا يرشد القارىء إلى المراجع، ويحمله على الاستزادة فى البحث، والتحرى عن الحقائق، واستقصاء ما كتب فى الموضوع، ثم يأخذ فى ذكر نقول ونماذج من هذه الكتب، توضح ما عنون له، وفى هذه النقول روايات صحيحة وجياد، لا يرد عليها، أى طعن ولا يعلق بها غبار، وفيها مرويات زائفة مدسوسة . وكان الأولى أن ينبه عليها، أو ينزه كتابه عن ذكرها .

وقد اتخذ المبشرون والمستشرقون، وأضرابهم المتابعون لهم من هذه الروايات مادة للطعن فى «القرآن» والإسلام؛ فقد صادفت هوى فى نفوسهم المريضة، فقالوا ما شاء لهم هواهم أن يقولون من زور واقتراء .

(٢) طلمعة - ضم الطاء - وفتح اللام - كثير الاطلاع، والباقعة، الذكى العارف الذى لا يفوته شئ .

والإمام « السيوطى » من حفاظ الحديث - ولاريب - ومثله أجل من أن يذكر مثل هذه الروايات الواهية الساقطة التى تصل إلى حد الوضع والاختلاق دون التنبيه عليها ، ولعله يرى ؛ أنه مادام ذكر الرواية بسندها أو عزائها إلى مخرجها ؛ فقد أعفى نفسه من التبعة ، وعلى القارىء أن يبحث . ويجد فى البحث حتى يصل إلى مفصل الحق فى هذه الروايات المريبة . وهو أى لبعض حفاظ الحديث .

على أن هناك حقيقة ينبغى التنبيه إليها ، وهى أن الإمام « السيوطى » من نقاد الحديث ، المشددن جداً فى الحكم بالوضع أو السقوط ، ومن المتمسكين بحرفية قواعد أصول الحديث ، وربما يرجح هذه الحرفية على القرائن التى تسكاد تنطق بأن هذه الروايات مدسوسة على الحديث ورجاله .

وهناك حقيقة أخرى : وهى أن نقاد الحديث وأئمتهم ، ليسوا فى درجة واحدة فى أصالة النقد وبعد الغور وشفوف النظرى ، والكشف عن المعايير الخفية ، فمنهم الناقد الجهمذ ، والصيرفى الماهر ، الذى لا يخفى عليه التزييف مهما استتر ، ومنهم الطيب النطاسى ، الذى يعرف ممكن الداء بمجرد النظر ومنهم من هو دون ذلك ، فمن ثم خفيت هذه الروايات المدسوسة على بعض العلماء دون بعض ، واغتر بها البعض فذكرها فى كتبه ، وتنبيه إليها بعضهم ؛ فلم يخدع بها بل نبه على وضعها .

ومن المآخذ التى أخذتها على مؤلف هذا الكتاب أنه يذكر بعض الأقوال الشاذة والآراء الباطلة ، ويمر بها من غير أن يفندها ، ويبين بطلانها وليس من شك فى أن ذكر هذه الآراء من غير تمحيص ، وتحقيق ؛ يضر بالقارىء الذى لم يتعمق فى الدراسات الإسلامية ، وليس له من العلم بأصول الدين ما يعصمه من قبول هذه الآراء الزائفة المنتشرة ، أو على الأقل ما يوقعه فى بلبلة فكرية ، وشكوك علمية .

والكتاب مع هذا « نفيس » ، ولكنه محتاج إلى التحقيق ، والتعليق ، حتى يسلم من هذه العيوب المحدودة ، وكفى المرء نبلاً أن تعد معاييه ! وقد راودتني هذه الفكرة مراراً .. إلا أن الأحوال لم تكن مواتية والفراغ غير ميسر ، ومثل هذا العمل يحتاج إلى جهد جهيد وتفريغ ، وعسى أن يقوم بهذا العمل الجليل « قسم الدراسات العليا ، بكلية أصول الدين ، وبهذا يكون قد أسدى للعالم خدمة تذكر فتشكر .

وقد كان كتاب « الإتيقان » - ولا زال - أوفى مرجع في هذا العلم ، وعليه اعتماد من جاء بعد مؤلفه من العلماء إلى عصرنا هذا ، وبهذا الكتاب توقف التأليف في « علوم القرآن » أو كاد . . ولم نعلم أن أحداً ألف في « علوم القرآن » إلا ما كان من الامام العلامة الشاه « أحمد » المعروف بولي الله الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦ هـ فقد ألف رسالة سماها : « الفوز الكبير في أصول التفسير » ، وهي رساله صغيره . . إلا أنها اشتملت على مباحث قيمة ، وهي مطبوعه في « الهند » . . إلى أن جاء العصر الأخير . . عصر نهضة العلوم .

عصر نهضة العلوم :

لما نهضت العلوم في العصر الأخير كان « لعلوم القرآن » من هذه النهضة نصيب ملحوظ ، ونشاط ملبوس ، فبدأت الحياة تدب في « علوم القرآن » من جديد . والذي ساعد على هذا النشاط ، وبعث هذه الحياة ، ما أخذ به « الازهر » في تطوره في القرن الأخير من إدخال الدراسات التخصصيه في منهجه . فخطى القرآن الكريم وعلومه يبعث شعب التخصص . ولم تقف مباحث علوم القرآن عند الأنواع التي عني بها المؤلفون القدامى ، بل أضيفت مباحث أخرى ، فقد جدت بعض المباحث ، مثل ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية ، وقد تناولها العلماء بالبحث ما بين مجوز ومانع ، وألفوا في الاتصاف لآرائهم الكتب والرسائل ، وكذلك جدت بعض الشبه التي أوردها المبشرون والمستشرقون ، ومتابعوهم من المتكاتب

المعاصرين ، فرأى الغيارى المخلصون من علماء « الأزهر » وغيرهم أن يناهضوا هذه الحركة الهدامة . التي تتعرض لأقدس ما يقدره المسلمون ، وهو « القرآن الكريم » ، فوضعوا في الرد على هؤلاء الطاعنين بعض الكتب والرسائل ، وبذلك أضيفت إلى مباحث هذا العلم مباحث أخرى جديدة ، وتضخمت هذه الثروة العلمية أكثر من ذي قبل ومن هؤلاء الذين حملوا شرف الدفاع عن القرآن الكريم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله - أحد شيوخ الجامع الأزهر الشريف في العصر الأخير ، فقد ألف كتاباً قيماً في الرد على الدكتور طه حسين فيما ذكره في كتابه « الشعر الجاهلي » ، من شبهات على القرآن الكريم ، وقد فند شبهاته التي أوردها مع العفة في القول ، والأصالة في النقد كما هو شأن العلماء الراسخين ، وكذلك صنع العالم الكبير الأستاذ الشيخ محمد عرفة - مد الله في عمره في الرد على الدكتور طه فيما كان يلقيه على طلاب الجامعة من عاضرات فيها طعون على القرآن الكريم ، وألف في ذلك كتاباً صغير الحجم ، ولكنه جم الفائدة ، وسماه « نقد مطاعن القرآن » .

المؤلفات في العصر الأخير :

في هذا العصر ألقت كتب في « علوم القرآن » ، بعضها شامل لجميع أنواعه أو لجلها ، وبعضها في بعض أنواعه ومباحثه ، وبعضها سلك فيه مؤلفه مسلك الاطناب والاستقصاء ، وبعضها متوسط ، وبعضها قصير . فن المؤلفات التي اشتملت على كثير من أنواعه كتاب « التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن » ، للعلامة المغفور له الشيخ « طاهر الجزائري » ، فرغ من تأليفه سنة ١٣٣٥ هـ وهو مختصر لبعض مباحث كتاب « الاتقان » ، وألف المغفور له العلامة الشيخ « محمود أبو دقique » ، من كبار علماء الأزهر كتاباً سلك فيه مسلك التوسط . إلا أنه لم يتم .

جاء بعده المغفور له العلامة الشيخ « محمد علي سلامة » ، من كبار العلماء ، فألف كتاباً سماه : « منهج الفرقان في علوم القرآن » ، وقد سلك

فيه مؤلفه مسلکاً وسطاً ، وقد اشتمل على الكثير من أنواع علوم القرآن . ثم سار على هذا المنهج وزاد عليه الأستاذ العلامة الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ، - رحمه الله - فألف كتاباً حافلاً في مجلد كبير سماه « مناهل العرفان في علوم القرآن » ، وهو دون سابقه في إسياع أنواع علوم القرآن ، إلا أنه أوسع فيه القول ، وأطنب في بعض موضوعاته لإطناباً مشكوراً ولا سيما في الرد على الشبه والمشكلات التي أثيرت حول « القرآن » والوحي ، ويظهر أن المؤلف - عليه سعائب الرحمة - كان في نيته أن يكمل الكتابة عما ترك من الأنواع في جزء ثان ، ولكن المنية عاجلته (١) .

« رسائل وكتب في بعض علوم القرآن » .

كما ألف بعض العلماء والادباء كتباً ورسائل في بعض أنواعه ، منهم المغفور لهم ، العلامة الشيخ محمد بنيت الطيمى ، مفتى الديار المصرية سابقاً ، وله رسالة سماها : « الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن » . والعلامة الشيخ محمد حسنين العدوى ، والعلامة الشيخ محمد خلف الحسينى ، فقد كتباً في نزول القرآن على سبعة أحرف ، ومنهم أستاذنا العلامة الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى ، رحمه الله . فقد ألف رسالة سماها : « إيقاظ الأعلام في اتباع رسم المصحف الإمام » ، وهى رسالة قيمة ، تم عن علم عزيز ومنهم المغفور له الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويز ، فقد كتب رسالة بعنوان : « أثر القرآن في تحرير العقل البشرى » ، وألقاها في « نادى دار العلوم » ، ومنهم المرحوم الأستاذ محمد عبد العزيز الخولى ، فقد ألف كتاباً بعنوان « القرآن الكريم - وصفه - هدايته - أثره - إعجازه » . ومنهم الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى ، - رحمه الله - فألف كتابه « إعجاز القرآن » ، وهو على كثرة ما كتب في الإعجاز ، يعتبر بداً في بابهِ .

(١) بعد كتابة هذا وقف على جزء ثان صغير في بعض مباحث علوم القرآن . وبذلك صار الكتاب في جزئين .

وقد كشف فيه عن كثير من إعجاز القرآن الأدبي والعلمي والاجتماعي
وللأستاذ العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز عضو جماعة كبار العلماء
رحمه الله وأتابه - كتاب جليل سماه « النبا العظيم » عرض فيه لإعجاز
القرآن ، وأبان عنه بطريقة علمية فنية ، ثم شرع يدل على إعجاز القرآن
البياني في سورة من سور القرآن ، وهى سورة البقرة احدى الزهراوين
بما لا يدع مجالاً للشك فى أن هذا القرآن فوق مستوى قدر البشر ، وأنه من
عند خالق القوى والقدر

ولو أنه تناول القرآن كله على هذا المنوال لكان ذخيرة من الذخائر
القرآنية التى تنفع بها الأجيال المتعاقبة ، فعسى أن يقيض له الله سبحانه
من يقوم بإتمام هذه الدراسة القرآنية على هذا المنهج المستقيم البديع .
« ترجمة القرآن الكريم »

وجدت مسألة ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية ، وتناولها العلماء
والأدباء بالجواز والمنع ، فألف المغفور له الأستاذ الأكبر « محمد مصطفى
المراغى » شيخ الجامع الأزهر سابقاً رسالة بعنوان « بحث فى ترجمة القرآن
الكريم » وأحكامها ذهب فيها إلى جواز الترجمة وألف المرحوم الأستاذ
محمد فريد وجدى رسالة بعنوان « الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى
القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية وقد أيد فيها الترجمة ورد على المخالفين
وقد انبرى الرد على المجوزين للترجمة المغفور له العلامة الشيخ « مصطفى
صبرى » شيخ الإسلام بتركها سابقاً فى كتاب دقيق سماه « مسألة ترجمة القرآن »
كما عارض الترجمة المرحوم الأستاذ الشيخ « محمد سليمان » نائب المحكمة الشرعية
العليا سابقاً وسمى كتابه : « حدث الأحداث فى الإسلام . . الإقدام على
ترجمة القرآن » وألف الأديب الصحفي « محمد المهياوى » رحمه الله - رسالة
بعنوان « ترجمة القرآن الكريم غرض فى السياسة وفتنة فى الدين » .
وقد ألف - ولا يزال يؤلف - فى بعض أنواع علوم القرآن كثير من
الأحياء من أفاضل العلماء والأدباء .

وقد كان لي شرف أن أدلى بدلوى في الدلاء ، وأن أشارك في التأليف في هذا المضمار الشريف الفسيح ، مضمار الدراسات الأصلية في كتاب الله العزيز فكان هذا الكتاب « المدخل لدراسة القرآن الكريم » ، وفي النية - إن شاء الله - متابعة البحث والتنقيب عن كنوز القرآن الكريم وعلومه ، حتى أخرج ما تيسر من مباحث هذا العلم المثيف في بضعة أجزاء ، والله الموفق والمعين وقد استفدت مما كتبه المؤلفون في القديم والحديث في علوم القرآن ، وأمكنني أن آتي بمجديد لم يسبقني أحد إليه ، وبتحقيق لبعض مسأله لم يحوم أحد عليه ، وبتهذيب ، وترتيب لبعض مباحثه ، وكل ذلك بفضل الله وتوفيقه .

ولبعض الزملاء ، والاقربان وبعض التلاميذ والابناء في مصر ، وغير مصر ، وفي الأزهر ، وغير الأزهر كتب قيمة ، ورسائل جيدة ، في الدراسات القرآنية أو إن شئت فقل في « علوم القرآن » ، فجازاهم الله خيراً على صنيعهم هذا ، ولأنه لمضمار شريف ، وفيه فليتنافس المتنافسون .

وسيطل هذا الكتاب الكرم منهلاً عذباً ، ومورداً صافياً ، ومادة خصبة للباحثين والمفكرين ، يدورون في فلكه الدوار ويستظلون بظله الظليل ، ويستهدون بهديه القويم ، ويسرون على ضوئه ، ومنارته .
وسيستمر مصدر حركة فكر وباعث حياة شعوب ، ومجدد شباب أمة ، وحارس لغة هي أشرف اللغات ، وأعذبها ، ومشغلة للفكر الإنساني حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

المبحث الثاني

نزول القرآن الكريم

هذا المبحث من المباحث المهمة ، إذ به يعرف تنزلات « القرآن الكريم » .
ومنى نزل ؟ وكيف نزل ؟ وعلى من نزل ؟ وكيف كان يتلقاه جبريل - عليه السلام -
من الله تبارك وتعالى ؟ وعلى أى حال كان يتلقاه الرسول - صلوات الله وسلامه
عليه - من جبريل ؟ ولا شك أن العلم بذلك يتوقف عليه كمال الإيمان بأن
القرآن من عند الله وأنه المعجزة العظمى للنبي ، كما أن كثيراً من المباحثات
التي تذكر في هذا الفن يتوقف على العلم بنزوله ، فهو كالأصل بالنسبة
لغيره ، والعلم بالأصل مقدم على الفرع ، فأقول - ومن الله استمد
العون والتوفيق .

معنى النزول :

النزول لغة يطلق ويراد : الحلول ، يقال نزل فلان بالمدينة : حل بها
وبالقوم : حل بينهم والمتعدى منه معناه : الإحلال ، يقال : أنزلته بين
القوم ، أى أحللتهم بينهم ^(١) ، ومنه قوله تعالى . « رب أنزلني منزلاً مباركاً ..
وأنت خير المنزلين » . ^(٢)

ويطلق أيضاً . على تحرك الشيء من علو إلى سفلى . يقال . نزل فلان

(١) فى القاموس : مادة « نزل » ، [النزول : الحلول ، نزلم بهم وعلهم ينزل
نزولاً ومنزلاً - حل . ونزله تنزيلاً ، وأنزلاً ومنزلاً كجمل ، واستنزلته بمعنى ،
وتنزل : نزل فى مهلة] وفى المصباح المنير : [نزل من علو إلى أسفل ينزل نزولاً
ويتعدى بالحرف والمهزة والتضعيف ، فيقال : نزلت به . وأنزلته ونزلته واستنزلته
بمعنى : أنزلته والمنزل : موضع النزول ، والمنزلة مثله ، وهى أيضاً المسكاة ،
ونزلت هذا مكان هذا : أقمته مقامه قال ابن فارس . « التنزيل تقريب الشيء »
(٢) سورة المؤمنون الآية ٢٩

من الجبل ، والمتعدى منه معناه : التحريك من علو إلى سفلى ، ومنه قوله تعالى : « أنزل من السماء ماء ... الآية » (١) .

وكلا المعنيين اللغويين لا يليقان بنزول القرآن على وجه الحقيقة ، لاقتضائهما الجسمية والمكانية والانتقال ، سواء أردنا بالقرآن : المعنى القديم القائم بذاته تعالى أو الكلمات الحكيمة الأزلية ، أو اللفظ العربي المبين . الذى هو صورة ومظهر للكلمات الحكيمة القديمة ، لما علمت من تنزه الصفة القديمة ومتعلقها وهو الكلمات الغيبية الأزلية عن المواد مطلقاً ولأن الألفاظ أعراض سيالة . تنتهى بمجرد النطق بها ، ولا يتأتى منها نزول ولا إنزال .

وعلى هذا يكون المراد بالنزول المعنى المجازى ، والمجاز فى اللغة العربية باب واسع ، فإن أردنا بالقرآن . الصفة القديمة أو متعلقها ، فالمراد بالإنزال الإعلام به بواسطة إثبات الألفاظ والحروف الدالة عليه . من قبيل : إطلاق المألوم وإرادة اللزوم . وإن أردنا اللفظ العربى الدال على الصفة القديمة . يسكون المراد : نزول حامله به سواء أردنا بالنزول : نزوله إلى سماء الدنيا . أو على النبى ﷺ ويكون الكلام من قبيل المجاز بالحذف ، وهذا هو ما يتبادر إلى الأذهان عند إطلاق لفظ النزول .

وللقرآن الكريم وجودات ثلاثة :

١ - وجوده فى اللوح المحفوظ .

٢ - وجوده فى السماء الدنيا .

٣ - وجوده فى الأرض بنزوله على النبى ﷺ ، ولم يقتصر لفظ « النزول » إلا بالوجود الثانى والثالث ، أما الوجود الأول ، فلم يرد لفظ « النزول » ، مقترباً به قط ، وعلى هذا . فلا ينبغى أن نسميه نزولاً أو تنزلاً . أين كان للقرآن قبل النزول ؟

يقول الله تعالى : « بل هو قرآن مجيد ، فى لوح محفوظ » (٢) فقد دلت

(١) سورة الرعد الآية ١٧ (٢) سورة البروج : الآية ٢١ ، ٢٢

الآية على أن القرآن ، كان قبل نزوله ثابتاً وموجوداً في اللوح المحفوظ . وهذا اللوح المحفوظ هو الكتاب المكنون الذي ذكره الله تعالى في قوله : **لأنه لقرآن كريم في كتاب مكنون ، لا يحسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين ، (١) فالظاهر والذي عليه جمهور المفسرين : أن الكتاب المكنون : هو اللوح المحفوظ ، ومعنى « محفوظ » ، أنه عن استراق الشياطين ، ومحفوظ عن التغيير والتبديل ، ومعنى « مكنون » ، مصون محفوظ عن الباطل ، والمعنيان متقاربان .**

واللوحة المحفوظ : هو السجل العام الذي كتب الله فيه في الأزل كل ما كان وكل ما سيكون . والواجب علينا : أن نؤمن به وأنه موجود ثابت ، أما البحث فيما وراء ذلك ، كالبحث في حقيقته وما هيته ، وعلى أى حالة يكون ؟ وكيف دونت فيه السكائنات ؟ وبأى قلم كتب ؟ فلا يجب الإيمان علينا به ، إذ لم يرد عن المعصوم عليه السلام في ذلك حديث صحيح ، وكل ما ورد إنما هي آثار عن بعض الصحابة والتابعين لا تطعن إلهيها النفس (٢) .

وحكمة وجود القرآن ، في اللوح المحفوظ : ترجع إلى الحكمة العامة من وجود اللوح المحفوظ نفسه وإقامته سجلاً جامعاً لكل ما كان ، وما سيكون من عوالم الإيجاد والتكوين ، فهو شاهد ناطق ، ومظهر من أروع المظاهر الدالة على عظمة الله وعلمه وإرادته ، وواسع سلطانه وقدرته . ولا شك أن الإيمان به يقوى إيمان العبد بربه ، من هذه النواحي . وبعث الطمأنينة إلى نفسه ، والثقة بكل ما يظهره الله لخلقه من ألوان هدايته وشرائعه وكتبه وسائر أفضيته ، كما يحمل الناس على السكون والرضا تحت سلطان القدر والقضاء ، ومن هنا تمون عليهم الحياة بضرائها وسرائها كما قال جل شأنه : **« ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا**

(١) سورة الواقعة ٧٧ - ٧٩

(٢) أنظر تفسير القرطبي ، و ابن كثير ، و « الألوسي » ، في تفسير آية البروج

(٣) سورة الحديد . الآية ٢٢ - ٢٣ .

فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور ، (١)
وللإيمان باللوح والكتابة أثر صالح فى استقامة المؤمن على الجهاد ،
وتفانيه فى طاعة الله ومراضيه ، وبعده عن مساخطه ومعاصيه ، لإعتقاده
أنها مسطورة عند الله فى لوحه ، مسجلة لديه فى كتابه (٢) كما قال جل شأنه .
« وكل شيء فعلوه فى الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر » ، (٣) .

نزول القرآن الكريم

للقرآن الكريم نزولان الأول . نزول من اللوح المحفوظ إلى السماء
الدنيا . الثانى . نزوله من السماء الدنيا على النبي ﷺ .
وهذا كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل وتوضيح .. وإليك البيان .
النزول الأول :

نزول القرآن الكريم ، من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء
الدنيا ، جملة واحدة وهذا النزول أكان بعد نبوة ﷺ ؟ أم كان قبل
ذلك ؟ رأيان للعلماء أرجحهما الأول . وهو الذى تبدل عليه الآثار
الآتية ، وكان هذا النزول فى رمضان ليلة القدر .
والدليل على هذا النزول ما يأتى :

١ - قوله تعالى فى مفتتح سورة القدر ، « إنا أنزلناه فى ليلة القدر ،
وقال فى مفتتح سورة الدخان ، « حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه فى
ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين ، وقال فى سورة البقرة ، « شهر رمضان الذى
أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى الفرقان ، ، (٤)
« والإنزال ، أكثر ما يرد فى لسان العرب ، فيما نزل جملة واحدة (٥) ، بخلاف

(١) سورة الحديد . الآية ٢٢/٢٣ . (٢) مناهل العرفان ١ ص ٣٥ ط أول
(٣) القمر / ٥٢ ، ٥٣ ومعنى مستطر مكتوب فى السطور (٤) البقرة / ١٨٥
(٥) التناوب فى التعبير القرآنى عما نزل دفعة واحدة بلفظ ، الإنزال ، وما
(٤ م - المدخل)

• التنزيل ، فإنه يعبر به في جانب ما نزل مفزقا؛ فذلك الآيات على أن القرآن
• نزل جملة واحدة في ليلة القدر ! أخذاً من سورة • القدر ، وهي الليلة
المباركة ، أخذاً من آية • الدخان ، . وهي من ليلة شهر رمضان أخذاً
من آية • البقرة ، .

وأيضاً فمن البدهي : أن القرآن نزل على النبي ﷺ - في سنين لا في
ليلة واحدة ، وأنه نزل في غير رمضان ؛ كما نزل في رمضان فدل هذا على أن
النزول الذي نوهت بشأنه الآيات غير النزول على النبي مفزقا في بضعة
وعشرين سنة ، وأن المراد به : هو النزول جملة واحدة .

٢ - قد جاءت الآثار الصحيحة مبينة لهذا النزول وشاهدة عليه .

(أ) فمنها ما أخرجه النسائي والحاكم والبيهقي من طريق داود بن هند
عن عكرمة عن ابن عباس ، أنه قال : • أنزل القرآن جملة واحدة
إلى سماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة ،
ثم قرأ : • ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق ، وأحسن تفسيراً ،
• وقرآنا فرقناه ؛ لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلاً ،
(ب) ومنها ما أخرجه الحاكم والبيهقي من طريق منصور عن سعيد
ابن جبير عن ابن عباس أنه قال : • أنزل القرآن في ليلة القدر جملة
واحدة إلى سماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على
رسوله بعضه في إثر بعض .

(ج) وأخرج الحاكم وغيره ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال :

== نزل مفزقا ! التنزيل ولهذا لما جمع الله بين القرآن والتوراة والإنجيل عبر في جانب
نزل القرآن على النبي بالتنزيل ! وفي جانب التوراة والإنجيل بالإينزال ! لانهما
نولا دفعة واحدة ! وهذا ما لا خلاف فيه . قال تعالى في سورة آل عمران ،
• نزل عليك القرآن بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل ،
والتفريق بين الإينزال والتنزيل أمر غالب ! وليس قاطعة مطردة ! ولذا عبرت
بلفظ • أكثر ، بدليل قوله تعالى ؟ • وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن
جملة واحدة . . . ، الفرقان / ٣٢ فقد استعملوا التنزيل وأرادوا الإينزال

« فصل القرآن من الذكر ، فوضع في بيت العزة من سماء الدنيا
فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ .

(د) أخرج ابن مردويه والبيهقي - في كتاب « الاسماء والصفات ،
عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود . فقال : أوقع في قلبي
الشك قوله تعالى « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » ، وقوله :
« إنا أنزلناه في ليلة القدر » ، وهذا أنزل في شوال ، وفي ذى القعدة
وفي ذى الحجة وفي المحرم ، وصفر ، وشهر ربيع ، فقال ابن عباس
أنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على
مواقع النجوم رسلا (١) في الشهور والأيام .

ومعلوم : أن هذا لا يقوله « ابن عباس » ، بمحض الرأي ، فهو محمول على
سماعه من النبي - ﷺ - أو ممن سمعه من النبي من الصحابة ، ومثل هذا له
حكم المرفوع ، لأن القاعدة عند أئمة الحديث : أن قول الصحابي الذي لم
ياخذ عن الإسرايليات فيما لا مجال للرأى فيه ، له حكم الرفع ، وبذلك
ثبتت حجية هذه الآثار . (٢)

وقد ذكر « السيوطي » في « الإتقان » (٣) عن القرطبي : أنه حكى الإجماع
على أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، إلى بيت العزة في
السماء الدنيا .

وهناك قول ثان . وهو أن « القرآن » نزل إلى السماء الدنيا في عشرين ليلة
قدر ، أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين ، (٤) ينزل الله في كل ليلة منها
ما يقدر إنزاله في كل السنة ، ثم ينزل به جبريل بعد ذلك عن النبي - ﷺ -

(١) رسلا . أي رفقا ، وهل تعلم . مواقع النجوم . مساقطها ، يريد . أنه
نزل على مواقع منجما مفرقا يتلو بعضه بعضا على أودع ورفق

(٢) توهه النظر شرح نخبه الفكر ص ٤٣ (٣) الإتقان ج ١ ص ٤٠

(٤) هـ - ذا مبنى على الخلاف في مدة إقامته ﷺ بمكة بعد النبوة أي عشر

سنوات ، أم ثلاث عشرة ، أم خمس عشرة ، وأصحها أوسطها

فى جميع السنة ، وبه قال «مقاتل بن حيان» .

وهناك قول ثالث : هو أن المراد بالآيات السابقة : ابتداء إنزاله فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجماً فى أوقات مختلفة على النبى - ﷺ - .
وبه قال «الشعبي» ، وكان صاحب هذا القول ينقذ النزول جملة واحدة إلى السماء الدنيا .

وقد ذهب إلى هذا رأى من المتأخرين الأستاذ الإمام الشيخ ومحمد عبده ، فى تفسير جزء «عم» ، فقد نقل كلام «الشعبي» وقواه ، وقال : إن ما جاء من الآثار الدالة على نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، مما لا يصح الاعتماد عليه ، لعدم تواتر خبره عن النبى - ﷺ - . وأنه لا يجوز الأخذ بالظن فى عقيدة مثل هذه ، وإلا كان اتباعاً للظن (١)

وأعقب على قول الإمام فاقول : إن مسألة نزول القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليست من العقائد التى يتحتم تواتر الأخبار بها ، والتى لا بد فيها من العلم القطعى اليقضى ، مثل وجود الله وصفاته ، ونحو ذلك من العقائد ، وإنما يكفى فيها الأخبار الصحيحة .. التى تفيد غلبة الظن ورجحان العلم ، ثم إن من قال : إن مثل هذه الحقيقة الغيبية لا بد فيها من تواتر الأخبار عن النبى ﷺ ؟ إن كثيراً من السمعيةات يكتفى فيها بالأخبار الصحيحة التى تفيد رجحان العلم بما دلت عليه ، وعلى هذا جرى العلماء سلفاً وخلفاً ثم إن تأويل الآيات بان المراد : ابتداء الإنزال صرف للآيات عن ظواهرها ، وقد بينت . أن ظاهر الآيات يشهد للنزول جملة واحدة ؛ والظواهر لا يعدل عنها إلا بصارف ، وأنى هو ؟؟

وبعد . فالقول الأول ، هو الراجح والصحيح الذى تشهد له الآيات والآثار
حكمة هذا النزول . والحكمة فى هذا النزول أمران .

تفخيم شأن القرآن ؛ وشأن من نزل عليه ، وشأن من سينزل إليهم ، بإعلام سكان السموات من الملائكة بان هذا آخر الكتب المنزلة ، على خاتم

الرسول ، لأشرف الأمم ، وهى الأمة الإسلامية ، وفى هذا تنويه بشأنه
المنزل ، والمنزل عليه ، والمنزل إليهم

(١) تفضيل القرآن الكريم على غيره من الكتب السماوية ، بأن جمع
الله له النزولين : النزول جملة واحدة ؛ والنزول مفرداً . وبذلك شارك
الكتب السماوية فى الأولى ، وانفرد فى الفضل عليها بالثانية ، وهذا يعود
بالتفضيل لبنيها ومحمد ، على سائر إخوانه من الأنبياء ، ذوى الكتب المنزلة
وأن الله جمع له من الخصائص ما لغيره وزاد عليها .
النزول الثانى :

قلنا فيما سبق . إن القرآن الكريم نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ
إلى السماء الدنيا ، فى ليلة القدر وهـ - ذا هو النزول الأول . وكان النازل به
«جبريل» عليه السلام فألقاه على السفرة السكرام البررة ، فقيدوه فى صحفهم
المكرمة ، كما قال تعالى ، كلا إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، فى صحف
مكرمة . مرفوعة مطهرة ، بايدى سفرة ، كرام بررة ، (١) وهم الملائكة
المختصون بذلك .

وقد بقى القرآن محفوظاً فى هذه الصحف المرفوعة المطهرة ، بايدى
هؤلاء الملائكة السكرام البررة حتى أذن الله لهذا النور الإلهى أن يسطع فى
أرجاء الأرض ، ولهدايته الربانية أن تتدارك الناس ، وتخرجهم من ظلمات
الشرك والجهالة والضلال ، إلى نور الإيمان والهدى والعرفان ، على يد
مخلص البشرية ، ومنقذ الإنسانية سيدنا ونبيها محمد بن عبد الله ، عليه صلوات
الله وسلامه ، فانزل عليه «القرآن» هادياً ومبشراً ونذيراً للخلق أجمعين ،
ليكون آيته الكبرى ، ومعجزته الباقية على وجه الدهر ، شاهدة له بالصدق
وأنه يوحى إليه من ربه ، وهذا هو النزول الثانى للقرآن .

وشواهد هذا النزول أكثر من أن تحصى ، قال تعالى شأنه . « وإنه
لنزيل رب العالمين » ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك (٢) لتكون من المنذرين

(١) سورة ميس الآية ١١ - ١٦

(٢) عبره الدلالة على أن القلب قد وعاه بعد أن وعته الأذان

بلسان عربى مبين،^(٧) وقال تعالى: «قل نزله روح القدس»^(٢) من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا، وهدى وبشرى للمسلمين،^(٣) وقال تعالى: الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجاً، قيماً؛ لينذر بأساً شديداً من لدنه، ويدشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً، ما كُثِّين فيه أبداً، وينذر الذين قالوا: «اتخذ الله ولداً»^(٤). وقال: «تبارك الذى نزل الفرقان على عبده؛ ليكون للعالمين نذيراً»^(٥). وقال تعالى: «ولإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله»^(٦).

والذى نزل به على النبي - صلى الله عليه وسلم - هو أمين الوحي «جبريل» عليه السلام، وهو المقصود بالروح الأمين فى آية الشعراء، وبروح القدس فى سورة النحل، وهو الرسول الكريم ذو القوة المتين الأمين فى قوله تعالى، إنه لقول رسول كريم، ذى قوة عند ذى العرش مكين، مطاع ثم أمين. وما صاحبكم بمجنون^(٧)، والقول كما ينسب لقائله الأول، ينسب لمبلغه وحامله إلى المرسل إليه.

وهو شديد القوى. ذو مرة، فى قوله تعالى: «إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى، ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى»^(٨). وقد جاء النص على أن النازل بالقرآن هو «جبريل» فى قوله سبحانه: «قل من كان عدواً لجبريل؛ فإنه نزل على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه، وهدى وبشرى للمؤمنين، من كان عدواً لله، وملأئكته،

(١) سورة الشعراء الآية ١٩٢-١٩٥ (٢) هو جبريل الأمين على الوحي

(٣) سورة النحل الآية ١٠٢ (٤) سورة الكهف الآية ١-٤.

(٥) سورة الفرقان الآية ١ (٦) سورة البقرة الآية ٧٣.

(٧) سورة التكوين الآية ٩-٢٢.

(٨) سورة النجم الآية ٤-٧. ومعنى ذو مرة، ذو هيئة حسنة، وقيل ذو حسانة فى العقل، وإحكام فى الرأى.

ورسله ، وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين^(١)، والمراد بهم اليهود .

كيف كان هذا النزول ومدته

وقد نزل به جبريل ، - عليه السلام - على النبي - صلى الله عليه وسلم - منجماً مفرقاً ، على حسب الوقائع ، والحوادث ، وحاجات الناس ، ومراعاة للظروف والملايسات .

وقد اختلف العلماء في مدة هذا النزول : فقليل : عشرون سنة ، وقيل : ثلاث وعشرون سنة ، وقيل : خمس وعشرون سنة .

ومنشأ هذا الاختلاف . . إنما هو اختلافهم في مدة مقامه - صلى الله عليه وسلم - بمكة ؛ فقليل : عشر سنين ، وقيل : ثلاث عشرة ، وقيل : خمس عشرة .

وأقربها إلى الحق والصواب ، هو أوسطها ، وهو ثلاث وعشرون سنة ، وهذا على سبيل التقريب ، وأبعد ما هو آخرها .

ولو راعينا التدقيق والتحقيق ، تكون مدة نزول القرآن اثنى عشر سنة ، وخمسة أشهر^(٢) ونصف شهر تقريباً ، وبيان ذلك : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نبي على رأس الأربعين من ميلاده الشريف ، وذلك في شهر ربيع الأول ، الثاني عشر منه ، وقد بدى الوحي إليه بالرؤيا الصادقة ، ومكث على ذلك إلى السابع عشر من رمضان ، وهو اليوم الذي نزل عليه فيه صدر سورة اقرأ ، أول ما نزل من القرآن ، وجملة ذلك : ستة أشهر وخمسة أيام . وآخر آية نزلت من القرآن ، هي قوله تعالى . «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله . . ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون»^(٣) ، وقد روى : أن ذلك قبل وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - بتسعة

(١) سورة البقرة الآية ٩٧ ٩٨ .

(٢) راجعت في هذا التحديد . ما ذهب إليه الجمهور من أنه - صلى الله عليه وسلم - ولد في الثاني عشر ربيع الأول عام الفيل . وتوفى في الثاني عشر أيضاً من ربيع الأول عام إحدى عشرة من الهجرة .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨١

أيام ، وقيل : بأحد عشر يوماً ، وقيل بواحد وعشرين يوماً ؛
فلو أخذنا بالمتوسط تكون جملة المدة التي لم ينزل فيها القرآن ستة أشهر
وسنة عشر يوماً .

وجملة عمره ﷺ ، ثلاثة وستون عاماً ، لأنه توفي في الثاني عشر
من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة ، كما عليه الجمهور ، فتكون مدة
نبوته : ثلاثاً وعشرين سنة ، فإذا أضفنا منها ستة أشهر وستة عشر يوماً ، يكون
الباقى : اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر وأربعة عشر يوماً . والحمد لله الذى
هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . وقد ذكر بعض الكتّاب
في تاريخ التشريع غير هذا وقد بنى حسابه على أن آخر آية نزلت « اليوم أكملت
لكم دينكم ، وهو خطأ مشهور وسندين الحق في آخر ما نزل فيما يأتى إن شاء الله

الدليل على نزول القرآن منهجاً ،

المعروف الثابت : أن القرآن الكريم ، نزل على النبي - صلى الله عليه
وسلم - مفزاً ، ويدل على هذا القرآن ، والسنة الصحيحة .

أما القرآن ، فقوله تعالى : « وقرآنا فرقناه ، لتقرأه على الناس على مكث ،
ونزلناه تنزيلاً ، (١) وقوله تعالى : « وقالوا : لو أنزل عليه القرآن جملة واحدة .
كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلاً . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق
وأحسن تفهيماً ، (٢) فقد روى : أن المشركين أو اليهود عابوا على النبي - صلى الله
عليه وسلم - نزول القرآن مفزاً ، وقالوا : « هل أنزل جملة واحدة ، كما نزل التوراة
على موسى ، فأنزل الله - سبحانه - هذه الآية ، حاكية لأقوالهم ، واردة عليهم
ببيان الحكمة في إنزاله مفزاً ، أى : أنزلناه مفزاً ، لنثبت به فؤادك وليرتله
ترتيلاً في خاصة نفسك ، وعلى أصحابك .

(١) الإسراء الآية ١٠٦

(٢) سورة الفرقان الآية ٣٢ ، ٣٣

أما السنن الصحيحة، فقد ورد فيها ما يدل على نزول القرآن، منجها مفرقا،
ففي الصحيحين وغيرهما . عن عائشة - رضى الله عنها - . « أن أول ما نزل
صدر سورة ، اقرأ ، . . . إلى قوله تعالى : « ما لم يعلم ، . وفي الصحيحين .
- أيضاً - عن جابر . « أن أول ما نزل بعد فترة الوحي سورة « المدثر » ، إلى
« والرجز فاهجر » ، وكذلك روى عن ابن عباس وغيره من الصحابة ، القول
في تقدم نزول بعض السورة والآيات على بعض ، وترتيب السور على حسب
النزول (١) . إلى غير ذلك من الآثار التي لا تدع مجالاً للشك في نزول القرآن
الكريم ، على النبي - صلى الله عليه وسلم - مفرقا ، وهذه الأحاديث والآثار
وإن كانت آحادية إلا أنها بمجموعها تفيد التواتر المعنوي المفيد للقطع واليقين
في هذا .

نزول الكتب السماوية السابقة .

أما الكتب السماوية السابقة ، فالمشهور بين العلماء . أن ذلك كان جملة واحدة
حتى كاد يكون هذا الرأي إجماعا - كما قال « السيوطي » .

والدليل على ذلك آية « الفرقان » . « وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة
واحدة . . . الآية ووجه الدلالة . أن الله - سبحانه - لم يكذبهم في دعواهم .
نزول الكتب السماوية جملة ، بل بين لهم الحكمة في نزوله مفرقا ، ولو كانت
الكتب السماوية نزلت مفرقة ، لكان كافيا في الرد عليهم أن يقول لهم . إن التنجيم
سنة الله في الكتب التي أنزلت على الرسل ، كما أجاب بمثل ذلك قولهم . « وقالوا .
ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » . الآية (٢) فقال في الرد عليهم
« وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق » (٣)
فبين لهم . أن ذلك سنن الأنبياء والمرسلين . وكذلك لما قالوا . « هل هذا
إلا بشر مثلكم ؟ » (٤) فرد عليهم . بأن سفته ألا يرسل رسلا من البشر فقال -

(٢) سورة الفرقان الآية ٧ .

(٤) الانبياء الآية ٣ .

(١) الإنفا ١ ص ٩-١١

(٣) الفرقان الآية ٢٠ .

« وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ، فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (١) . ولما قالوا . كيف يكون رسولا ، ولا هم له إلا النساء ؟ رد عليهم فقال . « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلناهم أزواجا وذرية ، (٢) . إلى غير ذلك .

ويدل على ذلك أيضا . قوله تعالى في إنزاله التوراة على موسى عليه السلام يوم الصعقة . . فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة ، (٣) وقوله . ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم رهبون (٤) وقال تعالى . « إذ أنزلنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا . أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا ما فيه لعليكم تتقون ، (٥) والمراد بالألواح . الألواح التي كتبت فيها التوراة .

فهذه الآيات دالة على إنزاله . سبحانه . التوراة على « موسى » جملة . وهناك آثار (٦) صحيحة عن « ابن عباس » تفيد نزول « التوراة » جملة منها ما أخرجه النسائي وغيره عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في حديث التتوق قال ، « أخذ موسى الألواح بعد ما سكن عنه الغضب ، فأمرهم بالذي أمر الله أن يلبسهم من الوظائف ، فنقلت عليهم ، وأبوا أن يقرؤا بها حتى تنق الله عليهم الجبل ، كأنه ظلة . ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأقرؤا بها . . وإذا كانت التوراة ، وهي أعظم الكتب السماوية السابقة ، وأكثرها أحكاما وهداية . وقد ثبت نزولها جملة واحدة . فأحر بغيرها من الكتب السماوية - كالإنجيل والزيور وصحف إبراهيم - أن تكون قه فزلت جملة واحدة . وآية (الفرقان) - كما ذكرنا - تدل على هذا التعميم وتؤيده .

- | | |
|----------------------------|----------------------------|
| (١) سورة الانبياء الآية ٧ | (٢) سورة الرعد الآية ٣٨ |
| (٣) الاعراف الآية ١٤٤-١٤٥ | (٤) سورة الاعراف الآية ١٥٤ |
| (٥) سورة الاعراف الآية ١٧١ | (٦) الانشقاق ج ١ ص ٤٢ |

« كيف كان جبريل يتلقى الوحي؟ »

هذا المبحث من أنباء الغيب . فلا يطمئن الإنسان إلى رأى فيه إلا إن ورد عن معصوم . ولم نطلع في هذا على نقل من المعصوم — عليه السلام — وإنما هي نقول عن بعض العلماء :

١ — منها ما قاله الطيبي : « لعل نزول القرآن على الملك أن يتلقفه تلقفا روحانياً أو يحفظه من اللوح المحفوظ . فينزل به على النبي صلى الله عليه وآله فيلقيه إليه وكلمة « لعل » لا تفيد القطع ، وإنما تفيد التجويز والاحتمال . وقد ردد الإمام الطيبي ، الأمر بين هذين الاحتمالين ، ولم يقطع برأى

٢ — ما ذكره « البيهقي » في تفسير قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » قال يريد — والله أعلم — . « إنا أسمعنا الملك . وأفهمناه إياه . وأنزلناه بما سمع » وهذا الرأى أمثل الآراء . وأولاهها بالقبول ويشهد له ما رواه الطبراني ، من حديث الثوراس بن سمعان ، مرفوعاً إلى النبي — صلى الله عليه وآله — قال إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله . فإذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا . وخرجوا سجداً فيكون أولهم يرفع رأسه . جبريل . فيكلمه الله بوحيه بما أراد . فينتهي به إلى الملائكة فكلما مر بسماء سأله أهلها . ماذا قال ربنا ؟ قال : الحق ، فينتهي به حيث أمر ، والحديث وإن لم يكن نصاً في القرآن إلا أن « الوحي » يشمل وحي القرآن . وغيره . بل يدخل فيه الوحي بالقرآن دخولاً أولياً .

وهذا الرأى هو أحد الاحتمالين الذين جوزهما الطيبي ، وهو مراده بقوله . « أن يتلقفه تلقفاً روحانياً »

والاحتمال الثاني . وهو حفظه من اللوح المحفوظ وإن كان غير مستبعد إلا أن ما دل عليه النص أولى . وينبغي أن يصار إليه وهو الأليق بالقرآن الكريم وفي تلقى « جبريل » — عليه السلام — القرآن من ربه دون وساطة : أعظام للقرآن وتفخيم لشأنه ، وتلبية إلى غاية العناية به ، والحرص والمحافظة عليه ، ومبالغة في صيانتها عن التعريف ، والتبديل .

ألا ترى أن أحد الملوك أو الرؤساء ، أو الأمراء إذا أرسل رسالة مهمة ، في أمر مهم ، لرجل ، ذى شأن فإنه يتخير لها الرسول ، ويأبى إلا أن يختمها بختمه ، وأن يناولها إليه بيده ، فما بالك بالقرآن الذى هو كلام الله ورسالة الرسالات ؟ وأحق الكتب بالتحوط والصيانة ، والحفاظ عليه .

كيف كان يتلقى النبي القرآن

كان النبي - صلوات الله وسلامه عليه - يتلقى القرآن عن جبريل - عليه السلام - على حالتين :

١ - أن ينسلخ النبي - صلى الله عليه وسلم - من حالته البشرية العادية ، إلى حالة أخرى ، بها يحصل له استعداد ، لتلقى الوحي من «جبريل» - عليه السلام ، وهو على حالته الملكية وفي هذه الحالة قد يسمع عند مجيء الوحي صوت شديد كصاعقة الجرس^(١) . . وأحياناً يسمع الحاضرون صوتاً عند مجيء الوحي كدوى النحل . . وتأخذ النبي - صلى الله عليه وسلم - حالة شديدة روحانية ، يغيب فيها عما حوله ، ويثقل جسمه ، حتى لتكاد الناقة التي يركبها تبرك ، وإذا جاءت فغذه على فخذه إنسان تسكاد ترضها ، ويتصبب عرقه ، وربما يسمع له غطيط كغطيط الزائغ ، فإذا ما سرى عنه وجد نفسه واعياً لكل ما سمع من الوحي فيبلغه كما سمعه ، وهذه الحالة أشد حالات الوحي على النبي ﷺ ، ويشير إلى هذا قوله تعالى : «إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً»^(٢) ؛ وعلى هذه الحالة تلقى القرآن .

٢ - أن يتحول جبريل ، - عليه السلام - من الملكية إلى الصورة البشرية ، فيأتى في صورة رجل ، فيأخذ عنه الرسول ويسمع منه . . وكثيراً

(١) قال الخطابي : والمراد ، أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتنبته أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد . وقيل : هو صوت خفق أجنحة الملك . والحكمة في تقديمه ، أن يفرغ سمعه للوحي ، فلا يبقى فيه مكاناً لغيره . (٢) المزمل ٥

ما كان جبريل - عليه السلام - يأتي في هذه الحالة في صورة « دحية الكلبي »^(١) أو صورة أعرابي لا يعرف^(٢) . وهذه الحالة أهون الحالين على الرسول .

يدل على هاتين الحالين : ما رواه البخاري ، في صحيحه بسنده عن عائشة - رضى الله عنها - : أن الحارث بن هشام - رضى الله تعالى عنه - سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم^(٣) عني ، وقد وعيت منه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً ، فيكلمني فأعي ما يقول » ، قالت « عائشة » - رضى الله عنها - : « ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، وأن جبينه ليتفصد عرقاً » ، وإنما اكتفى النبي في الجواب بهاتين السكيفيتين دون غيرهما من السكيفيات والأنواع ، لأن الظاهر أن السؤال كان على الوحي الذي يأتي عن طريق جبريل .

والقرآن الكريم لم ينزل منه شيء إلا عن طريق جبريل - عليه السلام - ولم يأت شيء منه عن تكليم أو إلهام^(٤) أو منام ، بل كله أوحى به في اليقظة وحيًا جليًا ، ولا يخالف هذا ما ورد في صحيح .. عن أنس - رضى الله عنه - قال : « بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ أغفى لإغفاءة^(٥) .. ثم

(٢) وذلك كما في حديث جبريل المشهور الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما ففي رواية لمسلم « بينما نحن عند رسول الله إذ طلع علينا رجل ... ولا يعرفه منا أحد ، وفي الصحيحين أن النبي قال لأصحابه ، ردوا على الرجل ، فذهبوا فلم يجدوه فقال : « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم »

(٣) الفصم : القطع من غير إبانة ، والتعبير به في هذا المقام صادف عز البلاغة ، لأنه ينقطع عنه صلى الله عليه وسلم ليعود إليه . أما الفصم - بالاقاف - فهو القطع مع الإبانة .

(٤) سنفصل الكلام عن الوحي وكيفية آياته فيما يأتي :

(٥) يقال . أغفى لإغفاءة ، أى (نام نومة خفيفة)

رفع رأسه مبتسماً ، فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال . إنه نزل على أنفأ سورة ، فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك السكوتر ، فصل لربك وانحر ، إن نباتك هو الأبر » .

إذ ليس المقصود بـ « الإغفاءة في الحديث . النوم ، وإنما المقصود . الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي ، وهي الغيوبة عما حوله .

وقد ذكر العلماء . أنه كان يؤخذ عن الدنيا ، وبهذا يفسر أيضاً ما ورد في بعض روايات هذا الحديث : أنه أغشى عليه .

وقال « السيوطي » ، في « الإتيقان » ، ^(١) بعد أن ذكر : أن من كيفيات الوحي تكليم الله إما في اليقظة وإما في المنام . « وليس في القرآن من هذا النوع شيء . - فيما أعلم - نعم يمكن أن يعد منه آخر سورة « البقرة » ، لما تقدم ^(٢) ، وبعض سورة « الضحى » ، و « ألم نشرح » ، فقد أخرج « ابن أبي حاتم » ، من حديث « عدى بن ثابت » قال . قال رسول الله ﷺ . سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سأله ، فقلت . أي رب ، اتخذت إبراهيم خليلاً ، وكلمت موسى تكليماً ، فقال . يا محمد ، ألم أجدك يتيماً فتأويت ، وضالاً فهديت ، وعائلاً فأغنيت ، وشرحت لك صدرك ، وحططت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، فلا أذكر إلا ذكرت معي » .

وما أشار إليه فيما تقدم ؛ هو ما أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود قال . « لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى إلى سدره المنتهى .. الحديث ، وفيه . « فأعطى رسول الله ﷺ منها ثلاثاً . أعطى الصلوات الخمس ، وأعطى خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك - من أمته - بالله شيئاً .. المقححات » . وفي « الكامل » ، للذهلي . نزلت « آمن الرسول » إلى آخرها بقاب قوسين » ^(٣) .

(٢) يعني في كتابه الاتقان

(١) الاتقان - ١ ص ٤٥

(٣) الاتقان - ١ ص ٢٣

وأعقب على ما ذهب إليه الإمام « السيوطى » ، إمكاناً . بأن رواية « مسلم » ، ليس فيها تصريح بنزول خواتيم سورة « البقرة » ، عن طريق تكليم الله . ففعل المراد بإعطائه إياها . لإعلام الله له باختصاصه ﷺ وأُمته بما تدل عليه ؛ تمنناً عليه فى هذا الموقف العظيم .. ألا ترى . أنه أعطى الصلوات الخمس ، وفرضت ؛ مع أنها لم ينزل فيها قرآن هذه الليلة ، وليس فى رواية الهذلى على فرض صحتها التصريح بنزول الآيتين عن طريق التكليم . وأيضاً فالإسراء والمعراج كان قبل الهجرة بمكة ، وسورة البقرة كلها مدينة ، فكيف تنزل خواتيمها بمكة ؟ !

وأما حديث « عدى بن ثابت » ، الذى أخرجه ابن أبى حاتم ، فليس فيه أن الله أنزل هذه الآيات وإنما كل ما فيه . التمنن عليه بالمنن التى ذكرت فى هذه الآيات ولا سيما وألفاظ الحديث مغايرة للنص القرآنى للآيات ، مما يستبعد معه أن تكون الآيات نزلت فى هذا التكليم . فالحق ما قاله الإمام « السيوطى » ، أولاً ، وهو أنه ليس فى القرآن من هذا النوع شئ .

تلقى النبى القرآن عن جبريل وهو على ملكيته

والذى نقطع به — والله أعلم — أن القرآن الكريم كله نزل فى الحالة الأولى ، وهى الحالة التى يكون فيها جبريل على ملكيته ، وتحول النبى ﷺ من البشرية إلى الملائكية ، وهذا هو الذى يليق بالقرآن الكريم ، ونفى أى احتمال ، أو تلبيس فى تلقيه . ولم أقف قط على رواية تفيد نزول شئ من القرآن عن طريق جبريل ، وهو فى صورة رجل ، وكل ما جاء من ذلك فى الأحاديث الصحاح كحديث جبريل المشهور وسؤاله النبى ﷺ عن الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، والساعة ، وأشراطها فإنما هو فى وحى السنة لا فى وحى القرآن .

نعم هناك قرآن لا تصل إلى حد الأدلة تدل على نزول القرآن بالطريق

الأول ، فمن ذلك قول الله تعالى ، « إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا » (١) أى ثقيلا نلقيه ، وثقيلا عليه ، وذلك إنما يكون في الحالة التي تسود فيها الملائكة عند تلقي الوحي ، وقيل ، ثقيلا العمل به ، والقيام بفرائضه وحدوده . وقيل ، ثقيلا من الوجهين معاً .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخارى عن ابن عباس في قوله تعالى « لا تحرك به لسانك لتعجل » (٢) به ، قال ، « كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، وكان مما يحرك شفثيه ... » (٣) وهذه الشدة لن تكون إلا في الحالة الأولى .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : سألت النبي ﷺ فقلت . هل تحس بالوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ ، « أسمع صلاصلا ، ثم أسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحي إلى إلا ظننت أن نفسى تقبض ، رواه أحمد ، وروى ابن جرير أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته ، وضعت جرائنها » (٤) فما تستطيع أن تحرك حتى يسرى عنه ، وعن زيد بن ثابت - رضى الله عنه - أنزل على رسول الله ﷺ ونغذه على نخدى ، فكادت ترض (٥) بنخدى (٦) .

وأيضاً فلو أنزل شيء من القرآن في الحالة وهى بحى جبريل عليه السلام في صورة رجل لكان هذا مثاراً للشك ، والتلبيس على ضعفاء الإيمان ، ولكان فيه مستند للمشركين في قولهم : « إنما يعلمه بشر ... » وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذا في قوله حكاية لمقالة المشركين ، « وادأ عليهم ، وقالوا ، لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا

(١) المزل ٥/ (٢) سورة القيامة ١٦ (٣) صحيح البخارى - باب كيف بدأ الوحي

(٤) الجزان ، باطن العنق (٥) تكسر عظامها

(٦) تفسير ابن كثير ٩ ص ٢٧ ٢٨٦

عليهم ما يلبسون^(١)،^(٢)، فكان من الرحمة بالعباد ، وعدم التلبس عليهم أن لا ينزل القرآن إلا في هذا الجو الملائكي ، الروحاني .

ما الذي نزل به جبريل على النبي ؟

الذي نقطع به ، أن ، القرآن الكريم ، كلام الله سبحانه ، وهو الذي يدل عليه قوله تعالى ، « وإن أحد من المشركين استجارك ، فأجره حتى يسمع كلام الله .. ثم أبلغه مأمنه »^(٣) . وأن القرآن لفظه ومعناه من عند الله — سبحانه — قال تعالى ، « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم »^(٤) . « حم . تنزيل الكتاب من العزيز العليم »^(٥) . وقال ، « وبالحق أنه نزلنا ، وبالحق نزل »^(٦) .

وأن الذي نزل به هو أمين الوحي جبريل — عليه السلام — قال تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك ، لتكون من المنذرين .. بلسان عربي مبين » ، وأن الذي نزل به جبريل هو هذا اللفظ العربي من غير أن يكون له فيه شيء ما ، ومن غير أن يزيد فيه حرفاً ، أو ينقص منه حرفاً . وكذلك ليس للنبي ﷺ في القرآن شيء إلا التبليغ ، وهذا هو الحق ، الذي يجب على كل مسلم أن يعتقد ويؤمن به ، ولا تلتفت إلى ما زعمه بعض ما يعرف بما لا يعرف ، أو من يفترى ويخترق ، من أن جبريل أوحى إليه المعنى ، وأنه عبر بهذه الألفاظ الدالة على المعاني بلغة العرب ثم نزل على النبي كذلك . أو أن جبريل أوحى إلى النبي ﷺ المعنى ، وأن النبي عبر عن هذه المعاني بلفظ من عنده^(٧) ، متمسكاً بظاهر قوله تعالى : « نزل به

(١) سورة الأنعام ٨ ٩

(٢) لقضى الأمر بإهلاكهم ، فقد جرت سنة الله مع الكافرين أنهم إذا سألوا أسئلة تننتية ، ثم أجيبوا أن يهلكهم

(٣) سورة النبوة الآية ٥ (٤) سورة الزمر الآية ١

(٥) سورة غافر الآية ٣٦ ٢٦١ (٦) سورة الاسراء الآية ١٠٥

(٧) الإتيان ج ١ ص ٤٣ . وقد ذكر السوطي ذلك ناقلاً ، وفاته أن يعقب عليه بالبطان .

الروح الامين على قلبك لتسكون من المنذرين بلسان عربى مبين ، (١) ، فإنه زعم وحرص لم تقم عليه أثارة من علم ، وما تمسك به هذا الزاعم من الآية لا يشهد له : فإن القلب كما ينزل عليه المعنى ، ينزل عليه اللفظ ، وإثمة أثر الحق تبارك وتعالى هذا التعبير للدلالة على أن القرآن كما وعته الأذنان ، وعاه القلب اليقظان .

وهذا القول ، خلاف ما تواتر عليه القرآن والسنة ، وانعقد عليه إجماع الأئمة : من أن القرآن - لفظه ومعناه - كلام الله ، ومن عند الله . ولو جاز هذا الزعم . لما كان القرآن معجزاً ، ولما كان متعبداً بتلاوته .

وهذا الزعم ، لا يقول به إلا جاهل . استولت عليه الغفلة ، أو زنديق يدس في الدين والعلم ما ليس منه ، ولا تغتر بوجوده في بعض المكتبة الإسلامية فأغلب الظن : أنه مفسوس على الإسلام والمسلمين . وإنا لنبرأ إلى الله أن يقول هذا عالم ، مسلم ، مثبت .

وقد بلغ النبي - صلى الله عليه وسلم - القرآن كما نزل إلى الأمة من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تحريف ولا تبديل ، ولا كتمان لشيء منه ، ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي ، لسكنم الآيات التي فيها عتاب له وتنبية بلطف إلى ترك الأولى في باب الاجتهاد ، وبحسبك أن تقرأ معى قول الله عز وجل : « يا أيها الرسول ، بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » (٢) . وقول الله سبحانه : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا : انت بقرآن غير هذا ، أو بدله ، قل : ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسه إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، إني

(١) سورة الشعراء ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥

(٢) سورة المائدة الآية ٦٧ .

أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، (١) . وقوله تعالى : «ولو تقول علينا بعض الأقاويل . . لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فامنكم من أحد عنه حاجزين ، (٢) .

نزول جبريل بالسنة ٣ :

وما ذكرنا . من محافظة جبريل - عليه السلام - على تبليغ اللفظ كما سمعه ، من غير تغيير . . حتى ولو كان اللفظان بمعنى واحد . . إنما هو فيما يتعلق بتبليغ « القرآن » . أما وحى « السنة » ، فلا يلتزم فيه جبريل - عليه السلام - اللفظ الذى سمعه ، لأن تبليغ « السنة » مبناه . المعنى لا اللفظ ، إذ ليس لفظها معجزاً ، ولا متعبداً بتلاوتها كالقرآن .

ولالإمام « الجوينى » فى هذا المقام كلام حسن ، ذكره « السيوطى » فى « الإتيقان » (٤) ، وعلق عليه .. وإليك هذا الكلام .

قال « الجوينى » : « كلام الله المنزل قسمان . قسم قال الله لجبريل : قل للنبي الذى أنت مرسل إليه إن الله يقول : افعل كذا - وكذا وأمر بكذا ففهم جبريل ما قاله ربه ، ثم نزل على ذلك إلى النبي وقال له . ما قاله ربه ، ولم تسكن العبارة تلك العبارة . . كما يقول الملك لمن يثق به . قل لفلان . يقول لك الملك . اجتهد فى الخدمة ، واجمع جنودك للقتال ، فإذا قال الرسول يقول لك الملك . لا تنهون فى خدمتى ، ولا تترك الحند تتفرق ، وحنهم

(١) يونس الآية ١٥ .

(٢) الحاقة الآية ٤٤ - ٤٧ . ومعنى باليمين : أى لا نقمنا منه بالقوة ، والوتين هرق متصل بالقلب إذا قطع مات الإنسان

(٣) السنة النبوية : بعضها بالوحى وبعضها بالاجتهاد على ما هو التحقيق وكلامنا هنا - فيما كان منها بوحى

(٤) الاتقان : ج ١ ص ٤٤

على المقاتلة . . لا ينسب إلى كذب ، ولا تقصير في أداء الرسالة .

وقسم آخر . قال الله لجبريل . اقرأ على النبي هذا الكتاب ، فنزل جبريل بكلمه من الله . . من غير تغيير كما يكتب الملك كتابا ويسله إلى أمين ، ويقول ، اقرأه على فلان ، فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفا . قال السيوطي ، قلت . القرآن هو القسم الثاني ، والقسم الأول هو السنة ، كما ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ، ومن هنا . جازرواية السنة بالمعنى ، لأن جبريل أداها بالمعنى ، ولم تجز القراءة بالمعنى لأن جبريل أداءه باللفظ ، ولم يبح له إحاؤه بالمعنى ، والسرف في ذلك . أن المقصود منه ، التعبير بلفظه ، والإعجاز به ، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه ، وأن تحت كل حرف منه معاني ، لا يحاط بها كثرة ؛ فلا يقدر أحد أن يأتي بما يشتمل عليه ، والتخفيف على الأمة ، حيث جعل المنزل إليهم على قسمين ، قسم يروونه بلفظه الموحى به ، وقسم يروونه بالمعنى ؛ ولو جعل كله مما يروى باللفظ لشق ، أو بالمعنى لم يؤمن التبديل والتحريف ، فتأمل ، وسئل الزهري عن الوحي فقال ، الوحي ما يوحى الله إلى نبي من الأنبياء ، فيثبته في قلبه ، فيتكلم به ويكتبه وهو كلام الله ، ومنه ما لا يتكلم به ، ولا يكتبه لأحد ، ولا يأمر بكتابته ، ولكنه يحدث به الناس حديثا ويدين لهم أن الله أمره أن يبينه للناس ويبلغهم إياه

« وحي السنة » ، أما وحي السنة فنه ما يكون عن طريق أمين الوحي جبريل ؛ وفي إطار الحالة الأولى ، وهي الحالة الملائكية وذلك كما في قصة يعلى بن أمية ، روى البخاري في صحيحه بسنده عن يعلى قال لعمر - رضي الله عنه - أرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يوحى إليه ، قال ، فبينما النبي في الجعرة جاءه رجل فقال ، يا رسول الله كيف ترى في رجل أحرم بعمره ، وهو متضمن بطيب ، فسكت النبي ساعة ، فجاءه الوحي ، فأشار عمر - رضي الله عنه - إلى يعلى ، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوب قد أظلم به ، فأدخل رأسه ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم

محمّر الوجه ، وهو ينفط ، ثم سرى عنه ، فقال . أين السائل عن العمرة ،
فأتى برجل . فقال . اغسل الطيب الذى بك ثلاث مرات . وانزع عنك
الجبة . واصنع فى عمرتك كما تصنع فى حجّتك .

وبعضه فى إطار الحالة الثانية كما فى حديث جبريل . وبعضه بالمسكاة
كما حدث ليلة الإسراء والمعراج . وبعضه بالإلهام والنام . وبعضه بالقذف
فى القلب . وسواء أكانت السنة بوحي جلي . أو خفي فلفظها من عند النبي
صلى الله عليه وسلم .

« حكم نزول القرآن منجها مفرقاً »

لنزول القرآن الكريم على النبي - صلى الله عليه وسلم - مفرقاً . حكم
كثيرة . وأسرار عديدة نجمها فيما يأتى .
الحكمة الأولى .

تثبيت فؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - وتطمين قلبه وخاطره وهى
ما أشار إليها الحق - تبارك وتعالى - فى رده على المشركين أو اليهود حيث
قال : « كذلك لتثبت به فؤادك . ورتلناه ترتيلاً » (١) وهذه الحكمة من أجل
الحكم وأعظمها : ولذا ذكرها الله أول ما ذكر فى الرد على هؤلاء .
ويندرج تحت هذه الحكمة :

١ - تثبيت فؤاد النبي ، وتقوية قلبه . وإلهاب حماسه ، وتسليته ،
وذلك بسبب تكرّر نزول الوحي ، وتوالى آياته وما اشتملت عليه الآيات
من أن رسالته حق لا شك فيها ، وأن العاقبة للمتقين ، والنصر إنما هو
للائبياء وأتباعهم ، وأن الله مؤيده وناصره ، وكان النبي - صلى الله عليه
وسلم - كثيراً ما يتحسر ويحزن ، لعدم إيمان قومه ، كما قال تعالى .
« فلعنك باخع نفسك على آثارهم . إن لم يؤمنوا بهذا الحديث

أسفاً، (١). فكانت تنزل عليه الآيات، مسلمية له، فتارة تنهاه أن يذهب نفسه عليهم حسرات، كما قال تعالى: «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون»، (٢).

وتارة يبين له: أن هدايتهم إنما هي على الله. وإنما عليك البلاغ كما قال تعالى: «ليس عليك هدام، ولكن الله يهدي من يشاء»، (٣). «إنك لا تهدي من أحببت.. ولكن الله يهدي من يشاء»، (٤). وقال: «فإنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب» (٥).

وكان كلما آذاه قومه ونالوا منه، وسفهاوا عليه، نزلت الآيات داعية له إلى التحمل والصبر والثبات عليه، وأن العاقبة للصابرين، كما قال تعالى: «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل»، (٦). «واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم، ولا تك في ضيق مما يمكرون»، (٧). وقال: «واصبر، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين»، (٨):

وتارة تنزل الآيات قاصة على النبي أخبار الأنبياء، مع أممهم وما لاقوه منهم من عنت ومشقة، وكيف كان تحملهم من أقوامهم، وما آل إليه أمرهم من الفوز والنصر على الأعداء والمكذبين وذلك.. مثل قصص «نوح»، و«إبراهيم»، و«لوط»، و«هود»، و«صالح»، و«موسى»، وما لاقاه من بني إسرائيل. وقد ذكر الله ههنا في قوله: «وكلنا نقص عليك من أنباء الرسل. ما نثبت به فؤادك»، (٩).

وحينئذ آخر — تنزل الآيات بوعيد المكذبين للأنبياء، والمناهضين لدعوتهم

(١) باخع نفسك: قاتلها غما وحزنا. سورة الكهف الآية ٦

(٢) سورة فاطر الآية ٨ (٣) سورة البقرة الآية ٢٧٢

(٤) القصص الآية ٥٦ (٥) الرعد الآية ٤٠

(٦) الاحقاف الآية ٣٥ (٧) النحل الآية ١٢٧

(٨) هود الآية ١١٥ (٩) هود الآية ١٢٠

كما قل تعالى : أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا . وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ، ^(١) . وقال : « فإن أعرضوا : فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، ^(٢) . « قل للذين كفروا : إن يذنبوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا : فقد مضت سنة الأولين ^(٣) . وآونة .. كانت تنزل الآيات بالحجج والبراهين ، مبطللة لعقائدهم الزائفة ، ورادة عليهم ما يتمسكون به من شبه واهية ، كآيات الواردة في إثبات الله وصفاته وتوحيده ، واستحقاقه للعبادة ، وإثبات البعث والحشر ، وأحوال اليوم الآخر ، وإثبات رسالة الرسل وحاجة البشر إليهم . وكان من ثمرة هذا التثبيت : أن أبدى النبي غاية الثبات والشجاعة ، والوثوق بالله تعالى في أخرج المواقف ، وأشدّها هولا : ألا ترى إلى قوله للصدّيق في الغار : « لا تحزن ؛ إن الله معنا ، وإلى ثباته يوم « أحد » ، و« حنين » ، يدعو إلى الله ، وقد فر عنه الكثيرون فما زاده ذلك إلا إيمانا وثباتا .

٢ — تيسير حفظه وفهمه على النبي - ﷺ - فقد كان النبي حريصا على ذلك غاية الحرص ، ولقد بلغ من حرصه أنه كان لا ينتظر حتى يفرغ « جبريل » من قراءته ، بل كان يتمجّل القراءة ، فأنزل الله عليه : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه ، وقل رب زدني علما » (٤) وقوله : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرأانه ، ثم إن علينا بيانه » (٥) فضمن الله لنبية الحفظ والفهم . وطبعي . . أن نزول القرآن مفرقا أدعى إلى سهولة حفظه وفهمه ، وأيسر وأوفق بالفطرة البشرية .

(١) سورة الاعراف الآية ٩٧ - ٩٨

(٢) . فصلت الآية ١٣

(٣) . الانفال الآية ٣٨

(٤) . طه الآية ١١٤

(٥) سورة القيامة الآية ١٧ - ١٩

وهذا المعنى الذى أراد الحق سبحانه - فيما أراد من حكم لنزول القرآن منجما ومفراقا قطعاً - هو غاية ما وصل إليه أهل التربية فى حفظ النصوص الطويلة ، وتسهيل فهمها . وهذا المعنى التربوى ما كان يحول بخاطر بشر فى هذا العصر ، وفى هذه البيئة البدوية ، مما يدل على أن منزل القرآن على هذه الطريقة البديعة هو الله .. العالم بالطبائع البشرية ، والنفوس وأسرارها ..
الحكمة الثانية :

التدرج فى تربية الأمة دينياً وخلقياً واجتماعياً ، وعلمياً وعملاً . وهذه الحكمة هى التى أشار إليها الحق - تبارك وتعالى - بقوله : « وقرآنا فرقناه ، لتقرأه على الناس على مكث .. ونزلناه تنزيلاً (١) » . ويندرج تحت هذه الحكمة ما يأتى :-

١ - التدرج فى انتزاع العقائد الفاسدة ، والعادات الضارة والمنكرات الماحقة ، فقد بعث النبي - ﷺ - إلى قوم يعبدون الأصنام ، ويشركون بالله غيره ، ويسنسكون الدماء ، ويشربون الخمر ، ويزنون ، ويغتصبون الأموال ، ويندون البنات ، خشية العار ، ويقتلون الأولاد خشية الفقر ، ويظلمون النساء ، ويتزوجون نساء الآباء ، ويجمعون بين الأختين ، كما كانوا يتظالمون ، وتقع بينهم الحروب لأوهى الأسباب كثافة رعت من حمى ، أو سبق فرس ، أو نحو ذلك . وكانت الحروب تدوم بينهم عشرات الأعوام حتى تأكل الأخضر واليابس ، وكان التكافل والتعاون بينهم يكاد يكون معدوماً ، فلا تراحم بين الأغنياء والفقراء ولا بين السادة والعبيد ، ولا بين الأقوياء والضعفاء .

ومعلوم : أن النفس يشق عليها ترك ما تعودته مرة واحدة « وشديد عادة منتزعة » ، والإقلاع عما اعتقده بمجرد النهى عنه ، لأن للعقائد - حتى ولو كانت باطلة - وللعادات - ولو كانت مستهجنة - سلطاناً على النفوس ، والناس أسراء ما ألفوا ، ونشأوا عليه ، فلو أن القرآن نزل جملة واحدة ، وطالبهم بالتخلي عما هم منغمسون فى حماته من كفر وجهل ومنكرات ، مرة

واحدة لما استجاب إليه أحد ، ولما وفق الرسول في أداء مهمته ، ولعاد ذلك بالنقض على الشريعة الجديدة .

لذلك اقتضت حكمة الله - سبحانه - ولله الحكمة البالغة - أن يتدرج معهم في انتزاع هذه العقائد والمنكرات ، فينهاهم عن عبادة غير الله ، فإذا ما أقلعوا عنه ، أخذ في النهي عن منكر غيره .. وهكذا .

وكذلك كان القرآن يتدرج معهم في انتزاع المنكر الواحد ، كما حدث في تحريم الخمر . فقد نزل فيها أول ما نزل : « ويسألونك عن الخمر والميسر قل : فيها إثم كبير ، ومنافع للناس .. » (١) فشرها قوم ، وتركها آخرون ثم إن بعض المسلمين صنع طعاماً ، ودعا أصحابه : فأكلوا وشربوا ثم قام أحدهم ليصلي بهم ، فقرأ : « قل يا أيها الكافرون ، أعبد ما تعبدون ، فأنزل الله - سبحانه - « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى .. الآية » (٢) فكانوا يتركونها عند الصلوات ، وفي الأوقات القريبة منها .. حتى لا يقعوا في مثل هذا الخاطئ .

وبذلك .. صار من السهل تحريمها تحريماً باتاً قاطعاً : فقد صنع بعض المسلمين طعاماً ، فأكلوا وشربوا حتى لعبت الخمر برءوسهم فتقاولوا الأشعار فتشاجروا حتى شبع أحدهم رأس الآخر ، فقال الفاروق « عمر : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافياً .. ! » فخرمها الله تحريماً باتاً بقوله : « يا أيها الذين آمنوا ، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه ، لعلكم تفلحون » (٣) إلى قوله « فهل أنتم متهمون ، فقال « عمر : انتهينا » (٤) فمن ثم .. اقتضت الحكمة نزول القرآن مفزقاً .

٢ - التدرج في تثبيت العقائد الصحيحة ، والأحكام التعبدية والعملية والآداب والأخلاق الفاضلة ، فأمرهم أولاً : بالإيمان بالله وصفاته وعبادته

(١) البقرة الآية ٢١٩

(٢) النساء الآية ٤٣

(٣) سورة المائدة الآية ٩٠ ، ٩١

(٤) أنظر تفاسير : الكشاف ، وابن كثير ، والقرطبي ، والالوس في آيات الخمر

وحده ، حتى إذا ما آمنوا بالله . دعاهم إلى الإيمان باليوم الآخر ، ثم بالإيمان بالرسول ، والملائكة ، حتى إذا ما اطمأنت قلوبهم بالإيمان وأشربوا حبه ، سهل عليهم بعد ذلك تقبل الأوامر والتشريعات التفصيلية ، والأحكام العملية والفضائل والآداب العالية ، فأمرُوا بالصلاة والصدق والعفاف ، ثم أمرُوا بالزكاة ، ثم بالصوم ، ثم بالحج . وبينهم لهم أحكام النكاح والطلاق والرجعة والمعاملات : من بيع وشراء ، وتجارة ، وزراعة ، ودين ورهن .. إلى غير ذلك من المعاملات الصحيحة منها وغير الصحيحة .

ولذلك كان مدار الآيات في القسم المسكى على إثبات العقائد والفضائل التي لا تختلف باختلاف الشرائع . بخلاف القسم الممدنى ، فكان مدار التشريعات فيه على الأحكام العملية وتفصيل ما أوجله قبل ذلك .

وقد أشارت السيدة العاقلة ، التي تربت في منزل الوحي وعائشة ، رضى الله عنها - إلى هذه الحكمة ، فقالت - كما ورد في صحيح البخارى - : « إنما نزل من القرآن أول ما نزل منه سورة (١) من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء . لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لاندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا تزنا . لقالوا : لاندع الزنا أبداً ، (٢) »

ولاشك . أن من طبيعة التدرج نزول آيات القرآن ، وسوره بعضها فى أثر بعض ، وقد دل القرآن بهذه السياسة الرشيدة فى إصلاح الشعوب وتهذيبها على أنه معجز ، وأنه من عند الله ، فما كان لبشر - مهما كان ذكياً - أن يتوصل إلى هذه الطرق الحكيمة فى ذلك الوقت ، الذى بعث فيه النبي - ﷺ - وإنما ذلك من صنع الحكيم العليم الخبير .

(١) لعل مرادها - سورة المدثر ، فإنها أول ما نزلت بعد فترة الوحي ففهمنا الأمر بتوحيد الله ، وذكر الجنة والنار ، أو أن مرادها بالسورة الجنس أى سور من المفصل ، وسور المفصل تدور حول تثبيت العقائد والفضائل .

(٢) صحيح البخارى - كتاب فضائل القرآن - باب تأليف القرآن

(٣) تيسير حفظه وفهمه على الأمة ، فقد أوجب الله على المسلمين حفظ ألفاظه ، كما أوجب عليهم فهم معانيه ، قال تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ، ليدبروا آياته ، وليتذكر أولوا الألباب » (١) . « أفلا يتدبرون القرآن . . أم على قلوب أقفالها » (٢) .

وقد ابتلى المسلمون في مكة بالمشركين ، كما ابتلوا في المدينة باليهود والمنافقين هذا إلى اشتغالهم بأمور معاشهم ، وبإقامة الدين ، ونشر الإسلام ، والدفاع عن دعوته ، فلو نزل القرآن مرة واحدة لما أمكنهم حفظه ولا فهمه مع وجود هذه الملابسات والظروف المحيطة بهم .

لذلك ، اقتضت حكمته أن ينزل القرآن مفرقاً ، حتى إذا ما نزلت قطعة منه أمكنهم أن يحفظوها ويحيدوا فهمها .

(٤) تثبت قلوب المؤمنين ، وتعويدهم على الصبر والتحمل بذكر قصص الأنبياء ، والسابقين الفينة بعد الفينة ، وتذكيرهم . بأن النصر مع الثبات والصبر وأن العاقبة للمتقين ، والخذلان والخسران للكافرين . إقرأ — إن شئت — قوله تعالى : « أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ، متى نصر الله . . ؟ ألا أن نصر الله قريب » (٣) ، فقد ذكر « عطاء » أن المسلمين لما هاجروا إلى المدينة ، وتركوا الأهل والوطن والمال ، وآثروا رضا الله ورسوله ، وتعرضوا لآلوان من الإيذاء والجهد والفقر والمرض ، ومعاداة اليهود ، والمنافقين لهم . . شق ذلك على نفوسهم ، فأنزل الله هذه الآية .

وقال تعالى : « أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » (٤) ، وقال تعالى : « ألم . أحسب الناس أن يتركوا ،

- | | |
|---------------------------|-----------------------------|
| (١) سورة ص الآية ٢٩ . | (٢) سورة محمد الآية ٢٤ |
| (٣) سورة البقرة الآية ٢١٤ | (٤) سورة آل عمران الآية ١٤٢ |

أن يقولوا . آمنا ، وهم لا يثبتون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلن الله
الذين صدقوا ، وليعلن الكاذبين (١) .

بل اقرأ هذا الوعد الذى يستحث الهمم ، ويقوى العزائم . « وعد الله
الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف
الذين من قبلهم ، ولئيمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلهم من بعد
خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً » (٢) .

وطبعى .. أن دواعى هذا التذكير والإرشاد والتوجيه لم تكن فى وقت
واحد ، بل كانت فى أزمنة متعددة متفاوتة ، فاقضى ذلك نزول القرآن
مفرقا على حسب ذلك .

الحكمة الثالثة :

مجاراة الحوادث والنوازل والأحوال والملايسات فى تفرقها وتجدها
وهذه الحكمة هى التى أشارت إليها الآية الكريمة فى قوله تعالى : « ولا
ياتونك بمثل إلا جئناك بالحق ، وأحسن تفسيراً » .
ويندرج تحت هذه الحكمة ما يأتى :

١ - بيان حكم الله - سبحانه وتعالى - فى الأفضية والوقائع التى
تحدث بين المسلمين ، فقد اقتضت رحمة الله بعباده : أنه كلما وقعت واقعة لم
يكن حكمها معروفاً عند المسلمين أن تنزل الآية أو الآيات عقبها ، مبينة حكم
الله فيها ، ومثال ذلك : حادثة الإفك ، فقد نزلت فيها آيات من فوق سبع
سموات ، ببراءة السيدة الحصان الرزان (٣) « عائشة - رضى الله عنها -
وإدانة الذين رموها بدون شهود وبينة ، وبيان حكم الله فيهم ، وهى قوله
تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم ،

(١) سورة العنكبوت الآية ٢ - ٣

(٢) سورة النور الآية ٥٥

(٣) سورة الفرقان الآية ٣٣

(٤) الحصان : المغيفة ، الرزان : العاقلة .

بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم . . . إلى قوله : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته . . وأن الله رؤوف رحيم »^(١) .
ومثل حادثة ، خولة بنت ثعلبة ، التي ظاهر منها زوجها ، أوس بن الصامت أي قال لها : « أنت على كظهر أمي » ، فجاءت تشتكي إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وتقول : « إن أوساً أخذني وأنا شابة مرغوب في ، حتى كبر سني ونثرت^(٢) له بطني ظاهر مني ، وأن لي أولاداً إن ضممتهم إلى جاعوا ، وإن ضممتهم إليه ضاعوا » فقال رسول الله : « ما أراك إلا قد حرمت عليه ولم أومر في شأنك بشيء . . فجعلت تجادل رسول الله وتحاوره ، رغبة منها أن يجد لها مخرجاً في عشرة زوجها ، فأنزل الله — سبحانه — أول سورة « المجادلة » ، ببيان حكم الظهار في الإسلام : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ، وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير ، إلى قوله تعالى : « وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم »^(٣) . . وغير ذينك كثير .

وطبعي . . أن الحوادث لم تكن تقع في وقت واحد ، فنزل القرآن في هذه الحوادث مفزقاً لذلك .

٢ — إجابات السائلين على أسئلتهم التي كانوا يوجهونها إلى النبي ﷺ سواء أ كانت هذه الأسئلة لغرض التثبت وللتأكد من رسالته ، أم كانت للاسترشاد والمعرفة .

ومن النوع الأول . قوله تعالى « ويسألونك عن الروح » ، قل : الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً^(٤) ، وقوله : « ويسألونك عن خذي القرنين قل : سأتلو عليكم منه ذكراً ... الآيات »^(٥) .

(١) سورة النور الآية ١١ — ٢٠

(٢) أي أنجبته له أولاداً ، وهو من الكنايات البديعة

(٣) سورة المجادلة ١ — ٤ (٤) الإسراء الآية ٨٥

(٥) الكهف الآية ٨٣ وما بعدها

ومن الثانى : قوله تعالى : « يسألونك عن الالهة .. قل هى مواقيت للناس والحج » (١) ، وقوله : « يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : ما أنفقتم من خير فلولوا الدين والأقربين ، واليتامى ، والمساكين وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير ، فإن الله به عليم » (٢) ، وقوله : « يسألونك عن الخمر ، والميسر ، قل فىهما إثم كبير ، ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ، ويسألونك : ماذا ينفقون ؟ قل العفو » (٣) .

وطبعى .. أن هذه الأسئلة لم تكن فى وقت واحد ، بل كانت تحدث متفرقة فكان نزول القرآن مفرقاً لذلك .

(٣) تنبيه المسلمين من وقت لآخر إلى أخطائهم وأغلاطهم ، وتحذيرهم من معاودتها والوقوع فيها ، وذلك مثل ما حدث فى « أحد » ، فقد خالف الرماة نصيحة رسول الله ، متأولين ، فكانت النتيجة : أن أتى المسلمون من جهنم وأن شاعت الهزيمة بينهم ، وشج وجه النبى ، وكسرت رباعيته ، واستشهد منهم عدد كثير ، فأنزل الله فى ذلك آيات عدة ، مسجلة الأغلاط ، وعبرة لهم من المخالفة ، والفرار عند اللقاء .. اقرأ — إن شئت — قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بأذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيت من بعد ما أراكم ماتحبون .. » الآيات (٤) .

ومثل ما حدث فى « حنين » ، فقد اغتر المسلمون بكثرتهم ، حتى قال قائل فى هذا اليوم : « لن نهزم من قلة » . ولم يعتمدوا على الله حق الاعتماد فى طلب النصر ، فكانوا أن منوا بالهزيمة أولاً ، ولولا تدارك الله تعالى لهم

(١) سورة البقرة ١٨٩ (٢) سورة البقرة ٢١٥

(٣) سورة البقرة ٢١٩

(٤) سورة آل عمران الآية ١٥٢ وما بعدها .

لهم برحمته ، وثبات النبي ﷺ وحوله فتنة قليلة من أبطال أصحابه ، وإنزال
الملائكة مشبته لقلوبهم ومقوية لروحهم لسكانت الهزيمة . اقرأ معنى قول
الله سبحانه « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين ، إذ أعجبناكم
كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضائق عليكم الأرض بما رحبت ، ثم
وليتهم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين ، وأنزل
جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين ، ثم
يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم » (١) .

وقد كانت « حنين » درساً .. تعلم منه المسلمون : أن النصر ليس بالعدد
والعدة فحسب ، وإنما هو من عند الله ، وأن الاعتزاز ليس من خلق
المسلم ، وأن الأسباب العادية لا ينبغي أن تشغل المسلم عن اللجوء إلى الله :
« وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » . (٢)

ومثل ما حدث من « حاطب بن أبي بلتعة » قبيل الفتح ؛ فقد كان
رسول الله حريصاً على أن تتم غزوة الفتح في سرية تامة ، ولكن حاطباً
كان له أهل في مكة وكانوا ضعفاء ، فأحب أن تكون لهم يد على قريش
كي يكرموا أهله ، فأرسل إلى قريش رسالة في السر يخبر الغزوة ، ولكن
الوحي نزل مخبراً لرسول الله ، فأرسل من أحضر الرسالة ، وقد حاول
بعض الصحابة قتله ، زاعماً : أنه بعمله صار منافقاً ، ولكن الرسول ﷺ
لما استمع إلى وجهة نظره وعلم صدقه عفا عنه ، وأنزل الله في ذلك آيات
وهو قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء
تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق : يخرجون الرسول
وإياكم ، أن تؤمنوا بالله ربكم ؛ إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي ، وابتغاء
مرضاتي ، تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن
يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ... » (٣) الآيات .

(١) سورة التوبة ٢٥-٢٧ (٢) سورة آل عمران ١٢٦

(٣) الممتحنة الآية الأولى وما بعدها .

ومعلوم : أن هذه الأغلاط لم تقع في وقت واحد : فكان نزول القرآن مفرقاً لذلك .

٤ - تحذير المسلمين من المنافقين ، والكشف عن خبيثة نفوسهم فقد كانوا بحكم تظاهرهم بالإسلام ، يختلطون بالمسلمين ، ويطلعون على أسرارهم وأحوالهم فينقلونها إلى الأعداء ، أو يرجفون بها في المدينة ، فكان ضرر هؤلاء المخالطين المداجين على المسلمين أشد من ضرر الأعداء المكاشفين ، فلا عجب أن كشف الله أستارهم ، وشنع عليهم أشد التشنيع في كثير من الآيات ، فقد كان لهم بالمرصاد ، فكلما يبتوا أمراً أطلع الله عليه رسوله والمؤمنين ، أو كادوا مكيدة ردها الله في نحورهم ، أو أخفوا قولاً أظهره الله . وطبعي أن هذه الأمور المبيتة ، والمسكايد المدبرة ، والاقوال السيئة التي كانت تصدر عنهم لم تكن في وقت واحد ، بل كانت في أزمنة متفرقة ، فمن ثم جاء القرآن مفرقاً .

وإن شئت أمثلة لما كان يفعله المنافقون . ويقولونه ، وإظهار الله لحالهم ، فاقراً معي - قول الله - سبحانه - : ومن الناس من يقول : آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين . إلى قوله : « إن الله على كل شيء قدير » (١) . وقوله : إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى .. الآيتين (٢) .

وقد أنزل الله في شأنهم سورة بتمامها ، وهى سورة «المنافقين» كما ذكر الكثير من أحوالهم في سورة «التوبة» . وما زال الله - سبحانه - يقول في هذه السورة ، ومنهم ... ومنهم ... حتى فضحهم أشد فضيحة ، وجعلهم مثلاً لسوء الطباع . والاختلاق ، والنذالة ، والدس ، والوقعة - في الأولين والآخرين .

(١) البقرة الآية ٨-٢٠

(٢) النساء الآية ١٤٢-١٤٣

الحكمة الرابعة :

بيان الإعجاز القرآن الكريم على أبلغ وجه وآكده ؛ لأن القرآن لو نزل جملة واحدة ؛ لقالوا : شيء جاءنا مرة واحدة ؛ فلا نستطيع أن نعارضه ، ولو أنه جاءنا قطعاً قطعاً لعارضناه فأراد ربك أن يقطع عليهم دابر المعذرة والتعلل ؛ فأنزله مفرقا .

وكان الله - سبحانه - يقول لهم - بعد نزول قطعة منه - : إن كنتم ترتابون في أن هذا المنزل على هذا الموضع من عند الله ؛ فأتوا أنتم بقطعة مشابهة له . وقد ذكرنا سابقاً : أن الله تحدى الناس كافة بالقرآن على مراتب متعددة ؛ كي تقوم عليهم الحجة تلو الحجة ، ولو أن القرآن نزل جملة واحدة لما أمكن تكرار التحدى في المرة بعد المرة ، وثبت عجزهم المرة تلو المرة .

وهكذا يتبين لنا : أن القرآن بنزوله منجماً قد أعطاهم بعد كل حجم فرصة يعارضون فيها ؛ فإذا ما عجزوا كان ذلك أدل على الإعجاز . وأقطع للمعذرة .

وأيضاً فالقرآن على نزوله مفرقا ، وتباعد ما بين أزمان النزول يكون سلسلة ذهبية مترابطة الحلقات متآخية الفقرات ، منسجمة الشكل ، لا تنبو كلمة عن كلمة ، ولا تنفر آية من آية بل كله في غاية الفصاحة والبلاغة والإحكام ، ولا يسمو بأسلوبه في بعض الآيات ، وينزل في البعض الآخر ولا تنبل الغاية والمقصد في بعض الآيات ، وتسف في البعض الآخر بما يدل أعظم الدلالة على أنه ليس من عند بشر .

ولو أنك نظرت في مؤلفات أديب من الأدباء ، مهما بلغ ، فإنك - لا شك - واجد تفاوتاً بيناً بين ما ألفه في أول حياته ، وما ألفه في آخر حياته ، سواء أكان في لفظه ومعانيه ، أم في أغراضه ومراميها ، أم في أسلوبه وتفكيره .

وإذا كان القرآن لم يأت على غرار ما يصنع البشر ، فقد تعين أن يكون من عند الله خالق القوى والقدر .

هذا .. وليست هذه نهاية الحكم ، فهناك لمن أحكم النظر ، وأجال البصر حكم ، وحكم .

تتمية :

الذى استقرىء من الأحاديث الصحيحة وغيرها ، أن القرآن كان ينزل به جبريل على النبي - صلى الله عليه وسلم - بحسب الحاجة : خمس آيات ، وعشر آيات ، وأكثر أو أقل .

وقد صرح نزول العشر الآيات فى قصة « الإفك » جملة ، وصح نزول عشر آيات من أول سورة « المؤمنون » جملة ، وصح نزول : « غير أولى الضرر ، وحدها ، فى قوله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين - غير أولى الضرر - والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم (١) ... الآية » وكذلك قوله : « وإن خفتم عيلة ؛ فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ؛ إن الله عليم حكيم (٢) » ، نزل بعد أن نزل أول الآية ، كما حرره الإمام « السيوطى » فى « أسباب النزول » ، وقد ورد فى بعض الآثار نزول بعض السور جملة واحدة كسورة « الإخلاص » و « الكوثر » و « المرسلات » .

ولا يخالف ما ذكرنا ما رواه البيهقى فى الشعب بسنده عن عمر قال : « تعلوا القرآن خمس آيات .. خمس آيات ؛ فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي - ﷺ - خمسا .. خمسا » وما أخرجه ابن عساكر من طريق أبى نضرة قال : كان أبو سعيد الخدرى يعلنا القرآن خمس آيات بالغداة ، وخمس آيات بالعشى ، ويخبر : أن جبريل نزل القرآن خمس آيات .. خمس آيات ، فإن المراد - إن صح - إلقاءه إلى النبي ﷺ هذا القدر ، حتى يحفظه ، ثم يلقى إليه الباقي . لا إنزاله بهذا القدر خاصة .

ويشهد لهذا التفسير ما أخرجه البيهقي عن أبي العالية قال : « تعلموا القرآن خمس آيات ، خمس آيات ؛ فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يأخذ من جبريل خمسا .. خمسا » ، ويصح أن يراد به : أن ذلك هو الغالب الكثير فلا ينافي حصول الوحي بأكثر أو بأقل .

وما كان لنا - وقد تكلمنا عن إنزال القرآن - أن نخفل الكلام عن « الوحي » إذ الإنزال متوقف على معرفة : معنى « الوحي » ، وكيفيته ، وإمكانه ووقوعه ، وهو ما سنتكلم عنه الآن .

« الوحي »

ما هو الوحي .. ؟

للوحي معنى في اللغة ؛ ومعنى في الاصطلاح ؛ أما في اللغة .. فأليك ما قاله العلماء في هذا : —

قال في « الأساس » : « أوحى إليه ؛ وأوى إليه بمعنى . ووحيت إليه ؛ وأوحيت . إذا كلمته بما تخفيه عن غيره . وأوحى الله إلى أنبيائه ؛ وأوحى ربك إلى النحل » (١) .

وفي القاموس المحيط : « الوحي : الإشارة والكتابة ؛ والمكتوب والرسالة ؛ والإلهام والكلام الخفي ؛ وكل ما ألقىته لغيرك » .

وقال الراغب : « أصل الوحي : الإشارة السريعة ؛ ولتضمن السرعة قيل : أمر وحي . يعني : سريع . وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعويض ؛ وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب ؛ وبإشارة بعض الجوارح وبالكتابة ؛ وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا - عليه السلام - : « فخرج على قومه من المحراب ؛ فأوحى إليهم : أن سبحوا بكرة وعشيا » (٢) ، أى أشار إليهم ولم يتكلم .

ومنه : الإلهام الغريزي ؛ كالوحي إلى النحل قال تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل (١) » ؛ وإلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة ؛ الطاهر الروح ؛ كالوحي إلى « أم موسى » ؛ ومنه ضده (٢) ؛ وهو وسوسة الشيطان قال تعالى : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم (٣) » وقال : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن ؛ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ! غرورا (٤) » ،

فالخلاصة في معنى الوحي اللغوي : أنه الاعلام الخفي السريع ؛ وهو أعم من أن يكون بإشارة أو كتابة أو رسالة ؛ أو إلهام غريزي ؛ أو غير غريزي وهو بهذا المعنى لا يختص بالأنبياء ؛ ولا بكونه من عند الله سبحانه وأما في الشرع : فيطلق ويراد به : المعنى المصدري . ويطلق ويراد به : المعنى الحاصل بالمصدر . ويطلق ويراد به : الموحى به .

ويعرف من الجهة الأولى : بأنه « إعلام الله أنبياءه بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع أو كتاب بواسطة أو غير واسطة ، فهو أخص من المعنى اللغوي لخصوص مصدره ومورده . فقد خص المصدر بالله سبحانه ؛ وخص المورد بالأنبياء .

ويعرف من الجهة الثانية : بأنه عرفان يحده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من عند الله ؛ سواء أكان الوحي بواسطة أم بغير واسطة .
ويعرف من الجهة الثالثة : بأنه ما أنزله الله على أنبيائه ؛ وعرفهم به من أنباء الغيب والسرائع والحكم . ومنهم من أعطاه كتاباً . ومنهم من لم يعطه .

(١) سورة النحل الآية ٦٨

(٢) الوحي المحمدي . ص ٢٧ (٣) الانعام الآية ١٢١

(٤) الانعام / ١١٢

أقسام الوحي الشرعى .. وكيفياته :

ينقسم الوحي باعتبار معناه المصدري إلى ما يأتى :—

(١) تسليم الله نبيه بما يريد من وراء حجاب ؛ إما فى اليقظة : وذلك مثل ما حدث لموسى - عليه السلام - قال تعالى : « وكلم الله موسى تكليماً ؛ ومثل ما حدث لنبينا « محمد » - صلوات الله وسلامه عليه - ليلة الاسراء والمعراج .

ولأهل السنة قولان فى الكلام المسموع ، فقليل . هو الكلام النفسى القديم المجرد عن الحروف والأصوات . وقيل : هو كلام لفظى يخلقه الله ، بحيث يعلم سامعه : أنه موجه إليه من قبل الله والقائلون بهذا لا ينكرون صفة « الكلام » لله سبحانه ، وهذا فرق ما بينهم ومن المعتزلة الذين لا يقولون بصفة الكلام ، أما الثانى ، فواضح ، وأما الأول فلا استحالة فيه ، لأن الثابت أن النبي قد خص بمزايا وخصائص لم توجد فى غيره من أفراد نوعه وأن نفسه بأصل فطرته - مستعدة لما لم تستعد له نفوس غيره ، فلا مانع إذا أن يسمع الكلام النفسى بطريقة غير مألوفة ، ولا معروفة لنا . ويسكون ذلك من خوايق النواميس العادية المعروفة لنا .

وإما فى المنام : كما فى حديث « معاذ » مرفوعاً : « إلتانى ربى ، فقال : فيم يختصم الملائة الأعلى ؟ .. الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده ، والترمذى فى سننه وقال : حسن صحيح .

(٢) الإلهام أو القذف فى القلب : بأن يلقى الله أو الملك الموكل بالوحي فى قلب نبيه ما يريد ، مع تيقنه : أن ما ألقى إليه من قبل الله تعالى ، وذلك مثل ماورد فى حديث : « إن روح القدس نفث فى روعى ^(١) : لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » رواه الحاكم وصححه عن ابن مسعود .

(١) الروع بضم الواو - . القلب والباطن ، وبالفتح . الفزع ، والمراد هنا الأول

(٣) الرؤيا فى المنام : ورؤيا الأنبياء وحى ؛ وذلك مثل : رؤية إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أن يذبح ابنه ، ورؤية نبينا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فى منام - ه - : أنهم سيدخلون البلد الحرام وقد كان . وفى الحديث الصحيح ، الذى رواه البخارى ، : « أول ما بدى به رسول الله - ﷺ - من الوحي الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ... »

(٤) تعليم الله أنبياءه بوساطة ملك ، والمختص بذلك من ملائكة الله هو أمين الوحي جبريل ، عليه السلام وهذا القسم يعرف بـ « الوحي الجلى » وقد بين الله - سبحانه - هذه الأقسام بقوله : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا ، فيوحى - بإذنه - ما يشاء ، إنه على حكيم ، (١) إذ المراد بالوحي فى الآية : الإلهام أو المنام ، لمقابلته للقسمين الآخرين : التكليم من وراء حجاب أو بواسطة رسول . والوحي الذى بوساطة جبريل .. له حالات ثلاث :

(أ) أن يأتى جبريل فى صورته التى خلقه الله عليها ، وهذه الحالة نادرة ، وقليلة ، وقد ورد عن السيدة عائشة ، : أن النبى لم ير جبريل ، على هذه الحالة إلا مرتين : مرة فى الأرض ، وهو نازل من غار حراء ، ، ومرة أخرى فى السماء ، عند مدبرة المنتهى ، ليلة المعراج رواه أحمد

(ب) أن يأتى جبريل فى صورة رجل كدحية الكلبى ، أو أعراى مثلاً ، ويراه الحاضرون ويسمعون قوله ، ولا يعرفون هويته ، واسكن النبى يعلم علم اليقين : أنه جبريل ، وذلك كما فى حديث جبريل الطويل فى الصحيحين (٢) وحديث أم سلمة ، ورؤيتها رجلاً على صورة دحية الكلبى ، فظنته هو ، حتى بين النبى لها أنه جبريل .

(١) سورة الشورى . الآية ٥١ .

(٢) صحيح البخارى كتاب الإيمان رباب الإيمان والإسلام والإحسان
صحيح مسلم كتاب الإيمان رباب الإيمان والإسلام والإحسان

(ح) أن يأتي على صورته الملكية، وفي هذه الحالة لا يرى ، ولكن يصحب مجيئه صوت كصلصلة الجرس ، أو دوى كدوى النحل ، وقد دل على هاتين الحالتين حديث سؤال الحارس بن هشام، النبي ﷺ : عن كيفية مجيء الوحي إليه ؟ وهو في صحيح البخارى كما تقدم

والوحي بجميع أنواعه يصحبه علم يقينى ضرورى من الوحي إليه بان ما ألقى إليه حق من عند الله ليس من خطرات النفس ولا نزعات الشيطان ، وهذا العلم اليقينى لا يحتاج إلى مقدمات ، وإنما هو من قبيل إدراك الأمور الوجدانية ، كالجوع والعطش والحب والبغض .

إمكان الوحي ووتوعه :

مبنى الوحي ومداره على أمرين :

(١) وجود «موح» وهو «الله» سبحانه وتعالى أو الملك الذى يبلغ الوحي وينقله من الله إلى الرسل . والملك : جسم نورانى لا يرى ، ولكنه قادر على التشكل بالأشكال المختلفة .

(٢) وجود نفس بشرية صافية صالحة لتلقى الوحي من الله أو الملك .
أما الأول : فالله - سبحانه - قد قام على وجوده وكأله الدليل العقلى وتواترت عليه الأدلة الآفاقية ، والآنفسية ، والتنزيلية . وأما الملائكة ، فقد أخبر بهم الأنبياء وجاءت بوجودهم الشرائع والكتب السماوية ، وقد استفاض القرآن والسنة بالإخبار عنهم بما لا يدع مجالاً للشك فى وجودهم ، والفلاسفة ، والعلماء قديماً وحديثاً - إلا الشرذمة المادية - يقولون : بوجود عالم غير محسوس ، وراء هذا العالم المحسوس ، وأن الإنسان ليس هو هذا الجسم المحسوس ، وإنما هو جسم وروح .

وأما الثانى : وهو استعداد النبى لتلقى عن الله أو الملك ، فلا بعد فيه ، إذ الأنبياء لهم من سمو فطرتهم ، وصفاء أرواحهم ، وإعداد الله - سبحانه - لهم إعداداً خاصاً : جسمانياً ، وروحياً ما يؤهلهم لتلقى الوحي من الله ، أو

الملائكة، والفهم منهم، والتجاوب معهم ، وليس لنا فى هذا الامر أن نقبس الغائب على الشاهد ، أو عالم الروح على عالم المادة .
وإذا ثبت هذان الامران ، فقد ثبت - لا محالة - إمكانية الوحي ، وأنه لا استحالة فيه .

«العلم يؤيد معنى الوحي ، وإمكانه»

وإذا ثبت وجود عالم الروح ، لم يبق مجال لإلزام وجود الملائكة - وقد استفاضت الأخبار بوجودهم . عن الأنبياء والشرائع السماوية وقد تمخض العصر الحديث عن علم يسمى «علم التنويم الصناعى» أو «للتنويم المغناطيسى» وقد أثبت هذا العلم وجود قوة خفية . وراء هذا الهيكل الإنسانى ، وهى الروح ، وبهذه القوة الخفية ، أو الروح يتسلط المنوم - بكسر الواو - على المنوم - بفتح الواو - ويلقى الأول إلى الثانى ما يشاء ، ويستجيب الثانى إلا ما يريد الأول وقد أجريت فى هذا تجارب عدة حتى أصبح أمراً مسلماً به ، وهذا يقرب معنى الوحي إلى حد كبير وقد أصبح هذا شجى فى حلق الماديين ، ولم يجدوا لدفعه سبيلاً .

ثم إن بعض المخترعات الحديثة . كاللاسلكى ، والمذياع ، والتليفزيون ونحوها قد أمكن للإنسان بوساطتها أن يبلغ كلامه إلى من هو أبعد منه بألاف الاميال؛ فإذا توصل الإنسان - على عجزه - إلى هذه المخترعات ، أفنستبعد على خالق القوى والقدر ، العليم الخبير - أن يبلغ رسله ما يريد بوساطة ، أو بغير وساطة ؟ وأن يهيئ للوحي إليهم من الوسائل ما يجعلهم مستعدين لتلقى الوحي ؟

الدليل على وقوع الوحي

وإذا ثبت أن الوحي ممكن . وقد أخبر بوقوعه الصادق المصدوق ﷺ فقد ثبت أنه واقع وثابت لا عالة .

أما الإخبار بوقوعه : فكثيرة فى القرآن والسنة الصحيحة الثابتة ، فمن

فلك قوله سبحانه وتعالى : « والنجم إذا هوى فاضل صاحبكم وما غوى » وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى (١) » وقوله سبحانه : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ، إنه على حكيم ، وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان (٢) .. » وقوله : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وعيسى ، وإيوب ، ويونس ، وهرون ، وسليمان ، وآتيناه داود زبوراً (٣) » وقوله : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا (٤) .. » إلى غير ذلك من الآيات

ومن السنة قوله ﷺ « ما من نبي من الأنبياء إلا وأتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان ما أوتيته وحياً أوحاه الله فارجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » رواه الشيخان وحديث عائشة رضي الله عنها في الصحيحين « أول ما بدى به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم .. » وحديث الحارث بن هشام « سألت رسول الله ﷺ : كيف ياتيك الوحي قال : « أحيانا ياتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي فينصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فإني جنيته ليتفصد عرقا » رواه البخاري إلى غير ذلك من الأحاديث المتكاثرة التي تدل بطريق التواتر المعنوي على ثبوت الوحي ووجوده وأما صدق الرسول : فقد قامت عليه الدلائل المتكاثرة ، والمعجزات المتواترة ، المعنوية والحسية الدالة على صدق دعوته القائم — بمقام قول الله - سبحانه - : « صدق عبدي فيما يبلغ عني » وقد أورد الملحدون وأعداء الأديان على الوحي شبهاً وإليك هذه الشبه وردها .

(١) سورة النجم ١ — ٤ (٢) سورة الشورى الايتان ٥٢ ، ٥٣
(٣) سورة النساء الآية ١٦٣ (٤) سورة الجن آية ١

الشبهة التي أوددت على الوحي المحمدي ،

لقد حاول الماديون الذين لا يؤمنون بوجود قوى روحية غيبية وراء المادة ، ومن على شاكلتهم من يحملون الحقد والضغن للإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم - حارل هؤلاء أن يشككوا في الوحي المحمدي فنفوا أن يكون وحيا من خارج نفس النبي وقالوا : إنه وحى من داخل نفسه فليس هناك ملك تلقى عن الله ثم ألقى ما جاء به على النبي صلى الله عليه وسلم ولا غير ذلك من أنواع الوحي وإليك هذه الشبهة والرد عليها .

(شبهة الوحي النفسى)

قالوا : نحن لا نملك في صدق محمد في خبره عما رأى وسمع ، وإنما نقول : إن منبع ذلك من نفسه وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذى يقال : إنه وراء عالم المادة والطبيعة الذى يعرفه جميع الناس فإن هذا الغيب شيء لم يثبت عندنا وجوده ، كما أنه لم يثبت عندنا ما ينفيه ويحققه بالحال ، ونحن نفسر الظواهر غير المعتادة بما عرفنا وثبت عندنا دون ما لم يثبت ، فهذا الموحى الذى أخبر به محمد إنما هو إلهام كان يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج : ذلك أن منازع نفسه العالية ، وسريره الطاهرة ، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية ، وتقاليد وراثية رديئة - يكون لها في جملتها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ، ويحدث في عقله الباطن الرؤى ، والأحوال الروحية ، فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشادا إلهيا ناز لا عليه من السماء بدون وساطة ، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك ، يعتقد أنه من عالم الغيب وقد يسمعه يقول ذلك في المنام الذى هو مظهر من مظاهر الوحي عند الأنبياء ، فكل ما يخبر به النبي من كلام ألقى في روعه ، أو عن ملك ألقاه على سمعه ، فهو خبر صادق عنده ، ولكن تفسيره عندنا ما ذكرنا من أن ما تخيله إنما هو نابع من نفسه ومن عقله الباطن .

وضربوا مثلاً للوحي النفسى : قصة (جان دارك) الفتاة الفرنسية ؛
التي اعتقدت أنها مرسله من عند الله لانتقاذ وطنها ، ودفع العدو عنه ، وادعت
أنها تسمع صوت الوحي ، فأخلصت في دعوتها وتوصلت بصدق لإرادتها
إلى رئاسة جيش صغير تغلبت به على العدو ، ثم ماتت غيب انتصارها لما
خذلها قومها ، ووقعت في يد عدوها فألقوها في النار حية ، وقد ذهبت
تاركة وراءها اسماً يذكر في التاريخ ، وقد حظيت بتعظيم قومها ، وإجلالهم
لها ، حتى قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها فيما بعد موتها بزم (١)

وبما يؤسف أن هذا التصوير الذى يصورون به ظاهرة الوحي قدسرت
شبهته إلى كثير من المسلمين المرتابين ، الذين يقلدون هؤلاء الماديين في
نظرياتهم المادية أو يقتنعون بها ، وأغلب هؤلاء من المتعلمين الذى تلقوا
العلم في الغرب ، ونسب عندهم من الثقافة الإسلامية العميقة ما يعصمهم من
الانسياق وراء هؤلاء .

ولأجل أن يؤيدوا فكرة الوحي النفسى ذكروا مقدمات تخيلوها أو
تصيدوها زاعمين أنها أساس هذه التشريعات والعلوم التى امتلا بها عقل
النبي الباطن ثم ناضت بها نفسه فقالوا :

(١) إن محمداً كان يصحب عمه أبا طالب في كثير من رحلاته التجارية
وأنه استفاد من هذه الرحلات بما كان يسمعه من الأعراب الذين كانوا
يسكنون الديار التى يمر عليها كديار ثمود ، ومدين وغيرهما ، وما كان
يسمعه من أحبار اليهود ورهبان النصارى وذلك مثل بهيرى الراهب الذى
لقبه في مدينته (بصرى) بالشام وقالوا . إنه كان نسطوريا من اتباع
(آريوس) فى التوحيد ، وينكر ألوهية المسيح ، وعقيدة الثليث وإن

محمد لا بد أن يكون علم منه عقيدته بل غالى بعضهم فزعم أنه كان معلما للنبي ومصاحباله بعد رسالته .

(٢) إن ورقة بن نوفل كان من منتصرة العرب العالمين بالنصرانية وكان يعرف العبرانية وله علم بالسكتب السابقة ، وكان قريبا لخديجة رضى الله عنها - وهو الذى ذهبت إليه خديجة ومعها النبي لما أخبرها بنحو الوحي وغرضهم بهذا لإثبات أن النبي أخذ عنه بعض علم أهل الكتاب .

(٣) ما كان من انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب قبل الإسلام ومن تنصر بعض فصحاء العرب وشعرائهم كمقس بن مسعدة الإيادى وأمية بن أبى الصلت ، وإشادة هؤلاء بما كانوا يسمعون من علماء أهل الكتاب عن قرب ظهور النبي الذى بشر به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء وغرضهم بهذا أن النبي استفاد من هؤلاء ، واستغل البشارة لنفسه

(٤) زعموا أنه كان بمكة أناس من اليهود والنصارى وأن كانوا عبيدا أو خدما ، وكانوا يسكنون أطرافها .

وكان هؤلاء يتحدثون بالكثير من القصص الذى جاءت به كتبهم فسمع منهم النبي ما سمع واستفاد منهم الكثير مما ذكره من قصص الأولين .
(٥) ذكروا ما كان من رحلتى قريش : رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام واجتماعهم بالأخبار والرهبان في كل منهما كلما مروا بدير أو صومعة ، وكان هؤلاء يتحدثون بقرب ظهور نبي من العرب ، فتعلقت نفسه بما سمع ، وظهر ذلك على لسانه بدعوى النبوة .

(٦) قالوا : إن محمداً توصل إلى ما توصل إليه من عقائد بالخلوة في غار حراء ، والانقطاع إلى عبادة الله وحده ، والتفكير في خلق السموات والأرض : من نجوم وكواكب وسهول ونجود ، وبحار ذات أمواج ، وليل ونهار ، وكان لهذا التعمد والتفكير أثرهما في صقل نفس محمد ، وامتلاء قلبه بوحداية الله ونظامه البديع في السكون ، وما زال يفكر ويتأمل

وينفعل بما يرى ويسمع . ويتقلب بين الآلام والامال ، حتى أيقن أنه هو النبي المنتظر الذي سيبعثه الله لهداية البشر ، فتجلى له هذا الاعتقاد في الرؤيا المنامية ، ثم قوى حتى صار يتمثل له الملك ويلقنه الوحي في البقطة .

وأما المعلومات التي جاء بها في هذا الوحي فهي مستمدة من تلك الإنبياء التي ذكرناها سابقاً ، وما هداه إليه عقله وتفكيره في التمييز ما يصح منها وما لا يصح ، ثم تجلى له أنها نازلة من السماء ، وأنها خطاب الخالق جلا وعلا بوساطة الناموس الأكبر ملك الوحي جبريل عليه السلام الذي كان ينزل على سلفه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى غير ذلك من الأباطيل والترهات التي أرادوا بها تقريب فكرة (الوحي النفسي) وأن كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من عقيدة ، وتشريع وآداب ، فهي من ذات نفسه وعقله الباطن لا من شيء خارج عن نفسه ، وهو الوحي عن الله جل وعلا .

(تنفيذ شبهة الوحي النفسي)

والآن وبعد أن بسطت فكرة الماديين والملحدين في الوحي المحمدي وذكرت خلاصة المقدمات التي تذرعوها بها للوصول إلى ما يريدون سأكر عليها بالرد العلمي الذي يدعمه العقل السليم ، والنقل الصحيح ، والتاريخ الصادق ، وإذا أبطلنا المقدمات ، فقد بطل ما رتبوه عليها قطعاً ، وهي النتيجة التي ركبوا كل صعب وذلول في سبيلها .

وبعد إبطال المقدمات سأعرض بالرد على المثال الذي ذكره وهي قصه (جان دارك) فأقول وبالله التوفيق والسداد .

(الرد على المقدمة الأولى)

إن المعروف الثابت الذي رواه كتاب السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصحب عمه أبا طالب في التجارة إلا مرة وهو ابن تسع سنين

وقيل ابن اثنى عشر سنة وأن الراهب (بحيرى) لما رآه تظلمه سحابة من الشمس ، ورأى فيه بعض أمارات النبوة ذكر لعمه أنه سيكون له شأن ، وحذره أن تناله اليهود بشر ، ولم تذكر الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع في صغره من بحيرى شيئاً ، أو تعلم منه شيئاً من معارف أهل الكتاب ، ولما صار رجلاً وتاجر للسيدة خديجة في مالها ذهب إلى بلاد الشام ولم يعرف أنه جاوز مدينة (بصرى) ولا أنه اشتغل في هذه الأسفار بغير التجارة ، ولا أنه اتصل بأجبار اليهود ، ورهبان النصارى ، ولو أنه حدث ما زعموا لنقله إلينا الرواة المسلمون الذين لم يدعوا صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بالسيرة المحمدية إلا ذكروها .

وأما ما زعموه من أن محمداً مر على ديار مدين وتحدث مع أهلها غير صحيح ، وأين مدين من طريق تجارتهم إلى الشام ؟ وليس من المعقول من مثل النبي ، وهو من هو في رجاءه العقل ، وقوة الفطنة أن يعتمد في أخبارهم ، وأخبار ثمود وغيرهم من الأمم السابقة ، على أعراب لا علم عندهم ولا تحقيق ، ولم يعرف عن القوافل التجارية أنها كانت تضعيق وقتها في البحث عن الأجبار والرهبان ، وما كان للنبي وقد ذهب مع قافلة أن يشتز عنها ثم يذهب باحثاً عن علماء أهل الكتاب ، ولو أنه فعل لما تمكن من تصريف تجارته ، مع أن المنقول أنه كان تاجراً أميناً ناجحاً ، وأنه كان يربح ربحاً وافراً ، وهذا لن يتأتى في العادة لمن شغل بغير تجارته ثم لو سلينا جدلاً أنه سمع من أخبار أهل الكتاب ، فهل هذه التفت المبعثرة المشوشة تكون هذا القصص الوافى الدقيق على المنهج الذى جاء به القرآن ؟

(الرد على المقدمة الثانية)

وهى ما زعموه من أن ورقة كان من متنصرة العرب ، وأنه كان قريب خديجه ، وأن النبي أخذ منه بعض معارف أهل الكتاب ، فقد خلطوا فيه الحق بالباطل .

والذى ثبت فى الصحيحين : أن ورقة كان من العرب الذين تنصروا فى الجاهلية ، وكان يعرف العربية والعبرانية ، وكان له علم بالكتب السابقة ، وأن السيدة خديجة لما أخبرها النبى مارأى ، وما سمع بغار حراء ، وجاءه فرعاً خائفاً أخذته إلى ابن عمها ورقة ، فأخبره النبى بما رأى ، فقال له ورقة . هذا هو الناموس (١) الذى كان ينزل على موسى ، ليتنى فيها جذعاً ، ليتنى أ كون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال له النبى . أو مخرجى هم ؟ قال ورقة : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وقتر الوحي (٢) .

ولم تذكر الروايات أن النبى كانت له صلة به قبل هذا ، بل السيدة خديجة هى التى عرفته به ، ولا أنه أخذ عنه شيئاً من معارف أهل الكتاب ، ولم يعرف عن ورقة أنه كان من دعاة النصرانية المبشرين بها ، ثم أنه لم يلبث أن توفي ، وهذا هو الصحيح المعتمد .

وما روى من بقاء ورقة حتى شهد الدعوة المحمدية ، والصراع بين المسلمين والمشركين ، فغير صحيح ، وهى رواية شاذة ، فهل يعقل أن تكون هذه المقابلة الخاطفة ينبوعاً لما جاء به الوحي المحمدى !!؟

(الرد على المقدمة الثالثة)

وأما ما زعموه من انتشار اليهودية والنصرانية فى بلاد العرب ، ومن تنصر بعض فصحاء العرب ، وشعرائهم ، كقس بن ساعدة ، وأمىة بن أبى الصلت ، ودعوتهم إلى التوحيد ، وإشادتهم بقرب ظهور النبى الذى بشرت به التوراة والإنجيل ، وتأثر النبى بهم فى دعوى النبوة فغير صحيح .

(١) الناموس رسول الخير وهو أمين الوحي جبريل عليه السلام .

(٢) انظر صحيح البخارى باب كيف كان بدء الوحي .

فاليهودية والنصرانية لم تكن منتشرة في بلاد الحجاز ، وهى التى بعث
هنا النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن بمكة يهود ولا نصارى ، وإنما كان
اليهود بجوار المدينة المنورة ، ومع هذا فلم يكن لهم أثر يذكر في جيرانهم
— الأوس والخزرج — بالمدينة ، ولم يتهود من العرب إلا قلة ، والذين
تنصروا من العرب أقل من القليل ، وكانت معارفهم كمعارف أهل الكتاب
بالمدينة وغيرها من أطراف الجزيرة العربية ، كنجران وبلاد الشام —
مشوشة ملفقة محرفة ، مما لا يعقل معه أن تكون مصدراً لما جاء به
سيدنا محمد من أخبار وقصص تنسم بالصدق والحق ، وعدم التناقض
والاضطراب .

وأما قس بن ساعدة فقد مات قبل البعثة ، ولم يعرف أنه تنصر ،
ولمّا كان من الحنيفيين الذين دعوا إلى التوحيد بفطرتهم ، أو تأثروا بما
بقي من شريعة الخليل إبراهيم عليه السلام ، وماروى من أن النبى صلى الله
عليه وسلم رآه قبل البعثة بزمان طويل يخاطب الناس في سوق عكاظ على
جمل أورق ! وأن النبى سر بكلامه . قد ضعفه المحدثون . بل طعن فيها
الحافظ أبو الفرج ابن الجوزى بالوضع والاختلاق . ولو سلمنا صحة لقاء
النبى له قبل البعثة . فإن ما أنز عن قس من كلمات لا تصلح أن تكون ملهمة
للنبى بهذه الرسالة التامة الوافية .

وأما أمية بن أبى الصلت . فقد كان شاعر ثقيف . وكان من الحنيفيين .
الذين يدعون إلى التوحيد . وكان علم أنه سيبعث نبى آخر الزمان من بلاد
العرب . فترهب وتعبّد . ولبس المسوح (١) طمعاً في أن ينال النبوة . وقد
عاش حتى أدرك النبوة . ولكن استبد به الحقد والغضب أن لم تصادفه
النبوة فلم يسلم . ولما سمع النبى ﷺ شيئاً من شعره قال : « كاد أن يسلم ،
وقال : « آمن شعره وكفر قلبه »

ولم يثبت قط أنه لقي النبى قبل البعثة ولا بعدها . وإن كان عاش إلى سنة

(١) جمع مسح — بكسر الميم — وهى لباس الرهينة .

تسع من الهجرة فكيف يعقل أن يكون النبي في نشأته قد أخذ عنه وتأثر بأفكاره ؟

(الرد على المقدمة الرابعة)

وهي زعمهم أنه كان بمكة أناس من اليهود والنصارى . وكانوا عبيداً وخداما . ويسكنون خارج مكة . وأن النبي اتصل بهم وسمع منهم . فهي أوغل في الكذب من سابقاتها . وأبعد من نجوم السماء . ولم يكن بمكة يهود ولا نصارى حتى يتعلم منهم النبي . ولو وقع ما زعموه لاتخذوه أعداؤه من المشركين حجة يحتجون بها عليه . وأن ما يدعيه من الوحي إنما تعلمه من هؤلاء . فانهم كانوا يوردون في معرض الحجاج والخصام ما هو أضعف وأوهن من هذه الشبهة ، فقد كان بمكة قين - حداد - رومي يصنع السيوف وغيرها فكان النبي ﷺ يقف عنده أحياناً يشاهد صنعته ، فطعنوا في النبي بأنه يتعلم منه ، فرد الله عليهم بقوله : « ولقد نعلم بأنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين ، (١) »

لقد كان ذكر القصص بمكة من أقوى البراهين على صدق النبي ؛ لأن البيئة المسكية لم تكن بيئة علم ومعرفة ، ولم يكن فيها يهود ولا نصارى بشهادة الواقع التاريخي الصادق ، ولو تأخر ذكر القصص إلى ما بعد الهجرة لربما قالوا إنه تعلمه من أهل الكتاب بالمدينة ، وإذا ثبت أن النبي كان أمياً ، وانتفى أخذه عن أهل الكتاب ، فقد تعين أن يكون من عند الله سبحانه وصدق الله حيث يقول : « وما كنت تنلو من قبله من كتاب ، ولا تحطه يمينك ، إذا لارتاب المبطلون ، (٢) »

وكثيراً ما نبه الله عز شأنه إلى ما في القصص من دلائل على صدق النبي في دعواته بعد ذكر شيء منها . قال سبحانه بعد ذكر قصة موسى في مدين

(١) النحل ١٠٣ (٢) العنكبوت ٤٨

من سورة القصص : « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكننا أنشأنا قرونا فتناول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكننا كنا مرسلين ، ^(١) . وقال بعد قصة نوح من سورة هود : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين ، ^(٢) » وقال في آخر سورة يوسف : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب . ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى لقوم يؤمنون ، ^(٣) »

وتأمل في قوله سبحانه : « ولا قومك من قبل هذا ، فإنها ترد على هذا الافتراء المكشوف :

رد المقدمة الخامسة

وهي استفادة العرب من رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن والشام ، بالتقائهم بأهل الكتاب والسماع منهم ، وبالتالي استفادة النبي من ذلك فيظهر تهافتها مما قدمناه في رد المقدمات السابقة ، وأزيد فاقول . إن هتين الرحلتين لم يكن لهما أثر يذكر في عقيدة القرشيين ، لأن مقصدهم كان التجارة لا تلقى العلم والمعارف من أهل الكتاب ، وعلى كثرة تكرار الرحلتين لم نجد أحداً من أهل مكة صاريهودياً أو نصرانياً ، ومن تنصر في غير مكة إنما هم قلة لا تكاد تذكر ، فكيف يتأثر النبي بقوم في شيء هم أجهل الناس به ؟

﴿ رد المقدمة السادسة ﴾

وأما ما زعموه من أن خلوة النبي وتعبده في حراء وتأمله في الكون علويه وسفليه ، وأنه بتعبده وتفسكره خيل إليه أنه النبي المنتظر ، وأنه قد تمكن منه هذا التخيل حتى تراءى له أنه يوحى إليه وأن الملك يلقيه —

(١) القصص ٤٤ ، ٤٥ (٢) هود ٤٩ (٣) يوسف ١١١

فدعاوى باطلة ، ومقدمة لا تؤدي إلى ما يريدون من نتيجة ، والنبي صلى الله عليه وسلم وهو يتعبد ما كان يدور بخلداه انه نبي هذه الامة المبعوث في آخر الزمان ، وليس أدل على هذا من قول الحق تبارك وتعالى « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك » (١)

فهى صريحة فى أن النبي ما كان يؤمل ذلك ، ولكن ألقى الله اليه بالكتاب رحمة من الله به ، وبالناس كلمهم ، لا كسب له فيه بعلم ، ولا عمل ولا رجاء ولا أمل ، والتبوة ليست بالتنى ولا بالرياضات الروحية ، ولو كانت تنال بذلك لناها أمة بن أبى الصلت ، وأمثاله بمن ترهبوا وتنسكوا ، وجاهدوا فى سبيل الوصول اليها وأيضاً فغاية التعبد والتذكر فى السكون أن يصلوا بصاحبه الى الإيمان بوجود إله خالق مدبر قيوم عالم قادر أما أنها يؤديان إلى كل هذه العقائد والتشريعات المتنوعة ، والآداب والتوجيهات التى لم تكن تخطر على بال إنسان ، فهذا أمر غير معهود فى سنة السكون ومجرى العادة .

وبعد هذا المطاف تبين لك أيها القارىء الحصيف ان المقدمات التى أرادوا ان يرتبوا عليها فكرة الوحي النفسى مقدمات فاسدة غير مسلمة ودعاوى باطلة ، لا حقائق تاريخية ثابتة ، وإذا بطالت المقدمات ، بطل لزوم النتيجة لها بيداهة العقل ، وما مثلهم إلا كمثل من أراد ان يبنى بيتاً من خيوط العنكبوت ، وإن أوهن البيوت لبنت العنكبوت لو كانوا يعلمون ، (٢) « رد عام لفكرة الوحي النفسى »

إن فكرة الوحي النفسى كما صوره مبنية على وجود معلومات وأفكار مدخرة فى العقل الباطن وأنها تظهر فى صورة رؤى ثم تقوى فيخيل لصاحبها أنها حقائق خارجية ، فمل كان الدين الذى جاء به خاتم الأنبياء بعقائده وتشريعاته فى العبادات والمعاملات ، والحدود والجنايات ، والاقتصاد والسياسة ، والأخلاق والآداب ، وأحوال السلم والحرب

مر كوزاً ومدخراً في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ؟
هذا ما تنسكه العقول بداهة ، لأن ما جاء به النبي في العقائد يعتبر
مناقضاً لكل ما كان سائداً في العالم حينئذ من عقائد كالوثنية ، والجوسية ،
والتأليه ، والتثليث والصلب ، وإنكار البعث واليوم الآخر ، وكذلك جاء
النبي بشريعات ما عرفت في الشرائع السابقة : سماوية وغير سماوية ،
واشتمل القرآن على أسرار في الكون ، والآفاق والأنفس ما كانت تخطر
على بال بشر قط ، ولم يظهر تأييدها إلا بعد تقدم العلوم والمعارف في
العصر الأخير ، فكيف تكون هذه الأسرار من داخل نفس النبي صلى الله
عليه وسلم وهي لم تخطر له على بال ؟

وأيضاً فإن الوحي بعد نزول صدر سورة (اقرأ) على النبي وهو
يتعبد بغار حراء قد انقطع مدة من الزمان ، لم ينزل فيها قرآن . فكيف
سكت النبي طوال هذه المدة ، وهو هو صاحب العقل الباطن المملوء
بالمعارف ، والوجدان الملتهب ، والنفس المتوثبة للإصلاح ؟ أخبرونا
يا أصحاب العقول

ثم إن العقل الباطن على ما يقول علماء النفس ، إنما يفيض به فيه في
غفلة من العقل الظاهر ، ولذلك لا يظهر ما فيه إلا عن طريق الرؤى
والاحلام ، الأمراض كالحمى مثلاً وفي الظروف غير العادية ، والقرآن
الكريم نزل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في اليقظة ، وفي إكتمال من
عقله وبدنه ، ولم ينزل منه شيء في الرؤى والاحلام وهكذا نرى أن ما
استندوا إليه من فكرة العقل الباطن لا تساعدهم بل ترد عليهم . وبعد ،

فلعلك أيقنت أن ما ذهبوا إليه من فكرة الوحي النفسي إنما تصدوا بها
إبطال الوحي المحمدي ، ولكن يأبى الله والراسخون في العلم ذلك
• يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو
كره الكافرون ، (١)

« قصة جان دارك »

إن تمثيلهم الوحي المحمدى بمآزعمة جان دارك الفرنسية من أنها رسالة من عند الله لإنقاذ وطنها ، وأنها سمعت صوت الوحي يأمرها بذلك تجن على الرسالة المحمدية ، والوحي المحمدى ، وأين الحصا من نجوم السماء ، بل أين السراب ، من زلال الماء .

إن (جان دارك) لم تدع النبوة ، ولو أنها ادعتها لما صدقت ؛ لأن دعوى النبوة لا تثبت إلا بدليل وهى المعجزة ، وأين ماظهر على يدها من معجزات ؟ وإنما هى فتاة قوية القلب ، مرهفة الحس ، أهاج وجدانها ، وحركة ماكانت تنصف به من شعور دينى كريم ، وماكان يعاينه قومها من ذل وعبودية ، لقد تلاقى شعورها الدينى ، وشعورها السياسى ، فاستنهضت قومها للجهاد ، وقادتهم إلى التخلص من الاستعباد ، وقد صادفت دعوتها هوى فى نفوس قومها ، فأجابوها وخرجوا معها ، وكان لهم النصر على العدو ، وكونها استغلت مزاعمها فى إثارة النفوس وإلهاب الحماس لا يقتضى أنها صادقة فيما زعمت ، وما أسهل تهيج حماس أهل فرنسا بمثل هذه المؤثرات ، وبما هو أضعف منها ، فإن نابليون الأول كان يسوقهم إلى الموت مختارين بكلمة شعرية يقولها ككلمته عند الأهرام ، فهى لم ترد عن كونها امرأة شجاعة متدينة ، امتلا قلبها بحب بلادها ، ورغبتها فى تخليصها من عدوها ، فقادت جيشا قوامه عشرة آلاف جندى وضابط ، وانتصروا على الإنجليز .

ولإليك ما ذكره البستاني عنها فى (دائرة معارفه) قال : « كانت متعودة الشغل خارج البيت كرعى المواشى ، وركوب الخيل إلى العين ومنها إلى البيت ، وكان الناس فى جوار (دومرى) - يعنى بلدها - متمسكين بالخرافات ، ويميلون إلى حزب (أوليان) فى الانقسامات التى مزقت

مملكة فرنسا ، وكانت (جان) «شترك في الهياح السياسى والحاس الدينى ، وكانت كثيرة التخيل والورع . تحب أن تتأمل في قصص العذراء ، وعلى الأكثر في نبوءة كان شائعة في ذلك الوقت ، وهى أن إحدى العذارى ستخلص فرنسا من أعدائها ، ولما كان عمرها ثلاث عشرة سنة كان تعتقد بالظهورات الفائقة الطبيعية ، وتتكلم عن أصوات كانت تسمعها ، ورؤى كانت تراها ، ثم بعد ذلك يضع سنين خيل لها أنها قد دعيت لتخلص بلادها ، وتزوج ملاكها ، ثم أدفع (البرغتيور) تعديا على القرية التى ولدت فيها ، فقوى ذلك اعتقادها بصحة ما خيل لها (١) .

وكانت انتصارها سنة (١٤٢٩ م) ثم ذكر أنها بعد ذلك زالت أخیلتها الحماسية ، ولذلك هوجمت في السنة التالية (١٤٣٠ م) فانكسرت وجرحت وأسرت .

وهكذا يتبين لنا مما ذكره أن دعوتها شبيهة بدعوات من زعم أنه المهدي المنتظر ، ودعوة الباب الايراني ، وكذا البهاء والقادياني ، وأمثالهم ممن زعموا أنهم يوحى إليهم ، ووجدوا من يفتر بدعواتهم .

فأين هذه النبوة العصبية القصيرة الاجل المعروفة السبب ، والتي لا دعوة فيها إلى دين وعلم ولا إصلاح اجتماعى أو اخلاقى ، والتي لم تلبث أن افل نجمها ، وغربت شمسها — اين هذه الدعوة من دعوة الانبياء ولا سيما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، هذه الدعوة التى قامت في بيئة هى أبعد ما تكون عن العلم والمعرفة واغوى ما تكون عناداً وصلابة وعنجهية ، والتي تعرضت لتكالب جيوش الشر والغدر ، والحقد والعصبية من العرب والرومان والفرس ، فإذا بها تصرعهم جميعاً ، وتمزقهم في عقر دارهم ،

وتتمخض عن ميلاد أمة : هي خير أمة أخرجت للناس عقيدة وشريعة ،
وعلماً وعملاً ، وأخلاقاً وفضائل ، وعدلاً ورحمة ، وسياسة وقيادة

أما جان دارك ، فلم تصنع بدعوتها أمة ، ولم تقم بها حضارة
بل أين حال هذه الفتاة التي كانت كبارقة أومضت ثم اختفت ، وشعلة
أضاءت ثم لم تلبث أن خفت ، وثورة قدر سرعان ما زالت من حال شمس
النبوة المحمدية التي أشرقت فأضاءت الأرجاء ، وسطعت فبددت الظلمات.
ظلمات الشرك والجهل والفقر والخرافات ، ولا يزال نورها - ولن يزال -
متألق السناء ، ألا ما أبعد الفرق بين الحالين ، وفرق ما بينهما كفرق ما بين
الأرض والسماء

﴿ شبهة أخرى على الوحي المحمدي ﴾

لقد أسف بعض المستشرقين والمبشرين فزعموا أن الحالة التي كانت
تعزى النبي ﷺ عند تلقي الوحي من جبريل ، وهو على حالته المملكية ،
وهي الحالة التي كان النبي يغيب فيها عن الناس وعما حوله ، ويسمع له غطيظ
كغطيظ (١) النائم ، ويتصبب عرقه ، ويثقل جسمه هي حالة صرع
تتمخض عما يخبر به أنه وحي

وإليك رد هذه الفرية لترى أنهم طعنوا في غير مطعن ، وطاروا
في غير مطار

(١) إن النبي ﷺ بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء كان أصبح الناس
بدناً وأقواماً جسماً ، وأوصافه التي تناقلها الرواة الثقات تدل على البطولة
الجسمانية . وقد بلغ من قوته أنه صارع ركبان بن عبد يزيد فصرعه ، وكان
ركبانه هذا مصارعاً ماهراً ، ما قدر أحد أن يأتي بمجانبه إلى الأرض ، ولما
عرض عليه النبي الدعوة قال . صارعني فإن أنت غلبتني آمنت أنك

(١) صوت النائم إذا احتبست أنفاسه

رسول الله ، فصار علة الرسول فغلبه ، ففعل إنه اسلم عقب ذلك (٢) والمصاب بالصرع لا يكون على هذه القوة ، وقد شهد للنبي رجل غريب عن الإسلام ولكنه منصف قال الكاتب الأجنبي (بودلي) في كتابه (الرسول . حياة محمد) مفنداً هذا الزعم : « لا يصاب بالصرع من كان في مثل الصحة التي كان يتمتع بها محمد ﷺ حتى قبل وفاته بأسبوع واحد ، وإن كان من تنبأه حالات الصرع كان يعتبر مجنوناً ، ولو كان هناك ما يوصف بالعقل ورجاحته . فهو محمد . »

(٢) إن مريض الصرع يصاب بآلام حادة في كافة أعضاء جسمه يحس بها إذا ما انتهت نوبة الصرع ، ويظل حزيناً كاسف البال بسببها ، وكثيراً ما يحاول مريض الصرع الانتحار من قسوة ما يعانون من آلام في النوبات فلو كان ما يعتري النبي ﷺ عند الوحي صرعا لأسف لذلك وحزن لوقوعه ولسعد بانقطاع هذه الحالة عنده ، ولكن الأمر كان على خلاف ذلك لقد فتر الوحي عن الرسول مدة فحزن لذلك حزناً شديداً ، وكان يذهب إلى غار حراء وقيم الجبال عسى أن يعثر على الملك الذي جاءه بحراء وبقي يحزون النفس من هذه الحالة حتى سرى عنه ربه بوصل ما انفصم من الوحي

(٣) إن الوحي لم يكن يأتي النبي ﷺ على هذه الحال التي قالوا عنها أنها صرع إلا أحيانا وأحيانا كان يأتيه وهو في حالته الطبيعية فلا غيبوبة ولا قلق ولا غطيظ ، وذلك حينما كان يأتيه جبريل في صورة رجل ، وكان الجالسون لا يعرفون أنه جبريل ، ولكن النبي كان يعلم ذلك حق العلم وذلك كما حدث في الحديث الطويل الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما والذي يعتبر سجلاً جامعاً لأصول الإيمان والإسلام والإحسان

وبدل على حالتي الوحي هتين الحديث الذي رواه البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، أن الحارث بن هشام - رضي الله عنه - سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ قال رسول الله ﷺ : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليّ ، فيفصم عني وقد وعيت منه ما قال : وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعني ما يقول . قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليترعد عرقاً ، (١)

(٤) إن الثابت علمياً أن المصروع حالة الصرع تعطل تفكيره وإدراكه تعطلاً تاماً ، فلا يدري المريض في نوبته شيئاً عما يدور حوله ، ولا ما يجيش في نفسه كما أنه يغيب عن صوابه ، وتعتريه تشنجات تتوقف فيها حركة الشعور ويصبح المريض بلا إحساس .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بعد الوحي يتلو على الناس آيات بينات ، وتشريعات محكمات ، وعظات بليغات ، وأخلاقاً عظيمة ، وكلاماً بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة تحدى به الناس قاطبة عربهم وعجمهم أن يأتوا بأقصر سورة منه فما استطاعوا فهل يعقل من المصروع أن يأتي بشيء من هذا ؟ اللهم إن هذا أمر لا يجوز إلا في عقول المجانين إن كانت لهم عقول .

(٥) لما تقدمت وسائل الطب ، واستخدمت الأجهزة والكهرباء في التشخيص والعلاج . إذا الطب يضيف دليلاً لا ينقض ، ويقيم حجة لا تحتاج إلى مناقشة على كذب فرية الصرع ، ويؤكد أن ما كان يعتري رسول الله ﷺ إنما هو وحي من الله سبحانه وتعالى ، ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر .

لقد ثبت أن نوبات الصرع ناتجة عن تغيرات فسيولوجية عضوية في المخ

(١) صحيح البخاري باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .

والدليل على ذلك أنه أمكن تسجيل تغيرات كهربائية في المخ في أثناء النوبات الصرعية مهما كان مظهرها الخارجى ، وعلى أية صورة كانت هذه النوبات ومهما ضعفت حدة هذه النوبات ولقد أثبت ، الطب الحديث أخيراً بعد الاستعانة بالأجهزة ، والرسم الكهربائى على أن هناك مظاهر عديدة ، ومختلفة للنوبات الصرعية ، وذلك تبعاً لمراكز المخ التى تبدأ فيها التغيرات الكهربائية ، وطريقة وسرعة انتشارها ، وأهم أنواع الصرع ما يسمى بالنوبات الصرعية النفسية ، وهو ما يشبه أن يكون النوع الذى افتراه الخصوم على الرسول بأنه مصاب به ، وفى هذه الحالة تمر بذهن المريض ذكريات أو أحلام مرئية أو سمعية أو الاثنان معاً وتسمى « بالهلوس » ، وقد أثبت الطب أيضاً أن الذكريات التى تمر بالمريض لا بد أن يكون قد عاش فيها المريض نفسه حتماً ، إذ أن النوبة الصرعية ما هى إلا تنبيه لصورة أو صوت مر بالإنسان ثم احتفظ به فى ثنايا المخ ، وقد أمكن طبيياً إجراء عملية التنبيه

هذه بواسطة تيار كهربائى صناعى ساط على جزء خاص فى المخ فشعر المريض بنفس « الهلوس » ، التى تنبئه فى أثناء نوبة الصرع ، وكلما تكررت نوبة الصرع تكررت نفس الذكريات أو « الهلوس » ، فهذا مريض يسمع أغنية ، أو قطعة من شعر ، أو حديثاً من أى نوع كان فى نوبة صرعه ، ويتكرر سماعه لها فى كل نوبة ، ولا بد أن يكون ما سمعه من النوبة قد سمعه يوماً فى طفولته ، أو شبابه ، أو قبا مرضه ، وكذلك إذا كانت النوبة تثير منظرأ لا بد أن يكون قد مر عليه.

وبتطبيق ما قرره الطب الحديث فى حقائق الصرع على ما كان يعتزى النبي ﷺ نجده يردد آيات لا يمكن إطلاقاً أن يكون قد سمعها من قبل فى حياته فهى آيات واردة على اسنان الحق سبحانه وتعالى قبل أن يمر بالبشر الارض مثل قوله سبحانه : « وإذ قلنا لللائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك

الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، (١)

وآيات أخرى فيها قول الله يوم القيامة مثل : « حتى إذا جاؤا قال أكذبتُم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون » ، (٢) وقوله سبحانه « قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم » (٣) .

وكذلك الآيات التي تحكى حضور ما قبل الإسلام ، والمقاومات والمحاورات التي جرت بين أقوام عاشوا قبل الرسول بآلاف السنين وذلك مثل قوله سبحانه وتعالى : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هـ من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ، (٤) وقوله سبحانه : « قالوا : يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ههنا قاعدون قال : رب انى لا أملك إلى نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » ، (٥) إلى غير ذلك من الآيات التي تحكى قصص الأولين أو تصف أحوال القيامة واليوم الآخر ولما كانت هذه الأحاديث والأحوال لم تمر بالرسول قطعاً فهي لم تختزن بالتالى فى المخ لتثيرها نوبات صرعية فيتذكرها ، وبذلك يقرر الطب الحديث فى أحدث إكتشافاته بالنسبة للصرع ان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن ان يكون هناك ادنى شبهة فى إصابته بالصرع إطلاقاً وإن ما كان يعتريه إنما هى حالة نفسية وجسدية لتلق وحى الله سبحانه وتعالى ، هذا الوحى الذى أخبره الله فيه عما مضى ، وعما يستقبل (٦) .

(١) البقرة ٣٤ ، ٣٥ (٢) النمل ٨٤ (٣) المائدة ١١٩

(٤) آل عمران ٣٧ (٥) المائدة ٢٤ ، ٢٥

(٦) مجلة منبر الإسلام العدد ٩ السنة ١٩ رمضان سنة ١٣٨١ هـ فبراير ١٩٦٤ م

(٦) ثم ما رأى هؤلاء الطاعنين وفيهم من ينتمى إلى بعض الأديان في أنهم لا يتألون من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحده ، وإنما يتألون من جميع أنبياء الله ورسله الذين كانت لهم كتب أو صحف أو وحى بهامن عند الله سبحانه فهل تطيب نفوس المقرين بالأديان منهم أن يخرجوا ببوتهم قبل أن يخرجوا ببوت غيرهم ؟ !! وما رأيهم فيما جاء في كتب العهد القديم والجديد من إيماءات ونبوءات ؟ وهل يقولون في وحى نبي الله موسى وعيسى عليهما السلام ما يقولون في وحى نبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

اللهم إن هذا الطعن لا يفوه به إلا أحد رجلين : إما رجل مخرف ، وإما رجل مخرب مدمر يريد هدم الأديان .

إن الرسول ﷺ ليس يبدع من الرسل في باب الوحى ، وإذنه أوحى إليه كما أوحى إليهم وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول :

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح ، والأنبياء من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحق ، ويعقوب ، والأسباط ، وعيسى ، وأيوب ويونس ، وهارون ، وسليمان ، وآتيناهم داوراً ، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً ، (١) وقال : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء انه على حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لنهتدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض الا الى الله تصير الأمور ، (٢)

المبحث الثالث

« أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه »

هذا المبحث .. المدار فيه على النقل عن الصحابة والتابعين ، ولا مجال للعقل فيه إلا بالترجيح بين الأدلة ، أو الجمع بين ما ظاهره التعارض منها ، ويترتب على العلم بأول ما نزل ، وآخر ما نزل فوائد منها .

(١) معرفة الناسخ والمنسوخ : فيما إذا وردت آيتان أو أكثر في موضع واحد ، وحكم أحدهما يغير الأخرى تغييراً لا يمكن معه الجمع ، فنعرف أن المتأخر منها ناسخ للقديم .

(٢) معرفة تاريخ التشريع الإسلامي : وذلك مثل ما إذا عرفنا : أن الآيات التي نزلت في فرضية الصلاة كانت بمكة ، قبل الهجرة . وأن الآيات التي نزلت في فرض الزكاة (١) والصوم كانت في السنة الثالثة بعد الهجرة . . . وأن الآيات التي نزلت في فرض الحج كانت في السنة السادسة ، على ما هو الراجح ، أمكننا أن نرتبها ترتيباً تشريعياً ، فنقول : إن أول ما فرض الصلاة ، ثم الزكاة والصوم ، ثم الحج .

ومثل ما إذا عرفنا : أن آية : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ... » (٢)

(١) بعض العلماء يرى أن الزكاة فرضت بمكة ، وإنما الذي كان بالمدينة بيان مصارفها وأصبتها ، ولما كان الأمر أكثر على أنها فرضت بالمدينة في السنة الثانية . وقد اختلف هؤلاء : أكان فرضها قبل الصوم أم بعده ؟ رأيان . ويرجح الثاني ، حديث « قيس بن سعد بن عبادة ، عند أحمد ، وابن خزيمة ، والذسائي وابن امامة والحاكم قال قيس : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة ثم نزلت فريضه الزكاة فلم يأمرنا ولم ينهنا ونحن تفعله » قال الحافظ ابن حجر . إسناده صحيح (فتح الباري ج ٣ ص ٢٠٧)

(٢) سورة الحج الآية ٢٨

نزلت بالمدينة في السنة الثانية ، علما : أن تشريع الجهاد كان بالمدينة ، بالسنة الثانية وهكذا بقية التشريعات .

(٣) معرفة التدرج في التشريع ، فتوصل إلى حكمة الله - سبحانه - العالية في أخذ الشعوب بهذه السياسة الحكيمة في الإسلام ، وذلك مثل ما إذا عرفنا . ترتيب الآيات التي نزلت في شأن تحريم الخمر ، وقد ذكرنا ذلك آنفاً . ومثل ما إذا عرفنا : أن الآيات الداعية إلى أصول العقائد نزلت أولاً ، وأن الآيات التي نزلت في التشريعات التفصيلية ، والاحكام العملية نزلت بعدها ، أدركنا أسرار الله في الترتيب والتشريع ، فلم تعرف الأصول ، وتطمئن إليها القلوب ، لا يسهل الأخذ بالفروع .

ثم إن أولية النزول وآخريته . . تارة تكون على الإطلاق : أى بالنسبة للقرآن كله . وتارة تكون مفيدة ، إما بالنسبة لموضع معين ، وذلك مثل أول ما نزل في الجهاد . وآخر ما نزل فيه ، وإما بالنسبة لمكان خاص مثل أول ما نزل بمكة ، وآخر ما نزل بها ، وأول ما نزل بالمدينة وآخر ما نزل بها ، وإما بالنسبة لسورة ما ، مثل أول ما نزل من سورة كذا وآخر ما نزل منها .

أما الأولوية والآخرية المطلقتان ، فسأتناولهما بالتفصيل ، وأما المقيدتان فسأنا كتنفى بضرب بعض الأمثلة ، لأن استيعابها يحتاج إلى مؤلف خاص .

ولنبداً بأول ما نزل . . وآخر ما نزل على الإطلاق .

أول ما نزل من القرآن

اختلف العلماء في هذا على أقوال أربعة :

القول الأول :

إن أول ما نزل هو قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق

الإنسان من علق ، اقرأ ، وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم (١) ، ويدل لذلك ما يأتي :

(١) روى عن البخارى ومسلم - واللفظ للبخارى - بسندهما عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها - أنها قالت : « أول ما بدى به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حجب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيحنت فيه - وهو التعب - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع (٢) إلى أهله ، ويتزود لذلك (٣) ، ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق ، وهو في غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني (٤) حتى بلغ مني الجهد (٥) ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : « اقرأ باسم ربك ، الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » (٦) فرجع بها إلى خديجة يرتجف فؤاده ، فقال : زملوني (٧) ، زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة - وأخبرها الخبر - لقد خشيت على نفسي (٨) ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزنك الله أبداً إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل (٩) ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف . . . الحديث (١٠) وقد سقت الحديث بطوله ،

(١) العلق ١ - هـ (٢) يرجع (٣) أى يأخذ معه زاده

(٤) ضمني وهصرني حتى كاد يحبس أنفاسي

(٥) بفتح الجيم ونصب الدال أى غاية الوسع ، وبضم الجيم ، ورفع الدال

أى المشقة والخرج أى بلغت من المشقة غايتها (٦) العلق ١ - هـ

(٧) لاوني بالثياب وغطوني حتى يذهب عنى الخوف والرهب

(٨) أى المرض أو الهلاك (٩) الضعيف

(١٠) صحيح البخارى - باب كيف كان بدء الوحي صحيح مسلم -

وشرحه في كتابي « السيرة النبوية » ، في ضوء القرآن والسنة . وعائشة ، وإن لم تعين القصة وتشاهدها ، إلا أنه يحتمل أن تكون سمعتها من النبي بعد ، أو حدثها بها صحابي سمعها من النبي ، وأياً كان الأمر فهو حديث متصل مرفوع .

(ب) وروى الحاكم في « مستدركه » ، والبيهقي في « دلائل النبوة » ، وصححه عن عائشة أنها قالت : « أول سورة نزلت من القرآن » اقرأ باسم ربك ، ومرادها بالسورة صدرها ، وإلا فباقيها نزل بعد ، كما تدل على ذلك رواية الصحيحين .

(ج) وروى الطبراني في « المعجم الكبير » ، - بسند على شرط الصحيح - عن أبي رجاء العطاردي قال : « كان أبو موسى - يعني الأشعري - يقرئنا فيجلسنا خلقاً ، عليه ثوبان أبيضان فإذا تلا هذه السورة » اقرأ باسم ربك الذي خلق ، قال . هذه أول سورة أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم .

(د) وأخرج ابن أشته في كتاب « المصاحف » ، عن عبيد بن عمير قال . « جاء جبريل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بنمط ، فقال . اقرأ ، فقال . ما أنا بقارئ » ، قال . « اقرأ باسم ربك » ، فيرون أنها أول سورة أنزلت من السماء .

وأخرج أيضاً عن الزهري « أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان بحراء ، إذ أتى ملك بنمط من ديباح (١) فيه مكتوب « اقرأ باسم ربك الذي خلق » ، إلى « ما لم يعلم (٢) » ، ولعل هذا - إن صح - يفسر لنا الأمر بالقراءة في رواية الصحيحين أي اقرأ ما في هذا النمط إلى غير ذلك من الآثار التي ذكرها الإمام السيوطي في « الإتقان الصحيح » ، وعليه جمهور العلماء سلفاً ، وخلفاً .

(١) النمط . الثوب ، الديباج الحرير وهو معرب

(٢) سورة العلق ١ - ٥

القول الثاني :

إن أول ما نزل هو قوله تعالى : « يا أيها المدثر » إلى والرجز فاهجر ، (١) وهذا القول مروى عن جابر بن عبد الله ، وأبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف . ويدل لهذا ما رواه الشيخان — واللفظ للبخارى — عن يحيى بن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن : أى القرآن أنزل أول ؟ فقال : « يا أيها المدثر » ، فقلت : أنبت أنه « اقرأ باسم ربك الذى خلق » ، وفى رواية « يقولون : اقرأ باسم ربك الذى خلق » ، فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله ، أى القرآن أنزل أول ؟ فقال : « يا أيها المدثر » ، فقلت : نبت أنه « اقرأ باسم ربك الذى خلق » ، فقال : « لا أخبرك إلا بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال رسول الله : جاورت فى حراء (٢) ، فلما قضيت جوارى هبطت ، فاستبطنت الوادى ، فنوديت فنظرت أمامى ، وخلفى ، وعن يمينى ، وعن شمالى ، فإذا هو (٣) جالس على عرش بين السماء والأرض ، فأتيت خديجة ، فقلت : « دثرونى ، وصبوا على ماء بارداً ، وأنزل على « يا أيها المدثر » ، قم فأنذر ، وربك فسكبر ،

وقد أجاب القائلون بالاول عن هذا بأجوبة أحسنها وأخلقها بالقول : أن « يا أيها المدثر » ، أول ما نزل بعد فترة الوحى ، أما « اقرأ » ، فهى أول ما نزل على الإطلاق .

ويؤيد هذا التأويل ويقويه ما رواه الشيخان أيضاً عن طريق الزهرى — واللفظ للبخارى (٤) — عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن جابر بن

(١) المدثر ١ - ٥

(٢) أى أقمت فيه مدة متعبداً ، وكان ذلك قبل النبوة ، وبعدها ، وكان يجاور فيه فى رمضان غالباً .

(٣) أى الذى رأته قبل هذا فى حراء والمراد به جبريل .

(٤) صحيح البخارى - كتاب التفسير - سورة المدثر .

عبد الله رضى الله عنهما قال : سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فجلست منه رعباً^(١) ، فقلت : زملونى ، زملونى ، فذرُونى ، فأنزل الله تعالى « يا أيها المدثر » إلى . والرجز فاهجر ، قبل أن تفرض الصلاة ، وهى الأوثان^(٢) فقله : « وهو يحدث عن فترة الوحي^(٣) » نص على أن ذلك كان بعد فترة الوحي ، فهى أولية مقيدة لا مطلقة .

وكذلك قوله ﷺ - « فإذا الملك الذى جاءنى بحراء الخ » يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء ، التى نزل فيها « اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

على أننا نلاحظ أن جابراً استنبط ذلك باجتهاده ، على حسب علمه من روايته ، ولذلك لما روجع لم يجد بداً من ذكر ما سمعه ، ولم يقطع برأى ، ثم لما تبين له الأمر ، وأن ذلك كان بعد فترة الوحي ، ذكر ذلك صراحة كما فى طريق الزهرى بخلاف حديث عائشة فالتيقن أنه من روايتها ، لا من اجتهادها .

ومن الأجوبة التى أجيب بها .

(١) أن أول سورة « المدثر » مقيد بما نزل متعلقاً بالإنذار ، ولذلك دعا النبي بعدها إلى الله ، بخلاف صدر سورة العلق فهو مطلق غير مقيد بشئ خاص .

(١) أى سقطت من الخوف .

(٢) تفسير للرجز .

(٣) وقد اختلف فى هذه الفترة فقل . أربعين يوماً ، وقيل ستة أشهر وقيل الستين ونصف والأول هو ما اخترته ورجعته فى كتابى « السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة » ج ١ ص ٢٦٧ .

(٢) أن سورة « المدثر » أول سورة نزلت بكاملها قبل نزول تمام سورة « اقرأ » فإنها أول ما نزل منها صدرها (١) .

أقول هذا الجواب غير مسلم ، فقد ذكرت آنفاً رواية الصحيحين عن جابر ، وفيها « فأنزل الله يا أيها المدثر - إلى - والرجز فاهجر » .

فكيف يدعى مدع ، أو يقول قائل : إن المدثر أول سورة نزلت بتامها ؟ ! فالحق أنه لا يصلح أن يكون جواباً .

ولذلك لما تعرض الحافظ ابن حجر في « الفتح » للتوفيق بين الحديثين : حديث عائشة ، وحديث جابر — لم يذكر هذا الوجه (٢) ، وإنما ذكره صاحب الإتيان .

القول الثالث :

إن أول ما نزل سورة « الفاتحة » ، وقد عزا هذا القول الزخشرى في « كشفه » إلى أكثر المفسرين ، ورد عليه الحافظ بن حجر : بأن هذا القول لم يقل به إلا عدد أقل من القليل ، وإلى هذا الرأي مال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في تفسير سورة « الفاتحة » .

وقد استدل الذاهبون إليه بما رواه البيهقي في « دلائل النبوة » والواحدى بسنده عن أبي ميسرة — عمرو بن شرحبيل — أن رسول الله ﷺ قال لخديجة : « إني إذا خلوت ، وحدي سمعت نداء ، فقد — والله — خشيت أن يكون هذا أمراً (٣) » فقالت : معاذ الله ! ما كان الله ليفعل بك (٤) ، فوالله : إنك لنؤدى الأمانة ، وتصل الرحم وتصدق الحديث ، فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له ، وقالت : اذهب مع محمد إلى « ورقة » ، — يعني ابن نوفل — فانطلقا ، فقصا عليه ، فقال : « إذا خلوت وحدي سمعت

(١) الاتقان ج ١ ص ٣٤ .

(٢) فتح الباري ج ٨ ص ٥٥٠ ، ٥٥١ .

(٣) يعني شيئاً أكرهه ، أو يراد به لى الضرر .

(٤) أى شيئاً تكرهه ، أو يلحق به ضرراً ، لأن أخلاقك تبعد عنك أى سوء .

تداء من خلني : يا محمد ، يا محمد ، فأنطلق هارباً في الأفق ، !! فقال :
لا تفعل إذا اتاك فائبت حتى تسمع ما يقول ، ثم انتهي ، فأخبرني .
فلما خلا ناداه : يا محمد قل : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين
حتى بلغ « ولا الضالين » الحديث

وبجواب عن هذا القول : بأنه حديث مرسل ، وإن كان رجاله ثقات
فلا يعارض حديث عائشة المرفوع ، فالراجع هو الأول

أقول : وليس فيه التنصيص على أن الفاتحة أول ما نزلت ، فيجوز —
على فرض صحة هذا المرسل — أن تكون من أوائل ما نزل ، وإلى هذا
ذهب البيهقي قال : « وإن كان — أي المرسل — محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً
عن نزولها بعد ما نزلت عليه « اقرأ » والمدثر ، (١) والظاهر أن الفاتحة من
أوائل السور نزولاً كما يفهم ذلك من صنيع المرتبين للسور ، على حسب نزولها
القول الرابع :

إن أول ما نزل هو قوله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم » واستند
القائل بهذا إلى ما أخرجه الواحدى بإسناده عن عكرمة والحسن ، قالا :
أول ما نزل من القرآن « بسم الله الرحمن الرحيم » وأول سورة « اقرأ باسم
ربك » وأخرج ابن جرير ، وغيره عن ابن عباس قال : أول ما نزل جبريل
على النبي ﷺ قال : « يا محمد ، استعد ، ثم قال : « بسم الله الرحمن الرحيم »
وقد أجاب السيوطي عن هذا القول ، فقال : وعندى أن هذا لا يعد قولاً
برأسه ، فإن من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها ، فهي أول آية
نزلت على الإطلاق ، (٢)

أقول : وهذا الجواب غير مسلم فالأحاديث الصحيحة في بدء الوحي
كحديث عائشة وغيره لم تذكر قط نزول البسملة مع صدرها ، والظاهر أنها
نزلت بعد عند نزول تمام السورة

وقد ذكر «ابن عطية» في مقدمة تفسيره عند حكاية هذا القول —
ان في بعض طرق حديث خديجة ، وحملها رسول الله ﷺ إلى « ورقة ابن
نوفل » ان جبريل قال للنبي ﷺ - قل : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالها ،
فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، (١) فإذا ثبت هذا يكون مؤيداً لما
أجاب به السيوطي

نعم هذه الآثار والأحاديث لا تنهض لمعارضة حديث عائشة المرفوع
الذى اتفق عليه أصحابا الصحيحين ، فهو في أعلى درجات الصحة
« ازالة إشكال » لكن يشكل على الوجه الذى رجحناه ، مارواه
الشيخان عن عائشة قالت : « إن أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر
الجنة والنار ، حتى إذا ثاب إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ،
لأنه ليس في صدر سورة اقرأ ذكر الجنة والنار ، بل ولا في
السورة كلها .

والجواب : أن «من» مقدرة في الكلام « اى من أول ما نزل ... »
ومرادها - رضى الله عنها - سورة المدثر ، فإنها أول ما نزل بعد فترة الوحي ،
وفي آخرها ذكر الجنة والنار ، فلعل آخرها نزل قبل نزول بقية « اقرأ »
وبهذا يزول هذا الإشكال

آخر ما نزل من القرآن

ليس في هذا الموضوع أحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ ، وإنما هي آثار
مروية عن بعض الصحابة ، والتابعين ، استتجوها بما شاهدوه من نزول
الوحي ، وملابسات الأحوال ، وقد يسمع أحدهم ما لا يسمعه الآخر ويرى
ما لا يرى الآخر ، فن ثم كثير الاختلاف بين السلف والعلماء ، في آخر ما نزل
وتعددت الأقوال وتشعبت الآراء ، وإليك تفصيل القول في هذا

القول الاول :

إن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى في آخر سورة البقرة : « واثقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (١) والدليل على ذلك :

(١) روى النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : « آخر ما نزل من القرآن » واثقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله .. الآية

(٢) وروى ابن مردويه بسنده عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : « آخر آية نزلت من القرآن » واثقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، الآية (٣) وأخرج ابن جرير ، عن طريق عطية ، عن أبي سعيد قال : « آخر آية نزلت » واثقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله .. الآية

(٤) وأخرج ابن أبي حاتم بسنده ، عن سعيد بن جبير قال : « آخر ما نزل من القرآن كله : » واثقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله .. الآية وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ، ثم مات ليلة الإثنين ، لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول

وأخرج ابن جرير في تفسيره مثله عن ابن جريج (٥) وذكر البخوي في تفسيره عند هذه الآية عن ابن عباس - رضي الله عنها - قال : « هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ ، فقال له جبريل وضعها على رأس مائتين وثمانين ، من سورة البقرة وعاش بعدها رسول الله ﷺ - أحدًا وعشرين يوماً ، وقال ابن جريج : تسع ليال وقال سعيد ابن جبير : سبع ليال

(٦) وذكر الإمام الآلوسي في تفسيره عند هذه الآية . روى أنه قال يعني رسول الله - « اجعلوها بين آية الربا ، وآية الدين » وفي رواية أخرى أنه ﷺ - قال . « جاءني جبريل فقال ، اجعلوها على رأس مائتين وثمانين آية من من البقرة »

وهذا الرأى هو أرجح الآراء والأقوال ، وهو الذى تركز إليه النفس بعد النظر فى هذه الأحاديث والآثار وذلك لما يأتى :

(١) لم يحظ قول من الأقوال التى سند كرها بجملة من الآثار ، وأقوال أئمة التفسير مثل ما حظى به هذا القول

«ب» ، ما تشير إليه هذه الآية فى ثناياها من التذكير باليوم الآخر ، والرجوع إلى الله ليوفى كلا جزاء عمله ، وهو أنسب بالختم .

«ج» ، ما ظفر به هذا القول من تحديد الوقت بين نزولها ، وبين وفاة النبي ﷺ ولم يظفر قول غيره بمثل هذا التحديد ، ولا يضر الاختلاف فى تحديد المدة ، فالروايات حددت المدة بينها قدر مشترك ، وهو بيان قرب نزول هذه الآية من وفاة النبي ﷺ .
القول الثانى :

ان آخر ما نزل هو قوله تعالى فى سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين » ، (١) .
ويدل لذلك ما أخرجه البخارى عن ابن عباس قال : « وآخر آية نزلت آية الربا ، وأخرج البيهقى عن عمر مثله ، والمراد بآية الربا الآية التى ذكرناها .
والحق هو الأول ويحجب عن هذا القول :
اما بأنها آخر آية نزلت فى شأن « الربا » ، واما بأن المراد أنها من أواخر الآيات نزولا .

ويؤيد هذا الجواب الأخير ، وأنها ليست آخر آية على الإطلاق ، ما رواه الإمام أحمد ، وابن ماجه ، عن عمر نفسه قال : « من آخر ما نزل آية الربا ، وما ذكره ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : « خطبنا عمر فقال : « إن من آخر القرآن نزولا آية الربا » ،
والظاهر أن هذا هو مراد ابن عباس أيضاً فى روايته ، وهذا التعبير له نظائر فى اللغة العربية

ويرى بعض العلماء (٢) أن المراد بقول ابن عباس « آية الربا » ، أى الآية

(١) البقرة الآية ٢٧٨ (٢) شرح المختار من تيسير الوصوك ص ٥٢

التي ختمت بها آيات الربا وهي « واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ... »
وعلى هذا تكون رواية البخارى مؤيدة لما ذكرناه عن ابن عباس في
القول الاول .

القول الثالث .

إن آخر آية نزلت اية الدين ، وهي قوله تعالى : « يا أيها الذين امنوا
إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى ، فاكتبوه » الآية (١) وهي أطول
آية في القرآن أخرج أبو عبيد في كتاب « فضائل القرآن » عن ابن شهاب
الزهرى قال : آخر القرآن عهداً بالعرش اية الربا ، وآية الدين ، وأخرج
ابن جرير عن طريق ابن شهاب ، عن سعيد ابن المسبب ، أنه بلغه ان آخر
القران عهداً بالعرش اية الدين ، مرسل ، صحيح الإسناد
ويجب عن هذا القول : بأن هذه الآية آخر ما نزل في باب « المعاملات » ،
فهي أخيرة مقيدة ، لا مطلقة كالآية الاولى

وقد جمع السيوطى بين هذه الأقوال الثلاثة فقال : « ولا منافاة عندى
بين هذه الروايات في اية الربا ، وآية : « واتقوا يوماً ... » وآية الدين
لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف ، ولأنها قصة
واحدة ، فأخبر كل عن بعض مانول بأنه آخر ، وذلك صحيح (٢) ، ومقتضى
هذا الجمع من الإمام السيوطى أن آية الدين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق
ولكنى أقول : إن في النفس من هذا التوفيق شيئاً ، وما ذكره غير
مسلم له ، فقد سمعت أنفاً قول الفاروق عمر — رضى الله عنه — في أن آية
الربا من أواخر الايات ، لا آخرها ؛ واستدل السيوطى بأن الايات
الثلاث في قصة واحدة - غير مسلم فالآية الاولى في ترك ما بقى من الربا عند
المدينين بعد نزول اية التحريم ، والثانية في التدكير باليوم الآخر ، وما فيه
من جزاء ، والثالثة في أحكام تتعلق بالدين ، فكيف يقال إذا إنها في
قصة واحدة !! »

وبما يضعف هذا الطريق في الجمع أيضاً ، أن آية الربا نزلت (١) لما اسلمت ثقيف وأرادوا أن يستمروا على رباهم ؛ فاشتكى بنو المغيرة - وكانوا مدينين لهم - إلى عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله الآية أمراً لهم أن يتركوها ما بقي لهم من رباهم قبل التحريم ، وإلا فليأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وثقيف إنما كان إسلامهم في رمضان في السنة التاسعة ، والظاهر أن هذه القصة كانت بعد إسلامهم ، وأين زمن إسلامهم من زمن اختتام القرآن قبيل وفاة الرسول ؟ !

وقد ذهب الحافظ ابن حجر في « الفتح » إلى نحو ما ذكرت ، ورجح أن آية « واتقوا يوماً ... » هي الآلية بالختام فقال . طريق الجمع بين هذين القولين : القول بآية الربا ، والقول بآية « واتقوا يوماً » أن هذه الآية هي ختام الآيات المنزلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن . وأما ما سيأتى في آخر سورة النساء من حديث البراء : « آخر سورة نزلت براءة ، وآخر آية نزلت : « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ... » الآية .

فيجمع بينه وبين قول ابن عباس ، بأن الآيتين نزلتا جميعاً ، فيصدق أن كلا منهما أخبر بالنسبة للمعادهما ، ويحتمل أن تكون الأخيرة في سورة النساء مقيدة بما يتعلق المواريث مثلاً بخلاف آية البقرة ، ويحتمل عكسه (٢) والاول أرجح لما في آية البقرة من الإشارة إلى معنى الوفاة المستلزمة لخاتمة النزول ، وحكى ابن عبد السلام أن النبي ﷺ - عاش بعد نزول الآية المذكورة - يعني آية البقرة - أحداً وعشرين يوماً ، وقيل : سبعا ، (٣)

وبعد هذا التحقيق يتبين لنا أن الصحيح أن آخر ما نزل على الإطلاق هي آية « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ... » لما حلف به من دلائل وقرائن

(١) أسباب النزول للسيوطي على هامش تفسير الجلالين ج ١ ص ٦٩

(٢) أي أن تكون آية البقرة أولية مقيدة بما نزل في أمور القيامة واليوم الآخر وآية الكلالة هي آخر ما نزل على الإطلاق ولكنه رجع الاحتمال الاول

(٣) فتح الباري ج ٨ ص ١٦٥ ط البهية

القول الرابع .

إن آخر ما نزل هو قوله تعالى . « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة » (١) .
وآخر ما نزل من السور (براءة)
ويدل على هذا ما رواه البخاري ومسلم عن البراء بن عازب أنه قال .
(آخر سورة نزلت (براءة) وآخر آية نزلت يستفتونك قل الله يفتيكم
في الكلالة . . .)

ويجاء عن هذا بأن سورة براءة آخر ما نزل في شأن القتال والجهاد ، وأن
في الكلام تقدير ، أي من أواخر السور نزولا سورة براءة وأن آية الكلالة
آخر ما نزل في شأن المواثيق ؛ وقد سمعت آنفا قول الحافظ ابن حجر في هذا
القول الخامس .

إن آخر ما نزل قوله تعالى . (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا
فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما) (٢)
واستدل صاحب هذا القول بما رواه البخاري وغيره عن ابن عباس
قال : نزلت هذه الآية ، ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا
فيها ، هي آخر ما نزل وما نسخها شيء (٣) .

ويجاء عن هذا القول : بأنها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمدا فهي
أخرية مقيدة ، ويؤيد هذا قوله في الحديث « وما نسخها شيء » فهو يدل على
نزول شيء بعدها ولكن ليس بناسخ لها ، وقوله في حديث النضر . عند
مسلم — عن ابن عباس قال : « إنها لمن آخر ما أنزلت » (٤) ، وفي الحديث
الذي رواه الإمام أحمد النسائي عنه « لقد نزلت في آخر ما نزل ، ما نسخها
شيء » (٥) .

(١) سورة النساء ١٧٦ ، والمراد بالكلالة من لا ولد له ، أو لم يرثه والد ولا ولد ،
وهو رأى للصديق رضي الله عنه ووافق عليه جمهور الصحابة
(٢) النساء / ٩٣ (٣) صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة النساء - باب -
ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم ، (٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ ص ١٥٨ .
(٥) الاتقان ج ١ ص ٢٨ .

القول السادس :

إن آخر ما نزل هو قوله تعالى في خاتمة سورة براءة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبى الله ، لا إله إلا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » (١)

والدليل على ذلك ما رواه الحاكم في المستدرک عن أبي بن كعب قال : « اخر اية نزلت » ، لقد جاءكم رسول من أنفسكم . . . إلى اخر السورة .

وروى ابن مردويه عن أبي أيضا قال : « اخر القرآن عهدا بالله هاتان الايتان . » « لقد جاءكم رسول من أنفسكم . . . » إلى قوله ، وهو رب العرش العظيم . .

ويجاب عنه . بأنها اخر ما نزل من سورة براءة ، أو أنه أخبر بذلك بحسب ظنه واجتهاده .

القول السابع .

إن آخر ما نزل سورة المائدة ، واستند صاحب هذا القول إلى ما رواه الترمذی ، والحاكم عن عائشة — رضى الله عنها — قالت . « اخر سورة نزلت المائدة فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وما وجدتم من حرام فحرموه .

ويجاب عن هذا القول . بأنها اخر سورة نزلت في الحلال والحرام ، ولم ينسخ فيها شيء ويشير إلى هذا اخر الحديث .

القول الثامن .

إن اخر سورة نزلت هي . « إذا جاء نصر الله ، والفتح . . . » السورة روى هذا مسلم في صحيحه عن ابن عباس ، ورواه النسائي أيضا عنه

ويجاب عن هذا القول . بأنها اخر سورة نزلت بتأمرها في حجة الوداع ، فلا ينافي نزول آية أو آيات بعدها .

أو أنها اخر ما نزل مشعرا بوفاة النبي - صلوات الله وسلامه عليه - ويؤيد هذا ما رواه البخارى عن ابن عباس حين سأله عمر - رضى الله عنه - بمحضر من الصحابة عنها ، فقال : أجل ، أو مثل ضرب لمحمد - صلى الله عليه وسلم - نعتت إليه نفسه ، (١) وفي رواية أخرى للبخارى عن ابن عباس : « هو أجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أعلمه إياه ، (٢) »

فقال عمر - رضى الله عنه - . ما أعلم منها الا ما تقول ، وروى أبو يعلى عن ابن عمر : « أن هذه السورة نزلت في حجة الوداع ، في أوسط أيام التشريق ، فعرف رسول الله ﷺ أنه الوداع ،

هذا وقد اوصل السيوطى في الإتقان الأقوال إلى عشر

وقد عرفت ان القول الأول هو الصحيح الراجع . وعرفت الإجابة عما ورد مخالفاً له ، وان المراد اواخر مقيدة ، لا مطلقة وهذه الطريقة في التوفيق بين النصوص المتعارضة في هذا الباب هي اعدل الطرق ، وهو المنهج الذى سلكه المحققون من العلماء ولكن القاضى ابا بكر الباقلانى فى كتابه « الانتصار » يذهب مذهبا آخر فى التوفيق فيقول : هذه الأقوال ليس فيها شئ مرفوع إلى النبى ﷺ ، وكل قال ما قاله بضرب من الاجتهاد ، وغلبة الظن ؛ ويحتمل ان كلا منهم اخبر عن آخر ما سمعه من النبى ﷺ فى اليوم الذى مات فيه . او قبل مرضه بقليل . وغيره سمع منه بعد ذلك . وإن لم يسمعه هو

(١) بضم النون وكسر العين ، وفتح الياء ، وسكون التاء مبنيًا للمجهول ، من كلام ابن عباس وقد وهم بعض الرواة فزعم أن النبى قال لجبريل لما نزل بها عليه « نعتت إلى نفسى » بفتح النون ، والهمزة ، وسكون الياء ، وفتح التاء خطابا لجبريل [فتح البارى ج ٨ ص ٥٩٨] .

(٢) صحيح البخارى - كتاب التفسير - سورة إذا جاء نصر الله والفتح .

ويمحتمل أيضا : ان تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول - ﷺ مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك . فيظن انها آخر ما نزل في الترتيب

ومرد هذا التوفيق بين الأقوال إلى غلبة الظن ، والاجتهاد من القائل بناء على ما سمعه أو شاهده من قرائن ، وقد لا يوافق الظن ، والاجتهاد والواقع ونفس الأمر ، وقد تركنا صاحب هذا الرأي بين جملة من الاحتمالات ، من غير أن يقطع برأى .

ويقرب من هذا الرأي في التوفيق ما ذهب إليه «البيهقي» ، أيضاً حيث قال : « يجمع بين هذه الاختلافات - إن صححت - بأن كل واحد أجاب بما عنده . »

(التنبيه إلى خطأ مشهور)

من الأخطاء المشهورة على السنة العامة ، وبعض الخاصة^(١) ما يزعمونه من أن قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام ديناً »^(٢) هي آخر ما نزل من القرآن ، فإنها تدل على إكمال الدين ، في ذلك اليوم المشهود ، الذي نزلت فيه ، وهو يوم « عرفة » في حجة الوداع ، وكان يوم جمعة ، ففهموا منه أن إكمال الدين لا يكون إلا بإكمال نزول القرآن الكريم .

والحق : أن هذا الزعم غير صحيح ، ولم يقل أحد قط من العلماء : إنها آخر ما نزل من القرآن ، والامام السيوطي ، وهو الباقعة الذي لا يخفى عليه قول ، سرد الأقوال في آخر ما نزل ، ولم ينقل عن أحد مثل هذا القول بل نبه على خطئه ، وزيفه^(٣) .

(١) وقع في هذا الخطأ بعض المؤلفين في تاريخ التشريع الإسلامي كالاستاذ الشيخ الحضري رحمه الله وتابعه بعض المؤلفين في كليات الشريعة ، والحقوق .

(٢) المائدة / ٣ .

(٣) الاتقان - ١ ص ٢٦ - ٢٨ .

وقد رأيت في الآثار السابقة - التي ذكرناها آنفاً ، أن آية الربا ، وآية
الكلالة من أواخر القرآن نزولا . بل آية «واتقوا يوماً ...» نزلت بعد
«اليوم أكملت لكم دينكم ...» بأكثر من شهرين ، فقد حددت رواية
ابن أبي حاتم . أن نزولها كان قبل وفاة النبي ﷺ بتسع ليال عما يجعلنا نقطع
بأن «اليوم أكملت لكم دينكم ...» ليس آخر القرآن نزولا . وإن هذا الزعم
لأنصيب له من الصحة

(بـ يفسر الإكال في الآية)

وقد يقول لي قائل : «وإذا كان الأمر كما ذكرت . فبم تفسر إذا إكال
الدين . وإتمام النعمة ؟

والجواب أن للعلماء المفسرين في فهم الآية رأيين :

الاول . أن المراد بإكال الدين يومئذ . هو إنجازه . وإقراره . وإظهاره
على الدين كله . ولو كره الكافرون . بفتح مكة . وإتمام حجهم الأكبر .
ولا شك أن الإسلام في حجة الوداع . كان قد ظهرت شوكته وعلت
كلمته ، واذل الشرك وأهله ، وأجلى المشركون عن البلد الحرام ، وانفرد
المسلمون بالحج ، والطواف بالبيت لم يشاركهم فيها مشرك ، فأى كمال بعد
هذا ؟ وأى نعمة بعد تلك النعمة ؟ وإلى هذا الرأي ذهب العلامة
« ابن جرير » الطبري في تفسيره حيث قال . الأولى أن يتأول على أنه أكمل
لهم دينهم ، بإقرارهم بالبلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، حتى حجه
المسلمون ، لا يشاركهم المشركون ، ثم أيده بما رواه بسنده عن ابن عباس
قال : «كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً ، فلما نزلت «براءة» نفى
المشركون من البيت ، وحج المسلمون ، لا يشاركهم في البيت الحرام أحد
من المشركين ، فكان من تمام النعمة ، وأتممت عليكم نعمتي ، وهذا الرأي في
تفسير الآية لا ينفى نزول آيات بعدها في الحلال . والحرام . والوعظ والتذكير
الثاني . أن المراد بإكال الدين إكمال الأحكام ، والحلال ، والحرام

فلم ينزل بعدها شيء من الفرائض ، والتحليل والتجريم روى هذا عن السدى . وجماعة

وعلى هذا رأى فلا مانع من نزول آيات بعدها ليست منشئة لأحكام جديدة . بل مقررة لما سبق من الأحكام كآية الربا «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين»

وذلك عند من يرى أنها آخر آية نزلت من القرآن (١) فإنها ليست منشئة لتحريم الربا إذ التحريم مستفاد قبل ذلك من آية آل عمران . «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون» وآية البقرة التى هى قبل «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ؛ ذلك بأنهم قالوا . إنما البيع مثل الربا وأحل . .

الله البيع وحرم الربا وإنما جاءت هذه مقررة ومؤكدة للحرمة وكآيات التذكير بالآخرة والوعظ والترغيب والترهيب وذلك مثل قوله «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله . .» فإنها للتذكير باليوم الآخر والترغيب والترهيب

ومن ثم يتبين لنا أن الآية كيفما فهمناها وحملناها لا تدل على أنها آخر القرآن نزولاً وهو ما قاله ثقات المفسرين وأجمع عليه علماء علوم القرآن

﴿ أمثلة لأوائل وأواخر مقيدة ﴾

هذا الذى قدمناه فى البحثين السابقين إنما اريد به الأوائل . والأواخر المطلقة وإن كان التحقيق العلمى دعانا الى تنزيل بعضها على أنها أوائل وأواخر مقيدة . وكما بحث العلماء فى النسوع الأول . بحثوا فى الأوائل والأواخر الميقدة بمحرم خاص . أو بموضوع خاص . وقد ذكروا لذلك أمثلة كثيرة منها .

(١) أما عند المحققين فليست آخر آية كما قدمنا

(١) فن ذلك الآيات التي نزلت في الخمر . فأول آية نزلت فيها هي قوله تعالى . « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس وإثمها أكبر من نفعها » (١) وآخر ما نزل في التحريم قوله تعالى . « يا أيها الذين الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ، إلى قوله تعالى : « فهل أنتم متنون » (٢) فحرمت الخمر تحريماً باتاً ، وأراق الناس ما عندهم ، حتى سالت طرق المدينة (٣) الجهاد: قيل أول ما نزل فيه قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور (٤)

روى هذا الحاكم في المستدرک عن ابن عباس

وأخرج ابن جرير ، عن أبي العباس قال : أول ما نزل في القتال بالمدينة « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (٥)

وقيل : إن أول ما نزل في القتال قوله تعالى ، « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ، ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل ، والقرآن » ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ، (٥) ذكره الحاكم في « الإكليل » ،

والذي تركن إليه النفس هو الأول ، إذ فيه التصريح بمبررات الجهاد

(١) البقرة / ٢١٩ (٢) المائدة / ٩٠

(٣) الحج ٢٩ - ٤١ (٤) البقرة / ١٩٠ (٥) النوبة / ١١١

وبيان حكمته في الإسلام ، وأن الغرض منه رد الظلم الواقع عليهم من المشركين ، ودفعه وتأمين العقيدة حتى تجد سبيلها إلى القلوب ، وتأمين أهلها ، ومعتنقها ، وتأمين الدعوة إلى الله حتى لا يطغى الباطل على الحق ، والكفر على الإيمان ، والشر على الخير ، وذكر المبررات ، والحكم ، هو الأليق بيده التشريع .

أما الآية الثانية فقد ذكر أنها نزلت عام عمرة القضاء (١) ، لما خاف المسلمون أن يباغتهم المشركون ، فأنزل الله الآية مبينة لهم حل الدفاع عن النفس ، والقتال في هذا الوطن وتشريع الجهاد كان في السنة الثانية ، وبينهما بضع سنوات .

وأما الآية الثالثة فيبعد كونها أول آية ؛ لأن سورة براءة ، من أواخر القرآن نزولاً كما رواه البخاري عن البراء بن عازب ، وهي إلى الترغيب في الجهاد أقرب منها إلى بدء التشريع وآخر آية نزلت في شأن الجهاد قوله تعالى « وقاتلوا المشركون كافة ، كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين » (٢) .

(٣) أول ما نزل في شأن القتل آية الاسراء ، وهي قوله تعالى : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً » (٤) .

رواه ابن جرير عن الضحاك .

وأخر آية نزلت فيه : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالد فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » (٥) .

(١) أسباب النزول للسيوطي على هامش الجلالين ١ ص ٥ ط الحلبي .

(٢) التوبة ٣٦ (٣) الاسراء ٣٣ (٤) سورة النساء ٩٣

(٤) أول آية نزلت في « الاطعمة » بمكة : آية « الانعام » ، وهى قوله تعالى : « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً ، أو لحم خنزير ، ؛ فإنه رجس ، أو فسقاً أهل لغير الله به ... الآية » (١) .

ثم آية « النحل » : فكلّموا بما رزقكم الله حلالاً طيباً ... الآية ، (٢) .
وبالمدينة : آية البقرة « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » ، إن الله غفور رحيم ، (٣) ثم نزلت آية « المائدة » : حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع إلا ما ذكيتم ، وما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق ، (٤) .

(٥) روى عن مجاهد أنه قال : أول ما نزل من سورة « التوبة » ، قوله تعالى : لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذا أعجبتكم كثيرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضائق عليكم الأرض بما رحبت .. ، الآيات (٤) وعن مسروق ، عن أبى الضحى : إن أول ما نزل من براءة : « انفروا خفافاً ، وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم .. الآية » ، ثم أنزل الله أولها — أى السورة (٥) — ثم أنزل آخرها ، .

والآيات الأولى نزلت بعد حنين ، وأما الآية الثانية ، فالظاهر أنها نزلت في « تبوك » ، وحين مقدمة على تبوك ، فالراجح هو الأول .

(١) سورة الانعام ١٤٥ (٢) الآية ١٧٣ (٣) الآية ٣ (٤) التوبة ٢٦-٢٨

(٥) وذلك في السنة التاسعة ، فقد أرسل بصدورها علياً - كرم الله وجهه - ليقرأها على الناس .

وآخر ما نزل من « التوبة » هو قوله تعالى : لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتمتم .. الآيتان ، وقد ورد أنهما آخر ما نزل من القرآن وأولنا ذلك : بأنها آخر من نزل براءة .

(٦) أول سورة نزلت بـ « مكة » ، « اقرأ باسم ربك ، أى صدرها إلى .. ما لم يعلم ، وآخر سورة نزلت بها « المؤمنون » ، ويقال « العنكبوت » .

وأول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة ، وقد ذكر الحافظ بن حجر في « الفتح » : الاتفاق على ذلك ، لكن في دعوى الاتفاق نظر ، فقد نقل « الواحدى » عن على ابن الحسين : أن أول سورة نزلت بالمدينة : « ويل للطففين » ،

وآخر سورة نزلت « براءة » ، وقيل . سورة المائدة ، وقيل . سورة النصر أقول ؛ والظاهر أن آخر سورة نزلت بالمدينة بتمامها هى سورة « إذا جاء نصر الله والفتح .. » فقد روى أنها نزلت فى حجة الوداع فى أواسط أيام التشريق على النبي صلى الله عليه وسلم ، أما براءة والمائدة فهما من أواخر السور نزولا .

«المبحث الرابع»

أسباب النزول

ينقسم القرآن الكريم من حيث سبب النزول وعدمه ، إلى قسمين ، .
(١) ما نزل ابتداء من غير سبق سبب نزول خاص ، وهو كثير في القرآن الكريم ، وذلك مثل الآيات التي اشتملت على الأحكام والآداب ، التي قصد بها ابتداء : هداية الخلق وإرشادهم إلى مافيه سعادتهم في الدنيا والآخرة .
(٢) ما نزل مرتبطا بسبب من الأسباب الخاصة ، وهو موضوع بحثنا الآن ، وليس من قصدنا في هذا المبحث استيعاب آيات القرآن ، التي نزلت لأسباب خاصة وذكر أسبابها ، إنما قصدنا ذكر مباحث كلية تعين على تفسير كتاب الله ، ومعرفة القواعد والاصطلاحات في هذا الباب .

وقد ألف في أسباب النزول على سبيل التفصيل جماعة . منهم : على ابن المديني ، شيخ البخاري ، ومنهم . «الواحدى» ، و«ابن حجر» ، و«السيوطي» ، وله في ذلك كتاب حافل ، سماه . «لباب النقول» . في أسباب النزول ، وهو مطبوع على هامش تفسير الجلالين .

« ما هو سبب النزول ؟ »

سبب النزول . هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدة عنه ، أو مهيئة لحكمه أيام وقوعه .

والمعنى . أن حادثة وقعت ، أو سؤال توجه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فنزل الوحي بتبيان ما يتصل بهذه الحادثة ، أو بجواب هذا السؤال ، وذلك مثل . حادثة دخولة بنت ثعلبة ، التي ظاهر منها زوجها «أوس بن الصامت» فنزلت بسببها آيات الظهار (١) ، ومثل . ما حدث بين الأوس والخزرج من

خصومة ، بسبب تأليب أحد اليهود العداوة بينهما ، فقد نزل عقبها قوله تعالى . « يا أيها الذين آمنوا . إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ... » الآيات (١)

وسواء أكان هذا السؤال يتعلق بأمر مضى مثل قوله تعالى في سورة الكهف . « ويسألونك عن ذى القرنين ، قل . سأتلو عليكم منه ذكرا ... » الآيات (٢) ، أم يتصل بحاضر مثل قوله تعالى في سورة الإسراء . « ويسألونك عن الروح ، قل . قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، (٣) ، أم يتصل بمستقبل وذلك مثل قوله تعالى في سورة الأعراف . « يسألونك عن الساعة . أيان مرساها ؟ قل . إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو ... » الآية (٤) .

والمراد بآيाम وقوعه . أن تنزل بعده مباشرة ، أو بعد ذلك بقليل ، مثل الآيات المتعلقة بقصة « أهل الكهف » و « ذى القرنين » ، فقد نزلت بعد خمسة عشر يوما من سؤالهم النبي - صلى الله عليه وسلم (٥) .

وهذا القيد في التعريف : يخرج الآيات التي تنزل ابتداء ، بينما هي تتحدث عن قصص الأنبياء ، وأحوال الأمم معهم ، أو عن بعض الحوادث الماضية ، كسورة « الفيل » مثلا ، أو تتحدث عن مستقبل كاليوم الآخر وما فيه من نعيم أو عقاب ؛ فإن هذه النصوص والأحداث لا تعتبر أسباب نزول .. فتنبه لذلك . ولا تغلط فيه كما غلط بعض العلماء (٦) .

(١) آل عمران ١٠٠ - ١٠٣ (٢) الآية ٨٣ وما بعدها .

(٣) الآية ٨٥ (٤) الأعراف . الآية ١٨٧

(٥) راجع أسباب النزول . للسيوطى على هامش الجلائن ٢٣ ص ٣

(٦) قال الواحدى في تفسيره : إن سبب نزول سورة الفيل قصة قدوم

الحيثة لهدم البيت ، وهو وهم لاعالة ، انظر الاتقان ١ - ٣١

«طريق معرفة سبب النزول»

لا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح ، ولا مجال للعقل فيه إلا بالتجسس والتزجيج ، قال . الواحدى فى كتاب « أسباب النزول » .
« لا يحل القول فى أسباب نزول القرآن إلا بالرواية والسماع ، بمن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحشوا عن عللها ، وجدوا فى الطلاب » .
فالمعول عليه فى أسباب النزول : هم الصحابة ، ومن أخذ عنهم من التابعين ومعرفة سبب النزول أمر يحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا . وكثيراً ما يجزم بعضهم بالسبب ، وربما لم يجزم بعضهم ، فقال : أحسب هذه الآية نزلت فى كذا ، كما قال « الزبير » فى قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . . . » الآية روى الشيخان فى صحيحيهما عن عروة بن الزبير عن أبيه أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير فى شراج الحرة التى يشقون منها النخل فقال الأنصارى : سرح الماء يمر ، فأبى عليه فاختصما عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ للزبير : « اسق يا زبير ، ثم أرسل للماء إلى جارك » فغضب الأنصارى ثم قال : يا رسول الله : أن كان ابن عمتك ، فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال للزبير : « يا زبير احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر فقال الزبير . والله أنى لأحسب هذه الآية نزلت فى ذلك » فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، زاد البخارى « فاستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه ، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد أشار على الزبير رأياً أى أراد سعة له وللأنصارى ، فلما حفظ رسول الله ﷺ استوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه فى صريح الحكم ، فقال الزبير والله ما أحسب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك (١)

(١) أسباب النزول للسيوطى ج ٢ ص ٣ ، صحيح البخارى كتاب التفسير - تفسير سورة النساء .

وقول الصحابي في سبب النزول . له حكم المرفوع ، كما نبه على ذلك الحاكم وابن صلاح وغيرهما ، من أئمة علوم الحديث ، لأنه قول فيما لا مجال للرأى فيه ، ويبعد كل البعد أن يقول ذلك من تلقاء نفسه ، فهو محمول على السماع أو المشاهدة .

وقول التابعي في سبب النزول . له حكم المرفوع إلا أنه مرسل ، فقد يقبل إذا صح السند إليه ، وكان من أئمة التفسير ، الآخذين عن الصحابة . كمجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ؛ أو اعتضد بمرسل آخر ، ونحو ذلك ومن كان عالماً بذلك من الصحابة «عبد الله بن مسعود» - رضى الله عنه - روى البخارى في صحيحه عنه قال . «والله .. الذى لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم . أين نزلت ؟ (١) ولا أنزلت آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم . فيمن نزلت ؟ (٢) - ولو أعلم أحداً أعلم منى بكتاب الله .. تبلغه الإبل ، لركبت إليه .»

وينبغى التثبت في سبب النزول .. وإلا دخل القائل تحت قوله - ﷺ - «واتقوا الحديث على إلا ما علمتم ؛ فان من كذب على معتمه - دأ ، فليتبوأ مقعده من النار . . ومن كذب على القرآن - بغير علم - فليتبوأ مقعده من النار ، رواه أبو داود

وكان السلف الصالح يتخرجون من القول في سبب النزول بغير علم ، قال محمد ابن سيرين . « سألت عبيدة عن آية من القرآن ، فقال . اتق الله ، وقل سداداً ، ذهب الذين يعلمون . فيم أنزل القرآن ؟ » .

فوائد معرفة سبب النزول

لمعرفة سبب النزول فوائد كثيرة .. منها :-

الفائدة الأولى . الاستعانة على فهم الآية ، وإزالة الإشكال عنها . قال الواحدى - فى كتاب أسباب النزول - . « لا يمكن معرفة الآية دون الوقوف على قصتها ، وبيان نزولها » . وقال ابن دقيق العيد . « معرفة سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن » .

وقال ابن تيمية . « معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب .. ولذلك أمثلة كثيرة منها :

(١) أنه أشكل على « عروة بن الزبير » - رضى الله عنهما - أن يفهم - م فرضية السعى بين الصفا والمروة من قوله تعالى . « إن الصفا والمروة من شعائر الله » ، فن حج البيت أو اعتمر ، فلا جناح عليه أن يطوف بهما الآية (١) وذلك لأن الآية نفت (الجناح) ونفى الجناح لا يدل على الفرضية ، حتى سأل خالته السيدة (عائشة) - رضى الله عنها - عن ذلك ، فأفهمته . أن نفي الجناح ليس نقياً للفرضية ، إنما هو نفي لما وقر فى أذهان المسلمين يومئذ من التحرج والتأثم من السعى بين الصفا والمروة ، لأنه من عمل الجاهلية .

وقد روى فى سبب هذا التحرج . أنه كان على الصفا صنم يقال له . (إساف) وعلى المروة صنم ، يقال له . (نائلة) ، وكان المشركون إذا سعوا تمسحوا بهما ، فلما ظهر الإسلام ، وكسرت الأصنام تخرج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك ؛ فنزات الآية ، لنفى هذا الحرج .

وقيل : السبب أن بعض الأنصار كانوا يهلون له - (مناة) (٢) الطاغية عند

(١) مناة . اسم صنم كان فى الجاهلية . قال ابن السكيت . كانت صخرة نصبها (عمرو بن الحنبل) لخذيل . وكانوا يعبدونها . والطاغية : صفة لها إسلامية .

والمثلل : - بضم الميم وفتح الدالين ، واللام الأولى مفتوحة مشددة - موضع قريب من قديد وقديد . على صيغة المصدر . قرية بئر مكة والمدينة كشجرة المياه

قاله أبو عبيد البكري (٢) البقرة / ١٥٨

(المشغل) ، فكان من أهل منهم لمناة : يتخرج أن يطوف بين الصفا والمروة ، تعظيما لها ، فلما أسلموا سألو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن هذا التخرج . فأنزل الله الآية لرفع هذا التخرج .

وقد جاء بهذا وذاك الروايات الصحيحة في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها - ولا منافاة بين الروايات ، لأن فريقاً منهم كان يطوف بينهما في الجاهلية فلما جاء الإسلام تخرج من ذلك ، وبعضهم ما كان يطوف بينهما ، ويتخرج من ذلك في الجاهلية ، تعظيماً لهن ، فلما جاء الإسلام استمروا على تخرجهم واستفهموا عن هذا ، فأنزل الله هذه الآية . . . مزيلة لحرج الفريقين (١) .

وأياً ما كان الأمر ، فالآية لا تنافي الفرضية ، كما قالت السيدة عائشة العالمة ، ولو أراد الله ذلك لقال : « فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، كما قالت في ردها على ابن أختها وقد تأكدت فرضية السعي بين الصفا والمروة بفعله - صلى الله عليه وسلم - وقوله : خذوا عني مناسككم ، . وقالت عائشة - أيضاً - . قد سن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما ، . ومعنى « سن ، شرع أو فرض ، بدليل من السنة ، لا من الكتاب ، فلولاً لمعرفة سبب النزول ، لا زال الاشكال ، ولهم البعض الآية على غير وجهها .

(ب) ومن ذلك قوله تعالى : « واللاتي يئسن من المحيض من نسائكم - إن ارتبتم - فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللاتي لم يحضن . . . » فقد أشكل معنى هذا الشرط على بعض الأئمة . حتى زال الظاهرية : بأن الآية لا عدة عليها إذا لم ترتب ، وقد أزال هذا الاشكال سبب النزول ، ذلك أنه لما نزلت الآية التي في سورة البقرة ، في عدد النساء ، قالوا : قد بقي عدد

(١) انظر فتح الباري ٣ - ٣ ص ٣٩٢ وما بعدها : ففيه تحقيق الحق في هذا المقام .

- بفتح العين - من عدد النساء لم يذكرن : الصغار والكبار ، فنزلت الآية .
أخرجه الحاكم ، عن أبي ، فعلم بهذا : أن الآية خطاب لمن لم يعلم : ما حكمهن
في العدة وارتاب : أعليه ^١ عدة أم لا ؟ وأعدتهن كاللأني في سورة
البقرة . . . أم لا ؟ ، فظهر بهذا : أن المعنى ، إن ارتبتم - أي إن أشكل
عليكم حكمهن ، وجهلتم . كيف يعتدون - فهذا حكمهن .

(ج) ومن هذا قوله تعالى : والله المشرق والمغرب . . فأينما تولوا فثم
وجه الله ^(١) . فلو تركت على ظاهرها لاقتضت : أن المصلي لا يجب عليه
استقبال القبلة . سفرأ ولا حضراً ، وهو خلاف الإجماع ، فلما عرف
سبب نزولها علم أنها في نافذة السفر ، أو في من صلى بالاجتهاد وبأن له الخطأ .
على اختلاف الروايات في ذلك ، فلو لا معرفة السبب لبقيت الآية مشكلة .

(د) ما حكى عن قدامة بن مظهر ^(٢) وعمر بن معديكرب أنهما كانا
يقولان : الخمر مباحة ، ويحتجان بقوله تعالى : ليس على الذين آمنوا
وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، إذا ما اتقوا وآمنوا ، وعملوا الصالحات
ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين ، ^(٣) ولو أنهما
علما سبب النزول لما قالوا ذلك ، ولكن خفي عليهما ، فوقعوا في هذا الرأي
الشاذ ، فقد روى أن ناساً قالوا ، لما حرمت الخمر : كيف بمن قتلوا في
سبيل الله . وماتوا . وكانوا يشربون الخمر . وهي رجس فنزلت ، فدل

(١) البقرة ١١٥ (٢) هذا هو الصحيح أنه دقامة ، وفي البرهان للزركشي .
ونقله عنه السيوطي في الإتيان أنه د عثمان بن مظهر ، وهو غلط لا محالة . لأنه رضى
الله عنه - توفي عقب بدر . أما آخره قدامة فهو الذي طالت به الحياة إلى خلافة
الفاروق - رضى الله عنه - وكان يتناول الآية على هذا . وقد جلدته الفاروق
عمر على شربه الخمر . ثم استرضاه في آخر حياته .

ذلك أنه عمر حج . وحج معه قدامة . وهو مغاضب له ، فلما قفلا من حجتهما
نام عمر بالسقيا - مكان - فلما استيقظ قال : عجلوا بقدامة . فو الله لقد

سبب التحريم على أن ذلك كان قبل التحريم . وأن الآية لا تصلح دليلاً لذلك . وأيضاً فكيف يجامع التقوى شرب الخمر . ولذلك لما حاج سيدنا عمر قدامة . وصاحبه قال : « كيف يجامع شرب الخمر التقوى » ؟ !

(هـ) ومن ذلك ما روى في الصحيح عن مروان بن الحكم أنه أشكل عليه قوله تعالى « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا . ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا . فلا تحسبنهم به غفلة من العذاب . ولهم عذاب أليم » (١) فبعث إلى ابن عباس فسأله . لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي . وأحب أن يحمده بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون !! فقال ابن عباس . إن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره . وأرووه أنهم أخبروه بما سألهم عنه . واستحمدوا بذلك إليه رواد الشيخان . ومقتضى جواب ابن عباس أن اللفظ وإن كان عاماً إلا أنه أريد به خاص .

وقد علق بعض العلماء على جواب ابن عباس - رضى الله عنهما - ما بين موافق . ومخالف قال الزركشى في البرهان : لا يخفى عن ابن عباس

أنا في آت في منامى فقال لي : سالم قدامة . فإنه أخوك فنجى به فكلمه واستغفر له الإصابة ج ٥ ص ٣٢٣ وكانت وفاة قدامة في خلافة علي سنة ست وثلاثين وهو ابن ثمان وستين سنة . وقد نهى إلى هذا الغلط أستاذنا الشيخ المحدث محمد حبيب الله الشنقيطي - رحمه الله - ونحن نقرأ عليه كتاب « الإتيان » ومن العجيب أن الذين علقوا على البرهان وزعموا أنهم حققوه قد فات عليهم هذا الغلط

(١) آل عمران / ١٨٨ وقد قرئ قوله تعالى « أتوا » بفتح الهمزة بغير مد ، وفتح الناء ، وهى القراءة السبعة ، أى بما جاءوا به وفعلوه ، ومنه قوله تعالى « لئن كان وعدة ما أتيا » أى جاءيا من إطلاق اسم المفعول ، وإرادة اسم الفاعل ، وقرئ بضم الهمزة والواو ، مبنيّة للجول ، من « أتى » بمعنى أدهى ، وهى قراءة السلى ، وسعيد بن جبير ، والأولى هى التى توافق تفسير ابن عباس ، والثانية توافق مؤلف مروان .

رضى الله عنه - أن اللفظ أعم من السبب . لكن بين أن المراد باللفظ خاص ونظيره تفسير النبي صلى الله عليه وسلم الظلم بالشرك^(١) في قوله تعالى .
« الذين آمنوا ولم يلبوا لإيمانهم بظلم ... »

وقال بعض العلماء . هذا الجواب مشكل لأن اللفظ أعم من السبب . ويشهد له قوله صلى الله عليه وسلم « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور » وإنما الجواب أن الوعيد مرتب على أثر الأمرين المذكورين . وهما الفرح وحب الحمد ، لا عليهما أنفسهما ، إذ هما من الأمور الطبيعية التي لا يعلق بها التكليف أمراً ونهياً وقال الخازن في تفسيره . وهذه الآية وإن كانت قد نزلت في اليهود أو المنافقين خاصة ، فإن حكمها عام في كل من أحب أن يحمداً بما لم يفعل من الخير والصلاح أو يسئب إلى العلم وليس هو كذلك^(٢) .

أقول . ولعل القول بالعموم أولى ليشملهم ، وكل من على شاكلتهم إلى يوم القيامة ، وليس من شك في أن من فرح بما فعل من إنكار الحق ، ومحاولة ستره وجحوده ، أو بما أعطى فرح بطر وأشر ، وحببه أن يحمداً بما لم يفعل وبما ليس فيه من الصفات - ليس بمنجاة من عذاب الله لأنها من الرذائل الخلقية التي لا يرضاها الإسلام .

ومن قال : إن هتين الرذيلتين اللتين تضمنتها الآية لا يسلم منها إنسان ١١٩ أنا لا أوافق مروان على هذا ، ولا سيما في العصور الأولى الفاضلة ، فقد كان معظم المسلمين ممن تأبى أخلاقهم هذا . أما ما رآه ابن عباس فهو اجتهاد منه ، وكأنه رأى في سبب النزول صارفاً للفظ عن عموم استقطاعاً لما استفظعه مروان ، ولا حجة في الإسلام على الاجتهاد ، ولكل وجهة هو موليها . نستجير مخالفة مالك في حصر المحرمات ، فيما ذكرته الآية ، وهذا قد يكون من الشافعي أجراه مجرى متاويل ،

(١) البرهان ١٣

(٢) تفسير الخازن ١٣ ص ٤٠٩ ، وانظر تفسير الآلوسی عند هذه الآية .

الفائدة الثانية .

أنه يعين على فهم الحكمة ، التي يشتمل عليها التشريع ، وفي ذلك فائدة للمؤمن ، وغير المؤمن ، أما المؤمن : فيزداد إيماناً وبصيرة بحكمة الله في تشريعه فيدعوه ذلك إلى شدة التمسك بها ، وأما غير المؤمن : فيعلم . أن الشرع قام على رعاية المصلحة ، وجلب المنفعة ، ودفع المضرة . فيدعوه ذلك إن كان منصفاً إلى الدخول في الاسلام ، وذلك مثل ما إذا عرفنا سبب تحريم الخمر ، عرفنا الحكمة في التحريم ؛ إذ أنها تروق العداوة والبغضاء بين الناس وتصدعن ذكر الله وعن الصلاة ، وتذهب العقل والوقار ، وتضر بالصحة ، وتنفى الأموال في غير طائل .

الفائدة الثالثة :

رفع توهم الحصر : قال الشافعي - ما معناه - في قوله تعالى « قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه .. الآية (١) » : إن الكفار لما حرموا ما أحل الله ، وأحلوا ما حرم الله وكانوا على المضادة ، والمخادة ، فجاءت الآية مناقضة لغرضهم ، فكأنه قال : لا حلال إلا ما حرمتموه ، ولا حرام إلا ما أحللتتموه . نازلاً منزلة من يقول : لا تأكل اليوم حلاوة ، فتقول له . لا آكل اليوم إلا حلاوة . والغرض : المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة ، فكأنه قال : لا حرام إلا ما أحللتتموه من الميتة والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به .

ولم يقصد حل ماوراءه ، إذ القصد : إثبات التحريم لا إثبات الحل ، قال إمام الحرمين « وهذا في غاية الحسن ، ولو لا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا

الفائدة الرابعة .

معرفة اسم من نزلت فيه الآية « وتعيين المبهم فيها ، وفي ذلك إسناد

الفضل لأهله ، ونفى التهمة عن البريء الذى ألصق به ماهو براء منه ، وذلك مثل ماروى عن السيدة عائشة - رضى الله عنهما - . أنها ردت على مروان ابن الحكم ، حينما اتهم أخاها عبد الرحمن بن أبى بكر ، بأنه الذى نزل فيه قوله تعالى . « والذى قال لوالديه . أف لكما ، أتعداننى أن أخرج ، وقد خلت القرون من قبلى ، وهما يستغيثان الله ، ويملك آمن . . . » الآية (١) وقالت . « والله ماهو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته . »

ومثل ما إذا عرفنا سبب النزول فى قوله تعالى . « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات ، والله رءوف بالعباد » (٢) عرفنا . أن صاحب الفضل هو سيدنا « صهيب بن سنان » الرومى - رضى الله عنه - . وكذا إذا عرفنا سبب نزول قوله تعالى . « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه . أمسك عليك زوجك ، واتق الله .. » الآية (٣) علمنا . أن هذا المنعم عليه هو سيدنا « زيد بن حارثة » - رضى الله عنه

الفائدة الخامسة .

معرفة سبب النزول غير خارج من حكم الآية فيما إذا كان لفظ الآية عاماً ، وورد مخصص لها ؛ فمعرفة السبب يكون التخصيص قاصراً على ما عداه لقيام الإجماع على دخول صورة السبب ، ولو لم نعرف السبب لجاز أن يكون مما خرج بالتخصيص ، مع أنه لا يجوز

الفائدة السادسة .

تخصيص الحكم بالسبب ، عند من يرى . أن العبرة بخصوص السبب ، لا بعموم اللفظ ؛ فعند هؤلاء . ما لا يعرف السبب لا يمكن معرفة المقصود بالحكم ، ولا القياس عليه ، وتبقى الآية معطلة خالية من الفائدة

الفائدة السابعة .

تثبيت الوحي ، وتيسير الحفظ والفهم ، وتأكيده الحكم في ذهن من يسمع الآية ؛ إذ عرف سببها ، وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات ، والأحكام بالحوادث ؛ والحوادث بالأشخاص ؛ والأزمنة والأمكنة . كل ذلك من دواعي تقرر الأشياء ؛ وانتقاشها في الذهن ؛ وسهولة استذكارها عند تذكر ما يقارنها وذلك هو فيما يعرف في علم النفس بقانون تداعى المعاني ،

التعبير عن سبب النزول

للعلماء في ذلك طريقتان ، استفيدتا من تتبع عباراتهم في هذا المقام . الأولى . قولهم . سبب نزول هذه الآية كذا ، وهذه العبارة نص في بيان السبب ؛ ولا تحتل غيرهما ومثل هذه العبارة أن يذكر الراوى سؤالاً أو حادثة ثم يقول . فأنزل الله كذا ، فهذه نص أيضاً . وقد لا يصرح بالإنزال . ولكن يفهم من خوى القصة . أن هذه الايات أو الآية نزلت بسبب هذا السؤال أو الحادثة . وذلك مثل رواية «ابن مسعود» الآتية في سبب نزول آية الروح .

الثانية . قولهم . نزلت هذه الآية في كذا ، وهذه العبارة ليست نصافى السببية ، بل تحتل السببية ، وتحتل بيان المعنى ، وما تضمنته الآية من الأحكام . والقارئ هو الذى يعين أحد هذين الاحتمالين أو ترجحه .

قال العلامة «تقى الدين ابن تيمية» . «قولهم . نزلت الآية في كذا ، يراد به تارة ، سبب النزول ، ويراد به تارة ، أن ذلك داخل في الآية ، وإن لم يكن السبب كما تقول ، عنى بهذه الآية كذا ، وقد تنازع العلماء في قول الصحابى : نزلت هذه الآية في كذا . هل يجرى مجرى المسند كما ذكر السبب الذى أنزلت لأجله ؟ أو يجرى مجرى التفسير منه الذى ليس بمسند ؟

فالبخارى : يدخله في المسند . وغيره : لا يدخله فيه ، وأكثر المسانيد

على هذا الاصطلاح كمسند أحد ، وغيره . بخلاف ما إذا ذكر سببا نزلت عقبه ، فانهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند .

وهذا الذى ذكره ابن تيمية وغيره من أن الآثار التى ذكر فيها سبب النزول صراحة لها حكم المسند المرفوع هو الذى ذهب أئمة علوم الحديث إليه . قال الحاكم فى « علوم الحديث » : إذا أخبر الصحابى الذى شهد الوحى ، والتزيل عن آية من القرآن أنها نزلت فى كذا ، فإنه حديث مسند ، ومشى على هذا ابن الصلاح وغيره ، من أئمة الفن ، قال ابن الصلاح فى مقدمته :

وقال « الزركشى » فى البرهان : « قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال نزلت هذه الآية فى كذا ، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم ، لا أن هذا كان السبب فى نزولها ، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية . لا من جنس النقل لما وقع » .

قول التابعى فى سبب النزول .

قد علمت ما تقدم من أن قول الصحابى فى سبب النزول له حكم المسند . المرفوع ، وأما قول التابعى فى أسباب النزول فهو مرفوع أيضا ، لكنه مرسل لحذف الصحابى ، وقد يقبل إذا صح السند إليه ، وكان الراوى من أئمة التفسير الأخذين عن الصحابة كما هو ، وعكرمة ، وسعيد ابن جبير أو اعتقد بمرسل آخر ، أو نحو ذلك .

تفريع على ما تقدم :

وعلى هذا : إذا وردت روايتان أو أكثر ؛ وكانت إحداهما نصا فى بيان سبب النزول ؛ والثانية ليست نصا فيه ، أخذنا فى السببية بما هو نص ، وحملنا الأخرى على بيان المعنى ، مثل ذلك ما أخرجه « مسلم » فى صحيحة عن جابر قال : « كانت اليهود تقول من أنى امرأة من دبرها فى قبلها جاء الولد أحول ، فأنزل الله سبحانه . « نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى

شتم (١) . . . ، الآية أى من أى جهة شتم ، أو على أى حال شتم ، فأنى للكيفية ،
والحال ، لا للسكان .

وما أخرجه البخارى عن ابن عمر قال . أنزلت « نساؤكم حرث لكم ... »
فى إثبات النساء فى أدبارهن . يعنى فى تحريم ذلك .

فالمعتمد عليه فى بيان السبب هى رواية جابر ، لكونها نصا فى ذلك ،
أما رواية ابن عمر ، فتحمل على بيان المعنى ، وحكم إثبات النساء فى أدبارهن
وهو التحريم ، استنباطا منه .

وأما إن قال - كل من الراويين أو الرواة - . نزلت هذه الآية فى كذا ،
فهذه العبارة ليست نصا فى السببية كما ذكرنا ، بل تحتمل بيان التفسير والمعنى ،
فإن كان اللفظ يحتمل قول كل حمل على الجميع ، وإلا ترجع مائة متضيه اللفظ
أو يشهد له السمع ، أو تؤيده الأدلة .

وأما إذا كانت كل من الروايتين أو الروايات نصا فى بيان السبب ، فهنا
يكون البحث والنظر ، ولنفرد لذلك عنواناً ، فنقول : —

تعدد الأسباب ، والمنزل واحد

إذا ذكر كل من الراويين أو الرواة عبارة هى نص فى السببية ، فلذلك
أحوال أربعة ، لأنها :

- (١) أما أن تكون إحدى الروايتين صحيحة ، والأخرى غير صحيحة .
- (٢) إما أن تكون كل منهما صحيحة ، ولكن يمكن الترجيح . (٣) وأما أن
تكون كل منهما صحيحة ، ولا يمكن الترجيح ، ولكن يمكن نزول الآية
عقبها . (٤) وأما أن تكون كل منهما صحيحة ، ولا يمكن الترجيح ،
ولا نزول الآية عقبها .

واليك حكم كل حالة من هذه الحالات ، وذكر أمثلتها .

(١) البقرة ٢٢٢ .

الحالة الاولى :

أن تكون إحدى الروايتين صحيحة، والاخرى غير صحيحة، فالاعتماد عليه في السبب : هي الصحيحة وترك الاخرى غير الصحيحة ، مثال ذلك : ما أخرجه الشيخان وغيرهما ، عن جندب قال : « اشتكى النبي - ﷺ - فلم يقم ليلة ، أو ليلتين ، فأنته امرأة فقالت : ما أرى شيطانك إلا قد تركك فانزل الله : « والضحى والليلة إذا سجي ، ما ودعك ربك وما قلى ،

ما أخرجه الطبراني ، وابن أبي شيبة ، عن حفص بن ميمرة ، عن أمه ، عن أمها - وكانت خادماً رسول الله - ﷺ - أن جروا دخل بيت النبي ، فدخل تحت السرير ، فمات فمكك النبي - ﷺ - أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي ، فقال : يا خولة ، ما حدث في بيت رسول الله ؟ جبريل لا يأتيني ! فقلت في نفسي . لو هيأت البيت وكنسته فأهريت بالمكينة تحت السرير ، فأخرجت الجرو ، فجاء النبي - ﷺ - ترعد لحبته . وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته فانزل الله . « والضحى .. ، إلى قوله فترضى ، .

فالاعتماد عليه هو الرواية الاولى ، لأنها صحيحة . أما الثانية ففي إسناده من لا يعرف قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » قصة أبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة ، لكن كونها سبب نزول الآية غريب ، وفي إسناده من لا يعرف فالاعتماد ما في الصحيح ، .

الحالة الثانية

أن تكون كلتا الروايتين صحيحة ، وإلحادهما مرجح ، ليكون إحدى الروايتين أصح من الاخرى ، أو ليكون الراوى حاضر القصة ، أو نحو ذلك من وجوه الترجيح ، فالحكم . أن نأخذ من بالسبب بالرواية الراجحة ، دون المرجوحة . مثال ذلك . ما أخرجه البخارى عن ابن مسعود قال . « كنت أمشي مع النبي - ﷺ - بالمدينة ، وهو يتوكأ على عسيب ،

فربفر من اليهود ، فقال بعضهم : لو سألتموه ؟ فقالوا : حدثنا عن الروح ،
فقام ساعه ، ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه ، حتى صعد الوحي ، ثم
قال (١) : « قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

وأخرج الترمذى ، وصححه عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود
أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل - يريدون النبى ﷺ . فقالوا : أسألوه عن
الروح ، فسألوه . فأنزل الله : ويسألونك عن الروح ... الآية (٢) .

فالأولى تدل على أن السائل اليهود ، وأن نزولها بالمدينة ، والثانية .
تدل على أن السائل الكفار ، وأنها نزلت بمكة . والأولى أرجح لأمرين .
(١) أنها من رواية البخارى ، وهى أصح من رواية الترمذى .

(٢) أن الراوى فى الأولى ، وهو ابن مسعود كان حاضر القصة ،
ومشاهداً لها . أما الثانية فليس فيها أن الراوى لها - وهو ابن عباس -
كان مشاهداً لها ، ولا شك أن للمشاهدة قوة فى التحمل (٣) .

الحالة الثالثة :

أن تكون كل من الروایتين أو الروایات صحيحة ولا يمكن الترجيح ،

(١) هذه الرواية وإن لم تصرح بالسبب إلا أن السببية مفهومة من لحن
القصة ، لأن ذكر الحالة التى يكون عليها النبى عند نزول الوحي ، ثم ذكر الآية
عقب ذلك ، كالنص على السببية . وهذه الرواية هى ما أردت التمثيل بها لما ذكرته
آنفاً فى التعبير عن سبب النزول .

(٢) الإسراء ٨٥ .

(٣) يرى ابن كثير الجمع بينهما بتكرار النزول . وكذا قال ابن حجر . وأما
الترجيح : فهو رأى السبوطى فى الاتقان . وأسباب النزول أنظر الاتقان ١ -
ص ٣٢ وأسباب النزول ج ١ ص ٢٣٦ هامش الجلائين .

ولكن ممكن نزول الآية أو الآيات عقب السنين أو الأسباب ، لعدم العلم بالتباعد ، فيحمل ذلك على تعدد السبب والمنزل واحد .

مثال ذلك : ما أخرجه البخارى من طريق عكرمة ، عن ابن عباس : أن هلال ابن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماه (١) . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - البينة أوحد في ظهرك ، فقال : يا رسول الله إذا وجد أحدنا مع امرأته رجلا ، ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبي ﷺ يقول : البينة ، أوحد في ظهرك . فقال هلال : والذي بعثك بالحق إني لصادق ، ولينزل الله ما يرى . ظهرى من الحد : فنزل جبريل ، وأنزل الله : « والذين يرمون أزواجهن ... » فقرأ حتى بلغ « ... إن كان من الصادقين » (٢) .

وروى مسلم في صحيحه بسنده ، عن أنس بن مالك قال : « إن هلال بن أمية ، قذف امرأته بشريك بن سحماه ، وكان أخا للبراء بن مالك لأمه ، وكان أول رجل لا عن في الإسلام .. الحديث .

وهذه الرواية تدل أيضا ، لكن لا بطريق التصريح على أن الآية نزلت بسبب « هلال » .

وأخرج الشيخان عن سهل بن سعد قال : « جاء « عويمر » إلى عاصم بن عدى : فقال : أسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا .. أيقته ؟ فتقتلونه ؟ أم كيف يصنع به ؟ . فسأل عاصم رسول الله ، فكره رسول الله المسائل ، فأخبر عاصم عويمرا ، فقال : والله لآتين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلا سأله ، فأناها فسأله ، فقال : إنه قد

(١) - سحماه - بالسين ثم الحاء المهملتين : اسم أمه ، ثم اسم أبيه : عبدة بن مغيث بن الجعد بن عجلان البلوى حليف الأنصار (الاصابة ٣ - ٢ ص ١٥٢) وقد ذكر في الانفاذ : ابن سحماه - بتقديم الميم - وهو خطأ مطبعى لا محالة .
(٢) صحيح البخارى - كتاب التفسير - سورة النور .

أنزل الله فيك ، وفي صاحبك القرآن ... الحديث .

فهتان الروايتان صحيحتان ، ولا مرجح لأحدهما ، ويمكن الجمع بينهما بأن أول من سأل هلال بن أمية ، ثم سأل عويمر ، أيضا قبل الإجابة ، فأنزل الله آيات اللعان ، إجابة لهما معا .

وهذا التوفيق بين الروايتين أولى من ردهما ، إذ لا يصار إليه إلا عند تعذر الجمع ، أو الأخذ بأحدهما دون الأخرى ، لما فيه من الترجيح بلا مرجح وهو غير جائز .

وإلى هذا .. جنح الإمام النووي ، فقال : « ويحتمل أنها نزلت فيهما جميعاً ، فلعلهما سألا في وقتين متقاربين ، فنزلت الآية فيهما » (١) .

وسبقه الخطيب فقال : « لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد ، وهذا ما رجحه السيوطي في الاتقان ، وأسباب النزول .

وإذا انضم إلى هاتين الروايتين ما رواه البزار عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - لأبي بكر : لورأيت مع أم رومان رجلا .

(١) شرح النووي على مسلم ج ١٠ ص ١٢٠ .

وقال الحافظ في الفتح ما خلاصته . وقد اختلف الأئمة في هذا الموضع منهم من رجح . أنها نزلت في شائن عويمر . ومنهم من رجح . أنها نزلت في شائن هلال . وجاء عويمر ، ولم يكن علم بما وقع لهلال . وما أنزل الله بشائنه فأنخبره النبي بالحكم وينزل آيات في ذلك . ومنهم من جمع بينهما . بأن أول من وقع له هلال . وصادف مجيء عويمر أيضا فنزلت في شائهما معا في وقت واحد . ثم ذكر أن القرطبي جنح إلى تجويز تكرار النزول (الفتح ٨٣ ص ٢١٣) ولعل ما ذهب إليه السيوطي في الجمع بينهما هو الأولى والأسلم .

وقال الحافظ في الفتح (٩٣ ص ٢٧١) في شرح أحاديث اللعان . وقد قدمت اختلاف أهل العلم في الراجح من ذلك . ويثبت كيفية الجمع بينهما في تفسير سرورة الذنور . بأن يكون هلال سأل أولا ثم سأل عويمر فنزلت في =

ما كنت فاعلا ؟ قال : شرأ . قال : فانت يا عمر ؟ قال : كنت أقول :
لعن الله الأعرج ، ولأنه لحيت ، فنزلت .

وعلى هذا تكون الايات نزلت عقب هذه الاسباب كلها . قال الحافظ
« ابن حجر » في الفتح : « لا مانع أن تتعدد القصص ، ويتحد النزول ، .
الحالة الرابعة :

استواء الروايتين أو الروايات في الصحة ، ولا مرجح لأحدهما ، ومع
عدم إمكان نزول الآية عقبهما ، لتباعد الزمان ، فالحكم . أن يحمل الأمر
على تكرر النزول ، ولا مانع من تكرر النزول ؛ بل له حكم . قال (ابن
الحصار) . « قد يتكرر نزول الآية تذكيرا أو موعظة ، ، وقال (الزركشي)
في البرهان . « قد ينزل الشيء مرتين ؛ تعظيما لشأنه ، وتذكيرا به عند
حدوث سببه ، وخوف نسيانه .

ومثال ذلك . ما أخرجه البيهقي والبراء عن أبي هريرة « أن النبي - صلى
الله عليه وسلم - وقف على (حمزة) حين استشهد ، وقد مثل به ، فقال .
« لا مثلن بسبعين منهم مكانك ، فنزل جبريل - والنبي واقف - بخواتيم سورة
(النحل) « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ... » إلى آخر السورة . .
وأخرج الترمذی ، والحاكم ، عن أبي بن كعب قال « لما كان يوم أحد
أصيب من الأنصار أربعة وستون ، ومن المهاجرين ستة ، منهم . حمزة ،
فقتلوا بهم ، فقالت الأنصار . « لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لئرين عليهم ،
فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله - سبحانه - « وإن عاقبتهم فعاقبوا ... » الآية (١)

== شأنهما ، وظهر لي الآن : احتمال أن يكون عاصم سأل قبل النزول ثم جاء هلال
بعده فنزلت عند سؤاله ، فجاء هويم في المرة الثانية التي قال فيها : إن الذي
سألتك عنه ... قد ابتليت به . فوجد الآية نزلت في شأن هلال . فاعلمه
النبي بأنها نزلت فيه . يعني : أنها نزلت في كل من وقع له ذلك . لأن ذلك
لا يختص بهلال .

فالأولى . تفسيرا . أن الآيات نزلت عقب أحد . والثانية . تفيد أنها نزلت يوم الفتح ، وبين أحد والفتح حوالى خمس سنين ، فيسعد نزول الآيات عقبهما ، مع التباعد فى الزمن ، وإذا ، فلا مناص من القول . بتعدد النزول مرة يوم أحد ومرة يوم الفتح .

وهذا على أن سورة النحل ، مكية إلا خواتمها كما روى .

وقد ذهب البعض . إلى أن سورة النحل . كلها مكية بما فيها هذه الآيات . وعلى هذا رأى . تكون نزلت ثلاث مرات . مرة بمكة ، ومرة ثانية عقب أحد ، ومرة ثالثة يوم الفتح .

وفى هذا التكرار . تذكير الله لعباده بما اشتملت عليه الآيات من الإرشادات والاداب العالية ، وهى . تحرى العدالة والإنصاف عند الاتصاف بالنفس ، وكبح جماح شهوة التشفى والإسراف فى الانتقام عند النهر والظفر بالأعداء ، وضبط النفس عند الغضب ، والتذرع بالصبر عند وقوع المكروه ، والتجلى بسعة الصدر ، وجمال التقوى فى جميع الحالات .

وقد جهل . ابن كثير ، و . ابن حجر . من هذا القسم آية الروح ، وكأنهما لا يريان الجمع بين الروايتين بالترجيح كما بينا ، ويريان الجمع بينهما بتكرار النزول .

وبما ذكر من هذا القليل . سورة الاخلاص ، ، فقد روى أنها نزلت جوابا للمشركين ، وروى أنها نزلت جوابا لأهل الكتاب بالمدينة ، فحمل على تكرار النزول .

ومن ذلك سورة الفاتحة ، ، فقد ذكروا أنها نزلت مرتين . مرة بمكة ومرة بالمدينة .

وقد أنكر بعض العلماء كون شىء من القرآن تكرر نزوله . . وعله

بأن تحصيل ما هو حاصل لا فائدة فيه . وهو مردود بما ذكرنا من الفوائد والحكم^(١) .

تذييل — ٤

قد يكون في إحدى القصتين : « فتلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كذا ، فيخط الراوى فيقول : فنزل كذا ، فيظن : أن ذلك سببا للنزول وليس كذلك ، فينبغى التنبيه لذلك ، وتحرير لفظ الرواية ، وبذلك يسهل علينا الوصول إلى الحق والصواب في أسباب النزول .

مثاله : ما أخرجه الترمذى وصححه ؛ عن ابن عباس قال : « مر يهودى بالنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : كيف تقول يا أبا القاسم ، إذا وضع الله السموات على ذه ، والأرضين على ذه ، والماء على ذه ، والجبال على ذه ، وسائر الخلق على ذه ، فأنزل الله : « وما قدروا الله حق قدره ! والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة » . الآية^(٢) وقد وهم الراوى في قوله : « فأنزل ، والحديث ورد في الصحيح بلفظ « فتلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وهو الصواب ؛ وبما يؤيد هذا . أن الآية مكية لا مدنية :

ومن أمثله . ما أخرجه البخارى ، عن أنس قال . « سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأتاه ، فقال . إني ساءلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي .

١ - ما أول أشراط الساعة ؟ .

٢ - وما أول طعام أهل الجنة ؟ .

٣ - وما ينزع الوالد إلى أبيه ، أو إلى أمه ؟ .

قال . أخبرني بهن جبريل - عليه السلام - آتفا ، قال جبريل ؟ قال نعم

ذلك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية . « من كان عدوا لجبريل ، فإنه نزل على قلبك بإذن الله ، مصدقا لما بين يديه ... » الآية . قال « ابن حجر » - في شرح البخارى . « ظاهر السياق . أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قرأ الآية ردأ على اليهود ، ولا يستلزم ذلك نزولها حينئذ . قال . وهذا هو المعتمد ، فقد صح في سبب نزول الآية قصة غير قصة « ابن سلام » (١) . وهكذا يتبين لنا . أن . « قتل كذا ، أو « فقرأ كذا ، لا تدل على أنها نزلت حينئذ ويكون ذكرها عقب القصة ، للاستشهاد كما في الأولى ، أو الرد كما في الثانية .

« تعدد المفضل ، والسبب واحد ،

قد يكون الأمر ان واحد سببا لنزول آيتين أو آيات متعددة متفرقة ، وذلك عكس ما تقدم . ولا إشكال في ذلك ، ولا بعد ؟ فقد ينزل في الواقعة الواحدة آيات عديدة في سور شتى ، تبينا وإرشادا للخلق ، وإقناعا للسائل . من أمثلة ذلك - السبب الواحد تنزل فيه الايتان - . ما أخرجه البخارى من حديث زيد بن ثابت . « أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمل عليه . لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله . . . » ، فجاء ابن أم مكتوم وقال . يا رسول الله ؛ لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان أعمى - فأنزل الله . « غير أولى الضرر » (٢)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن زيد بن ثابت أيضاً قال . « كنت أكتب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإني لو اضع القلم على أذني ، إذ أمر بالقتال فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال . كيف لي يا رسول الله . . . وأنا أعمى ، فأنزل الله . « ليس على الضعفاء . . » الآية (٣) .

(١) أنظر أسباب النزول للسيوطي ج ١ ص ١٩ هامش احلالين .

(٢) النساء الآية ٩٥ ، ٩٦

(٣) التوبة . الآية ٩١ .

ومن أمثله أيضاً - السبب الوايد تنزل فيه أكثر من آية - ، أخرجه الترمذى والحاكم ، عن لم سلة أنها قالت . « يا رسول الله ، لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشئ . » ، فأنزل الله . « فاستجاب لهم ربهم . انى لا أضيع عمل عامل منكم ، من ذكر أو أنثى ، بعضهم من بعض . » ، الآية (١) .

وأخرج الحاكم عنها - أيضاً - قالت . « قلت . يا رسول الله ، تذكر الرجال ولا تذكر النساء ، فأنزل الله . « إن المسلمين والمسلمات . . . » الآية (٢) ، وأنزل . « انى لا أضيع عمل عامل منكم . من ذكر أو أنثى . » الآية ، وأخرج أيضاً عنها . أنها قالت « تغزو الرجال ، ولا تغزو النساء ، وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله - سبحانه - « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضهم على بعض ، (٣) وأنزل . « إن المسلمين والمسلمات . . . الآية » .

فالظاهر . أن واقعة السؤال واحدة . وأن الآيات الثلاث نزلت بعد هذا السؤال ؛ ولا يبعد هذا اختلاف صيغة السؤال ؛ لجواز أن يكون سؤالها عاما شاملا لكل ماروى ، ولكن الراوى اقتصر على السؤال دون بعض . أو تذكر بعضه ونسى البعض .

عموم اللفظ وخصوص السبب

هذا الموضوع من الموضوعات التى عنى بها الأصوليون فى كتبهم وذلك لأنهم ينظرون فى حال الأدلة من حيث إفادتها للأحكام من عموم وخصوص وإطلاق وتقييد ونحو ذلك . وقد يكون الدليل عاما مع خصوص السبب فيحتاج الأصولى إلى بيان حال الدليل من حيث كونه يتخصص بسببه أو يعم باعتبار لفظه . ولا نظر للسبب إلا من حيث أن الأفراد التى يتناولها

(١) آل عمران ١٩٥ .

(٢) الاحزاب الآية ٣٥ .

(٣) النساء : الآية ٣٢ .

الدلائل العلم تكون من نوع ذلك السبب ، وهو مع كونه مر مباحث علم
الاصول ، فهو بسبب وثيق من مبحث أسباب النزول للذي هو من أنواع
علوم القرآن . .

وقبل أن نفصل الخلاف في هذا الموضوع نذكر أحوال كل من السبب
واللفظ النازل عليه من عموم وخصوص فنقول : القسمة العقلية تقتضى
أربع صور وهى :

١ — أن يكون كل من السبب واللفظ النازل عليه خاصاً .

٢ — أن يكون كل من السبب واللفظ النازل عليه عاماً .

وهذان القسمان ليسا محل خلاف بين العلماء لأن المطالبة حاصلة بين
السبب الذى هو بمنزلة السؤال وبين اللفظ المنزل عليه الذى هو بمنزلة
الجواب له .

٣ — أن يكون السبب عاماً واللفظ النازل عليه خاصاً وهذا القسم وإن
صح عقلاً لكنه لا يجوز بلاغة لعدم وجود التطابق بين السبب الذى هو
بمنزلة السؤال واللفظ النازل عليه الذى بمنزلة الجواب له فيكون بمنزلة من
يقول هل للسليمان أن يفعلوا كذا فيجاب بأن لفلان أن يفعل كذا ويترك
حال الباقيين ، ومن ثم لم يقع هذا فى الكلام البليغ كالقرآن والسنة .

٤ — أن يكون السبب خاصاً واللفظ النازل عليه عاماً وهذا القسم جائز
عقلاً وواقع فعلاً إذ لا ضير فيه ولا خلل بل هو أتم وأوفى بالمقصود قال
الزمخشري فى تفسيره سورة الهمزة : يجوز أن يكون السبب خاصاً والوعيد
عاماً ليتناول كل من باشر ذلك القبيح وليكون ذلك جارياً مجرى التعريض .

وهذا القسم هو محط اختلاف العلماء ، فذهب الجمهور من العلماء إلى أن
العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فحادثة خويلة بنت ثعلبة التى ظاهر
منها زوجها ، أوس بن الصامت ، كانت سبباً لنزول آيات الظهار وهى قوله .

تعالى « الذين يظهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم (١) . فاللفظ النازل عام لأنه اسم موصول وهو من صيغ العموم ويدخل تحت هذا العموم خولة ومن كان على شاكلتها ممن يظاهر منهن ، وحادثة هلال بن أمية الذي رمى امرأته بشريك بن سحماه قد نزل بسببها آيات اللعان وهي ، والذين يرمون أزواجهن ، الآيات (٢) ، فاللفظ النازل عام وهو شامل لمن نزلت فيه الآية ولغيره ممن هو شاكلته ، هذا هو رأى الجمهور .

وذهب غير الجمهور إلى أن العبرة بخصوص السبب يعنى . أن لفظ الآية يكون قاصراً على من نزلت بسببه الآية ، وآيات الظهار مثلاً لفظها خاص بخولة بنت ثعلبة ومظاهرة زوجها منها . وآيات اللعان لفظها خاص بهلال بن أمية . أما حكم غيرهما ممن يشبههما فلا يكون مستفاداً من لفظ الآية . إنما يستفاد بطريق القياس أو بالاجتهاد لدخوله تحت القاعدة المعروفة عند الأصوليين وهي « حكمى على الواحد حكمى على الجماعة (٣) » .

تنبيهات :

١ - ينبغى أن يلاحظ أن هذا الخلاف القائم بين الجمهور وغيرهم محله إذا لم تقم قرينه على تخصيص لفظ الآية العام بسبب نزوله أما إذا قامت تلك القرينة فإن الحكم يكون مقصوراً على سببه لا محالة بإجماع العلماء .

(١) سورة المجادلة الآية ٢-٤ .

(٢) سورة النور الآية ٦-٩ .

(٣) جرت كتب الأصول على عد هذا الكلام حديثاً وهو هذا اللفظ لا يرمف ولا يثبت على النبي صلى الله عليه وسلم وإنما هو فى معنى حديث رواه الترمذى وقال : حسن صحيح . والنسائى وابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فى مبايعة النساء « أنى لا أصافح النساء وما قولى لامرأة واحدة إلا كقولى لمائة امرأة » أنظر . كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس جزء ١ ص ٢٦٤

٢ - لا يتوهم من متوهم أن غير الجمهور يقولون بعدم عموم أحكام الآيات النازلة على أسباب خاصة فالكل من الجمهور وغيرهم متفقون على عموم أحكام هذه الآيات غير أن الجمهور يقولون أن العموم مستفاد من اللفظ أما غير الجمهور فيقولون أن صورة السبب معلومة من اللفظ قطعاً أما غير صورة السبب فحكمها مستفاد بالقياس أو الاستدلال كما ذكرنا.

قال الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية في «أصول التفسير» (١) ما ملخصه «قد يحى كثير من هذا الباب قولهم : هذه الآية نزلت في كذا لاسيما إذا كان المذكور شخصاً لقولهم إن آية الظهار نزلت في امرأة ثابت بن قيس ابن شماس (٢) ، وأن آية الكلاله نزلت في جابر بن عبد الله ، وأن آية وأن أحكم بينهم بما أنزل الله، نزلت في بنى قريظة والنضير ونظائر ذلك مما يذكر أن أنه نزل في قوم من المشركين بمكة ، أو في قوم من اليهود والنصارى ، أو في قوم من المؤمنين فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم فأن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب : هل يختص بسببه ؟ فلم يقل أحد أن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين وإنما غاية ما يقال : أنها تختص بنوع ذلك الشخص فتعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ والآية إلى لها سبب معين إن كان أمراً أو نهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلة ،

مقدمة في أصول التفسير ص ١٢ - ١٣ الإفتان جز ١٠ ص ٣

(٢) المعروف أن آية الظهار نزلت في امرأة أوس بن الصامت ، وهذا هو الذى تظاهرت عليه الروايات في كتب التفسير وأسباب النزول . وقيل أنها نزلت بسبب سلمة بن صخر الأنصارى لما ظاهر من زوجته ، والحق هو الأول وأن لسلمة قصة أخرى ، وعلى كثرة التجرى والجهل لم أجدهم أحداً روى أنها نزلت في امرأة ثابت بن قيس بل رجعت إلى تواريخ الصحابة على أحمد في ترجمة ثابت =

وثمرة هذا الخلاف ترجع إلى امرين :-

١ - أن الحكم على أفراد غير السبب مدلول عليه بالنص النازل فيه عند الجمهور وذلك النص قطعى الثبوت اتفاقا وقد يكون مع هذا قطعى الدلالة أما غير الجمهور فالحكم عندهم على غير أفراد السبب ليس مدلولاً عليه بالنص بل بالقياس أو الاستدلال بالكلمة المعروفة عند الأصـوليين وكلاهما غير قطعى .

٢ - أن أفراد غير السبب يتناولها الحكم عند الجمهور ما دام اللفظ قد تناولها أما غير الجمهور فلا يسحبون الحكم إلا على ما استوفى شروط القياس دون سواه إن أخذوا فيه بالقياس

أدلة الجمهور

استدل الجمهور على ما ذهبوا إليه بأدلة نكتفي منها بما يأتي :

الدليل الأول : احتجاج الصحابة وغيرهم من الأئمة المجتهدين في جميع الأعصار في وقائع بمعوم آيات نزلت على أسباب خاصة ، وهذا أمر شائع ذائع بينهم ولم يعرف عنهم أنهم لجأوا إلى قياس أو استدلال بغير لفظ الآيات ، فدل ذلك على أن العبرة بمعوم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومن ذلك احتجاجهم بآية السرقة في قطع يد كل سارق مع نزولها في حادثة خاصة وهي سرقة المجن أو رداء صفوان واحتجاجهم بآيات حد القذف على حد كل قاذف مع أنها نزلت بسبب الذين رموا السيدة الحسان عائشة رضي الله عنها بالإفك ؛

== ما يدن على ذلك فلم أجد فتاكدت أن هذا سهو من الإمام - رحمه الله والسهو من طبيعة الإنسان ، ولا سيما والإمام بن تيمية كان جل اعتماده في كتبه على الذكرا والإلقاء على تلاميذه ، ومربديه ، ولم يكن عنده من الاستقرار وفسحة الوقت ما يجعله يراجع ما أملاه ، ويتدارك ما عسى أن يكون فيه من سهو وسيسار والمصمة لله وحده .

وكذلك آيات اللعان وآيات الظهار مع نزولها على أسباب خاصة على ما ذكرت لك آنفاً وهكذا .

وما يدل على اعتبار الصحابة ومن بعدهم للعموم ما رواه ابن أبي حاتم بسنده عن نجيعة الحنظلي قال . سألت ابن عباس عن قوله تعالى : والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ، إخصاص هو أم عام ؟ قال عام .

وروى ابن جرير بسنده عن أبي معشر نجيع قال سمعت سعيداً المقبري يذكر محمد بن كعب القرظي فقال سعيد : أن في بعض كتب الله أن الله عبداً ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين يجترئون الدنيا بالدين قال الله تعالى : أعلى يجترئون وبني يفترون ؟! وعزني : لأبعثن عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران ، فقال محمد بن كعب القرظي هذا في كتاب الله ، فقال سعيد وأين هو من كتاب الله ؟ قال قول الله عز وجل . : ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام (١) وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها . . . الآية (٢)

فقال سعيد : فقد عرفت فيمن أنزلت فقال محمد بن كعب . إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد .

قال ابن كثير (٣) : وهذا الذي قاله القرظي حسن صحيح .

(١) شديد الخصومة والعداوة للسلين .

(٢) البقرة الآية ٢٠٤ ، ٢٠٥ (٣) تفسير ابن كثير والبغوي جزء ١ ص ٦٤٧ ط المنار ، الإتيان جزء ١ ص ٢٩ وقد جاء نص هذا الاثر في الإتيان مصحفاً محرفاً وقد إعتدلت فيما نقلته على تفسير ابن جرير وابن كثير وفي تفسير القرطبي أن هذا الاثر رواه الترمذي أيضاً والمسوك جمع مسك بفتح الميم وهو الجلد .

الدليل الثاني : قالوا لو لم تكن العبرة بعموم اللفظ للزم استعمال العام في الخاص وفي هذا صرف له عما وضع له بغير قرينة مانعة من العموم واللازم باطل فبطل ما أدى إليه وثبت نقيضه وهو أن العبرة بعموم اللفظ فإن قال قائل إن خصوص السبب مانع من حمل اللفظ على العموم فهو قرينة صارفة . قلنا : أن خصوص السبب لا يستلزم إخراج غير السبب من متناول اللفظ فلا يصح إذاً أن يكون صارفاً عن استعمال العام في معناه الموضوع له وهو أفرادها التي منها صورة السبب وغيره . وبهذا ثبت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ادلة غير الجمهور

استدل غير الجمهور بأدلة نكتفي منها بما يأتي :

الاول . قالوا لو كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لجاز إخراج صورة السبب بالتخصيص لكن التالي باطل فبطل ما أدى إليه وثبت نقيضه وهو أن العبرة بخصوص السبب .

أما وجه الملازمة فإن اللفظ العام يجوز إخراج أى صورة منه بالتخصيص فتكون صور السبب كغيرها في جواز إخراجها من اللفظ العام ، وأما وجه بطلان التالي فلأن الإجماع منعقد على عدم جواز إخراج صورة السبب من اللفظ العام وأجيب عن هذا الدليل بأن عدم جواز إخراج صورة السبب إنما جاء من دليل آخر وهو الإجماع لا من جهة كونه غير عام ودليلهم إنما يتم لهم الاستدلال به لو أن عدم الجواز جاء من جهة كون اللفظ غير عام وليس الأمر كذلك وعلى هذا فالملازمة غير مسلمة وباطلة وثبت أن هذا الدليل لا ينهض للاحتجاج به فلا تثبت به الدعوى .

الثاني . قالوا لو كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لما كان لذكر

السبب فائدة لكن التالى - وهو عدم الفائدة - باطل فبطل ما أدى إليه - وهو ما فرضناه من أن العبرة بعموم اللفظ - وثبت نقيضه وهو أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ .

وأجيب عن هذا بأننا لا نسلم لكم انتفاء الفائدة مطلقاً إذ لا يلزم من نفي الفائدة المعنية وهى تخصيص الحكم بالسبب نفي الفائدة المطلقة بل هناك فوائد كثيرة غير هذه وقد تعرضنا للكثير منها فى صدد البحث وبهذا لا يصلح هذا الدليل للاحتجاج فلا تثبت به الدعوى .

الثالث : قالوا لو كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لسكان اللفظ الذى هو بمنزلة الجواب غير مطابق للسبب الذى هو بمنزلة السؤال لكن عدم المطابقة باطلة لأنه يناهى كون القرآن فى أعلى درجات البلاغة فبطل ما أدى إليه وثبت نقيضه وهو أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ وقد أجيب عن هذا بمنع الملازمة وهى عدم المطابقة إذ المطابقة حاصلة وزيادة الجواب عن السؤال لا تخرجه عن المطابقة لأنه اشتمل على المقصود وزاد عليه ومثل هذا الأسلوب لا ضير فيه ولا يخل بالبلاغة بحال من الأحوال وإنما يخل بها لو كان الجواب خاصاً والسؤال عاماً لعدم المطابقة حينئذ ، وعلى هذا فلا يصح هذا الدليل فلا تثبت به دعواكم .

وإذ قد بطلت أدلة غير الجمهور وبقيت أدلة الجمهور قوية سالمة من البطالان كان رأيهم هو المعول عليه

مثال للفظ خاص نزل على سبب خاص

ما ذكرنا من خلاف بين الجمهور وغيرهم إنما هو فى لفظ له عموم ونزل على سبب خاص أما إذا كانت آية نزلت بسبب خاص ولا عموم للفظها فإنها تقصر عليه قطعاً وقد مثل الامام السيوطى فى الاتقان (١) لذلك بقوله تعالى

(١) الاتقان جزء ١ ص ٣٠

« وسيجنبها الاتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ^(١) »، فإنها نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه - بالاجماع ^(٢) قال : « وقد استدلت بها الامام فخر الدين الرازى مع قوله تعالى «إن أكرمكم عند الله اتقاكم» ، على أنه أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم من ظن أن الآية فى كل من عمل عمله اجراء له على القاعدة وهذا غلط ، فإن هذه الآية ليست فيها صيغة عموم اذ الالف واللام - يعنى قوله «الاتقى» - انما تفيد العموم اذا كانت موصولة أو معرفة فى جمع زاد قوم : أو مفرد بشرط أن لا يكون هناك عهد ، واللام فى «الاتقى» ليست موصولة ، لانها لا توصل بأفعل التفصيل اجماعاً ، واللائق ليست جمعاً بل هو مفرد ، والعهد موجود خصوصاً مع ما يفيد صيغة أفعل من التمييز وقطع المشاركة فبطل القول بالعموم وتعين القطع بالخصوص والقصر على من نزلت فيه رضى الله عنه

وبعض المفسرين يرى احتمال الآية للعموم مع قولهم ، أنها نزلت فى الصديق رضى الله عنه فتكون له ولغيره من هو على شاكلته وفسروا «الاتقى بالتقى كما فسروا «الاشقى» وهو أمية بن الحنفى بالشقى فتشمله وتشمل غيره من يعمل بمثل عمله ومن هو على صفته واستدلوا لقولهم هذا بقول طرفة

تمنى رجال أن أموت وأن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
أى واحد ووحد وتوضع أفعل موضع فاعل نحو قولهم : الله أكبر
بمعنى كبير ، وهو أهون عليه ، أى هين ^(٣) «ومنى يحمل الآية على العموم
العلامة ابن كثير فى تفسيره قال ^(٤) « وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن

(١) سورة البيل الآية ١٧ - ١٨

(٢) الاكثر من العلماء على هذا وقيل نزلت فى أبى الدرداح - كما قاله خطاء والسدى - ولا يأتى الاجماع إلا إذا استعظنا من الاعتبار رأى المخالف .

(٣) تفسيراً لقرطبى جزء ٢٠ ص ٨٨ .

(٤) تفسير ابن كثير والبغوى جزء ٩ ص ٢٢٦ .

هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضى الله عنه حتى أن بعضهم (١) حكى الاجماع من المفسرين على ذلك ولا شك أنه داخل فيها وأولى الامة بعمومها فإن لفظها لفظ العموم وهو قوله «وسيجنبها الاتقى الذى يؤتى ماله يتركى وما لا أحد عنده من نعمة تجزى ، ولكنه مقدم الامة وسابقهم فى جميع هذه الاوصاف وسائر الاوصاف الحميدة ، فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذلاً لا مواله فى طاعة مولاه ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكسب من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم ، ولم يكن لاحد من الناس عنده مئة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله واحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل .

وأياماً كان المراد من لفظ الاتقى فالآيات نص فى الدلالة على فضل الصديق الأكبر رضى الله عنه وأرضاه ؛ لأن السبب يدخل فى الآية دخولا أولياً

شبيه بالسبب الخاص مع اللفظ العام

قد تنزل بعض الآيات على الأسباب الخاصة أو توضع مع ما يناسبها من الآى العامة رعاية لنظم القرآن وحسن السياق وتناسب الآيات فيكون ذلك الخاص قريباً من صورة السبب فى كونه قطعى الدخول فى العام وقد اختار الإمام ابن السبكي فى «جمع الجوامع» أنه رتبته متوسطة دون السبب وفوق التجرد ومثاله قوله تعالى « ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » (٢)

فقد نزلت هتان الآيتان فى كعب بن الأشرف ونحوه من علماء اليهود

(١) لعل مراده الإمام الرازى (٢) انفساء الآية ٥١ - ٥٢ .

لما قدموا مكة بعد بدر (١) ليحرضوا قريشا على قتال النبي ﷺ والأخذ بالنار فنزل كعب بن الأشرف على أبي سفيان بن حرب فأحسن مشاوه ونزل بقية اليهود دور قريش فقال سفيان لكعب : أنك أمرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم أينأ أهدي طريقا فمن أم محمد ؟ فقال كعب أعرضوا على دينكم فذكر له أبو سفيان بعض فضائلهم فقال كعب أنتم - والله - أهدي سبيلا عما عليه محمد وأصحابه !!!

قال هذا مع عليه هو ومن معه من اليهود بما في كتابهم التوراة من نعت النبي الأمي العربي المبعوث في آخر الزمان ، وأخذ الموائيق عليهم أن يؤمنوا به ويصدقوه ولا يكتموا أوصافه ؛ فكان هذا أمانة لازمة لهم وعليهم أن يؤدوها ، وكان قول كعب بن الأشرف ومن وافقه خيانة لهذه الأمانة التي اتتمنوا عليها وأمروا بأدائها إذا حان وقتها وقد وبخهم الله سبحانه على خيانتهم هذه ولعنهم وتوعدهم عليها وقد اقتضى هذا التوعد واللعن الأمر بمقابل خيانتهم وهو أداء الأمانة الخاصة التي هي بيان صفة النبي صلى الله عليه وسلم الذي كانوا يجدون نفعه عندهم مكتوبا في التوراة ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم بل أشد ، ثم جاء بعده الأمر بأداء الأمانات عامة في قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا

(١) هذا ما ذكره السيوطي في الاتقان وفي تفسير الجلالين وما ذكره الجلال

المحلي في شرحه على جمع الجوامع .

وفي تفاسير البخري والقرطبي والالوسي أن قد روى كعب وأصحابه كان بعد أحد والصحيح الأول فقد قتل كعب بن الأشرف قبل أحد على الصحيح (البدائية والنهاية لابن كثير جزء ٤ ص ٥ وما بعدها) نعم قد جاء في رواية أخرى أن الآيتين نزلا في الوفد من اليهود الذين خربوا الأحزاب على رسول الله وذلك أنهم لما قدموا على قريش سألوهم هذا السؤال فأجابوهم بهذا الجواب ولم يكن في هؤلاء كعب قطعا ففعل من ذكر أن الآية نزلت بسبب الوفد الذين قدموا بعد أحد أراد هذه القصة ولكن وهم في ذكر كعب بن الأشرف في الواقدين .

حكمت بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان
سميعاً بصيراً، (١)

فكانت المناسبة رائعة حقاً ، والاتصال وثيقاً ، والانتقال في غاية
الحسن والجمال ، إذ أن آية الأمانة عامة في كل أمانة ، وسأ تقدم كان في
أمانة خاصة ، والعالم تال للخاص في الرسم مترشح عنه في النزول ، وهذه
المناسبة تقتضي دخول ما دل عليه الخاص في العام دخولا أولياً ، فهو
كسبب في كونه تطلعي الدخول في اللفظ النازل بسببه ولا يحـوز
خروجه بالإجماع .

وقد اعتبر الإمام ابن السبكي هذا النوع مرتبة متوسطة دون السبب
وفوق التجرد أما كونه دون السبب فلأن الأولى ليست سبباً في الثانية
اصطلاحاً وأما كونه فوق التجرد فلهذه المناسبة القوية بين الخاص والعام
ودخول الأول في الثاني .

ولا يرد على ما ذكرنا تأخر الآية الثانية عن الأولى بنحو ست سنين
لأن الزمان إنما يشترط في سبب النزول لا في المناسبة لأن المقصود منها
وضع الآية في الموضع الذي يناسبها ، والآيات كانت تنزل على
أسبابها ويأمر النبي صلى الله عليه وسلم بوضعها في المواضع التي علم من الله
أنها مواضعها ، وهذا الكلام الذي قاله ابن السبكي ونقله عنه السيوطي
في الاتفاق من الحسن بمكان ، وقد نبه إلى هذه المناسبة البديعة بين
الآيات الإمام القرطبي في تفسيره (٢) حيث قال « وجه النظم بما تقدم أنه
- تعالى - أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد صلى الله عليه وسلم وقولهم
لئن المشركين أهدى سبيلاً ، فكان ذلك خيانة منهم فانجر الكلام إلى ذكر
جميع الأمانات ، ،

(١) النساء . ٥٨ .

(٢) تفسير القرطبي جزء ٥ ص ٢٥٧ .

المبحث الخامس

(نزول القرآن على سبعة أحرف)

هذا المبحث من المباحث التي تناولها العلماء في تأليفهم . بل وأفردوها بعضهم بالتأليف . وقد اختلفت فيه آراؤهم وأنظارهم اختلافا كثيرا وكثرت فيه الأقوال كثرة ظاهرة . حتى لقد بلغ بها السيوطي في الاتقان - نقلا عن ابن حبان ، خمسة وثلاثين قولاً .

وليس من شك في أن هذا البحث شائك ، ودحض مزلة ، والمباحث فيه يحتاج إلى شيء غير قليل من البصر بموضع قدمه . ومن الأثارة والصبر . ولا تعجب إذا خفي المراد على بعض العلماء فعد الحديث مشكلا ، وتوقف عن بيان المراد منه . وبعضهم جعل حقيقة العدد غير مقصودة ، وأن المراد التكثير من غير حصر . وأتى بعضهم بآراء ما أنزل بها من سلطان !

ولكي نصل إلى بيان الحق والصواب ، نرى لزوماً علينا ذكر الروايات الثابتة في هذا المعنى بشيء من التفصيل كي تكون لنا نبراساً نهتدى على ضوئه لمعرفة المراد .

الحديث متواتر :

ويحسن أن ننبه قبل هذا التفصيل إلى أن حديث إنزال القرآن على سبعة أحرف ، ورد من رواية جمع كثير من الصحابة ، حتى نص الإمام وأبو عبيد القاسم بن سلام ، على تواتره ، فقد رواه من الصحابة : أبي بن كعب ، وأنس بن مالك ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن أرقم ، وسمرة ابن جندب ، وسليمان بن صرد ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وعثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب ، وعمر بن أبي سلمة ، وعمر بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأبو بكر ، وأبو جهم

وأبو سعيد الخدري ، وأبو طلحة الأنصاري ، وأبو هريرة ، وأم أيوب الأنصاري - امرأة أبي أيوب الأنصاري - رضى الله عنهم أجمعين ؛ فهؤلاء أحد وعشرون صحابياً (١) .

وأخرج الحافظ ، أبو يعلى ، فى مسنده : أن عثمان قال على المنبر : (أذكر الله رجلاً سمع النبي - ﷺ - قال : « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، كلها كاف شاف ، لما قام ، فقاموا حتى لم يحصوا ، فشهدوا بذلك فقال : وأنا أشهد معهم) . وهذا يدل على أن الحديث كان معروفاً مشهوراً غاية الشهرة فى زمن الصحابة ولكن هل نقله عنهم فى كل طبقة جماعة كثيرون بمن يثبت بهم التواتر ؟ هذا ما يحتاج إلى إثبات ، وإلا فغاية أمره أنه مشهور

الروايات الواردة

١ - روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، بسندهما عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال . (أقرأنى جبريل على حرف ؛ فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف) . زاد مسلم فى روايته ، قال ابن شهاب : بلغنى أن تلك السبعة الأحرف .. إنما هى فى الأمر يكون واحداً ، لا يخلف فى حلال ولا حرام (٢) . يريد أن المعنى واحد ، وأن اختلفت الألفاظ .

٢ - وروى البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، بسندهما عن ابن شهاب الزهري قال : أخبرنى عروة بن الزبير . أن المسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن ابن عبد القارى أخبراه : أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة « الفرقان » فى حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته ؛ فإذا

(١) الاتقان ج ١ ص ٤٥ ، وفى بعض نسخ الاتقان المطبوعة « أبو أيوب ، بدل « أم أيوب » ، وأغلب الظن أنه من الطباعة ، وفى النشر لابن الجزرى « أم أيوب » .

(٢) فتح البارى ٩٢ ص ١٩٠ . صحيح مسلم بشرح النووي ٦٢ ص ١٠١

هو يقرأ على حروف كثيرة ، لم يقرئها رسول الله ؛ فسكنت أساوره (١) في الصلاة فتصبرت حتى سلم ، فلببته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ قلت : كذبت (٢) ؛ فإن رسول الله ﷺ أقرأنيها على غير ما قرأت ؛ فانطلقت به ، أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت : إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها فقال رسول الله ﷺ أرسله ، اقرأ يا هشام ؛ فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ ؛ فقال رسول الله ﷺ كذلك أنزلت ، ثم قال : اقرأ يا عمر ؛ فقرأت القراءة التي أقرأني ، فقال رسول الله ﷺ كذلك أنزلت ؛ إن القرآن أنزل على سبعة أحرف . فاقرأوا ما تيسر منه ، (٣)

٣ - وروى مسلم في صحيحه ، بسنده عن أبي بن كعب : أن النبي ﷺ كان عند أضاة (٤) بنى غفار . قال : فاتاه جبريل عليه السلام - فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف ؛ فأبما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا .

٤ - وروى مسلم بسنده ، عن أبي بن كعب قال : كنت في المسجد ،

-
- (١) أرائبه وأمشك به .
 (٢) أي أخطأت بلغة الحجاز . أو بنى ذلك على غلبة ظن واعتقاده .
 (٣) فتح الباري ٣/ ٩ ص ٢٠/ ١٩ . مسلم بشرح النووي ج ٦ ص ٩٩ وما بعدها
 (٤) أضاة - بفتح الهمزة . وبضاد معجمة - : الماء المستنقع كالدير ، وجمعه : أضاد ، كحصاة وحما . وإضاة كأكة راكام . وكانت بوضع من المدينة النبوية ينسب إلى بنى غفار ، لأنهم نزلوا عنده .

فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه؛ ثم دخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه؛ فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه فأمرهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقرءا، فحسن النبي - صلى الله عليه وسلم - شأنهما؛ فسقط في نفسي من التكذيب^(١) ولا اذ كنت في الجاهلية فلما رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما قد غشيتني ضرب في صدري فغضت عرقاً، وكأنما أنظر إلى الله - عز وجل - فقال لي: يا أباي، أرسل إلى: أن أقرأ القرآن على حرف، فرددت عليه: أن هون على أمتي، فرد إلى الثانية: أقرأه على حرفين؛ فرددت إليه: أن هون على أمتي، فرد إلى الثالثة^(٢): أقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردة رددتكم مسألة تسألونها فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي؛ وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم - صلى الله عليه وسلم - . وقد بين الطبري في روايته: أن المقروء كان من سورة «الزحل» .

(١) يعني أن الشيطان وسوس له من التشكك في النبوة ما أوقعه في حيرة ودهشة، وشوش عليه أمره، وعظم عليه ما ليس عظيماً في الواقع ونفس الأمر. إلا أن هذه الوسوسة لم تعد أن تكون خاطراً من الخواطر التي لا يؤاخذ عليها الإنسان، ونزعة شيطانية غير مستقرة لم تلبث أن زالت حين ضرب النبي في صدره فتبخر في قلبه ما حاك فيه من شك وتردد فالشرح صدره، وثبت قلبه على الحق واليقين، وإنما فاض عرقاً استحياء من ربه لما تمثل هذا الخاطر الذي لا يليق بمثله، ومثل هذه الخواطر والنزعات غير المستقرة لا تعزل بإيمان أو عقيدة، بل هي إمارة من إمارات قوة الإيمان. وفي صحيح مسلم: أن الصحابة قالوا للنبي: وإنا لنجد في أنفسنا ما يتعاطم أحدنا أن يتكلم به. قال: أوجدتموه؟ قالوا: نعم قال: ذلك صريح الإيمان .

(٢) المراد بالثالثة الأخيرة، وهي الرابعة فيها الثالثة مجازاً، بدليل الرواية السابقة. أو يكون أسقط من هذه الرواية بعض المرات فجاءت الرابعة في العدد ثلاثة .

٥ - وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن عبد الله بن مسعود : « أنه سمع رجلا يقرأ آية ، سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - قرأ خلافها ، فأخذت يده ، فانطلقت به إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « كلا كما محسن ، فاقراء » .

قال شعبه - راوى الحديث - : « أكبر على قال : « فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكوا » .

وقد روى هذا الحديث بأوسع من هذا اللفظ ابن حبان والحاكم ، وفيه : « وإن هذه الآية من سورة من الـ حم » . وفى المبهمات للخطيب : أنها « الأحقاف » ، (١) .

٦ - وروى الترمذى ، بسنده عن أبى بن كعب قال : « لقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جبريل فقال : يا جبريل ؛ إني بعثت إلى أمة أمية ، منهم العجوز ؛ والشيوخ الكبار ، والغلام والجارية ، والرجل الذى لا يقرأ كتاباً قط ، فقال لى : يا محمد ، « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف » ، قال : هذا حديث صحيح .

٧ - وروى أحمد ، عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص ، عن عمرو : أن رجلاً قرأ آية من القرآن ، فقال له عمرو : إنما هى كذا وكذا ، فذكر ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فأى ذلك قرأتم أصبتم ، فلا تماروا فيه » (٢) إسناده حسن .

٨ - وروى الطبرى ، والطبرانى ، عن زيد بن أرقم قال : جاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « أقرأنى ابن مسعود سورة أقرأنيها زيد ، وأقرأنيها أبى بن كعب ، فاختلفت قراءتهم ؛ فبقراءة أيهم أخذ؟ فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى إلى جنبه ؛ فقال « ليقرأ كل إنسان منكم كما علم ؛ فإنه حسن جميل » .

(١) فتح البارى ٩ ص ٨٣ - ٨٤ . (٢) فتح البارى ٩ ص ٢١ .

٩ - وروى النسائي ، وان جرير الطبري - واللفظ له - بسندهما عن أبي بن كعب ، وفي حديثه : أن النبي ﷺ قال : « إن جبريل وميكائيل - عليهما السلام - أتياني فقعده جبريل عن يميني ، وميكائيل عن يساري ، فقال جبريل : اقرأ القرآن على حرف واحد ، وقال ميكائيل : استزده حتى تبلغ سبعة أحرف وكل شاف كاف ، ^(١) . وفي رواية لأبي بكر : فنظرت إلى ميكائيل فسكت ، فعلبت أنه قد انتهت العدة ، ^(٢) »

(١٠) وروى أحمد والطبراني ، من حديث أبي بكر قال : يا محمد ، اقرأ القرآن على حرف ، قال ميكائيل : استزده حتى تبلغ سبعة أحرف ، قال : كل شاف ما لم تخط آية عذاب برحة ، أو رحة بعذاب ، تحو قولك : تعال وأقبل ، وهلم ، واذهب ، وأسرع ، وعجل ، .

قال السيوطي : هذا اللفظ رواية أحمد ، وإسناده جيد ، وأخرج أحمد والطبراني أيضا ، عن ابن مسعود نحوه ، وروى الطبراني عن أبي بكر نحوه مقتصرأ على قوله : « هلم ، وتعال ، . وبحسبنا هذا القدر في هذا المقام .

ما يستخلص من الروايات

نستخلص من الروايات السابقة الأصول الآتية :

١ - لو نزل القرآن على حرف واحد لشق ذلك على الأمة العربية ؛ فقد كانت متعددة اللغات واللهجات ، وما يتسهل النطق به على البعض لايسهل على البعض الآخر ، وكانت تغلب عليها الأمية ، فلايجب أن حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الاستزادة من الحروف حتى بلغت سبعة أحرف . يدل على هذا قوله - في حديث أبي - : ثلاث مرات « أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لاتعطي ذلك ، . وقوله - في حديث الترمذى - : « إني بعثت إلى أمة أمة .. الحديث .

فكان من رحمة الله بهذه الأمة أن أنزل القرآن على سبعة أحرف ، رفعا للخرج ، وتيسيراً لقراءته وحفظه ، وفهماً وتدبره .

٢ - أن هذه التوسعة إنما كانت في الالفاظ ، ولم تكن في المعانى والأحكام وأنها كانت في المعنى الواحد يقرأ بالالفاظ مختلفة ؛ بدليل أن النبى ﷺ أقرأ كلا من المختلفين على قراءته ، بل واستحسن قراءة كل بقوله : « كلا كما يحسن ، وليقرأ كل منكم كما علم ، فإنه حسن جميل . »

وعبر معقول أن يكون اختلافهم فى المعانى والأحكام ، ثم يوافق النبى ﷺ على قراءته ويستحسنها .

٣ - أن هذه التوسعة والإباحة فى القراءة بأى حرف من الحروف السبعة إنما كانت فى حدود ما نزل به « جبريل » ، وما سمعوه من النبى ﷺ ؛ وذلك بدليل أن كلا من المختلفين كان يقول . « أقرأنيها رسول الله ، » وأن النبى كان يعقب على قراءة كل من المختلفين بقوله : « هكذا أنزلت ، كما فى حديث « عمر وهشام ، وما يفيد لفظه الإنزال الذى جاءت به جميع روايات الحديث . وليس ذلك إلا التوقيف بالسماع من الرسول ، وسماع الرسول من جبريل .

ولا يتوهم متوهم . أن التوسعة إنما كانت باتباع الهوى والتشهى ؛ فذلك ما لا يليق أن يفهمه مسلم ، فضلاً عن عاقل ؛ إذ الروايات الواردة ترده وتبطله ؛ ولو كان لكل أحد أن يقرأ بما يتسهل له من غير تلق وسماع من النبى ﷺ وأن يبدل ذلك من تلقاء نفسه لذهب إعجاز القرآن ، ولكان عرضة أن يبدله كل من أراد حتى يصير غير الذى نزل من عند الله ، ولما تحقق وعد الله سبحانه - بحفظه فى قوله : « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » ، واللوازم كلها باطلة ؛ فبطل ما أدى إليها ، وثبت نقيضه وهو أن التوسعة كانت فى حدود ما أنزل الله .

وكيف يتفق هذا الوهم الباطل ، وقول الحق - تبارك وتعالى - : « وقال الذين

لا يرجون لقاءنا : لئن بقرآن غير هذا أو بدله . قل : ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ؛ إن اتبع إلا ما يوحى الي ؛ إني أخاف أن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، أفلا تعقلون ، (١) .

٤ — أن الامة كانت بخيرة في القراءة بأى حرف منها من غير إلزام بواحد منها . وأن من قرأ بأى حرف منها فقد أصاب . بدليل قوله . صلى الله عليه وسلم في حديث « عمر ، : « فاقروا ما تيسر منه » . وقول جبريل - عليه السلام - في حديث المراجعة : « فأبما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا » وأيضاً .. فالنبي - صلى الله عليه وسلم - قد أقر كلا من المختلفين على قراءته . ولم يرجح قراءة واحد على الآخر . بل استحسّن قراءة كل .

٥ — أن التوسعة على الامة لم تكن في مبدأ الدعوة . بل كانت بعد الهجرة وبعد أن دخل في الإسلام كثير من القبائل غير قريش . فكانت الحاجة ماسة إلى هذا التسهيل . وتلك التوسعة . . يشهد لهذا حديث مسلم : « أن النبي كان عند أضاة بنى غفار . . . الحديث وهي بالمدينة النبوية . كما ذكرنا آنفاً (٢) .

٦ — أن هذه التوسعة مظهر من مظاهر الرحمة والنعمة . فلا ينبغي أن تكون مصدر اختلاف ونقمة : أو أن تكون مثيرة للشك . أو مضغفة لليقين . فقد حذرهم الرسول - صلوات الله عليه - من الاختلاف . كما في حديث « ابن مسعود ، . ومن الشك في القرآن كما في حديث عمرو بن العاص . « فلا تماروا فيه . وفي رواية لابن جرير الطبري . من حديث أبي جهم : « فلا تماروا في القرآن : فإن المراء فيه كفر ، .

(١) سورة يونس . الآية ١٥ ، ١٦

(٢) فتح الباري ٩ ص ٢٣ .

٧ — حرص الصحابة - رضوان الله عليهم - البالغ على القرآن الكريم، وغاية تحوطهم في المحافظة عليه ، ونفى الريب والتغيير والتبديل عنه ؛ وبحسبك شاهدا على هذا ما كان من الفاروق « عمر » - رضى الله عنه - مع هشام بن حكيم حتى هم أن يأخذ بتلاييه وهو في الصلاة، وما كان من « أنى »، وابن مسعود ، وعمرو بن العاص مع غيرهم ؛ وأن الصحابة إنما اختلفوا وتنازعوا في قراءة بعض الألفاظ ، ورفعوا الأمر إلى رسول الله - ﷺ - قبل أن يعلوا : أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فلما علوا بهذه الحقيقة اطمأنوا ، وقطع بينهم دابر الشقاق والمراء .

الاقوال فى المراد من الاحرف السبعة

اختلف العلماء فى المراد بالأحرف السبعة على أقوال كثيرة، وقد أوصلها « ابن حبان ، إلى خمسة وثلاثين قولاً ، ونقلها عنه السيوطى ، فى الاتقان . وسند ذكر أشهر هذه الأقوال وأهمها ، وناقش كل قول مناقشة موضوعية خالية من التعصب لقول ، أو التحيف على آخر ، على ضوء ما قدمنا من روايات ، وما استنتجناه من أصول ، ومن غير نظر إلى قائله ومنزلته ، والحق لا يعرف بالرجال ، وإنما يعرف الرجال بالحق ، ومن الله نستمد التوفيق والعصمة من الزلل .

القول الأول

إن الحديث من المشكل الذى لا يدرك معناه ؛ لأن الحرف يصدق لغة على حرف الهجاء ، وعلى الكلمة ، وعلى المعنى ، وعلى الجهة ، فهو مشترك لفظى لا يدرك أى معانيه هو المراد ؟

وهذا القول نسب إلى « أبى جعفر . محمد بن سعدان النحوى ، ونحوه الحافظ السيوطى فى شرحه (١) على سنن النسائى حيث قال - بعد ذكر

(١) أما فى الاتقان فقد نقل الأقوال وجعل همه السرد ولم يتعرض للترجيح ولا للاختيار .

الحديث - : « في المراد به أكثر من ثلاثين قولاً ، حكيتها في الإتقان -
والمختار عندى : أنه من المتشابه الذى لا يدرى تأويله ، .

وهذا رأى بمعزل عن التحقيق ؛ فإن مجرد كون اللفظ مشتركاً لفظياً
لا يلزم منه الإشكال ولا التوقف ، وإنما يكون ذلك لو لم تقم قرينة تعين
بعض المعانى ، أو ترجح بعضها على بعض ، وهنا قامت القرينة التى تعين
المراد ؛ إذ لا يصح إرادة حرف الهجاء ؛ لأنه مركب من جميع حروف
الهجاء ، ولا يصح إرادة الكلمات لأن كلماته تعد بالآلوف ، ولا يصح إرادة
المعنى ، لأن معانيه تزيد عن سبعة فتعين أن يكون المراد : الجهة .

والجهة تأتى بمعنى الوجه (١) ، ويشهد لهذا الاستعمال مجئ الحرف بمعنى
الوجه قول الله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فقد قال
بعض المفسرين فيه : على ضعف من العبادة ، أو على وجه واحد : وهو أن
يعبده على السراء دون الضراء كما فى تفسير القرطبي ، .

وإذا كان معنى الحرف غير مشكل فليبحث عن المراد منه فى حدود
المنقول والمعقول .

القول الثانى

وهو أنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد ، بل المراد التيسير والتوسعة ،
ولفظه « السبعة » ، يطلق على إرادة الكثرة فى الآحاد ، كما يطلق السبعون
فى العشرات والسبعمائة فى المئين ، ولا يراد العدد المعين .

وهذا رأى أيضاً بعيد من الصواب ، إذ لا تشهد له رواية من الروايات

(١) قال فى القاموس : « والجهة - بالكسر والضم - : الناحية كالوجه
والوجهة - بالكسر - ، وقال فى المصباح المنير : « والوجه بالكسر - قيل : مثل
الوجه . وقيل : كل مكان استقبلته ، وتحذف الواو قبله : جهة مثل عدة . ثم قلده
وقوله تعالى : « فثم وجه الله ، أى جهته التى أمركم بها .

التي أسلفناها ، ويرده ما ورد في حديث الصحيحين : « فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف ، وحديث النسائي ، وفيه : فقال ميكائيل : « استزده حتى بلغ سبعة أحرف ، وفي حديث أبي بكر : فنظرت إلى ميكائيل فسكت ، فعلمت أنه قد انتهت العدة ، ، فهذه الروايات صريحة في أن المراد حقيقة وانحصار الحروف في سبعة .

القول الثالث

أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتفقة بألفاظ مختلفة ، وإن شئت فقل : سبع لغات من لغات العرب المشهورة في كلمة واحدة ، تختلف فيها الألفاظ والمباني مع اتساق المعاني ، أو تقاربها ، وعدم اختلافها وتناقضها ، وذلك مثل : هلم ، وأقبل ، وتعال ، وإلى ، ونحوى ، وقصدى ، وقربنى ، فإن هذه ألفاظ سبعة مختلفة يعبر بها عن معنى واحد ، وهو طلب الإقبال .

وليس معنى هذا : أن كل كلمة كانت تقرأ بسبعة ألفاظ من سبع لغات ، بل المراد : أن غاية ما ينتهي إليه الاختلاف في تأدية المعنى هو سبع ، فالمعنى هو سبع ، فالمعنى الذى تتفق فيه اللغات في التعبير عنه بلفظ واحد يعبر عنه بهذا اللفظ لحسب ، والذى يختلف التعبير عنه بلفظين ، وتدعو الضرورة إلى التوسعة يعبر عنه بلفظين ، وهكذا إلى سبع :

ومن أمثلة ذلك من القرآن قوله تعالى : إن كانت إلا صيحة واحدة... (١) وقد قرأ ابن مسعود : « إلا زقية واحدة » ، وقوله . فاسعوا إلى ذكر الله ، قد قرأ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : فامضوا إلى ذكر الله ، (٢) ، مثل ما روى ورقاء عن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ،

(١) يس : الآية ٢٩ .

(٢) مقدمتان في علوم القرآن : ص ٢٢٢ .

عن أبي بن كعب : أنه كان يقرأ ، للذين آمنوا انظرونا ، ، للذين آمنوا أمهلونا ، ، للذين آمنوا آخرونا ، ، للذين آمنوا أرقبونا ، ؛ وبهذا الإسناد عن أبي ، أنه كان يقرأ : «كلما أضاء لهم مشوا فيه ، «سعوا فيه» (١) .

ولا يقال أن بعض هذه الحروف لا يقرأ بها اليوم ؛ لانا نقول : إن هذا هو معنى الأحرف السبعة ، ونحن لاندعى بقاءها كلها إلى اليوم كما ستعلم عن قريب .

وهذا الرأي يتفق هو والروايات السابقة الدالة على اختلاف الصحابة في كلمات من القرآن ، وتنازعهم ، ورفع الأمر إلى رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - ثم لإقرار الرسول كلا على قراءته ، ويوافق الأصول التي استنتجناها من هذه الروايات ؛ فالغرض من النزول على سبعة أحرف التيسير ، ورفع الحرج عن الأمة بالتوسعة في الالفاظ مادام المعنى واحداً ، فقد كانوا أمة أمية ، وكانت لغاتهم متعددة ، وكان يشق على كل ذى لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات ، ولو رام ذلك لم يتهأ له إلا بمشقة عظيمة ، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة ، وتذليل للسان ، وتغيير للعادة ؛ فن ثم جعل الله لهم متسعاً في اللغات بقراءة المعنى الواحد بالفاظ مختلفة

وقد استمر الأمر على هذا حتى كثر فيهم من يقرأ ويكتب ، وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله ﷺ وهو لسان قريش ، ولا سيما بعد أن صارت لقريش السيادة الدينية والدنيوية معاً ، وقدروا على النطق بلغة قريش ، التي هي أعذب اللغات وأسهلها وأطوعها للألسنة ؛ فلم يسعهم أن يقرأوا بخلافها ، ولا سيما وقد زالت الضرورة وأصبحت التوسعة في القراءة بالأحرف السبعة مثار اختلاف وتنازع ؛ فقد حدث في عهد الخليفة الثالث «عثمان ، رضى الله تعالى عنه - أن اجتمع أهل الشام مع أهل العراق في غزوة «أرمينية ،

وكانت قراءاتهم مختلفة ، فصار يخطيء بعضهم بعضاً ، ويقول كل منهم - م :
« حرفي الذي أقرأ به خير من حرفك » ، فجاء حذيفة بن اليمان إلى عثمان
فقال : يا أمير المؤمنين ، أدرك المسلمين قبل أن يختلفوا في كتابهم اختلاف
اليهود والنصارى ، وحدث أيضاً : أن كان المعلم يعلم قراءة الرجل ، والآخر
يعلم قراءة رجل آخر ، فصار الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع هذا
الخلافاً إلى المعلمين ، وكاد أن يكفر بعضهم بعضاً ، فقال عثمان : أنتم عندي
تختلفون ، فمن نأى من الأمصار كان أشد اختلافاً ، فرأى الخليفة الراشد
« عثمان » - ونعم ما رأى - على ملأ من الصحابة ، ومشورة من أهل الرأي
منهم أن يجمع الناس على حرف واحد .. حتى تضيق شقة الخلاف ، ويقل
التنازع فجمع المصحف ، وكتبه على حرف واحد وهو حرف قريش ،
ونسخ منه نسخاً أرسل بها إلى الأمصار ، وحرق ما عدا هذا المصحف الذي
أمر بجمعه ، وعزم على كل من كان عنده مصحف مصحف يباير المصاحف
العثمانية أن يحرقه ، فاستوثقت له الأمة بالطاعة ، ورأت أن فيما فعل من
ذلك الرشد والهداية ، فالتزمت القراءة بحرف قريش ، وتركوا القراءة
بالأحرف الستة الباقية ، التي عزم عليها إمامها العادل الراشد أن تركها
امتنالاً لأمر الإسلام ، في طاعة أولى الأمر ، ورعاية منهم - م لمصلحتهم
ومصلحة الأمة من يأتي بعدهم حتى درست معرفة هذه الأحرف الستة من الأمة
وتعفت آثارها فلا سبيل لأشد البوم إلى القراءة بها ، لدورها ، وعفاء
آثارها ، وتتناجى المسلمين على رفع القراءة بها . من غير جحود منهم لصحتها
وصحة شيء منها . فلا قراءة اليوم للمسلمين إلا بالحرف الواحد الذي اختاره
لهم إمامهم الشفيق الناصح . دون مشتداه من الأحرف الباقية (١)

وإلى هذا الرأي ذهب الجاهل من سلف الأئمة وخلفه . فذهب إليه الأئمة
سفيان بن عيينة . وابن جرير الطبري . ودافع عنه دفاعاً حاراً في مقدمة تفسيره

والطحاوى ، وابن وهب ، وخلائق كثيرون ، واختاره القرطبي ، ونسبه ابن عبد البر لا كثير العلماء ، وهذا رأى هو الذى اختاره وأميل إليه .

ولكى يخلص لنا هذا رأى محصا مصفى ، سند كر بعض التوضيحات له ، والشبه التى أثرت حوله ، ونجيب عليها . حتى يتبين لنا : أنه رأى المروى والمختار^(١) .

الشبهة الأولى : قال قائل . فى أى موضع من القرآن نجد حرفاً واحداً مقروءا بسبع لغات مختلفات الألفاظ ، متفقات المعانى . حتى يصح لنا أن نفسر الحروف السبعة بوجوه ولغات سبع ؟ .

والجواب : أننا لم ندع أن ذلك موجود اليوم ، وإنما قلنا : هذا هو معنى الحديث . ثم جدت ظروف وضرورات اضطرت الأمة بسببها أن تقتصر على حرف واحد منها ، وهى حرف قریش .

ولمّا لم أقل فى الجواب . إن فى القرآن ما يقرأ على سبعة أوجه مثل : «وعبد الطاغوت ، ولا تقل لهما : أف ، و«جبريل ، ، لأن الاختلاف فى هذه اختلاف قراءات : وهو أداء اللفظ الواحد بطرق مختلفة الأداء ، وليس اختلاف حروف ، أى ألفاظ وكلمات على ما بينا فى المذهب المختار ، والقراءات الثابتة على اختلافها وتنوعها ترجع إلى حرف واحد ، وهو حرف قریش ، الذى جمع عثمان عليه المصاحف .

الشبهة الثانية : إن قيل : أين ذهبت الأحرف السبعة الباقية مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بها ، وأمرهم بقراءتها ، وأنزلهن الله من عنده على نبيه ؟ أنسخت هذه الأحرف الستة الباقية فرغت ؟ وإذا كان .. فما الدليل على نسخها ورفعها ؟ .

(١) اعتمدت فى هذا غالبا على ما ذكره العلامة ابن جرير ، فى تفسيره ، مع التلخيص والتوضيح .

والجواب : ان الاحرف الستة الباقية لم تنسخ ولم ترفع ، ولم تضعيها الامة وإنما الامة أمرت بحفظ القرآن ، وخيرت في حفظه وقراءته بأى تلك الاحرف السبعة شامت ، كما أمرت إذا حثت في يمين وهى موسرة : أن تكفر بأى الكفارات الثلاث شامت : إما بعق ، أو إطعام ، أو كسوة ، فلو أجمعت الامة جميعها على التفسير بواحدة من الكفارات الثلاث ، دون حظر ما عداها كانت مصيبة ؛ مؤدية فى ذلك الواجب عليها من حق الله ، ووصفت بأنها مطيعة لاعاصية فكذلك الامة أمرت بحفظ القرآن وقراءته ، وخيرت فى قراءاته بأى الاحرف السبعة شامت ، فرأت لعله من العلل أوجبت عليها الثبات على حرف واحد - قراءته بحرف واحد ، وترك ما عداه .

فإن قيل ، فما العلة ؟ قلنا : هى ما قدمنا من أن الاحرف السبعة ، التى جعلت للتيسير ، ورفع الحرج أضححت سببا للنزاع والاختلاف ، بل والتفكير على نحو ما فعلنا آنفا .

الغيبه الثالثة :

إن قيل : كيف يلثم هذا الرأى الذى اخترتموه فى تأويل الحديث مع ما أثر عن عثمان - رضى الله عنه - أنه قال للرهط القرشيين الذين كانوا مع زيد بن ثابت ، فى نسخ المصاحف : « ما اختلفتم فيه - أنتم وزيد - فاكتبوه بلسان قريش ! فإنما نزل بلسانهم » .

قلنا فى الجواب : إن قول عثمان محمول على ابتداء نزوله ، وهو الحرف الاول الذى نزل به جبريل ، وطلب النبى ﷺ الزيادة عليه - ، فقد نزل جبريل بهذا الحرف أولا ، ثم كان يأتى بالحروف فى عرضاته القرآن مع النبى كل عام فى رمضان ، فكان ينزل الله - سبحانه - فى هذه العروض ما شاء أن ينزل من ألفاظ اللغات الأخرى ، التى تدعو إليها الحاجة ، ثم كان أن استقر الأمر آخر ابعاد زوال الضرورة على هذا الحرف ، وهو لغة قريش .

أو يكون مراد عثمان : أن معظمه وأكثره نزل بلغة قريش .

نقل الإمام «أبو شامة» عن بعض الشيوخ أنه قال : « أنزل القرآن أولاً بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء . ثم أبيح للعرب أن يقرءوه بلغاتهم ، التي جرت عاداتهم باستعمالها ، على اختلافهم في الألفاظ والإعراب ، ولم يكلف أحد منهم الانتقال من لغة إلى أخرى للشقة . ولما كان فيهم من الحمية ولطلب تسهيل فهم المراد . كل ذلك مع اتفاق المعنى . وعلى هذا .. يتنزل اختلافهم في القراءة كما تقدم ، وتصويب رسول الله كلاً منهم » .

قال الحافظ «ابن حجر» معلقاً : وتمة ذلك أن يقال : إن الإباحة المذكورة لم تقع بالشبهى ، أى أن كل واحد يغير الكلمة بمرادفها في لغته ، بل المراعى في ذلك السماع من النبي - ﷺ - ويشير إلى ذلك قول كل من عمر وهشام في حديث الباب : أقرأني النبي - ﷺ - (١) .

الشبهة الرابعة :

قالوا : لو كانت الحروف السبعة هي لغات سبع من لغات العرب المشهورة ، فكيف اختلفت قراءة «عمر بن الخطاب» ، وهشام بن حكيم - رضى الله عنهما - وهما قرشيان ، ولغتهما واحدة ؟

والجواب : أن العبرة في القراءة بالحروف هو السماع من النبي - ﷺ - لا أن يقرأ كل واحد بهواه ، على حسب ما يتشبه له من لغته ، وإنكار بعضهم على الآخر لم تكن لأن المنكر سمع ما ليس من لغته فأنكره ، وإنما كانت لأنه سمع خلاف ما أقرأه النبي - ﷺ - وجائز جداً : أن يكون أحدهما سمع من النبي - ﷺ - حرفاً بغير لغة قريش لحفظه ، وسمع الآخر حرفاً بلغة قريش لحفظه ، وثبت كل واحد منهما على ما سمع من النبي ، فمن ثم اختلفا مع كونهما قرشين . وكون بعض الناس يعرف غير لغته الأصلية ،

ويتسهل له ، وينطلق بها كما ينطق بها أهلها أمر مشاهد معروف ، وهل قال أحد : إن كل واحد من العرب كان يلتزم القرآن بلغته دون غيرها .. حتى يستشكل ذلك ؟؟

ولو كان الأمر كذلك لقال عمر لهشام : لقد قرأت بغير لغة قومك ، ولكنه لم يحدث ، وإنما أنكر عليه حروفاً لم يقرئه إياها رسول الله - ﷺ -
الشبهة الخامسة :

كيف تقولون : إن الحرف الذي استقر عليه الأمر آخراً هو حرف قريش مع أن في القرآن كثيراً من الكلمات بغير لغة قريش مثل : «الارائك» فقد قيل : إنها بلغة اليمن . ومثل : « أفلم يأس الذين آمنوا » أى : أفلم يعلموا بلغة هوازن . و « مراغماً متفسحاً بلغة هذيل » . إلى غير ذلك من الكلمات . وقد ذكر «السيوطي» في الإتيان في النوع السادس والثلاثين الكثير من ذلك (١) ؟
والجواب عن هذا :

(أ) أن ماورد من هذه الألفاظ ، وإن كانت في الأصل من غير لغة قريش لكن قريشاً أخذتها واستعملتها حتى صارت قرشية بالاستعمال . ومعروف أن مركز قريش هيأ لها أن تأخذ من اللغات الأخرى أعذبها وأسلسها .

(ب) أن هذه الكلمات التي ذكرتموها مما وافقت فيه لغة قريش وغيرها إلا أنها عند غير قريش أشهر وأعرف ، وتوافق اللغات في بعض الكلمات أمر غير مستغرب ولا مستغرب . وأياً كان الحال فوجود هذه الكلمات في القرآن لا ينافي كون القرآن بلغة قريش .

ومثل هذه الكلمات التي جاءت في القرآن ، وقيل إنها غير عربية - في الأصل كالشكاة . والفسطاط . واستبرق ونحوها ، فإنها : إذا ما صارت

عربية بالاستعمال أو أنها مما توافقت فيها لغة العرب وغيرهم ، ولم يطلعن وجودها في كون القرآن عربياً مبدئاً .

الشبهة السادسة :

إن قيل : ما هي اللغات السبعة التي نزل بها القرآن ؟ ومن أي ألسن العرب كانت ؟

قلنا : لا حاجة بنا اليوم إلى معرفة الألسن الستة الأخرى ، ولا إلى القراءة بها بعد أن اندرست وعفت آثارها ، وبحسبنا هذا اللسان الباقي وهو لغة قریش وقد قيل : إن خمسة منها بلسان العجم من هوازن ، وائنين لقریش وخزاعة ، روى ذلك عن ابن عباس ؛ إلا أنه لا يصح عنه (١)

وكل ما قيل في تعيين اللغات السبع لم يثبت بطريق صحيح . وقد اختلف في تعيينها اختلافاً كثيراً ، ومن أراد معرفة ذلك فليرجع إلى الإتيان (٢) .

والذي نراه : أنه كان نزل على سبع لغات من لغات العرب المشهورة وأفصحها ، وليس في البحث عن تحديدها كبير غناء ، مادام أن الحرف الباقي وهو حرف قریش أفصحها وأعذبها وأسلمها .

(١) تفصير الطبري ١٣ ص ٢٣

(٢) الإتيان ١٣ ص ٤٧/٤٩

منزلة اللغة القرشية بين لغات العرب

ولكى تزداد يقيناً بأن قریشاً أفصح العرب ، ولسانهم أفصح الألسنة وأعذبها ننقل لك بعض ما قاله الأئمة في هذا المقام :

قال «ابن فارس» في فقه اللغة ، عن اسماعيل بن أبي عبيد الله . قال (١) : «أجمع علماءنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالمهم : أن قریشاً أفصح العرب السنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب ، واختار منهم نبي الرحمة محمدًا ، ﷺ فجعل قریشاً قطان حرمه . وولاه بيته . فكانت وفود العرب من حجاجها وغــيرهم يفدون إلى مكة للحج . ويتحاضرون إلى قریش في أمورهم . وكانت قریش تعلمهم مناسكهم . وتحكم بينهم . ولم تزل العرب تعرف لقریش فضلها عليهم وتسميتها أهل الله ؛ لأنهم الصريح من ولد اسماعيل - عليه السلام - لم تشبههم شائبة . ولم تنقلهم عن مناسبتهم ناقلة . فضيلة من الله - جل ثناؤه - لهم وتشريفًا . إذ جعلهم رهط بيته الأئدين . وعترته الصالحين .

وكانت قریش - مع فصاحتها . وحسن لغاتها . ورقة السنن - إذا تنهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم . وأصنى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها . فصاروا بذلك أفصح العرب . ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عننة تميم . ولا عجرة قيس . ولا كشكشة أسد . ولا كسكسة ربيعة (٢) . ولا كسكسة تسمعه من أسد وقيس . مثل «تعلون» - بكسر التاء - و «نعلم» - بكسر النون - ومثل : «شعير وبعير» - بكسر الأول منها - .

[١] التبيان ص ٥٢ .

[٢] عننة تميم أبدلهم العين من الهمزة ، والمعجرفة جفوة في الكلام والكشكشة أبدل الشين من كاف الخطاب البؤث كعلايش في «عليك» . والكسكسة الحاقف بكاف الماثوث سيناً عند الوقف يقولون في بك «بكسر» .

وقال الفراء :

« كانت العرب تحضر الموسم في كل عام ؛ وتخرج البيت في الجاهلية وقریش یسمعون لغات العرب . فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا أفصح العرب . وخلت لغتهم من مستبشع اللغات . ومستبجح الألفاظ .

وقال أبو نصر الفارابی . في أول كتابه المسمى « الألفاظ والحروف

« كانت قریش أجود العرب انتقاء للأفصح . وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا . وأبينها إبانة عما في النفس . والذين عنهم نقلت العربية . وبهم اقتدى . وعندهم أخذ اللسان من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم . وأسد . فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم اتسكل في الغريب . وفي الإعراب والتصريف . ثم هزبل وبعض كناية . وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم .

وبالجملة : فإنه لم يؤخذ عن حصري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لحم ، ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل مصر والقيط ، ولا من قضاعة وغسان وإياد ، لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ولا من تغلب : فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر ، لمجاورتهم للقيط والفرس ، ولا من عبد قيس ، وأزد عمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهنظوا الحبشة ولا من بني حنيفة ، وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب - قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم .

والذى نقل اللغة واللسان العربى عن هؤلاء ، وأثبتها فى كتاب^(١) فصرها علما وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب .

القول الرابع

إن الأحرف السبعة هى لغات سبع متفرقة فى القرآن كله . وهذه السبع قيل : إنها من لغات العرب كلها . وقيل . من لغات مصر .

وليس معنى هذا القول : أن يكون فى المعنى الواحد سبع لغات بألفاظ مختلفة كالرأى السابق ، بل هذه اللغات متفرقة فى القرآن كله ، فبعضه بلغة وبعضه بلغة أخرى ، وهكذا . . إلى سبع ، فيكون المنزل لفظا واحدا ، لمعنى واحد من لغات متفرقة ، وقد استند القائلون بهذا رأى ما يأتى :

١ - وجود ألفاظ فى القرآن المقروء اليوم بغير لغة قريش .

٢ - ما روى عن ابن عباس ، وعمر - رضى الله عنهما - من عدم فهمهما لبعض الكلمات القرآنية ، فقد خفى على ابن عباس معنى قوله تعالى « فاطر السموات والأرض » حتى اختصم إليه أعرابيان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها . أى ابتدأتها ، فعلم معناها ، وكذلك خفى عليه معنى : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير الفاتحين » حتى سمع بنث ذى يزن تقول : تعالى أفاثحك . تريد أفاضيك وأخاصمك . فعلم معناها . وكذلك خفى على الفاروق معنى (تخوف) فى قوله تعالى : « أو يأخذهم على تخوف » . والمراد بـ (الآب) فى قوله تعالى : « وفاكهة وأبا » مع أنهما قرشيان . فدل ذلك على أن القرآن فيه ألفاظ بغير لغة قريش .

وإلى هذا القول ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام . وثعلب . وأبو حاتم السجستاني واختاره ابن عطية (١) وقال الأزهرى فى (التهذيب) : إنه المختار . وقد ذكر (السيوطى) : أن الزهرى عن قال بهذا : وهو غير صحيح . فظاهر مقالة الزهرى المروية فى صحيح مسلم تشهد لاختياره للقول السابق الذى رجحناه (٢) .

واليك ما قال أبو عبيد فى تحرير هذا القول : « ليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات . بل اللغات السبع متفرقة فيه . فبعض بلغة قريش : وبعض بلغة هذيل . وبعض بلغة هوازن . وبعض بلغة اليمن وغيرهم . وبعض اللغات أسعد به من بعض . وأكثر نصيبا » .

وبهذا التحرير يتبين لنا فرق ما بين هذا القول والقول السابق .

وقد اختلف القائلون بهذا فى بيان اللغات السبع . فقيل : إنها متخيرة من لغات أحياء العرب كلها ، وقيل : كانت فى (مضر) خاصة ، وقيل : فى قريش قال الحافظ فى الفتح : « قيل : نزل بلغة مضر خاصة ، لقول عمر : نزل القرآن بلغة مضر . وعين بعضهم - فيما حكاه ابن عبد البر - : السبع من مضر إنهم : هذيل ، وكنانة . وقيس . وضبة . وتيم الرباب بن خزيمة . وقريش . فهذه قبائل مضر تستوعب سبع لغات .

وقال أبو حاتم السجستاني : نزل بلغة قريش . وهذيل . وتيم الرباب والأزد . وربيعة . وهوازن . وسعد بن بكر .

واستنكره ابن قتيبة واحتج بقوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » فعلى هذا تكون اللغات السبع فى بطون قريش وبذلك جزم أبو على الأهوازي . .

(١) الفتح ٩ ص ٢٢ (٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٦ ص ١٠٩

وهكذا نرى أن بعض العلماء يرى : أن اللغات السبع في العرب كلها .
وقيل : في مضر وقيل : في قريش . وأنهم اختلفوا في تعيين السبعة . مما يدل
على أن ليس في هذا نقل صحيح تطمئن اليه النفس وما احتج به (ابن
قتيبة) لقوله غير مسلم . فقومه هم العرب لا قريش خاصة والله قال : إنا
أنزلناه قرآنا عربياً ، ولم يقل . قرشياً .

وهذا القول - الرابع - مرود بما يأتي .

١ - أن هذا القول بعيد غاية البعد عن الروايات التي ذكرناها في صدر
البحث . كما أنه لا يتفق هو والأصول التي استنتجناها منها . لأنه يقتضي أن
القرآن أبعاد . كل بعض بلغة . وهذا لا يتأتى فيه رفع الحرج والمشقة .
والتيسير والتسهيل . إذ كل قبيلة مكلفة شرعاً بقراءة القرآن جميعه . وفهمه
والعمل به . فهو لا يحقق الغرض الذي لأجله نزل القرآن على سبعة
أحرف .

٢ - وأيضاً . فلو كانت الحروف السبعة على ما ذكرها الماتأتى
اختلاف بين الصحابة في الألفاظ على ما جاءت به الروايات من اختلاف
عمر . وهشام وأبي بن كعب وابن مسعود وعمر بن العاص مع آخرين .
وكيف يتأتى اختلاف إذا كان المنزل لفظاً واحداً . والمقروء واحداً ؟
فهذا القول يلزم منه رد كل الروايات الصحيحة الواردة في هذا الباب ،
ودون ذلك خرط اللقطة وصعود السماء ؟

٣ - ما استند إليه القائلون به من أن القرآن يشتمل على ألفاظ غير لغة
قريش لا يصلح أن يكون دليلاً . لأننا كما قلنا سابقاً إن هذه الكلمات مما خيرها
قريش من لغات غيرها . واستعملتها . فصارت بالاستعمال قرشية . أو أن
هذه الألفاظ مما توافقت فيها لغة قريش ولغة غيرهم .

٤ - ما استندوا إليه من عدم فهم ابن عباس . وعمر لبعض الألفاظ القرآنية لا يصلح دليلاً لهم أيضاً . إذ اللغة واسعة وليس بلازم أن يحيط الإنسان بكل معاني لغته وألفاظها . وقد قال الإمام الشافعي في « الرسالة » ، « لا يحيط باللغة إلا نبي (١) » ،

على أننا قد ذكرنا . أن في القرآن ألفاظاً كانت في الأصل غير قرشية . ثم صارت قرشية بالاستعمال فجاءت جداً أن تكون بعض الألفاظ ليست كثيرة الاستعمال عند قریش . وليست معروفة لبعضهم فمن ثم خفيت على بعضهم دون بعض

القول الخامس

إن المراد بالسبعة الأحرف : الوجوه التي يرجع إليها اختلاف القراءات وقد ورد في هذا آراء متقاربة لأربعة من العلماء . وسنعرض هذه الآراء الأربعة ثم نناقشها مرة ، إذ جميعها تجمعها رابطة قوية ، وشيخه متشابهة

قال ابن قتيبة في أول تفسير « مشكل القرآن » ، (٢)

« وقد تدبرت وجوه الاختلاف في القراءات فوجدتها سبعة :

الأول : ما تغير حركته . ولا يزول معناه ولا صورته مثل : « ولا يضار كاتب ولا شهيد » بفتح الراء وضمها (٣)

الثاني : ما يتغير بتغير الفعل مثل قوله تعالى : ربنا بعد بين أسفارنا ،

(١) الاتقان ج ١ ص ٢٦

(٢) الاتقان ج ١ ص ٤٦ فتح الباري ج ٩ ص ٢٣ .

(٣) الأول على أر لا لامية . والثاني على أنها نافية

« وربنا باعد بين أسفارنا » الأول بصيغة الطلب . والثاني بصيغة الماضي .
الثالث : ما يتغير بنقط بعض الحروف المهمة مثل : « ثم ننشرها .. ثم
ننشرها ، الأولى بالراء المهمة والثاني بالزاي .

الرابع ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج من الآخر مثل : « طلع
منضود ، و « طلع منضود .

الخامس : ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل : « وجاءت سكرة الموت بالحق ،
« وجاءت سكرة الحق بالموت ، ،

السادس : ما يتغير بالزيادة والنقصان مثل : « وما خلق الذكر والأنثى ،
« والذكر والأنثى ،

السابع : ما يتغير بإبدال كلمة بكلمة ترادفها مثل : « كالعن المنفوش ،
« كالصوف المنفوش ، .

قال ابن قتيبة : وكل هذه الحروف كلام الله تعالى نزل به الروح الأمين
على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

قال ابن الجزري (١) : وهو حسن إلا أنه قد فاتته كافات غيره - أكثر
أصول القراءات كالإدغام والإظهار ، والإخفاء والإمالة والتفخيم ، والمد
والقصر وغير ذلك مما هو من اختلاف القراءات . وتغاير الألفاظ . وقد
اختلف فيه أئمة القراء . وقد كانوا يترافعون بدون ذلك إلى النبي - صلى الله
عليه وسلم - ويرد بعضهم على بعض .

« ولكن يمكن أن يكون هذا من القسم الأول . فيشمل الأوجه السبعة
على ما قرناه ،

القول السادس

ما قاله في بيان وجود الاختلاف الإمام أبو الفضل الرازي في كتاب
« اللوامح » .

قال . « الكلام لا يخرج عن سبعة أوجه في الاختلاف .

الأول . اختلاف الأسماء من أفراد وتثنية وجمع . أو تذكير وتأنيث .

الثاني . اختلاف تصريف الأفعال من ماض . ومضارع وأمر .

الثالث . وجوه الإعراب :

الرابع ، النقص والزيادة

الخامس . التقديم والتأخير .

السادس . الإبدال

السابع : اختلاف اللغات كالفتح والإمالة . والترقيق والتفخيم والإدغام
والإظهار ونحو ذلك

قال الحافظ في الفتح . وقد أخذ - الرازي - كلام ابن قتيبة ونقحه .

القول السابع

قول القاضي أبي بكر محمد بن العلي الباقلائي . قال : (١) « ندبرت
الاختلاف في القراءة فوجدتها سبعة :

الأولى : ما تغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل : « هن
أطهر لكم » - بضم الراء وفتحها - .

الثاني : ما لا تغير صورته ويتغير معناه بالإعراب مثل : « ربنا باعد
بين أسفارنا » بإسكان الدال وفتحها .

[١] تفسير القرطبي ج ١ ص ٥٥ . فضائل القرآن لابن كثير ص ٣٦

الثالث : ما تتغير صورته ومعناه باختلاف الحروف مثل قوله «ننشرها»
و «ننشرها» .

الرابع : ما تتغير صورته ويبقى معناه مثل : «العين المنفوش» وكالصوف
المنفوش» (١) .

الخامس : ما تتغير صورته ومعناه مثل : « وطلح منضود » و « طلع
منضود » (٢) .

السادس : التقديم والتأخير كقوله تعالى : « وجاءت سكرة الموت بالحق
» وجاءت سكرة الحق بالموت ، .

السابع : الزيادة والنقصان مثل قوله : « تسع وتسعون نعجة أنثى » و
« تسع وتسعون نعجة » .

القول الثامن

قال ابن الجزرى : قد تتبعنا صحيح القراءات ، وشاذها ، وضعيفها
ومشكرها ، فإذا هي يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه . لا يخرج عنها . وذلك
إما باختلاف فى الحركات . بلا تغير فى المعنى والصورة . نحو « قرح »
بفتح القاف وضمتها .

(٢) أو فى الحركات بتغير فى المعنى فقط . نحو : « فتلقى آدم من ربه
كلمات ، برفع كلمات ونصبها . أى على أنها فاعل . أو مفعول .

(٣) أو فى الحروف بتغير فى المعنى لا الصورة نحو : « هنالك تبلوكل
نفس ما أسلفت ، قرىء : « تبلو » و « تتلو » وهما سبعيتان .

(٤) أو عكس ذلك : أى يتغير فى الصورة لا المعنى نحو : « الصراط »

(١) القراءة بلفظ الصوف غير متواترة .

(٢) قراءة مطلع : طلع . غاظة لا يثبت بها القرآن . وتخالف رسم المصحف
ربعض ما مثله من هذا القبيل .

و د السراط ،

(٥) أو بتغييرها : أى المعنى والصورة نحو : « فاسموا إلى ذكر الله »
وقرى . « فامضوا » .

(٦) وإما بالتقديم والتأخير نحو : « فيقتلون ويقتلون » ، الأولى بمنح الياء
على البناء للفاعل . والثانية بضم الياء للمفعول . وبالعكس .

(٧) وإما بالزيادة والنقصان نحو : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب »
وقرى . « وأوصى » .

فهذه سبعة أوجه لا يخرج الاختلاف عنها : قال : وأما نحو اختلاف
الإظهار والإدغام والروم والإشمام والتفخيم والترقيق والنقل : فهذا ليس
من الاختلاف الذى يتنوع فيه فى اللفظ والمعنى ، لأن هذه الصفات المتنوعة
فى أداء اللفظ لا تخرج عن أن يكون لفظاً واحداً ، وإثن فرض فيكون
من الوجه الأول الذى لا تتغير فيه الصورة والمعنى ،

وقد رجح هذا القول بعض كبار العلماء ، وأئمة الفتوى ، وهو المخفور
له الشيخ بخيت المطيعى ، وسوى بينه وبين مذهب ابن قتيبة . بل حاول
جاهداً أن يجمع معظم الأقوال التى ذكرها « السيوطى » ، فى الاتفاق ،
وذكرناها هنا - إليه (١) وهو تكاف لا نوافقه عليه .

كما رجح هذا القول أيضاً بعض الباحثين ، وأرجع إليه الأقوال الثلاثة
الأخرى (٢) ، وبين أنها جميعها ترجع إلى رأى واحد .

ورجح رأى « الرازى » ، بعض أجلة العلماء (٣) ، وبالع فى الانتصار له ،
وبين ما بين رأى الرازى وغيره من الآراء الثلاثة من فروق .

(١) الكلمات الحسان ص ٧٧ .

(٢) القراءات واللهجات ص ١٣ وما بعدها .

(٣) مناهل العرفان ص ١٣٢ .

ولكنى مع هذا . . . لم أركن إلى واحد من هذه الآراء ، ولا رأى أنها المقصودة بالحديث وأضع بين يدى القارىء هذه النقود .

نقد هذه الآراء

يمكننا إجمال النقد فيما يأتى :

١ - إن القائلين بهذا رأى - على اختلاف أقوالهم - لم يذكر واحد واحد منهم دليلا ، إلا أنه تتبع وجوه الاختلاف فى القراءة فوجدها لا تخرج عن سبع .

وهذا التبع لا يصلح أن يكون دليلا على أن المراد بالأحرف السبعة : الوجوه التى يرجع إليها اختلاف القراءات .

ولا يقال : كيف لا يعتبر التبع - وهو لا يخرج عن كونه استقراراً ؟

لأننا نقول : إنه استقرار ناقص ، بدليل أن طريق تتبع « ابن الجزرى » يخالف لطريق تتبع « ابن قتيبة » ، وابن « الطيب » ، و « الرازى » . وإيس أدل على ذلك من أن الرازى ذكر الوجه السابع ، ولم يذكره واحد من الثلاثة الآخرين ، بل برره ابن الجزرى ، لإهماله ، مما يدل على أنه يمكن الزيادة على سبع ، وأن الوجه الأول عند « الرازى » ؛ والثانى والسادس ترجع ثلاثتها إلى الوجه الخامس عند « ابن الجزرى » ، (١) ، مما يدل على أن هذه الوجوه يمكن أن يتداخل بعضها فى بعض ، وأن تعيينها إنما هو بطريق الاتفاق لا الاستقرار الصحيح .

وعلى هذا يكون الحصر فى الوجوه السبعة غير مجزوم به ، ولا متعين ، فهو مبنى على الظن والتخمين .

٢ - إن الغرض من الأحرف السبعة إنما هو رفع الحرج والمشفقة عن

الامة ، والتيسير والتسهيل عليها ، والمشقة غير ظاهرة في إبدال الفعل المبني للعلوم بالفعل المبني للجهول ، أو العكس ، ولا في إبدال فتحة بضمة ، أو حرف بآخر ، أو تقديم كلمة وتأخيرها ، أو زيادة كلمة أو نقصانها ، فإن القراءة بأحدهما دون الآخر لا توجب مشقة يسأل النى - صلى الله عليه - منها المعافاة ، وأن أمته لا تطيق ذلك ، ويراجع جبريل مراراً . ويطلب التيسير فيجاب بإبدال حركة بأخرى . أو تقدم كلمة وتأخيرها . فالحق : أنه مستبعد أن يكون هذا هو المراد بالاحرف السبعة .

٣ - إن أصحاب هذه الأقوال اشتبه عليهم القراءات بالاحرف ، فالقراءات غير الاحرف لا محالة وإن كانت مندرجة تحتها . وراجعة إليها .

القول التاسع

إن المراد بالاحرف السبعة سبع قراءات .

واننا لنناقش هؤلاء .. فنقول لهم : ان أردتم أن كل كلمة تقرأ بقراءات سبع . قلنا لكم : ان ذلك نادر وقليل جداً .

وان أردتم ان بعض الكلمات، تقرأ بوجه . وبعضها بوجهين . وبعضها بثلاث .. وهكذا الى سبع . فذلك مردود أيضاً بما يأتي : -

١ - إن بعض الكلمات تقرأ على أكثر من سبعة أوجه؛ قال في « منار الهدى » . في الوقف والابتداء ، : « قد جاء في القرآن ما قرئ بسبعة أوجه ، وعشرة أوجه . كالك يوم الدين ، . وفي البحر : أن في قوله : « عبد الطاغوت ، اثنتين وعشرين قراءة . وفي « أف ، لغات أوصلها ، الرمانى ، إلى سبع وثلاثين لغة .

وقد أجاب الحافظ ابن حجر : « بأن غالب ذلك ؛ إما لأنه لا يثبت الزيادة ؛ وإما أن يكون من قبيل الاختلاف في كيفية الأداء كما في المد والإمالة ونحوها .

والحق : إنه جواب لا يدفع الإشكال . لأن دعوى : أنه لا يثبت الزيادة على السبع مكابرة بعد ما نقلناه عن أئمة القراء ، وكونه من قبيل الاختلاف في الأداء لا يمنع أنه من القراءات التي تثبت بها الزيادة على سبع ، إذ لا فرق بين ما ذكر وبين الاختلاف في « عبد الطاغوت » . ولا تقل لها أف ، فجعل هذا الاختلاف من القراءات دون الاختلاف في الأداء كالمدة والإمالة تحكم ظاهر (١) .

٢- إن هذا القول مبنى على أن القراءات هي الأحرف . والحق :- كما قلناه آنفاً - أنها ترجع إليها ، وليست ذاتها ، ولا حقيقتها .

الأحرف السبعة ليست القراءات السبع

وأشد من هذا القول بطلاناً من يزعم : أن الأحرف السبعة هي القراءات السبع المشهورة . وهو غاية الجهل . قال أبو شامة . «ظن قوم : أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث . وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل ، .

ولذلك لام كثير من العلماء «ابن مجاهد» (٢) على اقتضائه على السبعة . لأنه أوقع من لا يعلم في هذا الوهم . قال أبو العباس بن عمار : لقد فعل مسجع هذه السبعة ما لا ينبغي . فأشكل الأمر على العامة . بإيهامه كل من قل نظره . أن هذه القراءات هي المذكورة في الحديث . وليته إذا اقتصر نقص عن السبعة . أو زاد ليزيل الشبهة .

وقال أبو بكر بن العربي : ليست هذه السبعة متعينة للجواز حتى لا يجوز غيرها كقراءة أبي جعفر . وشيبة . والاعمش ونحوهم . فإن هؤلاء مثلهم أو فوقهم :

(١) الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن ص ٥٣ .

(٢) هو أبو بكر أحمد بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ هـ .

وكذا قال غير واحد منهم : مكى بن أبى طالب ، وأبو العلاء الهمداني .
وغيرهم من أئمة القراء (١) .

وقال القرطبي فى تفسيره (٢) . « قال كثير من علمائنا كالأودى . وابن
أبى صفرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السبعة
ليست هى الأحرف السبعة . التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها . وإنما
هى راجعة إلى حرف واحد من هذه السبعة . وهو الذى جمع عليه عثمان
المصحف . ذكره ابن النحاس وغيره » .

وهكذا يتبين لنا : أن القراءات الثابتة المتواترة ليست منحصرة فى
السبع المشهورة وإنه لا يجوز بحال من الأحوال أن تكون مرادة من الحديث
وكيف يمكن أن تكون القراءات السبع المشهورة هى المرادة من الحديث ..
وهى إنما عرف كونها سبعاً من قبل أن رواها المشهورين سبعة . وهذا
شئ علم بعد زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - بثلاثة فرون تقريباً . على
يد ، ابن مجاهد ، ؟ فغير معقول أن يخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بنزول
القرآن على حروف لم تعرف . ولم تشتهر إلا بعده بقرون .
وقد علمت : أن حصر القراءات الثابتة فى إنما كان أمراً اتفاقياً
فحسب .

القول العاشر

ذهب البعض إلى أن المراد بالأحرف السبعة : سبعة أصناف من
الكلام . وقد اختلف القائلون به فى تعيين هذه السبعة . فقليل . لأنها أمر
ونهى ، وحلال . وحرام . ومحكم . ومتشابه . وأمثال .

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٢٥ .

(٢) ج ١ ص ٤٦ .

واحتجوا بما أخرجه الحاكم ، البيهقي ، عن ابن مسعود ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد ، وعلى حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف : زاجر وآمر وحلال ، حرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال ، فأحلوا حلاله ، وحرّموا حرامه ، وافعلوا ما أمرتم به ، وانتهوا عما نهيتهم عنه ، واعتبروا بأمثاله ، واعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا : آمنا به كل من عند ربنا » .

وهذا الرأي مردود من جهة الرواية والدراية . والعقل بما يأتي .

١ - أن هذا الحديث غير ثابت ، فلا يصح الاحتجاج به . قال الإمام أبو عمر بن البر : « هذا حديث لا يثبت ، لأنه من رواية أبي سلية بن عبد الرحمن عن ابن مسعود ، ولم يلق ابن مسعود » .

وقال الحافظ في « الفتح » (١) : « وقد صحح الحديث المذكور ابن حبان ، والحاكم ، وفي تصحيحه نظر ، لانقطاعه بين أبي سلية وابن مسعود » .
ومعروف : أن المنقطع من قبيل الضعيف ، فلا يحتج به في مثل هذا .
٢ - لو سلمنا جدلاً أن الحديث ثابت ، فليس تأويله كما قال هؤلاء ، وإنما له تأويلات أخر :

(١) وذلك إما أن يكون قوله في الحديث : زاجر ، وآمر . . . الخ استئناف كلام « ولنس بياناً للأحرف » . قال أبو العلاء الهمداني ، وأبو علي الأخواني : « إن قوله : زاجر ، وآمر استئناف كلام آخر ، أي هو زاجر - القرآن - » ولم يرد به تفسير الأحرف السبعة . وإنما توهم ذلك من توهمه من جهة الاتفاق في العدد .

ويؤيده أنه جاء في بعض لهرقه : زاجراً ، وآمراً - بالنصب - أي نزل على هذه الصفة من الأبواب السبعة » .

(ب) وإما أن تكون بياناً للأبواب السبعة لا للأحرف السبعة . قال العلامة أبو شامة . « يحتمل أن يكون التفسير المذكور للأبواب لا للأحرف السبعة . . أى هى سبعة أبواب من أبواب الكلام وأقسامه ، وأنزله على هذه الأصناف . لم يقتصر منها على صنف واحد كغيره من الكتب » .
وعلى هذه التأويلات لا يكون الحديث صالحاً للاحتجاج به على ما ذهب إليه هؤلاء .

(ج) وقال البيهقي : « المراد بالسبعة الأحرف هنا : الأنواع التى نزل عليها والمراد بها فى تلك الأحاديث : اللغات التى يقرأ بها » . وكذلك قال القاضى « أبو بكر الباقلانى » .

٣ - هذه الأنواع لا تصلح أن تكون تفسيراً للأحرف السبعة لأن الغرض منها كان التوسعة على الأمة والتيسير بالتغيير فى القراءة بأى حرف منها . وما ذكره من الأنواع لا يتأتى فيه البتة التوسعة والتيسير لأن التوسعة لم تقع فى تحليل حرام ولا فى تحريم حلال ولا فى إبدال أمر بنهى ولا نهى بأمر ولا بحكم بمتشابه ولا عكسه . . وهكذا .

فشكل هذا مما أجمع العلماء قاطبة على أنه لا يجوز قال ابن عطية (١) : « هذا القول ضعيف لأن هذه لا تسمى أحرفاً فالإجماع على أن التوسعة لم تقع فى تحريم حلال ولا تحليل حرام ولا فى تغيير شيء من المعانى المذكورة » .

ولعلك على ذكر من مقالة الإمام الزهرى التى ذكرناها فى صدر البحث من حديث مسلم .

٤ - هذا القول يلزم منه رد كل الأحاديث الصحيحة التى قدمناها فى صدر البحث والتى تدل على اختلاف الصحابة ، ورفع الأمر إلى

الرسول ، وإقرار كل واحد على قراءته وحرفه ، إذ مستحيل أن يقر النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ الأمر نهيًا ، أو النهي أمرًا ، أو قرأ بدل الأمثال أحكامًا ، ومن قرأ بدل الأحكام أمثالا . وهكذا . وهو أمر ننزه عنه أى عاقل . فضلا عن أعقل العقلاء .

ورد كل هذه الروايات الصحيحة الموثوق بها لاجل رواية ضعيفة ليس من قواعد البحث العلمى الصحيح فى شىء : ولعل فى حمل هذا الحديث على ما ذهب اليه البيهقى . والقاضى الباقلانى ما يربأ بالقائلين بهذا القول عن هذه السقطة التى لا لعالم منها^(١) وهو ما يلىق بحالهم كعقلاء . فإذا كان هذا مقصدهم فقد كفانا الله وإياهم شر الجدال والنزاع .

أقوال أخرى

وهناك أقوال أخرى فى بيان الاصناف السبعة وإليك بعضها (٧) :
ف قيل : وعد ووعد وحلال وحرام ومواعظ وأمثال واحتجاج .
وقيل : محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وخصوص وعموم وقصص .
وقيل إظهار الربوبية : وإثبات الوجدانية وتعظيم الألوهية والتعبد لله وبجانبه الإشراف والترغيب فى الثواب والترهيب من العقاب .

وقيل لأنها فى أسماء الرب مثل : الغفور الرحيم ، السميع العليم ، العليم الحكيم وهكذا يعنى فى إبدال بعضها ببعض .

وكلها أقوال باطلة وليس عليها أثارة من علم أو برهان ومردودة بما رددنا به القول العاشر .

(١) يقال : لا لعاً لفلان أى لا إقالة لعثرته :

(٢) ومن أراد استقصاء هذه الآراء الزائفة فليرجع إلى الاتقان ١-

وإن لنا لوقفه عند هذا رأى الأخير ، المجوز لتبديل فواصل الآى بعضها ببعض مما هو من صفات الرب ، فإن هذا خلاف الإجماع ، ويؤدى إلى ذهاب بعض الإعجاز ، فإن من أعجاز القرآن . هذا التناسب والترابط القسوى بين الآية وخاتمتها ، فلو جاز إبدال خاتمة بأخرى لعاد بالخلل على إعجاز القرآن .

قال القاضى عياض - نقلا عن المازرى - قال : « وقول من قال . المراد خواتيم الآى فيجعل مكان « غفور رحيم » سميع بصير ، فاسد أيضا للإجماع على منع تغيير القرآن للناس (١) .

إزالة شبهة فى هذا المقام :

فإن قيل : فما تقول فيما ذكره « السيوطى » فى الإتيان (٢) . حيث قال « وعند أبى داود (٣) عن أبى قلت . سميعا عليما ، عزيزا حكيما مالم تخلط آية عذاب برحمة ، أو رحمة بعذاب .

وعند أحمد من حديث أبى هريرة : « أنزل القرآن على سبعة أحرف . عليما حكيما ، غفورا رحيمًا ، وعنده أيضا من حديث عمر : « بأن القرآن

(١) شرح الزووى على صحيح مسلم ٦٢ ص ١٠٠

(٢) الاتقان ١٢ ص ٤٧

(٣) فى سنن أبى داود باب « أنزل القرآن على سبعة أحرف » قال : حدثنا أبو الوليد الطيالسى أخبرنا همام بن يحيى ، عن قتادة ، عن يحيى بن يعمر ، عن سليمان بن صرد الخزاعى ، عن أبى بن كعب قال : قال النبى - صلى الله عليه وسلم - . يا أبى إني أقرئت القرآن - فقبل لى - . على حرف أو حرفين فقال الملك الذى معى . قل على حرفين . قلت . على حرفين . فقبل لى . على حرفين أو ثلاثة فقال الملك الذى معى . على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف . ثم قال . ليس منها إلا شافه كاف . إن قلت . سميعا عليما ، عزيزا حكيما مالم تختتم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب . .

كله صواب ، ما لم تجعل مغفرة عذاباً ، وعذاباً مغفرة ، قال ، أسانيدھا جیاد .

قلت : علی فرض ثبوت الروایات قد تأول العلماء هذه الأحادیث علی غیر ظاهرها . لوجود الصارف لها ، وهو ما قدمناه من الإجماع علی عدم جواز ذلك .

قال الإمام ابن عبد البر - فی رواية أنى داود - : إنما أراد ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن علیها . أنها معان متفق مفهوما ، مختلف مسموعا^(١) ، لا يكون فی شيء منها معنى وضده ، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافاً ینفیه ویضاده كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضده .

وقال القاضي أبو بكر الباقلانی : وهذه أيضا سبعة غیر السبعة التي هي وجوه وطرائق ، وغیر السبعة التي هي قراءات ووسع فيها ، وإنما هي سبعة أوجه من أسماء الله تعالى . وإذا ثبتت هذه الرواية - رواية أنى - حمل علی أن هذا كان مطلقاً ثم نسخ ، فلا يجوز للناس أن یبدلوا أسماء الله فی موضع بغيره بما یوافق معناه أو یخالفه^(٢) . وهو تأویل كما ترى .

وشكك فی صحتها بعض العلماء فقال صاحب التبیان^(٣) . وكأن بعض الحفاظ ینكر صحة هذه الرواية ، فإنه قال - فی إثبات ما ذهب إليه من عدم جواز الرواية بالمعنى - . وبرهان ذلك : أن النبی - صلی الله علیه وسلم - علم « البراء بن عازب » دعاء ، وفيه . « ونيك الذي أرسلت » فلما أراد البراء أن يعرض ذلك الدعاء علی النبی - صلی الله علیه وسلم - قال . « ورسولك الذي أرسلت » فأمره - علیه السلام - أن لا يضع « رسول » فی موضع لفظه « نبی » ، وذلك حق لا یحیل معنى وهو - علیه السلام -

(١) يريد أنها دالة علی ذات واحدة وإن اختلفت ألفاظها .

(٢) مقدمتان فی علوم القرآن ص ٢٦٧ .

(٣) التبیان ص ٥٨ .

رسول ونبي ، فكيف يسوغ للجهال المغفلين أن يقولوا . إنه عليه السلام - كان يجيز أن يوضع في القرآن مكان عزيز حكيم ، غفور رحيم ، أو سميع عليم . وهو يمنع من ذلك في دعاء ليس قرآناً ، والله يقول - مخبراً عن نبيه - . « ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي » ، ولا تبديل أكثر من وضع كلمة موضع أخرى .

أقول . وما ينبغي أن يعلم أن مخالفة المروى للقرآن أو لما اشتهر من السنة أو لإجماع العلماء مما يقلل الثقة بالرواية ويجعلها في عداد الروايات الواهية التي لا يحتاج بها .

وأما رواية أبي هريرة فليس فيها ما يدل على وضع أحدهما مكان الآخر . والظاهر . أن المراد بالحرف في هذا الحديث غيره في حديث نزول القرآن على سبعة أحرف المشهور ، فالمراد به هنا : سبعة أوجه من أسماء الله تعالى ، وبمثل هذا قال القاضي الباقلاني في الحديث السابق .

وأما حديث « عمر » ، فليس فيه ما يدل على جواز إبدال فاصلة بأخرى ، ومراد النبي بقوله . إن القرآن كله صواب « يعنى في حدود المنزل من عند الله على نبيه ، وما تلقاه المسلمون عن النبي ، فهو مثل قوله - صلى الله عليه وسلم - في الرواية الأخرى . فأى حرف قرءوا عليه ، فقد أصابوا .

والدليل على أن هذا التأويل هو المتعين في حديث « عمر » ، هي القصة التي ورد بسببها هذا القول . ذلك أن « عمر » (١) اختصم مع آخر بسبب قراءة كلمة من القرآن فذهبوا إلى النبي ، فصوب قراءتهما ، وبين أن السكل من عند الله ، فدخل قلب « عمر » من ذلك شيء ، فغضب النبي في صدره وقال : أبعد شيطاناً . ثم قال . يا عمر ، القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذاباً . الخ ، ويكون المقصود بقوله « ما لم تجعل » الخ ، النهي عن

(١) فتح الباري ج ٩ ص ٣١ ، تفسير الطبري ج ١ ص ١٠ .

وضع شيء ما موضع آخر من غير نظير إلى تخصيص ذلك بالرحمة والعذاب.
إزالة شبهة أخرى:

فإن قال قائل : لقد ذكرت في صدر المبحث استنتاجاً من الروايات الحديثة : أن التوسعة في الأحرف إنما كانت في حدود المسموع عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم .. وأكثر من تثبيت هذا المعنى في تضايف كلامك .. فما تقول فيما ورد من آثار ظاهرها يفيد جواز إبدال اللفظ القرآني بآخر - وإن لم يسمع - ما دام المعنى واحداً ؟ مثل ما روى عن ابن مسعود : أنه علم رجلاً قوله تعالى : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » فقال الرجل : طعام اليتيم . فأعاد عليه ابن مسعود الصواب ، وأعاد الرجل الخطأ ؛ فلما رأى « ابن مسعود » أن لسان الرجل لا يستقيم على الصواب قال له : أما تحسن أن تقول طعام الفاجر قال بلى . قال فافعل . وروى عن أبي الدرداء مثل ذلك وما رواه الأعمش قال : قرأ أنس ابن مالك . « إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأصوب قيلاً » فقليل له : إنها وأقوم قيلاً ، فقال : أقوم ، وأصوب ، وأهيا واحداً . وكذلك روى أن أبا سوار الغنوي كان يقرأ : « فحاسوا خلال الديار » (١) - بالحاء غير المعجمة فقليل له : إنما هي « فحاسوا » فقال : « فحاسوا وجاسوا واحداً » .

والجواب : إن هذه الروايات وما شابهها مصروفة عن ظاهرها لاحالة ؛ لوجود الأدلة القطعية من القرآن والسنة الصحيحة على عدم جواز تبديل كلمة بأخرى في معناها ، من غير توقيف وسماع .

وأيضاً فقد أجمع علماء الأمة على هذا ، وإن شذ عن هذا الإجماع مفسر (٢) ، ونحوي (٣) فاعتبرا بظاهر الروايات ، وهو قول ساقط عن الاعتبار

(١) الإسراء آية ٥ .

(٢) هو الزمخشري أنظر تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٦٣

(٣) هو ابن جنى أنظر تفسير الفخر الرازي ج ٨ ص ٣٣٧ .

إذا قيس بإجماع العلماء المحققين الجامعين بين المعقول والمنقول ، وكأني بك تقول : إذا كانت الروايات مصروفة عن ظاهرها لا محالة . . فما المراد منها إذا . . ؟

قلت : لك في ذلك طريقان . . وإليك البيان .

١ - إما أن نقول : إن هذه كانت أحرفاً يقرأ بها ، وكانت منزلة من عند الله للتوسعة على العرب في أول الأمر ، ثم نسخت فيها نسخ في العرصة الأخيرة التي عرضها جبريل على النبي - صلى الله عليه وسلم - .

أو أنها تنوسيت وانثرت فيما تنوسى وانثرت من الأحرف الستة ، غير حرف قریش الذي جمع عليه عثمان المصاحف وعلى هذا يكون ابن مسعود قد سمع القراءة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فلما تعذر على الرجل أحدهما قرأه الأخرى ، وكذلك « أنس » سمع كلا من اللفاظ الثلاثة ، وأبو سوار العنوي سمع كلا من اللفظين .

وقد قرأ « فحاسوا » - بالحاء - أبو السمال ، وطلحة بن مصرف بما يدل على أنها منزلة وليست بالهوى .

٢ - وإما أن يقول : « إن ما جاءت به الروايات تفسير وتوضيح للفظ القرآن ، فابن مسعود لم يرد اقراء الرجل لفظ القرآن ، وإنما أراد توضيح المعنى له ؛ كي يكون ذلك وسيلة إلى النطق بالصواب ، وهو اللفظ القرآني المتلقى عن الرسول . وذلك أن ابن مسعود بين أمرين ، إما أن يدعه يقرأ لفظ « اليتيم » فيكون في ذلك إخلال باللفظ وإفساد للمعنى ، وفي ذلك ضرران محققان ، وأمران محظوران ؛ وإما أن يقرئه المعنى بلفظ يستقيم به لسانه ؛ فيستقيم المعنى ، ويبقى الإخلال باللفظ ريثما يتسهل له النطق بالأصل ففيه ضرر واحد . ولا شك أن ارتكاب أخب الضررين ، وأهون

المحظورين - عند الضرورة - أولى من ارتكابهما معاً :

قال القرطبي في تفسيره^(١) - نقلاً عن أبي بكر الانباري - . . . ولا حجة في هذا للجهال من أهل الزيغ . أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره ؛ لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريباً للمتعلم ، وتوطئة له للرجوع إلى الصواب ، واستعمال الحق ، والتسكلم بالحرف على إنزال الله ، وحكاية رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

وقال صاحب الانتصاف تعقيبا على قول الزمخشري : « قال أحمد : لا دليل لذلك وقول أبي الدرداء محمول على إيضاح المعنى ، ليسكون وضوح المعنى ، ليسكون وضوح المعنى عند المتعلم عونا على أن يأتي بالقراءة كما أنزل على هذا حمله القاضي أبو بكر في كتاب « الانتصار » ، وهو الوجه . »

وكذلك أنس - رضى الله عنه - لم يرد أن هذا قرآن ، وإنما أراد توضيح المعنى ، وتفسير لفظ القرآن . قال الإمام الرازي في تفسيره^(٢) بعد أن ذكر رواية أنس ، واستدلال ابن جنى بها على الجواز : « وأنا أقول : يجب أن نحمل ذلك على أنه إنما ذكر تفسيراً للفظ القرآن ، لا على أنه جعله نفس القرآن ، إذ لو ذهبنا إلى ما قاله ابن جنى لرفع الإعتقاد عن ألفاظ القرآن ولجوزنا أن كل أحد عبر عن المعنى بلفظ رآه مطابقاً لذلك المعنى ، ثم ربما أصاب في ذلك الاعتقاد ، وربما أخطأ ، وهذا يجر إلى الطعن في القرآن ، فثبت أنه يجب حمل ذلك على ما ذكرنا . »

ومثل ذلك يقال في « فحاسوا » فهي تفسير للفظ القرآن « فحاسوا » وربما كانوا يفعلون ذلك في القرآن ؛ اعتماداً على أن اللفظ القرآني معروف

(١) ج ١٦ ص ١٢٩ .

(٢) ٨٣ ص ٢٢٧ .

ومتحقق ، ولا يأتى فيه الالتباس والاشتباه . على أن أمر أنس منقطع فلا يحتاج به ولا سيما فيما يتعلق بالقرآن وقراءاته .

وقال ابن الأنبارى (١) - بعد أن ذكر رواية الأعمش ، عن أنس - :
« وقد ترامى ببعض هؤلاء الزائغين إلى أن قال : من قرأ بحرف يوافق إذا لم يخالف معنى ، ولم يأت بغير ما أراد الله ، وقصد له . معنى حرف من القرآن ، فهو مصيب إذا لم يخالف معنى ، ولم يأت بغير ما أراد الله ، وقصد له . واحتجوا بقول أنس . وهو قول لا يعرج عليه ولا يلتفت إلى قائله . . . إلى أن قال : والحديث الذى جعلوه قاعدتهم فى هذه الضلالة لا يصح عن أحد من أهل العلم لأنه مبنى على رواية الأعمش ؛ عن أنس ، فهو مقطوع (٢) ليس بمتصل ، فيؤخذ به من قبل أن الأعمش رأى أنسا ، ولم يسمع منه . »

ولعلك بعد هذا البيان الشافى ازددت يقينا واطمئنانا إلى أن الإجابة فى أحرف القرآن وقراءاته ، إنما كانت فى حدود المسموع ، المتلقى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن جبريل عن رب العزة - جل وعلا - وأن هذا إجماع من العلماء المحققين المتثبتين .

« زعم باطل لبلاشير .. ورده »

وقد تلقف بعض المستشرقين هذه الرواية الباطلة التى عرضنا لها ، والروايات التى لها محامل صحيحة ، ولكنهم حرفوا معانيها إلى محامل باطلة فزعموا أنها تدل على جواز قراءة القرآن بالمعنى ، وهذه سمة معظم

(١) نف-ير القرطبى - ١٩٠ ص ٤٠ .

(٢) مراده منقطع بدليل ما بعده وبعض العلماء يطلق لفظ المقطوع على المنقطع ؛ أنظر مقدمة ابن الصلاح ص ٥١ . والمنقطع من قبيل الضعيف فلا يحتاج به فيما دون هذا ، فكيف يعول عليه فى مثل هذا ؟ !

المستشرقين : أنهم يصححون الموضوع ، ويحرفون الصحيح عن معناه كي
تساعدهم على أغراضهم من الطعن في القرآن الكريم .

ومن هؤلاء د بلاشير ، في كتابه د المدخل إلى القرآن ، وفي ترجمته
للقرآن التي أقحم فيها على النص القرآني بعض الآيات الموضوعات (١) ،
وها هو بلاشير يعرض زعمه في موضوع ، القراءة بالمعنى ، قال : « خلال
الفترة التي تبدأ من مبايعة علي عام ٣٥ هـ حتى مبايعة الخليفة الأموي
الحامس د عبد الملك ، عام ٦٥ هـ كانت جميع الاتجاهات تتواجه ، فالمصحف
العثماني قد نشر نفوذه في كل البلاد إذ كان مؤيدا بنفوذ من شاركوا في
عمله ؛ وقد كانوا يشغلون مناصب مهمة في الشام وربما كان هذا هو الوقت
الذي نشأت فيه نظرية معينة ، تدل على أن إصلاح عثمان كان قد أصبح
ضروريا فبالنسبة إلى بعض المؤمنين لم يكن نص القرآن بحرفه هو المهم ،
ولأنما روحه ومن هنا ظل اختيار الوجه (الحرف) في القراءات التي تقوم
على الترادف المحض أمرا لا بأس ولا يثير الإهتمام هذه النظرية التي
يطلق عليها القراءة بالمعنى كانت دون شك من أخطر النظريات إذا
كانت تسلك تحديد النص إلى ؛ هوى كل إنسان (٢) .

ومن الغريب والمؤسف حقا أن يجيء بعد بلاشير رجل مسلم وهو

(١) فقد أدخل في ترجمته لسورة النجم بعد قوله تعالى أفرايتم
اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى السكم المذكور له الأنثى د هذه
العبارة المختلفة المدسوسة د تلك الغرائق العلا ، وإن شفاتهن لترتجي
اعتمادا على ذكرها في بعض كتب أسباب النزول التي لا يعتبر مؤلفوها
من المحدثين الذين يميزون بين الصحيح وغيره والتي زعموا أنها كانت سببا
في نزول قوله تعالى : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى
ألقى الشيطان في أمنيته . . . الآية وقد فندت ذلك من جهة العقل
والنقل في كتابي السيرة النبوية ؛ القسم الأول ص ٣٧٥ - ٣٨٧ ،
فليرجع إليه من يشاء (٢) المدخل ٦٩ - ٧٠ عن تاريخ القرآن للدكتور
عبد الصبور شاهين ص ٨٤ - ٨٥ .

الدكتور مصطفى مندور فيتابع أستاذه بلاشير على رأيه . بل ويزيد الطين بلة بما أضاف من تحركات أخرى فعمد فصلا في رسالة الشواذ ، - وهي رسالة تسكيمية لنيل درجة دكتوراه الدولة من كلية الآداب بجامعة باريس - بعنوان « القراءة بحسب المعنى » ، قال فيه : هنالك على الأخص نقطة وقع عليها اتفاق كثيرين هي أن القرآن ربما قرئ بأوجه كثيرة ، ولكن الأساس هو أن يحترم المعنى ، وقد أيدت نصوص كثيرة هذه الفكرة فينسب إلى عمر قوله : القرآن كله صواب ما لم يجعل عذاباً ، أو عذاباً مغفرة ثم ذكر نصوصاً لا تشهد لما أدعاه ثم قال : « من هذه الوجوه التفسيرية نشأت فكرة « القراءة بحسب المعنى » وهناك أمثلة ترينا إلى أي حد تبع المؤمنون كلام الله بحرفه . . . » ثم بسوق أخبار يستدل بها على انتشار هذه النظرية في المجتمع الإسلامي فيقول : « وقد علم عمر بن عبد العزيز أن رجلاً كان يقرأ القرآن فيقلب نظام الآيات فلما قوطع في قراءته ادعى أنه لا ذنب في هذا ولا جريرة ما دام يذكر كل النص ، في أي نظام ، كما روى أن مسلماً آخر استبدل بعض الكلمات بمصادفاتها ، ثم ذكر مرجعاً له كتاب الأغاني (ج ٣ ص ٦١) ، وما هو فيه ، ولعله اعتمد فيما نقله على بعض كتب الأدب ككتاب ومحاضرات الأدباء ، وأمثاله من الكتب ^(١) التي لا اعتداد بها في باب الرواية عند العلماء المحدثين الأصلاء في النقد ، والذين إليهم المرجع في معرفة الغث من السمين والصحيح من الضعيف من الموضوع المختلق على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الصحابة رضوان الله عليهم .

والرد على هذه المزاعم

وإليك الرد على هذه المزاعم التي زعمها « بلاشير » ومتابعة « مندور » ، لا تثبت أمام النقد العلمي الزية ومعظمها روايات باطلة المعنى وإهية الإسناد والاعتماد على أمثال هذه الروايات التي ليس لها زمام ولا خطام تجن على

(١) رسالة الشواذ للدكتور مندور ص ١١٣ وما بعدها نقل عن كتاب « تاريخ القرآن » ص ٨٦ ، ٨٧ وقد يعقب الدكتور عبدالصبور شاهين بلاشير وتليذه مندور في ما زعماه ، وفند ما ارتأياه ، وأبان عن أن منهجهما ليس بمنهج علمي صحيح . (١٤٢ - لدخل)

العلم وعلى الحقيقة ، ولولم يكن في نقد هذه المرويات إلا أنها مخالفه للعقول وما صح من المنقول ، وما أجمع عليه المسلمون من عهد الصحابه إلى يومنا هذا ما هو منقول نقلا متواترا ، لا يتطرق إليه الشك والارتباك ، لكني فإياك وهى معلوله الأسانيد وصدق ابن الجوزى الناقد حيث قال :
« ما أحسن قول القائل :

كل حديث رأيت مخالفه للعقول ، وتناقض الأصول ، وتباينه النقول فاعلم أنه موضوع ، وقد عرضنا لهذه المرويات آفا ، وبيننا أن معظمها لا يصح للاحتجاج به ، وبعضها على تسليم صحته فله خارج صحيحه

٣ - إن مثل هذه البحوث التى تتعلق بكتاب الله ، الذى توفرت له كل وسائل الثبوت واليقين والتحوط البالغ لسلامه النص من التحريف والتبديل والتغيير لا يجوز ولا يليق بباحث أن يعتمد فيها على روايات تذكر فى كتب الأدب أو التاريخ ، أو يتدربها بعض الناس فى مجالسهم من غير أن يكون لها أسانيد ثابتة ، ولكن المستشرقين وأبواقهم فى سبيل تحقيق مزاعمهم يصححون الضعيف ، ويعتمدون على المكذوب ، على حين نجدهم يضعفون الصحيح من الأحاديث ولا حامل لهم فى هذا وذاك . إلا الهوى والتشهى والتجنى الاثم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى القرآن الكريم .

٣ - إن هذه التوسعه فى الحروف السبعة لم تكن بالهوى والتشهى وإنما كانت فى حدود المنزل من عند الله بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم عقب سماعه قراءة كل من المختلفين « هكذا أنزلت ، وقد نهت على ذلك آفأ فكن على ذكر منه .

٤ - إن للبحث العلمى الصحيح الذى يكون القصد منه إصابه الحق والصواب يلزم الباحث النزيه فيما إذا وردت روايات متعارضه أن ينقدها

من ناحية السند - النقد الخارجي - ومن ناحية المتن - النقد الداخلي - ولا يزال يمحس الروايات ، ويوازن بينها مع ملاحظه ما يوافق البيته منها ، وما لا يوافق ، حتى يهتدى إلى الحق والرشاد ، أما أن يأخذ ما يشاء على حسب هواه فتلك خيانة للبحث العلمي الصحيح ، ثم إن جاز هذا من باحث متعصب « كبلال شير » فكيف جاز ذلك من باحث مسلم كمصطفى مندور ؟ !! .

هـ - أن المعول عليه في حفظ القرآن الكريم هو التلقى الشفاهي فعن النبي صلى الله عليه وسلم تلقاه ألاف الصحابة العدول الضابطين ، وعن الصحابة تلقاه ألاف الألاف من التابعين ولم يكن المعول عليه في الحفاظ الصحف أو المصاحف وإنما كانت الكتابة في الصحف والمصاحف لزيادة التوثق والاطمئنان ولا يزال الاعتماد في حفظ القرآن على الشيوخ الحافظين المتقنين إلى يومنا هذا وهذا القرآن المكتوب في المصاحف ثبت بحفظ الألاف الذين لا يحصيهم العدو وأجمع عليه المسلمون في كل عصر وقطر ، فكل ما جاء من روايات مخالفه مخالفته صريحه أو ضمنية فاضرب بهذه الروايات عرض الحائط ، وارم بهما دبر أذنك فانها لا تساوى المداد الذي تكتب به . والروايات الأحادية وإن صحت لا تعارض ما ثبت بالتواتر ، فما بالك إذا كانت الروايات الأحادية ضعيفة .

٦ - في كلام « بلاشير » ومتابعة (مندور) تناقض ودعوى واقتراضات لم يقيم عليها دليل فمن ذلك ما ذكره بلاشير ، من أن مصحف عثمان قد بسط نفوذه ... فكيف يتفق هذا وقوله (فبالنسبة إلى بعض المؤمنين لم يكن نص القرآن بحرفه هو المهم ؟) ثم كيف ضرب عن الروايات الصحيحة المتكاثرة صفحاً وزعم أن نظرية القراءة بالمعنى كانت تكمل تحديد النص إلى (هو كل انسان) ؟ ! .

ثم ما قيمة التخمينات والافتراضات في بحث يتصل بكتاب يعتبر عند

المُتَصِفِينَ خَيْرَ الْكُتُبِ السَّامِيَةِ وَأَفْضَلُهَا بِلِ الْإَرْضِيَّةِ ؟ ثُمَّ أَيْنَ النُّصُوصُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي أُيِّدَتْ فَرِيَّةُ «قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالْمَعْنَى» بِإِدِّ كُتُورِ مَنْدُورٍ وَمَا ذَكَرَتْ إِلَّا بَعْضُ نَصُوصٍ ضَعِيفَةٍ مُتَهَالِكَةٍ مُتَهَافَتَةٍ ، وَقَعَتْ عَلَيْهَا فِي كُتُبِ الْإِدْبِ وَنَحْوِهَا الَّتِي لَا أُعْتَبَرُهَا فِي مُوَازِينِ أَهْلِ النُّقْدِ وَالرَّوَايَةِ ؟ ثُمَّ مِنْ هُمُ الْكَثِيرُونَ الَّذِينَ زَعَمَتْ أَنَّهُمْ أَتَفَقَّوْا عَلَى جَوَازِ الْقِرَاءَةِ بِالْمَعْنَى ١١٤ وَصَدَّقَ الْقَائِلُ :
وَالِدَعَاوَى مَا لَمْ تُقِيمُوا عَلَيْهَا بَيِّنَاتٍ أَجَاؤَهَا أَدْعِيَاءُ .

جَمَلَةُ الْإِقْوَالِ فِي الْأَحْرَفِ السَّبْعَةِ

وَقَدْ بَلَغَ بِهَا «السِّيَوطِيُّ» - نَقْلًا عَنْ ابْنِ حِبَّانٍ - إِلَى خَمْسَةِ وَثَلَاثِينَ قَوْلًا ثُمَّ قَالَ : قَالَ ابْنُ حِبَّانٍ : فَهَذِهِ خَمْسَةٌ وَثَلَاثُونَ قَوْلًا لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَاللُّغَةِ فِي مَعْنَى إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ . وَهِيَ أَقَاوِيلُ يُشَبِّهُ بِبَعْضِهَا بَعْضًا ، وَكُلُّهَا مُحْتَمَلَةٌ وَبِحَتْمَلٍ غَيْرِهَا .

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُرْسِيُّ : « هَذِهِ الْوُجُوهُ أَكْثَرُهَا مُتَدَاخِلَةٌ ، وَلَا أُدْرِي مُسْتَنْدَهَا وَلَا عَمَّنْ نَقَلْتُ ؟ وَلَا أُدْرِي لِمَ خَصَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ هَذِهِ الْأَحْرَفَ السَّبْعَةَ بِمَا ذَكَرَ ؛ مَعَ أَنَّهَا كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ فِي الْقُرْآنِ ؛ فَلَا أُدْرِي مَعْنَى التَّخْصِيسِ ؛ وَمِنْهَا أَشْيَاءٌ لَا أَفْهَمُ مَعْنَاهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَأَكْثَرُهَا مُعَارَضَةٌ حَدِيثِ عُمَرَ ، وَهَشَامِ بْنِ حَكِيمٍ ، الَّذِي فِي الصَّحِيحِ ؛ فَإِنَّهَا لَمْ يَخْتَلَفْ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَلَا أَحْكَامِهِ وَلَئِنَّمَا اخْتَلَفَا فِي قِرَاءَةِ حُرُوفِهِ . وَقَدْ ظَنُّ كَثِيرٌ مِنَ الْعَوَامِ ؛ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْقِرَاءَاتِ السَّبْعَ وَهُوَ جَهْلٌ قَبِيحٌ . »

أَمَّا مَا اسْتَشْكَلَهُ مِنْ حَدِيثِ «عُمَرَ» وَهَشَامٍ ، فَقَدْ بَيَّنَّا مُفْصَلًا الْحَقَّ فِيهِ بِمَا يَزِيلُ الْإِشْكَالَ وَيُطْمِئِنُّ الْقَلْبُ ، وَبِحَسْبِنَا مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْإِقْوَالِ فِي هَذَا الْمَقَامِ فَقَدْ أَعْرَضْنَا عَنِ الْقُشُورِ ، وَاکْتَفَيْنَا بِاللِّبَابِ .

(١) مُرَادُهُ مُنْقَطِعٌ بِدَلِيلٍ مَا بَعْدَهُ وَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ يُطْلِقُ لَفْظَ الْمُتَقَطِّعِ عَلَى الْمُنْقَطِعِ .
« أَنْظِرْ مُقَدِّمَةَ ابْنِ الصَّلَاحِ ص ٥١ ، وَالْمُنْقَطِعُ مِنْ قَبِيلِ الضَّعِيفِ فَلَا يَحْتَاجُ بِهِ فِيهَا حُجُونَ هَذَا ، فَكَيْفَ يَمُورُ عَلَيْهِ فِي مِثْلِ هَذَا ١٤ »

موقف الشيعة من حديث الأحرف السبعة

أما موقف الشيعة من حديث «نزل القرآن على سبعة أحرف» ، فكانوا على فريقين فمنهم من يرى صحة الحديث ، ولم يطلعن فيه ، وذكر بعض الوجوه في تأويله ، ويمثل هذا الفريق الأستاذ الشيخ أبو عبد الله بن الميرزا نصر الله الزنجاني — رحمه الله — في كتابه «تاريخ القرآن» فقد ذكر بعض الأحاديث التي رواها البخاري وغيره في هذا الباب ، ثم قال : «دلت هذه الروايات على أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن بعض عظماء الصحابة ، ويهتم بأن يحفظوه حتى قال لأبي : «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ...» ، ودلت أيضاً على أن الصحابة كانوا يهتمون بحفظ نصوص الآيات بحيث كان زيادة حرف «واو» ونقصيتها أمراً مبهتاً به مع أن ذلك لا يغير المعنى كثيراً ، وكذلك عرض لبيان المراد بالأحرف السبعة ، ومال إلى ما رآه الإمام محمد بن جعفر بن جرير الطبري في تفسيره^(١) وهو ما رجحنا آنفاً .

ويمثل الفريق الثاني — وهم الأكثر — السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي في كتابه «البيان في تفسير القرآن» ،^(٢) فقد عرض لبعض الروايات الثابتة الصحيحة التي ذكرناها في صدر البحث وقد حاول أن يثبت أنها أحاديث مضطربة متناقضة وأنها ضعيفة الأسانيد من غير أن يقيم على ذلك بينة غير أنها واردة من طرق أهل السنة فهي مرفوضة في نظره وهي أيضاً مخالفة لصحيحه زرارة بن أعين عن أبي جعفر قال : «إن القرآن واحد ، نزل من عند واحد ، ولكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة» ، وأن الصادق عليه السلام حكم بكذب الرواية المشهورة بين الناس «نزل القرآن على سبعة أحرف» ، وقال : «ولكنه نزل على حرف واحد من عند الواحد» .

(١) تاريخ القرآن الزنجاني من ص ٣٥ - ٣٨

(٢) البيان ج ١ ص ١١٩ وما بعدها عن «تاريخ القرآن» ،

ولأدرى كيف يستسيغ إخواننا الشيعة أن يردوا حديثا متواترا عن
عن النبي صلى الله عليه وسلم برواية واحد وعشرين صحابيا عدولا ضابطين ،
بروايات مقطوعة^(١) على التابعين ، ومن بعدهم ، وليس مرفوعة إلى النبي
صلى الله عليه وسلم ، ولا موقوفة^(٢) على الصحابي ومهما بلغ شأن التابعي
أو تابع التابعي فلن تبلغ روايته مبلغ الرواية المسندة إلى النبي صلى الله عليه
وسلم ولا تصلح أن تكون معارضة لها بل لو وردت رواية عن بعض الصحابة
وورد عن النبي ما يخالفها أخذنا بالرواية المرفوعة ورفضنا الموقوفة ، وهذا
هو المنهج الصحيح الذي لا ينبغي أن يختلف شيعي أو سني وهذا هو المنهج العلي
الصحيح الذي وضعه أئمة هذا العلم النبوي في كل عصر ومصر من لدن الصحابة
إلى يومنا هذا .

وماذا نملك للشيعة مادام مذهبهم رفض كل المرويات التي رويت في
كتب أهل السنة مهما بلغت من الصحة ، وثقات روايتها ١١٩ إذا عارضت
ماروى عن أهل البيت .

يقول السيد الخوئي : « ولا قيمة للروايات إذا كانت مخالفة لما يصح
عنهم (أى عن أهل البيت) ولذلك لا يهمنا أن نتكلم عن أسانيد هذه
الروايات ، وهذا أول شيء تسقط به الرواية عن الاعتبار والحجية ، (٣) وهذا
المبدأ أبعد ما يكون عن المنطق والصواب فأى راو مهما بلغ من العلم أو النسب
غير معصوم ، ومادام الأمر كذلك فلتوزن هذه الروايات وغيرها بالميزان
الذي وضعه دأئمه الجرح والتعديل ، وليتعرف صحيحها من سقيمها من
موضوعها بالقواعد التي وضعها أئمه أصول الحديث ، والتي تعتبر د ميزان
المنقول ، كما اعتبر المنطق د ميزان المعقول والى تكون على بينه ما ذكره السيد
الخوئي ومنزلته من الحق والصواب أذكر لك بعض المثل مما انتقده المرويات

(١) المقطوع : هو ماروى عن التابعين من أقوالهم وأفعالهم

(٢) الموقوفة . هو ماروى عن الصحابة من أقوالهم وأفعالهم

(٣) البيان ١ - ص ١٢٣

يقول : « فن التناقض أن بعض الروايات دل على أن جبريل أقرأ النبي على حرف فاستزاده النبي -فراذه ، حتى انتهى إلى سبعة أحرف ، وهذا يدل على أن الزيادة كانت بالتدريج ، وفي بعضها أن الزيادة كانت مرة واحدة في المرة الثالثة ، وفي بعضها أن الله أمره في المرة الثالثة أن يقرأ القرآن على ثلاثة أحرف ، وكان الأمر بقراءة سبع في المرة الرابعة ، وفي الحق أن هذا لا يعد تناقضا ولا اضطرابا ترد به الروايات لأن إمكان الجمع بينهما سهل يسير لجواز أن لا تكون هذه الأحاديث في قصة واحدة ، بل تكون في أوقات متعددة ، أما كون ذلك وقع في المرة الثالثة أو الرابعة فذلك يرجع إلى أن بعض الرواة قد يقتصر على بعض المرات ، والبعض يستوفي المرات ، وقد علقنا على الروايات فيما سبق بنحو ذلك على أن الأمور اليسيرة السهلة لا تظعن في صحة الحديث نفسه مادامت الروايات كلها في النهاية تتفق على ذلك . وكل ما ذكره من تناقض أو اختلاف فهو أهون شأننا من هذا .

أما الطعن في الحديث بأن الزيادة على الحرف الواحد إنما جاءت من الرواة ، فلا أدري أنصده فيما زعم ، ونرفض ما رواه الأئمة العدول الضابطون ، وما يسكاد تجمع عليه الأمة سلفها وخلفها من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا ؟ ! وفيهم الصحابة الاجلاء ، والأئمة العلماء الذين حكموا بتواتر هذا الحديث ، ومعروف أن الحديث المتواتر يفيد القطع واليقين في نسبته إلى قائله ! ! والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف...؟

اختلف العلماء في ذلك على أقوال ثلاثة :-

١ - مذهب إليه الطبري ، ومن وافقه على رأيه في الأحرف السبعة : إلى أن المصاحف تشتمل على حرف واحد منها ، وهو حرف قریش ، الذي جمع عثمان عليه المصاحف . قال الحافظ ابن حجر في الفتح : « وهو المعتمد ، وهذا الرأي هو الذي يوافق مذهب إليه الطبري وموافقوه في الأحرف السبعة ، وبسطناه فيما سبق غاية البسط : وهو مذهب المحققين .

٢ - ومذهب جماعة من الفقهاء والمتكلمين إلى أنها مشتملة على جميع الأحرف السبعة ، وقالوا : إنه لا يجوز على الأمة أن تهمل نقل شيء منها ، وقد أجمع الصحابة على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التي كتبها أبو بكر ، وكانت بجميع الأحرف السبعة ، وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك .

وقد أجيب عنه : بما ذكره ابن جرير : من أن القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة ، وإنما كان جائزاً لهم ، ومخصاً لهم فيه ، فلما رأى الصحابة أن الأمة قد تفرقت وتختلف إذا لم يجمعوا على حرف واحد اجتمعوا على ذلك إجماعاً شائعاً ، وهم معصومون من الضلالة ؛ ولم يكن في ذلك ترك واجب ولا فعل حرام .

٣ - ومذهب جماهير من السلف والخلف إلى أنها مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي - صلى الله عليه وسلم - على جبريل متضمنه لها ، لم تترك منها حرفاً واحداً . قال ابن الجزري . « وهذا هو الذي يظهر صوابه » . قلت لأنه هو الذي يوافق اختياره في الأحرف السبعة .

قال في الفتح - بعد ذكر بعض هذه الأقوال - : « والحق أن الذي جمع في المصحف هو المتفق على إنزاله . المقطوع به ، المكتوب بأمر النبي - صلى الله

عليه وسلم - وفيه بعض مما اختلف فيه الاحرف السبعة لا جميعها . كما وقع في المصحف المكي : « تجرى من تحتها الأنهار » في آخر سورة « براءة » . وفي غيره بحذف « من » ، وكذا ما وقع فيه من اختلاف مصاحف الأمصار من عدة « واوات » ، ثابتة في بعضها دون بعض ، وعدة « هاءات » ، وعدة « لامات » ، ونحو ذلك . وهو محمول على أنه نزل بالأميرين معا ، وأمر - النبي صلى الله عليه وسلم - بكتابه لشخصين ، أو أعلم بذلك شخصاً واحداً أو أمر بإثباتهما على الوجهين . وما عدا ذلك مما لا يوافق الرسم ، فهو بما كانت القراءة جوزت به توسعة على الناس وتسيلا ؛ فلما آل الحال إلى ما وقع من الاختلاف في زمن « عثمان » ، وكفر بعضهم بعضا .. اختاروا الاقتصار على اللفظ المأذون في كتابته ، وتركوا الباقي .

وقال البغوي « في شرح السنة » : « المصحف الذي استقر عليه الأمر هو آخر العروضات على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأمر عثمان بنسخته في المصاحف وجمع الناس عليه ؛ وأذهب ماسوى ذلك . قطعاً للمادة الخلاف : فصار ما يخالف المصحف في حكم المنسوخ والمرفوع كسائر ما نسخ ورفع ؟ فليس لاحد أن يعدو في اللفظ الى ما هو خارج عن الرسم » .

والتحقيق : أن كون المصاحف مشتملة على الاحرف السبعة أو بعضها متوقفه على معرفة المراد بالاحرف السبعة ، فمن قال ان المراد به سبع لغات في كلمة واحدة . تختلف فيها الألفاظ مع اتفاق المعاني كابن جرير ، ومن وافقه قال . ان ما بقى في المصاحف منها هو حرف قریش

ومن قال : ان المراد بالاحرف السبعة : الوجوه التي يرجع اليها اختلاف على ما ذهب اليه ابن قتيبة ، ومن لف لفه . قال : ان المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رعم المصحف منها . بمعنى ؛ أنها اشتملت من كل واحد منها على ما وافق رسم المصحف منه ، لم تخل عن وجه منها بالسكية ، وان كان بعض هذه الوجوه قد نسخ بعضه .

وقد تكفل ببيان ذلك تفصيلاً أحد كبار العلماء (١) الكاتبين في هذا الموضوع .

وبما ينبغي أن يعلم . أن غالب ما يمثل به هذا الفريق للأحرف السبعة إنما هو في نظر الفريق الأول فريق الطبرى ، ومن تبعه - قراءات لأحرف فهم يرون : أن القراءات ترجع إلى الحروف ، وهى منها ، وليست عنها ، مما يجعل الباحث غير مطمئن إلى الاحتكام إلى ما هو موجود فى المصاحف العثمانية فى الواقع ، ونفس الأمر اليوم .

يوضح ذلك ما أخرجه ابن أبى داود فى المصاحف عن أبى الطاهر ابن أبى السرح قال : سألت سفيان بن عيينة عن اختلاف قراءة المدنيين والعراقيين . هل هى الأحرف السبعة ؟ قال : لا ، وإنما الأحرف السبعة مثل : هلم ، وتعال ، وأقبل . أى ذلك قلت أجزأك : قال لى ابن وهب : مثله (٢) .

وبعد . فلعلنا بعد هذا المطاف الطويل نكون قد وفقنا إلى عرض هذا البحث عرضاً علمياً صحيحاً خالياً من التعصب لأحد ، أو التحيف على آخر إلا ما دل عليه الدليل وقامت الحاجة .

ولعلك - أيها القارئ - تكون قد اقتنعت بما اقتنعنا به : من أنه الحق والصواب فى بيان المراد بالأحرف السبعة ، وإلا .. فأنت واختيارك فقد عرضنا الأقوال وذكرنا ما لها وما عليها .

والحمد لله الذى وفقنا إلى ما اتهمنا إليه ؛ فى هذا المبحث العويص ، الشائك ، وبيان الحق فى الروايات الموهمة المشكلة ، التى زلت أقلام بعض العلماء بسببها وما توفيق إلا بالله : عليه توكلت وإليه أنيب .

(١) الكلمات الحسان : ص ١٤ - ١٧

(٢) فتح البارى ج ٩ ص ٢٤

المبحث السادس

المكي والمدني

معرفة المكي والمدني من المباحث المهمة التي يحتاج إليها المفسر لكتاب الله ومن نصب نفسه للاجتهاد والفتيا والقضاء كي يمكنهم التوصل إلى الحق والصواب قال أبو القاسم الحسن بن بن حبيب النيسابوري في كتابه التنبيه على فضل علوم القرآن ، من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة والمدينة ، وما نزل بمكة وحكمه مدني وما نزل بالمدينة وحكمه مكي ، وما نزل بمكة في أهل المدينة ، وما نزل بالمدينة في أهل مكة . وما يشبه نزول المكي في المدني ، وما يشبه نزول المدني المكي ، وما نزل بالبحرقة ؛ وما نزل ببیت المقدس ، وما نزل بالطائف بالحديبية ، وما نزل ليلا ، وما نزل نهـاراً ، وما نزل مشيعاً ، وما نزل مفرداً ، والآيات المدنيات في السور المكية ؛ والآيات المكيات في السور المدنية ؛ وما حمل من مكة إلى المدينة ، وما حمل من المدينة إلى مكة ، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة ، وما نزل بجحلا ، وما نزل مفسراً وما اختلفوا فيه فقال بعضهم مكي ، فهذه خمسة وعشرون وجهاً من لم يعرفها ويميز بينها ، لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى ، (١) . قال السيوطي : وقد أشبعت الكلام على هذه الأوجه فمنها ما أفردته بنوع ومنها ما تكلمت عليه في ضمن بعض الأنواع .

وقد أفرد المكي والمدني بعض العلماء ، كمكي والعز الدريني ، وليس من شأننا في هذا البحث تتبع الجزئيات واستقراء السور والآيات المكية والمدنية فذلك بالتأليف المستقل الصق وإنما قصدنا ذكر أحكام كلية وسمات وخصائص

للمسكى والمدنى ومعارف متصله بهما من شأنها أن تنير الطريق لدراس القرآن ورد الشبه التي أورها على المسكى والمدنى بعض المبشرين والمستشرقين ومتابعيهم من الكتاب المعاصرين .

فرائد العلم بالمسكى والمدنى . ومن فوائد العلم بها :

- ١ — أنه يعرف به الناسخ والمنسوخ فيما لو وردت آيتان متعارضتان وإحداها مكية والآخرى مدنية فإننا نحكم بنسخ الثانية للأولى لتأخرها عنها ،
- ٢ — أنه يعين على معرفة تاريخ التشريع والوقوف على سنة الله الحكيمه في تشريعه وهى التدرج في التمرينات بتقديم الأصول على الفروع والإجمال على التفصيل وقد أثمرت هذه السياسة التشريعية ثمرتها وعادت على الدعوة الإسلامية بالقبول والإذعان والانتشار .

الطريق إلى معرفة المسكى والمدنى .

والعمدة في معرفة المسكى والمدنى النقل الصحيح عن الصحابة الذين كانوا يشاهدون أحوال الوحي والتنزيل ، والتابعين الآخذين عنهم ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك قول ، وقد علل ذلك القاضي أبو بكر الباقلاني في الانتصار ، فقال : ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك قول : لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وأن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول ؛

ولعل التعليل : بأن المسلمين في زمانه صلى الله عليه وسلم لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان لأنهم يشاهدون الوحي والتنزيل ويشهدون مكانه وزمانه وأسباب نزوله - أولى من ذلك التعليل (١) .

وقد اشتهر بمعرفة المسكى والمدنى من الصحابة - رضوان الله عليهم -

عبد الله ابن مسعود - رضى الله تعالى عنه - روى البخارى بسنده عنه أنه قال : « والله الذى لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟ ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ؟ ولو أعلم أحداً أعلم منى بكتاب الله تبليغه إلا بل لركبت إليه ، وقال أيوب : سأله رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال : نزلت بسفح الجبل وأشار إلى سلع (١) . أخرجه أبو نعيم فى الحلية .

تعريف المكي والمدنى

للعلما فى تعريفهما اصطلاحات ثلاثة :

الاول : ما عليه جمهور العلما وهو : المكي ما نزل قيل الهجرة وإن كان نزوله بغير مكة ويدخل فيه ما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر الهجرة .

والمدنى : ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بغير المدينة ويدخل فيه ما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فى أسفاره بعد الهجرة كسورة الفتح فقد نزلت على النبى منصرفه من الحديدية .

وهذا الاصطلاح لوحظ فيه الزمان ، وعليه فقوله تعالى . « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » الآية مدنى وإن كانت نزلت بمكة والنبى صلى الله عليه وسلم فى جوف الكعبة عام الفتح ، وقولى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » مدنى وإن كانت نزلت بعرفة فى حجة الوداع وهذا التقسيم حاصر وضابط ومطرود إذ تنعدم على القول به الوساطة ولا يد عليه ما يقتضيه فلذا كان الراجح المقبول .

الاصطلاح الثانى : المكي ما نزل بمكة ويدخل ضواحيها كالمنزل عليه بمنى وعرفات والحديدية .

(١) بفتح السين وسكون اللام جبل بالمدينة .

والمدنى : ما نزل بالمدينة ويدخل في المدينة ضواحيها كالمنزل عليه بيدر وأحد وهذا الاصطلاح لوحظ فيه المكان ؛ ويرد على هذا التعريف أنه غير حاصر لأنه يثبت الواسطة فما نزل عليه بالأسفار لا يسمى مكيا ولا مدنيا وذلك مثل ما نزل بقبوك وهو قوله تعالى « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ، الآية (١) ومثل آية التيمم التي في سورة النساء . فأنها نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره (٢) .

الثالث : المكي ما وقع خطابا لأهل مكة والمدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة ، ويحمل على هذا ما نقل عن ابن مسعود أنه قال : « ما كان في القرآن — يا أيها الذين آمنوا — أنزل بالمدينة ، وما كان يا أيها الناس فبمكة : وما نقل عن ميمون بن مهران أنه قال : ما كان في القرآن يا أيها الناس أو يا بني آدم فإنه مكي ، وما كان يا أيها الذين آمنوا فإنه مدنى : وهذا الاصطلاح لوحظ فيه المخاطب ويرد على هذا الرأي أن التقسيم عليه غير حاصر فهناك آيات كثيرة جدا في القرآن الكريم ليس فيها يا أيها الناس ولا يا أيها الذين آمنوا كما يرد عليه أنه غير مطرد إذ هو منقوض بسورة البقرة المدنية ومفتتحها « يا أيها الناس اعبدوا ربكم ، وبسورة النساء المدنية ومفتتحها « يا أيها الناس اتقوا ربكم ، وبسورة الحج (٣) فإنها مكية عند جماعة من العلماء وفي أواخرها « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم » .

(١) التوبة ٤٣ (٢) الإتيان ج ١ ص ١٨ .

(٣) اختلف في هذه السورة فقبل أنها مكية ألا « هذان خصمان اختصموا في ربهم إلى سبع آيات » وقيل مدنية ألا قوله تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الآية » وقيل هي مختلطة فيها مكي ومدنى وهو قول الجمهور وعلى الثقاتين بأنها مكية أن يستثنوا أيضا قوله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا الآية » لأن فيها الاذن بالجهاد وهو لم يشرع إلا بالمدينة قطعا فلا اعتراض بهذه السورة بما يتجه على القول الأول .

قال الإمام الرازى فى تفسيره^(١) تعقيبا على هذا الاصطلاح الآخر : قال القاضى : أن كان الرجوع فى هذا إلى النقل فسلم وأن كان السبب فيه حصول المؤمنين بالمدينة على الكثرة دون مكة فضعيف إذ يجوز أن يخاطب المؤمنين بصفتهم وباسم جنسهم ويؤمر من ليس بتؤمن بالعبادة كما يؤمر المؤمن بالاستمرار عليها والازدياد منها فالخطاب فى الجميع ممكن : فإن قال قائل : أن مراد هؤلاء بمقاتلتهم هذه أن الغالب والكثير كذلك قلنا : أن ذلك لا يفيد فى التقاسيم والتعاريف إذ مبناها على الضبط والانحصار والاضطراب .

« أنواع السور المكية والمدنية »

القرآن الكريم على أربعة أنواع : (١) مكي خالص . (٢) مدنى خالص . (٣) مكي بعضه مدنى . (٤) مدنى بعضه مكي .
أما المكي الخالص فمثل سورة اقرأ والمدثر والقيامة ، وأما المدنى الخالص فمثل سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ، وأما المكي الذى بعضه مدنى فمثل سورة الأعراف فإنها مكية إلا قوله تعالى « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر » الآية^(٢) إلى خمس آيات أو ثمان بعدها فإنها مدنية ومثل سورة الإسراء فإنها مكية إلا قوله تعالى « ويسألونك عن الروح » الآية^(٣) فإنها مدنية كما يدل على ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن مسعود وقد تقدم فى أسباب النزول ومثل سورة هود فإنها مكية إلى قوله تعالى « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل » الآية^(٤) فقد صح أنها نزلت بالمدينة فى قصة أبى اليسر
وأما المدنى الذى بعضه مكي فمثل سورة الأنفال فإنها مدنية إلا قوله

(١) ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) الأعراف ١٦٣

(٣) الإسراء ٨٥

(٤) هود ١١٤

تعالى ، وإذ يمكر بك الذين كفروا ، الآية^(١) فقد روى عن مقاتل أنها مكية واستثنى أيضا قوله تعالى ، وإذا تسلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إلى غاية آية (٣٦) فسيكات^(٢) وقد روى عن ابن عباس أن آية ، وإذ يمكر ، نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم بعد قدومه المدينة تذكيرا له بنعمة الله عليه فهي مدنية .

ومثل سورة براءة فهي مدنية إلا قوله تعالى ، وما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى ، الآية^(٣) ، فالصحيح أنها نزلت في قول النبي لعنه أبي طالب : لا ستغفرون لك ما لم أنه عنك ،^(٤)

والذى يظهر أن اعتمادهم في وصف السورة بكونها مكية أو مدنية إنما يكون تبعا لما يغلب فيها أو تبعا لفاتحها ، فقد ورد عن ابن عباس : أنه إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت مكية ثم يزيد الله فيها ما شاء . وقال البيهقي في الدلائل : ، في بعض السور التي نزلت بمكة آيات نزلت بالمدينة فألحقت بها ، وقال ابن الحصار : كل نوع من المكي والمدني منه آيات مستثناة إلا أن من الناس من اعتمد في الاستثناء على الاجتهاد دون النقل ، وقال ابن حجر في الفتح : قد اعتنى بعض الأئمة ببيان ما نزل من الآيات بالمدينة في السور المكية . . . وأما عكس ذلك وهو نزول شيء من سورة بمكة تأخر نزول تلك السورة إلى المدينة فلم أره إلا نادرا ، فقد اتفقوا على أن الانتقال مدنية ، لكن قيل : إن قوله ، وإذ يمكر . . . الآية نزلت بمكة ،^(٥)

(١) الأنفال ٣٠

(٢) أسباب النزول للسيوطي ج ١ ص ٧٧ على هامش الجلالين

الانفان ج ١ ص ١٥

(٣) براءة ١١٣

(٤) أسباب النزول ج ١ ص ٢١٠ هامش (٥) فتح الباري ج ٩ ص ٣٢٣، ٣٢٤

وترتيب الآيات القرآنية ليس على حسب نزولها ، وترتيبها الزمني ،
إنما يرجع إلى المناسبات التي تقوم على ارتباط المعاني وتماسكها ، ووحدة
الفكرة أو تجاهها ، فلا عجب إذاً أن يكون في بعض السور المكية آيات
مدنية أو العكس .

وليس أدل على هذا من أن بعض الآيات وضعت بجانب بعض الآيات
الآخرى مع وجود فاصل زمني بينهما نحو بضع سنين كما قدمنا في أسباب
النزول .

المكي والمدني من السور ،

قد اختلف العلماء في بيان المكي والمدني من السور على أقوال كثيرة
ذكرها السيوطي في اتقانه (١) ، ومن السور ما اتفق العلماء على مكيتها أو
مدنيها ، ومنها ما اختلفوا في كونه مكيا أو مدنيا ، ولا يهولك تشعب
الاختلاف في هذا فمرد معرفة المكي والمدني إلى الأحوال والقرائن
والملازمات ، ومثل هذه مما تختلف فيها الأنظار ، وتتنوع الاستنتاجات ،
ولعل أوفق هذه الأقوال وأقربها إلى الصواب ما ذكره أبو الحسن ابن
الحصار قال : أن المدني باتفاق عشرون سورة والمختلف فيها اثنتا عشرة
سورة ، وما عدا ذلك مكي ، وقد نظم ابن الحصار ذلك في منظومة له
نقلها السيوطي في الإتقان ، وخلاصة ما تضمنه هذا النظم .

أن السور المدنية باتفاق هي . (١) البقرة (٢) وآل عمران (٣) والنساء
(٤) والمائدة (٥) والأنفال (٦) والتوبة (٧) والنور (٨) والأحزاب
(٩) ومحمد (١٠) والفتح (١١) والحجرات (١٢) والحديد (١٣) والمجادلة
(١٤) والحشر (١٥) والممتحنة (١٦) والجمعة (١٧) والمنافقون
(١٨) والطلاق (١٩) والتحريم (٢٠) والنصر .

أما المختلف فيها فهي (١) الفاتحة (٢) والرعد (٣) والرحمن (٤) والصف

(٥) التغابن (٦) والتطيف (٧) والقدر (٨) ولم يكن (٩) وإذا زلزلت (١٠) والإخلاص (١١ : ١٢) والمعوذتان .

وأما المسكى فهو ما عدا ذلك ، وهي اثنتان وثمانون سورة .

أقول : إن بعض ما ذكره ابن الحصار غير مسلم ، لأن على رأيه تكون سورة الحج مكية باتفاق مع أنه روى عن ابن عباس وقتادة وغيرهما أنها مدنية ، وهو الأرجح ، وليس من المستساغ أن نعتبر أن هذا الخلاف كلا خلاف إلا إذا سرنا على منهجه حيث قال في آخر منظومته :

وليس كل خلاف جاء معتبرا . . . إلا خلاف له حظ من النظر

ولا أدري كيف لا يكون له حظ من النظر؟ وهو الراجح

د المسكى والمدنى على ترتيب النزول ،

وكما عنى العلماء ببيان المسكى والمدنى من السور عتوا أيضاً بترتيب السور المسكية والمدنية على حسب النزول فقد أخرج ابن الضريس في (فضائل القرآن) رواية عن ابن عباس في هذا الترتيب ^(١) وقد سقط من هذه الرواية فاتحة الكتاب فيما نزل بمكة ، كما أخرج أبو بكر محمد بن الحارث بن أبيص في جزئه المشهور رواية عن جابر بن زيد ^(٢) وجابر بن زيد من علماء التابعين بالقرآن ، وقد أعتمد البرهان . الجعبرى على هذا الأثر في قصيدته التى سماها (تقريب المأمول في ترتيب النزول) وتسكاد تتفق الروايتان فيما ذكرناه من ترتيب ولم تفترقا إلا فى القليل .

ومما يؤخذ على هاتين الروايتين أنهما اتفقتا على أن أول ما نزل ، اقرأ ثم رن والقلم ثم يا أيها المزمّل ثم يا أيها المدثر . . . وهو يخالف ما حققناه سابقا من أن أول ما نزل بعد صدر سورة اقرأ هو صدر سورة المدثر وكان ذلك بعد فترة الوحى : ولعل النظرة الفاحصة فى أوائل رن والمزمّل والمدثر تهدينا إلى أن المدثر هو الأنسب بالتقديم . عن أختيها إذ قد اشتمل

(١) انظر الاتقان ج ١١ ، ص ١١٠ . (٢) المرجع السابق ص ٢٥ .

صدرها على الأمر بالإنذار وهو الأليق بالتقديم . ولعل هذا النقد الذي ذكرته هو ما أشار إليه الإمام السيوطي حيث قال بعد أن ذكر رواية جابر بن زيد (هذا سياق غريب وفي هذا الترتيب نظر) .

« الضوابط التي يعرف بها المسكى والمدنى »

لمعرفة المسكى والمدنى طريقان (١) سماعي (٢) وقياسي .

أما السماعي فالنقل الصحيح عن الصحابة أو التابعين بأن سورة كذا أو آية كذا نزلت بمسكة أو بالمدينة أو قبل الهجرة أو بعدها .

وأما القياسي فضوابط كلية لمعرفة كل منها وهذه الضوابط مبناها على التبع والاستقراء المبني على الغالب والكثير .

« ضوابط المسكى »

(١) كل سورة فيها « كلا » مكية . وقد وردت في القرآن ثلاثا وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير قال الدريني : رحمه الله .

وما نزلت كلا يثيرب فاعلمن ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى

قال العياشي : وحكمة ذلك أن النصف الأخير نزل أكثره بمسكة ، وأكثر أهلها جابرة فنكرت كلا على وجه التهديد والتعنيف لهم والانكار عليهم بخلاف النصف الأول ، وما نزل منه في اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذاتهم وضعفهم^(١) .

(٢) كل سورة في أولها حروف المعجم فهي مكية سوى البقرة وآل عمران فانها مدينتان باتفاق ، وفي الرعد خلاف .

(٣) كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة .

(٤) كل سورة فيها سجدة مكية . سوى الحج ، عند من يقول أنها مدينية

(٥) كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الماضية مكية سوى البقرة

«ضوابط المدنى»

(١) كل سورة فيها ذكر الحدود والفرائض مدنية

(٢) كل سورة فيها ذكر المنافقين وأحوالهم مدنية سوى سورة العنكبوت فأنها مكية إلا إحدى عشرة آية من صدرها فأنها مدنية وهى التى ذكر فيها المنافقون .

(٣) كل سورة فيها الإذن بالجهاد أو الأمر به وأحكامه الصلح والمعاهدات فهى مدنية ، سوى سورة «الحج» ، عند من يرى أنها مكية

«مميزات المسكى والمدنى»

قد امتاز كل من المسكى والمدنى غير ما تقدم من الضوابط بأمر كثر فيه وسمات بارزة تميزه عن غيره وهذه المميزات ترجع إلى المعنى والموضوع والخصائص البلاغية فهى أدل وأدق وأشمل من الضوابط لأن غالبها يرجع إلى اللفظ والشكل :

«مميزات المسكى»

١ — الدعوة إلى أصول الإيمان الاعتقادية من الإيمان بالله واليوم الآخر وما فيه من البعث والحشر والجزاء والإيمان بالرسالة وإقامة الأدلة العقلية والكونية والانفسية على ذلك وهذه الثلاثة وأدلتها هى التى يدور عليها غالب الحديث فى السور المسكية ؛ وذلك لأن القوم كانوا منغمسين فى حاة الشرك والوثنية وكانوا لا يقرون بالنبوات ولا بالبعث وما بعده ويقولون : إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين : فكان اللائق بحالهم دعوتهم أولا إلى الإيمان بهذه الأصول فإذا ما آمنوا بها خوطبوا بالفروع والتشريعات التفصيلية .

٢ — محاجة المشركين ومجادلتهم وإقامة الحجة عليهم فى بطلان عبادتهم

الأصنام وبيان أنها بمعزل عن الألوهية واستحقاق العبادة وأنها لا تضر ، ولا تنفع ولا تخلق ، ولا يحس ، ولا تعى أى شيء ودعوتهم إلى استعمال عقولهم ونبد التقليد بغير حجة وعلم ، بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، الرخرف ٢٢ - ٢٤ وإقامة الأدلة على أن القرآن حق لا شك فيه وأنه من عند الله وقد وقع التحدى بالقرآن في ثلاث سور مكية ولم يقع التحدى به في القسم المدني إلا في سورة البقرة .

٣ - الدعوة إلى أصول التشريعات العامة والآداب والفضائل الثابتة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان ولا سيما ما يتعلق منها بحفظ الدين والنفس والمال والعقل والنسب وهي الكليات الخمس التي تتفق فيها جميع الشرائع السماوية وذلك كالحث على الثبات على العقيدة والاستهانة بكل شيء في سبيلها والأمر بالصلاة والصدقة ، والصدق ، والعفاف ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم ، والعفو ، والعدل ، والإحسان والتواصي بالحق ، والخير ، والصبر والنهي عن القتل ، وواد البنات ، والظلم ، والزنا وأكل أموال الناس بالباطل وذلك مثل قوله تعالى في أواخر سورة الأنعام « قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم الآيتين ، وفي سورة الأعراف « خ - ذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، وفي سورة النحل « إن الله يأمر بالعدل والإحسان الآية ، وفي سورة ن ، ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم ، الآيات

٤ - ذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم ، ليكون في قصصهم عبرة وعظة لأولى الأبواب ، لبيان أن دعوة الرسل جميعاً واحدة وأنهم جاءوا بالتوحيد الخالص والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن الأنبياء وأتباعهم لا قوا كل أنواع الإيذاء في سبيل عقيدتهم ومع ذلك صبروا وثبتوا

على عقائدهم وكان النصر والعاقبة لهم والهزيمة والخذلان لأعدائهم إلى غير ذلك ولقد كان القصص في القسم المسكى من أعظم الأدلة على أن القرآن من عند الله إذ لو تأخر نزوله إلى المدينة لقالوا : تعلمه من أهل الكتاب قال تعالى : تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين (١)

هـ - قصر أكثر آياته وسوره وذلك لنزوله بمكة وأكثر أهلها يومئذ يمتازون بعلو كعبهم في الفصاحة . والبلاغة ، وتملكهم لخاصية القول ، والخطابة ، والشعر وبلوغهم الغاية في لطف الحس ، وذكاء العقل ، والالمنة وسرعة الخاطر فكان المناسب لهم النذر القارعة ، وال عبارات الموجزة ، والفقر القصيرة ذات اللفظ الجزل ، والجرس القوى ، والمعنى الفحل فتصخ الأذان وتستولى على المشاعر وتعقل ألسنتهم عن المعارضة وتدعمهم في حيرة ودهشة مما يسمعون فلا يلبث البليغ منهم بعد سماعها من أن يلقي عصا العجز ويرسلها قولة صريحة تشهد بالإعجاز كما قال الوليد بن المغيرة القرشى لما سمع القرآن : والله لقد سمعت كلاماً ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة وأن له للحلاوة وإن عليه لطلاوة وأن أعلاه لمثمر وأن أسفله لمغدق وما هو بقول بشر وأنه ليعلو ولا يعلى (٢)

ولما أحزنت المشركين مقالته وأكرهوه على أن يقول في القرآن قولاً لا ينقض قوله الأولى لم يسعه بعد الصراع النفسى العنيف وتكلف الخروج عن فطرته العربية وملكته الأدبية إلا أن يقول : إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر ولكي تتأكد أن الرجل لم يقل ذلك إلا مكرها أقرأ عليك قول الله : إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبس ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ... (٣) فانظر كيف صور القرآن حاله النفسية هذا التصوير .

(٢) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة - ١

(١) هود / ٤٩

(٣) المدثر ١٨ - ٢٥

الدقيق ولقد كان البليغ منهم - على كفره - يسمع القرآن فيخيل إليه أن العذاب كأنه واقع بهم فلا يجد مندوحة عن أن يناشد النبي ﷺ الله والرحم أن يكف عن قراءته ، وكان القرشيون يتواصون فيما بينهم أن لا يستمعوا إليه وأن يضعوا أصابعهم في آذانهم ، ويستغشوا ثيابهم ، حذرا أن ينفذ إلى قلوبهم فإذا هم بعد قليل تغلب عليهم فطرتهم اللغوية فيتناسون الوصية ويلقون إليه بأذانهم وقلوبهم لما يجدون في استماعه من لذة وإرضاء للمساكنة الأدبية (١)

«ميزات القسم المدني»

١ - التحدث عن التشريعات التفصيلية والأحكام العملية في العبادات والمعاملات كأحكام الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والقصاص ، والنكاح والطلاق ، والبيع والمداينات ، والربا ، والحدود كحد الزنا ، والسرقه والكفارات ككفارة القتل الخطأ والظهار ، والإيمان إلى غير ذلك مما شملت عليه السور المدنية كما في سورة البقرة والنساء والمائدة والنور ، وذلك لأن حياة المسلمين في المدينة بدأت في الاستقرار وأصبح لهم كيان ودولة وسلطان ومن شأن الجماعة التي لها رابطة تربطها أن تكون في مسيس الحاجة إلى تشريع يتكفل بما تحتاج إليه في دينها ودنياها وأيضاً فالتشريعات العملية مرتبطة بسلطان الحكم التنفيذي فلا تشريع لمن لا يملك حكم التنفيذ فمن ثم جاءت المدنية على ما ذكرنا .

٢ - حاجة أهل الكتاب وبيان ضلالهم في عقائدهم التي ضاهوا بها أسلافهم من زائغى الأمم السابقة كقولهم بالتثليث أو الحلول أو الأبنية أو الصلب والإنعاء عليهم باللائمة لتحريفهم كتبهم ولا سيما البشارة بالنبي الأمي المبعوث في آخر الزمان وتنبير بعض الأحكام التي لا تلائم أهواءهم واتخاذهم هذا التغيير وسيلة لإبتراز أموال الناس بالباطل فاليهود قالوا عزيز ابن الله والنصارى غلوا في عيسى فقال بعضهم : إنه الله وقال بعضهم :

ابن الله وقال آخرون : ثالث ثلاثة تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

وغير اليهود الرجم إلى الجلد أو تسخيم الوجه والتشهير طمعا في المال أو الزلفى إلى الإشراف وقد جادلهم القرآن بالحسنى والحجة الدامغة والمنطق السليم ، وذلك كما ترى فى سورة المائدة وآل عمران والبقرة والتساء والتوبة .

٣ — بيان ضلال المنافقين وإظهار فضائحهم والكشف عن خبيثة نفوسهم وإظهار ما بهم من سوء الطباع والجن والهلح وأنهم لا يبتغون إلا عرض الحياة الدنيا ولا يهتمهم أمر الاسلام ونصره كما فى سورة البقرة والتوبة التى مازالت تقول ومنهم ، ومنهم حتى فضحتهم وقد أنزل الله سورة من المفصل فى شأنهم وهى « المنافقون » ،

٤ — قواعد التشريع الخاصة بالجihad ، وحكمة تشريعه ، وذكرا الاحكام المتعلقة بالحروب ، والغزوات ، من الصلح ، والمعاهدات ، والغنائم ، والفبيه وفك الاسارى وذلك كما فى سورة البقرة والانفال وبراءة والقتال والفتح والحشر ه — طول أكثر آياته وسوره لاستمالتها على الاشياء السابقة وهى تقتضى البسط والاطناب وإطالة النفس كما أن أهل المدينة لم يكونوا فى درجة أهل مكة فى البلاغة والفصاحة ولا سيما اليهود الذين كانوا يساكنونهم فى المدينة فكان الحال باعتماد على الإطالة ، والاطناب فى مقام الاطناب لازم والايجاز فى مقام الإيجاز واجب ووضع أحدهما مكان الآخر ليس من البلاغة فى شئ . وقد سلك القرآن كلتا الطريقتين مع كونه فى أعلى درجات البلاغة والفصاحة ، الشبه التى أثبتت حول المسكى والمدنى ،

اعتاد الملاحدة والمبشرون واعداء الإسلام أن يتلصوا المطاعن فى القرآن ، وغرضهم بذلك التشكيك فى القرآن وقد استهكى يتوصلوا إلى هدم الإسلام واضعاف المسلمين بصرف أنظارهم وقلوبهم عن القرآن الذى هو أصل الدين ومنبع الصراط المستقيم ، ولما كانوا يصدرون فى هذه الطعون عن هوى متبع وعصبية دينية ممقوتة فقد جافاهم الحق والصواب .

وما يؤسف له أن بعض الذين تسموا بأسماء المسلمين ، وصنعتهم أوروبا
يديموا وربهم على عينيها ومن على شاكلتهم ممن لم يتعمقوا في الدراسات الإسلامية
قد استهوتهم هذه الأباطيل فصاروا ينشرونها ويذيعونها في دروسهم وقد
حمل كبر هذا الأفك أديب معروف (١) كان يدرس الأدب بالجامعة المصرية
حقبة من الزمان وقد تلقف هذا الأديب هذه الأباطيل مما كتبه المبشرن
والقسس وإن كانوا - والحق يقال - كانوا أعف منه في بعض الأحيان ؟
ومن عجب أن يسوق هذه الطعون على أنها من بنات أفكاره ومبتكراته فكان
كلابس ثوبي زور ، ومن عجب أيضاً أن يعتبر هذا التجنى على القرآن العظيم
حرية في البحث وجراءة في التفكير فيقول : لا شك أن الباحث الناقد ،
والمفكر الجريء الذي لا يفرق في نقده بين القرآن وبين أى كتاب
آخر (٢) ... الخ ما قال ولمن يلقى هذا الكلام ؟ لطلاب لم يعرفوا من الدين
إلا قشورا ومن اللغة العربية إلا حظاً يسيراً ثم يطلب إليهم أن ينقدوا
كتاب العربية الأكبر الذي خرت لبلاغته جباه البلغاء . وخرست عن
معارضته أسنة الفصحاء من كل جنس ، وفي كل عصر ، وكيف يتها لمن
لا يكاد يبين أن ينقد كتاباً عربياً مبنياً ؟ !

وقد قبض الله لهذه الشبه من علماء الأمة (٣) الذين تذوقوا بلاغة القرآن
ووقفوا على أسرار أعجازه من زيفها على أساس من المنطق السليم ، والحجة
الدامغة والحق الظاهر ، والواقع التاريخي الثابت .

(١) هو الدكتور طه حسين

(٢) انظر نقض مطاعن القرآن من ص ٤ - ٨

(٣) من خير من رد عليه هذه المطاعن في القرآن الكريم الأستاذ الكبير
الشيخ محمد عرفة عضو جماعة كبار العلماء - مد الله في حياته - وخير من ود عليه
في كتابه في الشعر الجاهلي ، الأستاذ الأكبر السيد محمد الحضر حسين - رحمه الله -
شيخ الأزهر السابق في كتاب سماه : نقض كتاب . في الشعر الجاهلي ،

وهذه الطعون - فضلا عن كونها كفرا دينيا - هي كفر بقواعد البحث العلمى الصحيح التى طالما تمسحوا بها وأكثروا من ترديدها فى كتاباتهم ، ومحاضراتهم وسنقص ردنا على ما يتعلق بالمكى والمدنى من القرآن .

« الشبهة الأولى »

قال : إن القسم المكى يمتاز بتقطع الفكره ، واقتضاب المعانى ، وقصر السور وقصر الآيات ، وأما القسم المدنى فهو طويل السور طويل الآيات وأفكاره منسجمة متسلسلة ، وعزا ذلك إلى تأثر محمد - صلى الله عليه وسلم - بالبيئة فأهل مكة قوم أميون لا يقدرّون على إنشاء العبارات الطويلة أما أهل المدينة فهم أهل كتاب أو متصلون بأهل الكتاب لهم قدرة على إنشاء العبارات الطويلة ، وغرضه التشكيك فى أن القرآن من عند الله سبحانه .

والرد على هذه الشبهة نقول :

١ - إن القول بأن القسم المكى يمتاز بتقطع الفكرة واقتضاب المعانى بخلاف القسم المدنى قول من لم يتمعن فى القرآن ولم يعن بدراسته ومن يرسل القول على عواهنه ، ولم يأخذ من اللغة العربية وأسرارها وآدابها بحظ وافر أما من قرأ القرآن قراءة باحث مستبصر غير ذى هوى ورزق التبحر فى اللغة والوقوف على أسرار البلاغة فإنه يصل ولا محالة إلى علم اليقين فى هذا وهو أن القرآن كعقد منظم تناسقت جباته ، وتآلفت لآلته ، ونظم فى سلك من الذهب الخالص والقرآن كله - مكيه ومدنيه - معانيه متآلفة وأفكاره منسجمة وآياته متآخية أخذ بعضها بحجز بعض لا تنقطع آية عن سابقتها ولا حققتها ولا ينفر معنى من آخر ولو أن هذا الناقد تناول بعض السور المكية وبين لنا بطريقة فنية ما فيها من اقتضاب ونفكك لبينا له ما فيها من ترابط وتماسك ولغزير وجه الحق لذى عينين ، أما وقد أرسلها قوله مجردة فهي لا تخرج عن كونها دعوى عارية عن البرهان .

وقد عني العلماء المحققون في القديم والحديث يبحث المناسبات بين الآي والصور وأتوا في ذلك بالعبج العجاء وقد اشتملت بعض كتب التفسير وكتب البلاغة وأسرارها من ذلك على شئ. كثير وألف بعضهم في ذلك كتباً مستقلة كما فعل البقاعي في كتابه «لقط الدرر في تناسب الآي والصور» والسيوطي في كتابه «أسرار التنزيل» وبحسبنا هذا الإجمال الآن وعسى أن تكون لنا عودة للبحث التفصيلي في موضعه إن شاء الله .

٢ - أن طول الكلام وقصره تابع لمقتضى الحال الذي هو عماد البلاغة العربية ، وليس تابعاً للبيئة ولا الوسط وقد بينت آنفاً السر في سلوك القرآن الكريم العبارات القصيرة حيناً والطويلة حيناً آخر ، فكن على ذكر منه .

٣ - القرآن الكريم قد تحدى العرب قاطبة في بعض السور المدنية كما تحداهم في السور المسكية ، وقد جاء التحدى في المدينة بسورة مها قصرت وأما في مكة فقد وقع التحدى بالقرآن كله ثم بعشر سور منه ثم بسورة واحدة أي سورة ، فلو أن أهل المدينة - كما زعم الناقد - كانوا أقدر على إنشاء العبارات الطويلة من أهل مكة وأن القرآن كان متأثراً بهم في الإطالة لكانوا أقدر على معارضة والإتيان ولو بأقصر سورة منه ، ولكنهم لم ينبسوا ببنت شفة ، ورضوا لأنفسهم السكوت وباءوا بالعجز بل عجزهم أشد من عجز أهل مكة ثم أي دارس للأدب تسول له نفسه أن يفضل أهل المدينة على أهل مكة في البلاغة والفصاحة والتصرف في فنون القول والقدرة على إنشاء العبارات ؟

ومعروف أن قريشاً كانت أوسط العرب داراً وأبرعهم في الخطابة والشعر والتفنن في الأساليب ، وإليها كان يحتكم العرب في شعرهم ونثرهم ، وقد ساعدها على هذا اجتماع العرب في مواسم الحج والمجامع الأدبية الحافلة والأسواق السنوية التي كانت تعقد بالقرب من دارهم في عكاظ

ومجنة وذى المجاز ، فكانوا يتخيرون من لغتهم ماخف على اللسان ، وحسن
فى الاسماع وجاد من الاساليب .

(الشبهة الثانية)

قال : إن القسم المكى يمتاز بمميزات الاوساط المنحطة أما القسم المدنى
فتلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة ، فالقسم المكى ينفرد بالعرف والشدة
والقسوة والسباب والوعيد والتهديد مثل : « تبت يدا أبى لهب وتب ،
السورة ، والعصر إن الإنسان لئى خسر » ، « فصب عليهم ربهم سوط
عذاب إن ربك لبالمرصاد » ، « كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم » ،
أما القسم المدنى : « فهاذى لين وديع مسالم يقابل السوء بالحسن » ، ولورد
على ذلك نقول :

١ - إن القسم المكى فيه ثقافة واستنارة أيضاً وفيه سمو ورفعة ووقار
وجلال ولين وهو إن قساف على الكافرين والمفسدين وإذا لان فللاختيار
والصالحين وهو فى كلا الحالين يدعو لخير الإنسانية جمعاء وعباراته مهذبة
غاية التهذيب ، وكيف لا يكون فيه ثقافة واستنارة وقد تحدث أكثر
ما تحدث عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وعن الفضائل
والآداب الإنسانية السامية وبحسبك أن تقرأ أى سورة من السور المسكية
لتعلم ذلك علم اليقين ثم ماذا يريد هذا الطاعن بالسباب ؟؟ إن أراد البذاءة
والفحش من القول فقد كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا
وان أراد ما اشتمل عليه من الوعيد والآنذار والتقريع فهذا لا يسمى سبابا
إلا فى دماغ قائله وكنا نحب من الناقد المخرب أن يربأ بنفسه وأدبه عن هذا
الإسفاف فى التعبير حينما يتحدث عن كتاب كالقرآن العظيم .

٢ - دعواه أن القسم المكى اشتمل على الوعيد والشدة دون القسم
المدنى دعوى من لم يطلع على القرآن الكريم أو اطلع ولكن أعتمته

عصبيته عن إدراك الحق المبين ، فالقسم المذني اشتمل على الوعيد والإندار كما أن القسم المسكي اشتمل على الدعوة إلى اللين والعفو والصفح ومقابلة الإساءة بالإحسان .

استمع إلى قول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة المدنية الآية ١٧٤ :
« إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترُونَ به ثمنًا قليلًا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يُزَكِّيهم ولهم عذاب أليم » ، وقوله في سورة آل عمران المدنية الآية ١٠ : « إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا وأولئك هم وقود النار » ، وفي سورة النساء المدنية الآية ٤٦ : « يا أيها الذين آمنوا أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقًا

لما معكم من قبل أن نطمس وجوهًا فتردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً . وفي سورة المائدة الآية ٧٨ - ٨١ : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم الآيات » ، إلى غير ذلك من آيات الوعيد في القسم المذني ثم استمع إلى ما جاء في السور المسكية حنا على اللين والعفو والتسامح قال تعالى في سورة الأعراف المسكية الآية ١٩٩ :
« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین » ، وقال في سورة فصلت المسكية الآية ٤٤ ، ٣٥ : « ولا تستوی الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن » ، وفي سورة الشورى المسكية الآية ٢٦ - ٤٣ : « فما أوتيتُم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون » ، إلى قوله : « ولئن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » ، فأى لين وغفو بعد هذا ؟

وهكذا نرى القرآن الكريم يسلك مسلك الوعيد والشدّة متى اقتضى المقام ذلك ويسلك مسلك اللين والعفو والصفح إذا اقتضى الحال ذلك وهذا

هو الأسلوب الحكيم ويرحم الله القائل :
فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم
والقائل :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

٣ — هذه السور والآيات التي ذكرها الطاعن ليس فيها رائحة سباب
ولو علم سبب النزول والمراد بالآيات لما رمى بهذه القولة الجائفة وإليك ماورد
في سبب نزول سورة أبي لهب أخرج البخارى في صحيحه بسنده عن ابن عباس قال :
لما نزلت «وأنذر عشيرتك الأقربين» صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا
فجعل ينادى يا بنى فهر . يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا فاجعل الرجل
إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش .
فقال : أرايتكم لو أخبرتمكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم
مصدقى ؟ قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقا قال : «إني نذير لكم بين يدي
عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبأ لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت تبنت
يدا أبى لهب وتب . . . وأخرج ابن جرير أن امرأة أبى لهب كانت تأتى
بأغصان الشوك فتطرحها في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كانت
تنقل الحديث وتمشى بالنخلة بين الناس فالسورة إذا نزلت ردا على أبى لهب
في دعائه على النبي وإيذائه له وإنذارا له ولزوجه بأنهما سيصليان النار الشديدة
جزاء لهما على ما صنعوا ولا شك أن في هذا الوعيد ردعا لأبى لهب وزوجه
وأمثالهما ممن يناهضون رسالات الرسل ويسعون في الأرض بالفساد ولا أدري
في أى عرف أودقو يعتبر إنذار مثل هذا المعوق عن الخير والحق أمراً
خارجا عن المألوف وسباباً وشدة ؟ وماذا كان ينتظر هذا الطاعن في الرد
على أبى لهب وزوجه ؟ أكان ينتظر من منزل القرآن الحكيم أن يظهر له
الرضا على مقالته ويقول له يخبخ فيزداد بطرا وأشرا ؟ !

وأما سورة «والعصر» فليس فيها ما يشتم منه السباب وليس فيها عنفه

ولا شدة وكل ما عرضت له السورة أن الناس قسمان :
(١) قسم ناج من الخسران والعذاب فائز برضوان الله وهم الذين جمعوا
عناصر السعادة الأربعة وهي الإيمان بالله والعمل الصالح ، والتواصى بالحق
والتواصى بالصبر .

(٢) قسم غارق في الخسران مآله إلى الهلاك والعذاب وهم الذين لا يقرون
بإله ولا يدينون بشريعة ولا يعملون صالحا : فهم جرائم شرور ، ولا يتواصون
بحق : فالحق يذنبهم مضيق ، ولا يتواصون بصبر ؛ فهم في هلع وجزع وبملا يقضى
منه العجب أن يستشهد هذا الناقد بهذه السورة التي أقر بكفائتها وغنائها الأئمة
في القديم والحديث قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - رحمه الله - « ثم تراها
لم تدع شيئا ألا أحرزته في عباراتها الموجزة حتى قال الإمام الشافعي -
رحمه الله - : لو تدبر الناس هذه السورة لو سعتهم ! أوقال : لو لم ينزل الله
من القرآن سواها لكفت الناس ! ولجلالة ما جمعت روى أنه كان الرجلان
من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ
أحدهما على الآخر سورة « والعصر » ، ثم يسلم أحدهما على الآخر ؛ ذلك
ليذكر كل منهما صاحبه بما يجب أن يكون عليه فإذا رأى منه شيئا ينبغى
أن ينبه إليه فعليه أن يذكره له ، » (١)

وأما قوله تعالى في سورة الفجر : فصب عليهم ربك سوط عذاب إن
ربك بالمرصاد ، فلا سباب فيه ولا عنف وكل ما فيه لإخبار من الحق عز
شأنه ، بأن عاداً وثمود وفرعون لما طغوا في البلاد وظلموا العباد وأكثروا
من الفساد أنزل الله بهم العقاب جزاء لهم على ظلمهم وإفسادهم ، فالمراد
بصب السوط إنزال العقوبة الشديدة بهم وهو من المجازات البديعة ، ومعنى
« إن ربك بالمرصاد » ، أنه القائم بتدبير الأمور الرقيب على عباده لا يفوته
من شئونهم شيء وهو مجازي كل عامل بعمله فلا يفوته أحد ، فلا يظن أهل

الطغيان الذين يفسدون في الأرض أن يفلتوا من الله وعقابه ، وفي هذا الإخبار تحذير للموجودين والمخاطبين أن يفعلوا مثل ما فعلوا فيعاقبوا مثل ما عوقبوا ، فانظر — أيها القارئ الفطن — كيف اشتملت هاتان الآيتان على وجازتهما على هذه المعاني الثرية والتحذيرات النافعة المفيدة .

وأما سورة دأهاكم التكاثر ، فغاية ما فيها أن يترك الناس التفاضر بالأحساب والأنساب والتكاثر بالأموال والأولاد والتلهي بما لا يفيد وأن يقبلوا على الاشتغال بما يرفع من الإيمان والعمل الصالح ، أما التلهي بالتكاثر والتفاخر فلن يكون من روائه إلا خسران الدنيا والآخرة ، فلا عجب أن يردعهم الله وأن يكرر الردع والزجر فقال دكلا سوف تعلمون ثم كلاسوف تعلمون ، ، ولو علم اللاهون المتكاثرون علم اليقين لأعرضوا عما فيهم ، وأقبلوا على الأعمال الصالحة لأنهم سيرجعون إليه في يوم يحاسبون فيه ويجازون على أعمالهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . كلا لو تعلمون علم اليقين ، اترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم فالسورة لا تخرج عن كونها وعيداً وتحذيراً وإرشاداً وتعليماً .

الشبهة الثالثة

قال : إن القسم المسكي يمتاز بالهروب من المناقشة وبالحلو من المنطق والبراهين فيقول . دقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، إلى دلكم دينكم ولي دين ، بخلاف القسم المدني فهو يناقش الخصوم بالحجة الهادئة والبرهان الساكن الرزين . فيقول دلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ويستدل بهذا على تأثر القرآن بالبيئة والوسط وغرضه التشكيك في أن القرآن من عند الله

وهذا الكلام منقوض بما يأتي :

١ — أنه لا يجرؤ على هذه المقابلة إلا أحد رجلين إما جاهل أغرق في

جهله فلا يكاد يميز بين المسكى والمدنى وإما زنديق أعتمته زندقته عن إدراك الحق الظاهر وقد سقط هذا الباحث الناقد والمفكر الجرىء سقطه لا إقالة له منها ولا يكاد يقع فيها الطلاب المبتدئون فضلاً عن الباحثين ؛ ولو تناول مصحفاً وأمر القارىء له أن يقرأ ما كتب قبل مفتتح سورة الأنبياء لوجد سورة الأنبياء مكية وآياتها ١١٢ : ولو تناول كتاباً من كتب الفن لعلم أن سورة الأنبياء مكية بلا استثناء عند جمهور العلماء وباستثناء آية أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ، عند البعض ، ومهما يكن من شيء فالآية التى استدلت بها مكية بالإجماع وكيف تنفق هذه السقطة التى لا تكون من مبتدئ وما أضفاء على نفسه من الصفات الطنانة والعبارات الجوفاء ؟ الحق أنه قدم لنا الخنجر للإجهاز عليه .

وأن نظرة بسيطة فى السور المكية اترينا أنها استفاضت بالأدلة والبراهين القطعية ، اقرأ إن شئت فى إثبات الإله قوله تعالى فى سورة الفاشية « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت الآيات ^(١) » وقوله تعالى فى سورة الواقعة نحن خلقناكم فلولا تصدقون أفأرى ما تتمنون أن تخلقوه أم نحن الخالقون إلى قوله « فسيح باسم ربك العظيم ^(٢) »

واقراً أيضاً فى إثبات الوجدانية فى سورة الأنبياء المكية ، لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ^(٣) ومهما أسهب الفلاسفة وعلماء الكلام فى إقامة الأدلة والبراهين على الوجدانية فلن يخرجوا عن فلك هذه الآية على وجازتها وقصرها . وفى سورة المؤمنين ، المسكية « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق » الآية ^(٤) وفى سورة النحل « أمن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبثنا به حذائق ذات بهجة ما كان

(١) الفاشية ١٧ - ٢٠ (٢) الواقعة ٥٧ - ٧٨

(٣) الأنبياء ٢٢ (٤) المؤمنون ٩١

لكم أن تثبتوا شجرها إله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون، إلى قوله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، (١)

واقرا إن شئت في التدليل على إمكان البعث في سورة يس المسكية « وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم قل يحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ، إلى آخر السورة (٢) وقوله تعالى في سورة الاحقاف المسكية الآية ٣٣ « أولم يروا أن الذي خلق السموات والارض ولم يعنى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شئ قدير » وكذلك يعرض القرآن في السور المسكية لإثبات الرسالة بالمنطق السليم والحجج الدامغة فيقول في جواب المشركين لما قالوا « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق » ، « وما أرسلنا قبلك من المرسلين ألا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، الفرقان الآية ٢٠ ، ولما قالوا هل هذا إلا بشر مثلكم ، قال في جوابهم : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » ، (٣)

ولو تتبعنا الأدلة والبراهين التي زخر بها القسم المسكي لطال المقام وبجسبتنا هذا المقدار .

أما ما ذكره الطاعن من سورة « قل يا أيها الكافرون ، فلا يصلح أن يكون دليلاً لان السورة لم تسق مساق الدليل وإنما سقيت للرد على كفار قريش لما رغبوا إلى النبي أن يعبدوا آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة فأنزل الله على نبيه هذه السورة تأييداً لهم وقطاً لأطباعهم وليبيان أنهم قوم مخادعون ولن تكون منهم عبادة لله الواحد القهار ، وقد جاءت السورة على هذا النسق البديع « لا أعبد ما تعبدون ، فني أن تقع منه عبادة لآلهتهم ثم قال « ولا أنا عابد ما عبدتم ، فأتى بالجملة الإسمية لإفادة أن عدم عبادته لآلهتهم ثابت مستمر فقيه قطع لأطباعهم على أبلغ وجه وآكده ومثل هذه السورة سورة الإخلاص

فقد أجمل الله فيها العقيدة الخالصة من غير إستدلال ، لأنها نزات جواباً للشركين ، أو لليهود لما قالوا للنبي ﷺ : أنسب لنا ربك ، أى بين لنا ذاته وصفته فأنزل الله السورة ، ولا يغرب عن أذهاننا أن السورتين بمنزلة النتيجة لمئات الأدلة والبراهين التى أقامها الله على إثبات الصانع جل وعلا ووحدايته وصفاته واستحقاقه التفرد بالعبادة ، ولعل من اللطائف وقوعها فى الترتيب الكتابى فى آخر القرآن كما تقع النتيجة من مقدماتها فلا عجب أن جاءنا على هذا الوضع .

الشبهة الرابعة

قال : إن القسم المسكى خال من التشريعات التفصيلية والقوانين أه القسم المدنى فينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث ، والوصايا والزواج ، والطلاق ، والبيع وسائر المعاملات ؛ ولا شك أن هذا أثر من آثار التوراة والبيئة اليهودية التى ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التغيير الفجائى الذى ظهر على أسلوب القرآن . وغرضه بهذا التشكيك فى أن القرآن من عند الله .

والرد على هذا نقول :

(١) إن هذا الفرق بين المسكى والمدنى قد عرضنا له لما تحدثنا عن خصائص المسكى والمدنى وقد تنبه العلماء إلى هذه الظاهرة منذ مئات السنين ، ولكن ليس السبب ما ذكره من تأثر القرآن بالبيئة ، وإنما السبب فى هذا أن أهل مكة كانوا يتكرون أصول الإيمان والشرائع ، فكان الملائم لهم دعوتهم إلى هذه الأصول حتى إذا ما استضاءت قلوبهم بالإيمان وأشربوا حبه كلفوا بالتشريعات التفصيلية وهذا ما كان .

وأن من خطئ رأى أن نأتى لهم بالفروع والأحكام العملية قبل أن يؤمنوا بالأصول فكان نهج القرآن ، معهم وهو الملائم للفطر وبدائته العقول .

(٢) كيف يصح فى العقول أن يكون النبى والمسلمون قد أخذوا عن أهل

الكتاب من اليهود وثقفوا بثقافتهم مع أن القرآن الكريم نص عليهم في غير ما آية وسورة ، كفرهم ، وفسقهم ، وجرائمهم على الله وسفاهتهم على رسله وبين جحودهم للحق ، وانكارهم له مع معرفتهم وتحريفهم للتوراة ، وكانعى عليهم حسدهم وظلمهم وبغيهم وسوء طويتهم وخبت طباعهم وخيانتهم وتضييعهم للأمانة وعدم تناهيهم عن المنكر إلى غير ذلك مما لا يحمله من قرأ القرآن واطلع عليه ، وقد لعن القرآن الكريم اليهود في غير موضع وأمر النبي ﷺ أن يتحداهم كما في قوله تعالى ، قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، البقرة الآية ٩٤ ، وقوله ، قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، آل عمران الآية ٩٣ .

فلو أن النبي أخذ عن أهل الكتاب وتعلم منهم وتأثر بثقافتهم لأظهروا ذلك دفاعاً عن أنفسهم ولقالوا : كيف نعلمك وتسفهننا وترميننا بالكفر والفسق والكذب ؟ وكيف نثقفك وتلعننا وتتطاول علينا ؟

ولكنهم لم يفعلوا بل ألقوا حجراً وباؤا بالخزي والذلة والتشريد ، وهكذا يتبين لنا أن موقف القرآن من اليهود كان موقف المعلم والناقد والناعى والموبخ والمتحدى لا موقف المتعلم والآخذ والمستفيد وهو شيء يقتل هذا الطعن من أساسه ويرمى به في مهامه الضلال والشكوك .

(٣) أن الفرق بين التشريع الإسلامى الذى عرضت له السور المدنية والتشريع الإسرائيلى عظيم جداً فالإسلامى أرقى وأعلى وأشمل من الإسرائيلى من كل وجه ، وناهيك بكونه تشريعاً عاماً لجميع البشر وفى جميع الأزمنة والامكنة ومن أسسه المساواة فى الحق والعدل بين جميع الشعوب والقبائل والأفراد لا تمييز فيه بين ملك وسوقة ولا بين شريف ووضيع ، ولا بين قوى وضعيف ولا بين غنى وفقير .

والتشريع الإسرائيلى كان خاصاً بشعب خاص وموقتاً بوقت خاص

فلا يصلح أن يكون أساساً لتشريع عام خالد وهو تشريع الإسلام الذى انتشل الانسانية من وهبتها وأضاء النفوس بعد ظلمتها وحرر العقول بعد إسارها وملا الارض هداية وعلماً وعدلاً ورحمة بعد أن ملئت كفرأ وضلالاً وجهلاً وظلماً وقسوة وتجبراً وكيف يجوز فى العقول أيضاً أن يستمد السابقون الاولون من المهاجرين ثقافتهم وتشريعاتهم من اليهود وهم الذين أصلحوا جميع الشعوب بهداية القرآن والناسى بأكل الخلق على الاطلاق وشهدت لهم أعمالهم وأخلاقهم بأنهم خير أمة أخرجت للناس وقد أجمع المؤرخون من الأفرنج وغيرهم على أن أعظم أسباب نجاح الإسلام فى انتشاره السريع وفتوحاته المظفرة الكثيرة ما كان عليه أهل الملل كلها من فسوق وفساد والدول كلها من ظلم واستبداد وإغراق فى الملمات .

الشبهة الخامسة

قال : إن القسم المسكى يكثر فيه القسم بالضحى ، والشمس ، والقمر ، والنجوم والفجر ، والعصر ، والليل ، والنهار ، والتين ، والزيتون إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الساذجة التى تشبه بيئة مكة تأخراً وانحطاطاً .

أما القسم الثانى فقد خلا من القسم بهذه المحسوسات : وغرضه تآثر القرآن بالبيئة ليصل إلى التشكيك فى القرآن وهذا الكلام مردود بما يأتى :

١ - دعوى أن البيئة المكية ساذجة جاهلة لا ترقى إلى ما وراء الحسن ، دعوى لم يقم عليها دليل ، ويكذبها الواقع ، والتاريخ الصحيح ، فقد كان أهل مكة أوفى ذوقاً ، وأرهف شعوراً ، وأذكى عقولاً من أهل المدينة . وأن فيما قصة القرآن عنهم من مجالات وخصومات وما اشتد عليه القسم المسكى من إيجاز وبراهين ما ينقض هذا الاتهام ، وكيف يفهم هذه البراهين ، من لا يسمو نظره عن المحسوسات والتاريخ الصحيح أعدل حاكم وخير شاهد على امتياز قریش عن سائر القبائل فى عهد نزول القرآن ، ولكى تكون على

وأقسم بالزمن فقال (والعصر) وهكذا يتبين لنا أن الله أقسم في القسم المكي بالمعقولات كما أقسم بالمحسوسات .

٣ — إن القسم بهذه الأشياء لا لكونها محسوسة ، وإنما هو تنبيه إلى ما تشتمل عليه من إحكام في الخلق والصنعة وما تنطوى عليه من أسرار وعجائب نعم وآلاء فيؤدي النظر فيها إلى الإيمان بخالقها وموجدتها ، والأذعان لما جاء به الرسول ، كما في القسم بالشمس ، والقمر ، والنجوم والليل والنهار أو إلى استخدامه في النافع وعدم تضيقه كما في القسم بالعصر ، وبعض ما أقسم الله به مما هو محسوس قد يقصد به التذكير بما وراء الحس كما في القسم بالتين والزيتون الخ .

قال الامام الشيخ محمد عبده في تفسير (١) : «التين والزيتون، ما خلاصته وقد يرجح أنهما - التين والزيتون - النوعان من الشجر واسكن لافوا ندهما كما ذكروا بل لما يذكران من الحوادث العظيمة التي لها الآثار الباقية في أحوال البشر قال صاحب هذا القول : أن الله أراد أن يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الانسانية الطويل من أول نشأته إلى يوم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فالتين إشارة إلى عهد الانسان الأول فإنه كان يستظل في تلك الجنة التي كان فيها بورق التين ، والزيتون إشارة إلى عهد نوح فقد ارسل بعض الطيور لعله يأتي بخبر انكشاف الماء عن الأرض فغاب ولم يأت بخير ثم ارسل آخر فجاء إليه يحمل ورقة من الزيتون ، فاستبشروا وعرف ان غضب الله قد سكن وقد اذن للأرض أن تعمر وطور سنين إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية وظهور نور التوحيد في العالم بعد ما تدنست جوانب الأرض بالوثنية ، ثم لما طال الأمد على البشرية حتى كادت أن تطمس معالم التوحيد والحق والشرائع من الله على البشرية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ ويفصل بين ما سبق من أطوار الانسانية

وبين ما يباحق وهو عهد ظهور النور المحمدى من مكة المكرمة وإليه الإشارة بذكر البلد الأمين وقد يكون القسم بالشئ لمنزلته وإظهار كرامته عند الله كفاً القسم بحياة الرسول والملائكة والقرآن توافق عجيب بين المقسم به والمقسم عليه قد يخفى على غير ذى العقل الذكى والنظر الشفاف والحس الدقيق، الذى يحكم على الأشياء بادية الرأى من غير رؤية وتفكير .

وقد ألف العلماء فى أقسام القرآن كتباً مستقلة ، ولعل أحفلها وأجلها - فيما أعلم - التبيان فى أقسام القرآن ، لابن القيم ، فمن أراد زيادة فى معرفة أسرار الأقسام فليرجع إليه ففيه ما يكفى ويثفى .

الشبهة السادسة

قال : إن القسم المسكى قد افتتح كثير من سورته بالفاظ غير ظاهرة المعنى مثل الموحم ، وطسم ، وكهيعص ، حم عسق والخطاب بها كالخطاب بالمهمل الذى لا يفيد ، وهو ينافى كون القرآن هدى وبياناً ، وهذه الكلمات ربما قصد بها التعمية أو التهويل أو إظهار القرآن فى مظهر عميق خيف ، أو هى رموز وضعت لتمييز بين المصاحف المختلفة التى كانت موضوعة عند العرب فثلاً د كهيعص ، رمزاً لمصحف ابن مسعود و «حم عسق» رمزاً لمصحف ابن عمر وهلم جرا ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآناً .

وأسرف بعض النصارى فى مجاوزة المعقول فقال على سبيل الحدس (١) أنها أحرف وضعها كتاب محمد برأس السورة اختصاراً من قولهم . أوعز إلى محمد ، وذلك على حد ما وضعه بعض كتابه من اليهود «كهيعص» برأس

(١) نقل هذا الهراء عن بعض النصارى « جرجيس سايل » المستشرق الانكليزى فى مقاله عن الاسلام وزعم أنه أدنى إلى الإصابة من أقوال المفسرين فى هذه الفواتح وليس هذا بمستغرب منه فانها شائعة نمرها من أخزم

سورة مريم اختصاراً من قولهم بالعبرانية «كهعيص» أى هكذا أمر (١) - وهذا الكلام منقوض بما يأتي :

١ - دعوى أن هذه الألفاظ ليس لها مدلول دعوى من لم يطلع على آراء العلماء فيها ، وقد ذهب الكثيرون إلى أنها أسماء للسور ، وذهب المحققون إلى أنها أسماء للحروف الهجائية المعروفة ، وفائدة ذكرها في فواتح السور : أما إقامة الحجة على إعجاز القرآن من أقصر طريق وأسهله ، ذلك أن هذا القرآن مركب من جنس هذه الحروف الهجائية التى منها يركبون كلامهم ، وبها يخاطبون ، وقد تحداهم المرة تلو المرة أن يأتوا بشئ منه ، فعجزوا وما استطاعوا ، فكان هذا دليلاً ساطعاً على أنه ليس من عند بشر وإنما هو من عند خالق القوى والقدر ، وإما تنبيه السامع إلى ما يتلى بعدها لاستقلالها بنوع من الإغراب فهى كأداة التنبيه لما يتلى بعدها فيفرغ السامع لذلك قلبه وسمعه فتقوم عليه الحجة باستماع القرآن وقد يقع الكلام من نفسه موقع التأثير فيؤدى به إلى الإيمان ، فهى إذا ليست غير مفهومة المعنى والخطاب بها ليس من قبيل الخطاب بها ليس من قبيل الخطاب بما لا معنى له .

ولو سلمنا أنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه فلا تنهض للطعن في كون القرآن هدى وبياناً ، لأنها ألفاظ قليلة جداً بالنسبة إلى الألوف المؤلفة من كلمات القرآن التى تدل معنى معروف عند المخاطبين ، وهى على هذا الوجه جاءت لحكمة سامية وهو الإبتلاء والاختبار ليظهر قوى الإيمان من ضعيفه وراسخ العلم من عدمه (فأما الذين فى تلوهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب) (٢) فلم يكن وجودها فى القرآن عبثاً وحاشا لله أن يكون فى القرآن شئ منه .

(١) نقض مطاعن القرآن ص ٨٠ هامش .

(٢) آل عمران ٧ .

٢ -- دعوى أنها ألفاظ قصد بها التعمية ، أو التهويل ، أو أنها رموز لمصاحف ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن دعوى لم يقيم عليها إثارة من علم ، وإنما هو أمر فرضى وتشكيك بين أمرين ثبوت أحدهما ينفي الآخر فكونها قصد بها التهويل الخ يقتضى أنها نطق بها الرسول وكانت فى عهده وكونها رموز الخ يقتضى أن لا تكون نطق بها الرسول ولا كانت فى عهده ، والأمور الفرضية والتشكيكات لا تليق بالبحث النظرية القويم فى كتاب كريم ، توارث الدلائل على تواتره فى جملته وتفصيله وسلامته من التبديل والتحريف .

ولو فتحنا باب الفروض والتخمينات التى لا سند لها من عقل ولا نقل لم تثبت حقيقة ولعاد ذلك بالنقض على الكثير من العلوم والمعارف .

ودعوى أنها من وضع بعض الكتبة اليهود الذين كانوا يكتبون الوحى للنبي صلى الله عليه وسلم أشد من تلك بطلانا فى أى كتاب من كتب التواريخ العربى منها وغير العربى أن النبي كان له كتبة من اليهود ؟ وكيف يأتى النبي يهوديا على كتابة الوحى وعنده صفوة من أصحابه المخلصين الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة ؟ وفى أى لغة من لغات العالم أن دلم ، أو دطس ، أو كهيعص ، معناها أوعز إلى محمد أو أمرنى محمد وما ذكره الطاعن النصرانى فى د كهيعص ، لا يخرج عن عبث الصبيان فإن هذه الفاتحة لا تقرأ كما سول له هواه كي يجعل لها نسبا إلى العبرانية وإنما تقرأ على نهج آخر ثبت بالتواتر وتلقاه الخلف عن السلف والقراءة سنة متبعة ليست بالهوى ولا بالتشهى ، ولا يغيب عن ذهننا أن جل هذه الفوائح — وبخاصة فاتحة مريم — إنما نزل بمكة ومن قال أن مكة كان بها يهود ؟ ! الحق أن هذا الكلام لا يصدر إلا من تجرد من الحياء وصدق القائل إذا لم تستح فاصنع ما تشاء ! .

٣ — كيف غاب عن الناقد الباحث أن الصحابة والتابعين بالغوا جداً فى العناية بالقرآن والمحافظة عليه من أى دخيل حتى ولو كان حرقاؤهم حينما كتبوا المصاحف بالغوا فى تجريدها بما ليس بقرآن حتى أنهم لم يجمعوها

ولم يشكروها ولم يكتبوا أسماء السور وعدد الآيات في مقدمة كل سورة وما يوجد في المصاحف اليوم من النقط والشكل وكتابة أسماء السور فذلك أمر مستحدث في العصر الأموي فكيف يجوز الناقد الباحث أن تكون هذه الألفاظ رموزاً لمصاحف الصحابة ثم لحقت بمرور الزمن بالقرآن؟ وهل هذا يتفق هو وقواعد النقد التحليل الذي كثيراً ما يلجج به؟ وكيف غاب عن ذهن الناقد الباحث أن القرآن لم يكن يتلقى من المصاحف وإنما كان يتلقى بالرواية والسماع، وأنه ثابت بالتواتر الشفاهي يأخذه الخلف عن السلف إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإنما كانت كتابة القرآن زيادة في التوثق والاطمئنان وليجتمع للقرآن الحفظ في السطور إلى الحفظ في الصدور، الحق أنه ما كان يليق بباحث ناقد أن يغفل كل هذا.

«وبعد، فلعلك أيها القارئ أدركت معنى أن هذه الشبه باطلة، وأنها لا تعدو أن تكون هراء من القول دعا إليه موجدة قديمة، وسخيمة نفس أبت إلا أن تستعلن فبرزت في هذا الزور من القول، أو تعصب بغيبض وجهل فاضح بالقرآن ومقاصده، وأن محاولتهم إطفاء نور الله بأفواههم لمحاولة فاشلة» يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون^(١) فلا تلق إلى هذه الشبه بالا فهي لا تعدو أن تكون دعاوى من أديعاء، ويرحم الله القائل:

والدعاوى مالم تقيموا عليها يد
نات أبناؤها أديعاء.

وجرد من نفسك مجاهداً ينافح عن كتاب الله بلسانه وقلبه، فإن المناخفة عن الحق أشرف الجهاد وأسماء، وكتاب الله كله حق وهدى ونور وصدق وعدل، وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته، (٢) «وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (٣)

(١) التوبة ٢٢ (٢) الانعام ١١٥

(٣) فصلا ٤١، ٤٢

صلات تتعلق بالمسكى والمدنى

وهناك أنواع ذكرها السيوطى فى اتقائه ، وهى بسبب من المسكى والمدنى كالخضرى والسفرى ، والليلى والنهارى ، والصيفى والشتائى وما تقدم نزوله على حكمه ، وما تأخر نزوله عن حكمه . وأيضاً ذكر مما يتعلق بالمسكى والمدنى وما حمل من مكة الى المدينة ، وما حمل من المدينة الى مكة أو غيرها ، وقد أفاض الإمام السيوطى فى ضرب الأمثلة ، ولن نفعل مثل ما فعل ، ولسكنا سنكتفى بضرب بعض الأمثلة ، ومن أراد استيعاباً فعليه بالرجوع الى الإتيقان (١)

الصلة الأولى

الخضرى والسفرى : أمثلة الخضرى كثيرة ، وجل القرآن نزل فى الخضر ، أما السفرى فله أمثلة منها :

(١) قوله تعالى « وأتموا الحج والعمرة لله » ، ودليله ما أخرجه ابن أبى حاتم عن صفوان بن أمية قال جاء رجل إلى النبي ﷺ مضمخ بالزعفران عليه جبة فقال : كيف تأمرنى فى عمرتى ؟ فنزلت ، فقال : أين السائل عن العمرة ؟ ألقى عنك ثيابك ثم اغتسل الحديث (٢) ، وقوله فى هذه الآية « فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه » الآية (٣) نزلت بالحديبية ، كما أخرجه أحمد عن كعب بن عجرة الذى نزلت فيه ، والواحدى عن ابن عباس (٢) قوله تعالى : وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم

(١) ج ١ ص ١٨ - ٢٢

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره بعد ما ساق هذا الحديث . هذا حديث غريب وسياق عجيب ، ثم بين أن القصة التى فى الصحيحين عن يعلى بن أمية ، وليس فيها ذكر نزول الآية (٣) البقرة ١٩٦

معك ، الآية (١) نزلت بعسفان بين الظهر والعصر ، كما أخرجه أحمد عن أبي عياش الزرقى .

(٢) قوله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم ... ، ففي الصحيح عن عمر أنها نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع .

(٤) قوله تعالى : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك » الآيات (٢) نزلت في غزوة تبوك ، كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس (٥) سورة الفتح ، ففي صحيح البخارى فى قصة عمر مع رسوله رسول الله ﷺ أن النبي قال : لقد أنزلت على الليلة سورة لهى أحب إلى ما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، وكان ذلك منصرفه من الحديبية ، وأخرج الحاكم فى المستدرک عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من من أولها إلى آخرها .

(٦) سورة المنافقين ، أخرج الترمذى عن سفيان أنها نزلت فى غزوة بنى المصطلق ، وبه جزم ابن اسحاق وغيره .

(٧) سورة المرسلات ، أخرج الشيخان عن ابن مسعود قال : بينهما نحن مع النبي ﷺ فى غار بمنى إذ نزلت عليه : والمرسلات الحديث .

الصلة الثانية

النهارى والليلي : - أمثلة النهارى كثيرة جداً قال ابن حبيب : نزل أكثر القرآن نهياراً ، أما الليلى فمن أمثلته .

(١) قوله تعالى : « إن فى خلق السموات الأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » (٢) فقد أخرج ابن حبان فى صحيحه وابن

(١) النساء ١٠٢

(٢) التوبة ٤٢ وما بعدها

(٣) آل عمران ١٩٠

المنذر وابن مرداويه وابن أبي الدنيا في كتاب «التفكير» عن عائشة أن بلالا أتى النبي ﷺ يؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكي فقال: يا رسول الله ما يبكيك قال : وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل على هذه الليلة - وإن في خلق السموات الآيات - ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر.

٢ - آية الثلاثة الذين خلفوا وهي دو على الثلاثة الذين خلفوا، الآية (١) في الصحيحين من حديث كعب فأنزل الله توبتنا حين بقى الثلث الأخير من الليل والثلاثة كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع .

٣ - سورة مريم روى الطبراني عن أبي مريم الغسالي قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : ولدت لى الليلة جارية فقال : واللييلة أنزلت على سورة مريم ، سمها مريم .

٤ - سورة الفتح في الحديث الصحيح أن ذلك كان ليلا

٥ - آية التيمم التي فى المائة فى الصحيح عن عائشة وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد فنزلت : يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ، إلى قوله «لعلكم تشكرون» (٢)

٦ - قوله تعالى : «ليس لك من الأمر شيء» الآية (٣) فى الصحيح أنها نزلت والنبي فى الركعة الأخيرة من صلاة الصبح حين أراد أن يقنت يدعو على أبى سفيان ومن ذكر معه .

الصلاة الثالثة

الصيف والشتاء (٤) : مما لاشك فيه أن القرآن نزلت منه آى كثيرة

(١) التوبة ١١٨ (٢) المائة / ٦

(٣) آل عمران ١٢٨

(٤) الظاهر أن مرادهم بالصيف أيام الحر وما يقرب منها وبالشتاء أيام البرد

في الصيف، وآى كثيرة في الشتاء فمن أمثلة الصيف وقد أحصى أحد العلماء بعضاً من ذلك .

١ - قال الواحدى أنزل الله في الكلاله آيتين إحداهما في الشتاء ، وهى التى فى أول النساء « وإن كان رجل يورث كلاله النخ (١) والآخرى في الصيف وهى التى فى آخرها ويستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله الاية (٢) وفي صحيح مسلم عن عمر قال : ما راجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شىء ما راجعته فى الكلاله . وما أغلظ فى شىء ما أغلظ لى فيه حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال يا عمر : ألا تسكفك آية الصيف التى فى آخر النساء ؟ وقد كان ذلك فى سفر حجة الوداع ، فيعد من الصيف ما نزل فيها كأول المائدة و (اليوم أكملت لكم دينكم)

٢ - ومن الصيف الايات النازلة فى غزوة تبوك فقد كانت فى شدة الحر كما دل عليه القرآن والسنة .

وذلك مثل لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لا تبعوك الاية ، ومثل آية « وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون » (٣) وآية « ومنهم من يقول انذنى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا ، الاية (٤) »

ومن أمثلة الشتاء :

١ - قوله تعالى : « إن الذين جاؤا بالإفك ، إلى قوله ، ورزق كريم » فى الصحيح عن عائشة أنها نزلت فى يوم شات .

٢ - الايات التى نزلت فى غزوة الخندق فى سورة الأحزاب فقد كانت فى شدة البرد كما يدل على ذلك القرآن وما ذكر فى المغازى فى حديث حذيفة

وما يدنو منها وبهذا الاعتبار تكون السنة ما بين صيف وشتاء إذا أيام الاعتدالين الربيع والخريف أما قريبة من الصيف أو قريبة من الشتاء

(١) النساء / ١٢ (٢) النساء ١٧٦

(٣) التوبة ٨١ / (٤) التوبة ٤٩

تفرق الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب إلا اثني عشر رجلاً فأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قم فانطلق إلى معسكر الأحزاب ، قلت يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما قت لك إلا حياة من البرد ، الحديث وفيه فأنزل الله : يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً لم تروها ، الخ الايات (١) أخرجه البيهقي قى الدلائل .

الصلة الرابعة

ما تأخر حكمه عن نزوله وما تأخر نزوله عن حكمه (٢)

فمن أمثلة ما تأخر حكمه عن نزوله .

١ — قوله تعالى : « قد أفلح من تركى وذكر اسم ربه فصلى (٣) » فقد روى البيهقي وغيره عن ابن عمر أنها نزلت فى زكاة الفطر . وقد استشكل ذلك لأن السورة مكية ولم يكن بمكة عيد مشروع ولا زكاة ولا صوم ، وقد أجاب البغوى بأنه يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم وهو جواب حسن

٢ — قوله تعالى : سيهزم الجمع ويولون الدبر (٤) فقد نزلت بمكة قطعاً ولم يكن شرع الجهاد ، وقد استشكل عمر ذلك ثم تبين له أن المراد بالجمع جمع بدر فقد روى عنه أنه قال حين نزلت الآية ، أى جمع فلما كان يوم بدر وانهمزت قریش نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آثارهم مصلتا بالسيف يقول « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فكانت ليوم بدر ، فيكون من الإشارات والنبوءات الغيبية التى أظهرت الايام صدقها ، وكانت من دلائل النبوة .

(١) الأحزاب ٩ وما بعدها

(٢) الانشقاق ١٦ - ٢٧ (٣) الاحقاف ١٤ / ١٥

(٤) القمر / ٤٥

(٢) — قوله تعالى : «قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعبد»^(١) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أن المراد بالحق السيف يعنى الجهاد واستشكل بأن الآية مكية متقدمة على فرض القتال ، والجواب أن هذا مما تقدم نزوله على حكمه ، ويؤيد تفسير ابن مسعود ما أخرجه الشيخان من حديثه أيضا . قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصبا فجعل يطعنها بعود كان في يده ويقول «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وما يبدىء الباطل وما يعبد» .

٤ — قوله تعالى : «وآتوا حقه يوم حصاده»^(٢) فالمراد بها الزكاة وقوله تعالى في سورة المزمل «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة»^(٣) فهذا مما تأخر حكمه عن نزوله إذ الزكاة إنما شرعت بالمدينة ، أقول ، : وهذا على رأى بعض العلماء ، وعلى أن السورتين كلتيهما مكيتان .

ويرى فريق العلماء أن فرض الزكاة كان بمكة ، أما تفصيل أحكامها وأنصبتها ، وبيان مصارفها فكان بالمدينة ، وعلى هذا فلا تكون الآيتان من هذا القبيل ، وأما الحكمة في تقدم النزول عن الحكم فقد أشار إليها ابن الحصار بقوله : «قد ذكر الله الزكاة في السور المسكيات كثيرا تصرفا وتصريحا وتعليلًا بأن الله سينجز وعده لرسوله ويقيم دينه ، ويظهره حتى يفرض الصلاة والزكاة وسائر الشرائع ولم تؤخذ الزكاة إلا بالمدينة بلا خلاف ، أقول : لعل مراده بالآخذ التنفيذ العملي فان ذلك لم يكن إلا بالمدينة قطعا ، أما أصل المشروعية فللعلماء فيها خلاف كما ذكرت ، وأيضا وليكون ذلك من أعلام صدقه ، ودلائل نبوته صلى الله عليه وسلم .

ومن أمثلة ما تأخر نزوله عن حكمه :

١ — آية الوضوء في صحيح البخارى عن عائشة قالت سقطت قلادة لى

[١] سبأ / ٤٩ [٢] الاسام ١٤١ [٣] المزمل ٢

بالبيداء ونحن داخلون المدينة ، فأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونزل
ففتى رأسه في حجرى راقداً وأقبل أبو بكر فلكزنى لكزة شديدة ، وقال
حبست الناس في قلادة ، ثم أن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ وحضرت
الصبح فالتس الماء فلم يوجد . فنزلت «يا أيها الذين آمنوا إذا اقمتم إلى الصلاة»
إلى قوله «لعلكم تشكرون» فالآية مدنية لإجماعاً ، وفرض الوضوء كان بمكة
مع فرض الصلاة قال ابن عبد البر . معلوم عند جميع أهل المغازى أنه صلى
الله عليه وسلم لم يصل منذ فرضت عليه الصلاة إلا بوضوء ولا بدفع ذلك
إلا جاهل أو معاند ، قال . والحكمة في نزول آية الوضوء مع تقدم العمل
به ليكون فرضه متلوا بالتنزيل ، وجوز غيره أن يكون أول الآية نزل
مقدماً مع فرض الوضوء ، ثم نزل بقيتها وهو ذكر التيمم في هذه القصة
ويرد هذا الاحتمال أن الآية مدنية بالإجماع .

٢ — آية الجمعة (١) فانها مدنية والجمعة فرضت بمكة ، وأما ما قاله ابن
الغرس : إن إقامة الجمعة لم تكن بمكة قط فيرده ما أخرجه ابن ماجه عن
عبد الرحمن بن كعب ابن مالك ، قال : كنت قائد أبي حسين ذهب بصره
فكننت إذا أخرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان يستغفر لأبي أمامة أسعد
ابن زرارة فقلت يا أبتاه أرايت صلاتك على أسعد بن زرارة كلما سمعت
النداء بالجمعة لم هذا ؟ قال : أى بنى كان أول من صلى بنا الجمعة قبل مقدم
رسول الله ﷺ من مكة .

الصلوة الخامسة

ماحل من مكة إلى المدينة : فمن أمثلة ذلك سورة سبح ، فقد أخرج
البخارى عن البراء بن عازب أنه قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبي
ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، فجعلوا يقرءنا القرآن ثم جاء عمار

وبلال وسعد ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ثم جاء النبي ﷺ ، فראيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون هذا رسول الله ﷺ قد جاء ، فما جاء حتى قرأت « سبح اسم ربك الأعلى » في سور مثلها من المفصل .

ماحمل من المدينة إلى مكة : من ذلك قوله تعالى ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، الآية (١) وهذا أنما يتجه على أن السائل هم المشركون فقد روى أن وفدا منهم قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم بعد سرية عبد الله بن جحش وقتلهم ابن الحضرمي من المشركين وكان ذلك في آخر يوم من جمادى الآخرة ، وأرجف المشركون وقالوا ، إنهم قتلوه في الشهر الحرام أي رجب ، فأنزل الله الآية دفاعا عن السرية ، واعتذاراً عما بدر منها ، وأنه شيء قليل بجانب ما يصدر عن المشركين من إجرام في حق الله ودينه وبينته والمسلمين فيكون الوفد لما قرئت عليه حملها معه ، أو أرسل النبي صلى الله عليه وسلم من حملها إليهم في مكة .

ومن ذلك أيضاً صدر سورة براءة فقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم به علياً ليقرأه على الناس في الموسم سنة تسع كما في الصحيح ، ومن ذلك آية الربا في سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين » فقد اختلف بنو عمرو بن عмир من ثقيف مع بني المغيرة ابن عبد الله ورفعوا الأمر إلى أمير مكة عتاب بن أسيد فرفع الأمر إلى رسول الله فنزلت فأرسل بها النبي إلى عتاب بن أسيد (٢)

ماحمل من المدينة إلى الحبشة : ومثاله كسورة مريم فقد صح أن جعفر ابن أبي طالب قرأها على النجاشي لما ذهب رسولاً قريش إلى النجاشي كي يرد المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة إلى مكة فأبى حتى يسمع كلامهم فتسكلم

(١) البقرة ٢١٧

(٢) تفسير ابن كثير والبغوى جزء ٢ ص ٦٤

جعفر بن أبي طالب فأحسن وأجاد فقال له النجاشي هل معك من شيء مما جاء به عن الله تقرأه علي ؟ فقال جعفر نعم وقرأ عليه سورة مريم فلما سمع النجاشي السورة قال : إن هذا والله جاء به موسى ليخرج من مشكاه واحدة وقال البطارقة : هذه كلمات تصدر من النبع الذي صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح .

ما حمل من المدينة إلى الزوم : ومثاله قوله تعالى ، قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون فقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبها في الكتاب الذي بعث إلى هرقل عظيم الروم (١) والمقوقس عظيم مصر .

الصلة السادسة

ما نزل مفزقاً وما نزل جمعاً :

أما الأول فأمثلته كثيرة لا يحصىها العد لأن غالب القرآن نزل كذلك . فمن ذلك في السور القصار سورة اقرأ فقد نزل صدرها إلى « ما لم يعلم » ، والمدثر نزل صدرها إلى « والرجز فاهجر » ، والضحى نزل صدرها إلى « فترضى » ، ثم نزلت أواخرها بعد هذا ، وفي السور الطوال صدر سورة براءة وصدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية بسبب وفد نجران لما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم .

ومثال الثاني في السور القصار الفاتحة والإخلاص والكوثر وتبت ولم يكن والنصر والمعوذتان ، وفي السور الطوال من المفصل والمرسلات ، وسورة الصف وما ذكره من السور الطوال سورة الأنعام فقد أخرج أبو عبيد

والطبراني عن ابن عباس قال : نزلت سورة الأنعام بمسكة ليلا جملة حولها سبعون ألف ملك ، وأخرج الطبراني عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نزلت سورة الإنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك ، وهذا الذي ذكره غير مسلم ، فان سورة الأنعام وإن كانت مكية إلا أن منها آيات مدنية قطعاً مثل قوله تعالى : وما قدروا الله حق قدره ، إلى ثلاث آيات فقد نزلت بسبب مالك بن الصيف أحد أخبار اليهود ، كما يدل على ذلك سبب النزول ، واستثنى بعض العلماء غير هذه الآيات الثلاث ، وأما الآثار التي ذكروها فلم تثبت ، قال ابن الصلاح في فتاويه : الحديث الوارد في أنها نزلت جملة واحدة رويناه من طريق أبي كعب ، وفي إسناده ضعف ، ولم تر له إسناداً صحيحاً وقد روى ما يخالفه ، فروى أنها لم تنزل جملة واحدة بل نزلت آيات منها بالمدينة اختلفوا في عددها فقتل ثلاث وقيل ست وقبل غير ذلك (١) .

أما نزولها مشبعة فأمر محتمل إذا ثبتت به الرواية ويكون التشيع لجلها وما نزل منها لا لجميعها كما ذكرنا .

المبحث السابع (جمع القرآن وتاريخه)

جمع القرآن يطلق تارة ويراد به حفظه وتقييده في الص - دور ويطلق تارة ويراد به كتابته في الصحف والسطور وجمع القرآن بهذا المعنى الثاني مر بأطوار ثلاثة .

(١) جمعه في عهد النبي ﷺ :

(٢) جمعه في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضى الله عنه .

(٣) جمعه في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وستنكم عن كل جمع منها مبینین خصائصه ومميزاته والأسباب الباعثة عليه

(جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور)

كان النبي ﷺ ينزل عليه القرآن الكريم فيقرؤه على صحابته على تودة وتمهل كي يحفظوا لفظه ويفقهوا معناه ؛ وكان النبي ﷺ سديد العناية بحفظ القرآن وتلقفه حتى بلغ من شدة عنايته به وحرصه عليه أنه كان يحرك به لسانه ويمالجه أشد المعالجة حتى كان يجد من ذلك شدة يقصد بذلك استعجال حفظ القرآن خشية أن تفلت منه كلمة أو يضيع منه حرف ، وما زال كذلك حتى طمأنه ربه ووعدته أن يحفظه له في صدره وأن يقرئه لفظه ويفهمه معناه قال تعالى : ولا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه^(١) ، وكان من دواعي حفظ القرآن وتثبيته في قلب النبي صلوات الله عليه معارضة جبريل عليه السلام إياه بالقرآن في رمضان من كل عام حتى كان العام الذي توفي فيه الرسول فعارضه مزتين ، وفهم النبي من ذلك قرب انتهاء أجله ، وكان القرآن شغل

النبي الشاغل في سره وعلايته ، وفي حضره وسفره ، وفي وحدته وبين صحابته وفي عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، لا يغيب عن قلبه ولا يألوا بجهـ بدأ في الاتِّمار بأوامره ونواهيه والاعتبار بمواعظه وقصصه والتأدب بآذابه وأخلاقه وتبليغه إلى الناس كافة فمن ثم كان النبي صلوات الله وسلامه عليه مرجع المسلمين في حفظ القرآن وفهمه والوقوف على أسراره ومراميهِ .

وأما الصحابة رضوان الله عليهم فقد جعلوا القرآن في المحل الأول يتنافسون في حفظ لفظه ويتسابقون في فهم معناه ، وجعلوه مسلاتهم في فراغهم ومتعبدهم في ليالهم حتى لقد كان يسمع لهم بقراءته دوى كدوى النحل . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالألحاح هم يستغفرون ،^(١) ولقد وصفهم واصف فقال : كانوا رهبانا بالليل فرسانا بالنهار ، وكان اعتمادهم في الحفظ على التلق والسماع من الرسول ، وما كانوا يعتمدون في حفظه على النقل من الصحف والسطور .

ومن خصائص هذه الأمة حفظها لكتاب ربها وهو القرآن في الحديث الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال : « إن ربي قال لي قم في قريش فأُنذرهم قلت أي ربي إذن يتلفوا رأسي حتى يدهء - وه خبزة - فقال : إني مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان ، فابعث جندا أبعث مثلهم ، وقال بمن أطاعك من عصاك وأنفق ينفق عليك ، فقد أخبر أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء وإنما محلها القلوب كما جاء في وصف هذه الأمة : أنا جيلهم في صدورهم ،^(٢) بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا في الكتب ولا يقرؤنه كله إلا نظر الاعن ظهر قلب

[١] الذاريات ١٧ ، ١٨ [٢] المراد كتابهم المقدس وهو القرآن لأن المسلمين ليس لهم أناجيل ، وإنما ذلك للنصارى .

فلا عجب والحال كما سمعت أن حفظ القرآن جم غفير من الصحابة منهم الخلفاء ، الأربعة وحذيفه ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وابن مسعود ، وأبو هريرة ، وابن عباس وابن الزبير ، وابن عمر ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص ، وأبوهم وغيرهم من المهاجرين ، ومن الأنصار : أبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وأبو الدرداء ، وأبو زيد ومهما يكن من شيء فقد حفظ القرآن الكثيرون من الصحابة في عهد النبي ولقد روى أنه قتل في يوم بئر معونة سبعون من القراء .

ولكن يشكل على ما ذكرنا ما رواه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك قال : مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة ، أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل . وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، وأبو زيد هذا اسمه قيس بن السكن كما رواه ابن أبي داود بإسناد صحيح على شرط البخاري عن أنس . أن أبا زيد الذي جمع القرآن اسمه قيس بن السكن قال : وكان رجلا منا من بني عدي بن النجار أحد عمومتى ومات ولم يدع عقباً ونحن ورثناه ، (١) قال ابن أبي داود : قد مات قريباً من وفاة النبي ﷺ فذهب عليه ، وكان عقبياً بدرياً .

والحق أن لا إشكال لأن مراد أنس الحصر الإضافي لا الحقيقي حتى يشكل الأمر إذ لا يتم له الحصر الحقيقي إلا إذا كان أنس لقي كل الصحابة وسألهم واحداً واحداً حتى يتم له الاستقراء وهذا أمر مستبعد في العادة ويدل أيضاً على أن أنس لم يقصد القصر الحقيقي أنه سأل قتادة عن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ فقال «أربعة كلهم من الأنصار» أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، قلت من أبو زيد ؟ قال أحد عمومتى ، رواه البخاري فقد ذكر في هذه الرواية «أبي بن كعب» بدل «أبي الدرداء» زد على هذا ما استفاض من أن الذين حفظوا القرآن على عهد

الرسول كثيرون غير هؤلاء منهم الخلفاء الاربعة ؛ وما لا يرتاب فيه أن الصديق رضى الله عنه كان يحفظ القرآن جميعه فى حياة الرسول لسكثرة ملازمته له وحرصه على تلقف كل ما يصدر عنه وفى الصحيح أنه بنى له مسجداً وهو فى مكة فى فناء داره فكان يقرأ فيه القرآن على ما كان فيه من جهد وبلاء حتى لقد خاف المشركون على نساءهم وأبنائهم أن يفتنوا بقراءته .

وقد أجاب العلماء السابقون - أثابهم الله - على حديث أنس فن قائل : لم يجمع القرآن غير هؤلاء الاربعة تلقينا من الرسول أما غيرهم فأخذوا بعضه بالتلقين وبعضه بالواسطة .

ومن قائل : أن المراد بالجمع الكتابة .

ومن قائل : لم يجمعه بجميع حروفه وقراءاته غير هؤلاء إلى غير ذلك من التأويلات .

والحق ماذهب اليه الحافظ ابن حجر فى الفتح من أن ذلك بالنسبة إلى الخزرج دون الأوس فلا ينافى أن الكثيرين غيرهم من المهاجرين قد حفظوه قال الحافظ د وفى غالب هذه الاحتمالات تكاف ؛ وقد ظهر لى احتمال آخر وهو أن المراد لإثبات ذلك للخزرج دون الأوس فلا ينفى ذلك عن غير القبيلتين من المهاجرين ؛ لأنه قال ذلك فى معرض المفاخرة بين الأوس والخزرج كما أخرجه ابن جرير بسنده عن أنس قال : انتخرا الحيان الأوس والخزرج فقال الأوس : منا أربعة من اهتز له العرش سعد بن معاذ ، ومن عدلت شهادته شهادة رجلين خزيمه بن ثابت ، ومن غسلته الملائكة حنظلة ابن عامر ، ومن حمته الدبر (١) عاصم بن أبى ثابت فقال الخزرج منا أربعة

(١) الدبر جماعه النحل ، والزنايير

جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم ، فذكرهم (١)

وأما بعد وفاته ﷺ فقد أتم حفظه الألوף المؤلفة من الصحابة وبحسبك أن تعلم أن من قتل من القراء في موقعة اليمامة كانوا سبعائة على ما قيل وعن الصحابة حفظه الألوף المؤلفة من التابعين ، وهكذا دواليك تلمقته طبقة عن طبقة بالحفظ والعناية والصيانة حتى وصل إلينا القرآن الكريم من غير زيادة ولا نقصان ولا تحريف ولا تبديل فكان تصديقا لقول الله : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

الحافظات من النساء : ولم يكن حفظ القرآن خاصاً بالرجال ، بل قد شارك فيه النساء ممنهن من كانت تحفظ بعضه ، ومنهن من كانت تحفظه كله قال الإمام السيوطي : ظفرت بامرأة من الصحابيات جمعت القرآن لم يعد لها أحد ممن تكلم في ذلك فأخرج ابن سعد في « الطبقات » ، قال : أنبأنا الفضل بن دكين ، حدثنا الوليد بن عبد الله بن جميع ، قال حدثني جدتي عن أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث ، وكان رسول الله ﷺ يزورها ، ويسميها الشهيذة ، وكانت قد جمعت القرآن « أن رسول الله ﷺ حين غزا بدرأ قالت له : أتأذن لي ، فأخرج معك ؟ أداوى جرحاً ثم وأمراض مرضاً ، لعل الله يهدي لي شهادة » ، قال : « ان الله مهدي لك شهادة » ، وكان رسول الله ﷺ أمرها أن تؤم أهل دارها ، وكان لها مؤذن فعضمها غلام لها وجارية كانت قد دبرتها ، فقتلها في إمارة عمر رضي الله عنه ، فقال عمر صدق رسول الله ﷺ ، كان يقول : « انطلقوا بنا ، نزور الشهيذة » ، (٢) فأكرم بها من مسئلة حافظة .

جمع القرآن بمعنى كتابته

في عهد النبي ﷺ

لم يسكتف النبي ﷺ بحفظ القرآن وإقرائه لأصحابه وحفظهم له . بل جمع إلى ذلك كتابته وتقييده في السطور ، وكان للنبي كتاب يكتبون الوحي منهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وأبان ابن سعيد وخالد بن الوليد ومعاوية ابن أبي سفيان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وغيرهم ، فكان إذا نزل على النبي من الوحي شيء دعى بعض من يكتب فيأمره بكتابة ما نزل وإرشاده إلى موضعه وكيفية كتابته على حسب ما كان يرشده إليه أمين الوحي جبريل ، روى عن ابن عباس أنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال . ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا ،

وعن زيد بن ثابت قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع ، قال البيهقي : يشبه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الايات المفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي صلى الله عليه وسلم ولم تكن أدوات الكتابة ميسرة في ذلك الوقت ، فلذلك كانوا يكتبونه على حسب ما تيسر لهم في الرقاع والعصب والاكتاف واللخاف والاقتاب (١)

(١) الرقاع جمع رقعة وقد تكون من جلد أو قماش أو ورق ، العصب : جمع عصب طرف الجريد العويض كالوا يكشطون الخوص ويكتبون فيه ، والاكتاف جمع كنف وهي العظام العريضة من أكتاف الحيوان كالابل والبقر والغنم ، واللخاف بكسر اللام : جمع لخفه بفتح فسكون وهي الحجارة الرقيقة ، والاقتاب جمع قتب وهي الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه .

ونحوها وقد كان القرآن كله مكتوباً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان مفرقاً ، وكانت كتابته بالأحرف السبعة التي نزل بها .

وأما الصحابة فقد كان بعضهم لا يكتب القرآن اعتماداً على الحفظ وسيلان الأذهان ، كما هو شأن العرب في حفظ شعرها ونثرها وأنسابها ، وبعضهم كان يكتب ولكن كان مفرقاً ؛ وكان بعض الصحابة لا يقتصرون فيما يكتبونه على ما ثبت بالتواتر ، بل كانوا يكتبون الممنوخ تلاوة وبعض تفسيرات وتأويلات لمعانيه ، وذلك كما فعل ابن مسعود وأبي وغيرهما .

وخلاصة القول أن القرآن كله كتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن كان مفرقاً ، وكذلك كتب بعض الصحابة القرآن أو ما تيسر لهم منه ، وإن لم تبلغ كتابتهم في الوثوق مبلغ ما كتب بين يدي النبي ، وقد أذن النبي لأصحابه في كتابة القرآن دون السنة ، ففي صحيح مسلم : لا تكتبوا عني غير القرآن ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه ، وطبعي أن المكتوب في هذا العهد لم يكن مرتب السور والآيات ضرورة التفريق في العسب والاكتاف والرقاع (١) ونحوها ، وليس معنى هذا أنهم كانوا يقرؤنه مرتب الآيات على حسب ما أوقفهم عليه الرسول بإرشاد جبريل عن رب العالمين وعلى ما هو عليه اليوم والسبب الباعث على كتابته في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

١ — معاضدة المكتوب للمحفوظ لتتوفر للقرآن كل عوامل الحفظ والبقاء ولذا كان المعول عليه عند الجمع الحفظ والكتابة .

٢ — تبليغ الوحي على الوجه الأكمل لأن الاعتماد على حفظ الصحابة فحسب غير كاف لأنهم عرضة للنسيان أو الموت أما الكتابة فباقية لا تزول وإنما لم يجمع النبي صلى الله عليه وسلم القرآن في مكان واحد لما يأتي :

(١) أما ما كان مكتوباً في القطعة الواحدة فقد كان مرتب الآيات ولا ريب .

١ — ما كان يترقبه النبي من تتابع نزول الوحي ونزول بعض آيات ناسخة لبعض أحكامه وألفاظه .

٢ — ترتيب آيات القرآن وسوره لم يكن على حسب النزول بل كان على حسب تناسب الآي وتربطها وقد تنزل الآية أو السورة بعد الآية أو السورة وتكون في ترتيب الكتابة قبلها .

فلو كتب النبي صلى الله عليه وسلم القرآن كله في مكان واحد - والشأن كما ذكرنا - لكان عرضة للتغيير والإزالة والكشط والمحو ، وقد تكون كتابته في موضع واحد متعذرة إن لم تكن مستحيلة في كتاب نزل منجما في بضع وعشرين سنة فلما انقضى الوحي بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وأمن النسخ وعرف الترتيب ألهم الله سبحانه الخلفاء الراشدين فقاموا بجمع القرآن في الصحف كما حدث في عهد الصديق رضي الله عنه وفي المصاحف كما كما حدث في عهد عثمان رضي الله عنه .
وهكذا نرى أن كتابته مفترقا في العهد النبوي ضرورة لا يحصى عنها .

جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه

لما تولى أبو بكر الصديق الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كان أول عمل قام به محاربة أهل الردة والقضاء على هذه الفتنة وبذلك أقام عمود الإسلام وثبت دعائمه بعد أن كادت تنقوض ، ولما وقعت موقعة اليمامة سنة اثنتي عشرة للهجرة استحر^(١) القتل في الصحابة ومات من حفاظ القرآن خلق كثير قبل خمسمائة^(٢) وقيل سبعمائة ، فخشى الفاروق عمر رضي الله عنه الذي جعل الله الحق على لسانه وقلبه أن يكثر القتل في القراء في بقية المواطن ، وربما كان عندهم شيء من القرآن فيضيع بموتهم ، فأشار على أبي بكر أن يجمع القرآن في مكان واحد ، وصحف بمجموعة بدل وجوده مفترقا في العصب ،

واللخاف ، والرقاع وغيرها ، فتردد أبو بكر أول الأمر ، ولكن لم يزل به
الفاروق حتى وافق وثبت عنده أن جمع القرآن ليس من المحدثات ، وأن
قواعد الدين والشرعية تدعو إليه فأرسل الصديق إلى زيد بن ثابت ونذبه
للقيام بهذا العمل الجليل فراجعهما ، ولم يزل به حتى ظهر له الحق واستبان
له الرشd ، وعلم أن الحق فيما أشارا به فجمعه بعد جهد جهيد ، وإليك
ما رواه البخارى فى صحيحه بسنده عن زيد بن ثابت (١) قال أرسل إلى
إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر : إن
عمر بن الخطاب أتانى فقال : إن القتل استحر — اشتد — بقراء القرآن
ولأنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن ،
ولأنى أرى أن يجمع القرآن فقلت لعمر : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول

(١) هو الصحابى الجليل زيد بن ثابت بن الضحاك يمتنى نسبه إلى مالك بن النجار
الأنصارى ، الخزرجى ، استصغر يوم أحد هو وبعض شباب الصحابة ، ثم شهد
أحدا وما بعدها وكان من كتاب الوحي المعدودين لرسول الله صلى الله عليه وسلم
والظاهر أن كان أكثر الكتاب نفرا للكتابة . وقد أمره النبي صلى الله عليه وسلم
أن يتعلم كتابة اليهود ، فعملها فى خمسة عشر يوما كما فى صحيح البخارى ، وكان من
علماء الصحابة ، وأئمة الفتوى منهم ، قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « أفرضكم
زيد ، رواه أحمد يعنى أكثركم علما بعلم الموارث ، قال فيه ابن سعد : كان زيد
رأسا بالمدينة فى القضاء ، والفتوى ، والقراءة ، والفرائض .

وروى البغوى بإسناد صحيح عن خارجة بن زيد قال : كان عمر يستخلف زيد
ابن ثابت إذا سافر ، فقلبا يرجع إلا أنطلمه حديقة من نخل ، وكان من الراشدين
فى العلم ومن خصائصه أنه حضر العرصة الآخرة للقرآن التى عرضها النبي صلى
الله عليه وسلم على جبريل عليه السلام وهذا من أعظم الموهلات التى أهلته لهذا
العمل الكبير . جمع القرآن فى عهد الصديق ، وعهد ذى النورين عثمان وكانت
وفاته سنة اثنين ، أو ثلاث ، أو خمس وأربعين وقيل غير ذلك فرضى الله
عنه وأرضاه .

الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر . هو والله خير فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر ، قال زيد . قال أبو بكر ، انك رجل شاب عاقل لا تهتمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا هو - والله - خير فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فتتبع القرآن أجمعه من العصب والخفاف وصدور الرجال ووجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الانصارى لم أجدهما مع غيره . « لقد جاءكم رسول من أنفسكم . . . إلى آخر السورة » فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر فى حياته ثم عند حفصة بنت عمر ، وفى رواية أخرى مع خزيمة أو أبو خزيمة بالشك والاولى هى المعتمدة (١) . وقد أخرج ابن أبى داود من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبابكر قال لعمر ولزيد . « اقعدا على باب المسجد فنجاهما بشاهدين على شئ » من كتاب الله فاكتباه ، منقطع رجاله ثقات وقد اختلف فى المراد بالشاهدين ، فقال الحافظ بن حجر . المراد بالشاهدين الحفظ والكتابة ، وقال السخاوى : المراد بالشاهدين أنهما يشهدان أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان غرضهم أن

(١) أبو خزيمة الذى وجدت عنده آخر سورة التوبة غير خزيمة الذى وجدت عنده آية الاحزاب ، فالاول هو أبو خزيمة بن أوس بن يزيد بن أصرم من بنى النجار شهد بدرا وما بعدها وتوفى فى خلافة عثمان ، وأما الثانى فهو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة يعرف بذى الشهادتين شهد بدرا وما بعدها وقتل وهو على بصفين (تفسير الخازن ١ ص ٩) (فتح البارى ٨ ص ٢٧٧ ، ٤٢١ ، ٩٢ ص ١٧٠ ، ١٧١)

لا يكتب القرآن إلا من عين ما كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لا من مجرد الحفظ : وبهذا تعلم أنهم بالنوا في التوثق في كتابة القرآن فلم يقبلوه إلا من المصدرين معا وهما الحفظ والكتابة وعلى ذلك يعمل قول زيد في الحديث السابق في الآيتين من آخر سورة التوبة : لم أجدتهما إلا مع أبي خزيمة الأنصاري أن المراد لم أجدتهما مكتوبتين عند غيره ممن كانوا يكتبون الوحي وليس المراد أنه لم يكن يحفظهما غيره بل كان يحفظها الكثيرون^(١) ويتلونهما في الصلاة ومنهم زيد بن ثابت نفسه .

والسبب الباعث على كتابته في عهد أبي بكر خوف ضياع شيء منه بموت الكثير من القراء والحفاظ في الحروب ، وقد يكون عند أحدهم شيء من القرآن المكتوب يضيع بموته ، وقد سمعت أنفا أن الاعتماد في الجمع كان على الحفظ والكتابة ولذلك كانت العناية بالغة بالصحف التي جمعت في عهد أبي بكر فكانت عنده حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصه^(٢) حتى طلبها منها عثمان رضي الله عنه في الجمع الثالث .

ولا يعارض هذا ما أخرجه ابن أبي داود من طريق ابن سيرين قال : قال علي : لما مات رسول الله ﷺ آليت أن لا آخذ على ردائي إلا لصلاة جمعة حتى أجمع القرآن بجمعه ، فقد قال الحافظ ابن حجر : هذا الأثر ضعيف لا نقطاعه وبتقدير صحته فراه بجمعه حفظه في صدره وما تقدم من رواية عبد خير عنه أصح . فهو المعتمد ، ومراد الحافظ برواية عبد خير ما أخرجه

(١) وقد ثبت في الروايات أن عمر كان يحفظها وأن عثمان كان يحفظها أيضا وأن أبي بن كعب كان يحفظها [فتح الباري ص ٩٥ ص ١٠] ولو لم يحفظها إلا هؤلاء الحفاظ السكابر الخمسة لسكنى ، فالواحد في معيار العدالة والضبط والشعة يعتبر بألف .

(٢) لأن أباها الفاروق كان أوصى بذلك ، فهي زوج رسول الله ﷺ ، وأحق من يرعى هذه الأمانة الغالية .

ابن أبي داود بسند حسن عن عبد خير قال سمعت علياً يقول : «أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع كتاب الله» .

أقول : وعلى فرض صحة ما روى عن سيدنا علي ، وأن المراد بالجمع الكتابة لا يعارض الثابت المشهور من أن أبا بكر هو أول من جمع القرآن ، إذ ليس في رواية ابن سيرين التصريح بالأولية بل الذي صح عن علي خلافها ، وغاية ما تدل عليه أنه سارع إلى كتابة القرآن فهو كثيره من الصحابة الذين عنوا بكتابة مصاحف لأنفسهم خاصة ولم تكن لهذه المصاحف من الثقة بها والإجماع عليها والقبول لها مثل ما لمصحف أبي بكر فجمع الصديق أبي بكر بهذه الاعتبارات يعتبر بحق أول جمع .
وقد امتاز الجمع في عهد أبي بكر بما يأتي :

(١) أنه اقتصر فيه على ما لم تنسخ تلاوته وجردته من كل ما ليس بقرآن .

(٢) أنه لم يقبل فيه إلا ما أجمع الجميع على أنه قرآن وتواترت روايته ، وأما ما روى عن زيد في آخر سورة براءة فقد علمت المراد منه .

(٣) أنه كان مكتوباً بجميع الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن .

(٤) أنه كان مرتب الآيات على الوضع الذي نقرؤه اليوم ، ولم يكن مرتب السور فكانت كل سورة مستقلة في الكتابة بنفسها في صحف . ثم جمعت هذه الصحف وشدت بعضها إلى بعض .

وما ينبغي أن يعلم أن الجمع بهذه الدقة الفائقة والتثبت البالغ والاشتغال على هذه المميزات لم يكن أغير صحف أبي بكر رضي الله عنه فهي النسخة الأصاية الموثوق بها التي يجب الاعتماد عليها نعم قد كانت هناك صحف ومصاحف لبعض الصحابة كتبوا فيها القرآن إلا أنها لم تحظ بما حظيت به صحف أبي بكر من الدقة والميزات فبعض الصحابة كان يكتب المنسوخ ،
(م ١٨ - المدخل)

وما ثبت برواية الأحاد ، وبعض تفسيرات وتأويلات لآية وبعض أدعية ،
وما ثورات . فكن على ذكر من هذا فإنه سيفيدنا في إزالة أشكالك بعض
الروايات الواردة عن بعض أصحاب هذه المصاحف والتي اتخذ منها بعض
المارقين وسيلة للطعن في القرآن الكريم .

جمع القرآن في عهد عثمان رضى الله عنه

لما كان عهد عثمان رضى الله عنه وتفرق الصحابة في البلدان وحمل كل
منهم من القراءات ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد يكون
عند أحدهم من القراءات ما ليس عند غيره ، اختلف
الناس في القراءات ، وصار كل قارىء ينتصر لقراءته ، ويخطئ قراءه
غيره وعظم الأمر ، واشتد الخلاف ، فأفزع ذلك عثمان رضى الله عنه
وخشى عواقب هذا الاختلاف السيئة في التقليل من الثقة بالقرآن
الكريم وقراءاته الثابتة ، وهو أساس عروة المسلمين ، ورمز وحدتهم
السكبرى ؛ أخرج ابن أبى داود فى المصاحف من طريق أبى قلابة قال :
لما كان عهد عثمان جعل المعلم يعلم قرءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ،
يجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفر
بعضهم بعضا فبلغ ذلك عثمان فقال أنتم عندى تختلفون فمن نأى عنى من
الأمصار أشد اختلافاً ، وقد تحقق ظنه لما جاء حذيفة ابن اليمان وأخبره بما
وقع بين أهل الشام والعراق من الاختلاف فى القراءة فى غزوة أرمينية
فهاهنا الأمر ، وتشاور هو والصحابة فيما ينبغي ، فرأى ورأوا معه أن يجمع
الناس على مصحف واحد ، لا يتأنى فيه اختلاف ، ولا تنازع ، فأرسل
إلى حفصة رضى الله عنها أن ارسلى إلينا بالمصحف التى كتبت فى عهد أبى بكر
ثم انتقلت بعد موته إلى عمر ثم بعد عمر إلى حفصة ؛ لتكون أساسا فى جمع القرآن جمعا
يقلل من الاختلاف والتنازع ، ثم عهد عثمان إلى زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير (١)

(١) هو الصحابى الجليل عبد الله بن الزبير بن العوام القرشى ، الاسدى ، أبوه =

ابن العاص (١) وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام (٢) أن ينسخوا الصحف في مصاحف وقال للرهمط القرشيين إذا اختلفتم أتمم وزيد فاكسبوه بلسان

== الزبير حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبن عمته السيدة صفية ، وأمه السيدة أسماء بنت الصديق ، ذات النطاقين كما سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أول مولود ولد للمهاجرين بالمدينة ، ولما ولد فرح المسلمون وكبروا . لأن اليهود ، زعموا أنهم سحرروا المهاجرين فلا يولد لهم أحد ، ولما ولد جاءت به أمه إلى النبي لحنكه ، وسماه عبدالله ، ودعا له بخير . وقد جاء إلى النبي وهو ابن سبع أو ثمان سنين ، فبما يع النبي وكان أشبه الناس بجده الصديق ، وهو أحد العبادلة الأدبمة الذين اشتهروا بالعلم ، ورواية الأحاديث ، وعنوا بحفظ القرآن ، وأحد شجعان العرب وقد دانت له معظم الأقطار الإسلامية بعد موت يزيد بن معاوية ، وولى الخلافة ثم قتل شهيدا أثناء حصار الحجاج له بمكة سنة ثلاث وسبعين . وقد أهلته صفاته الخلقية ، وخصائصه العلية ، ولا سبها بالقرآن أن يكون أحد الأربعة الذين كتبوا المصاحف في عهد سيدنا عثمان ، فرضى الله عنه وأرضاه .

(١) هو الصحابي الجليل سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي الأموي أبو عثمان قال ابن أبي حاتم عن أبيه له صحبة وقال الحافظ بن حجر كان له يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم تسع سنين وقتل أبوه يوم بدر ، وكان من فصحاء قريش ولذا ضربه عثمان فيمن ندب لكتابة المصاحف قالوا فيه : إن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص لأنه كان أشبه الصحابة لهجة برسول الله ، وقد ولي إمارة الكوفة ، وغزا طبرستان ففتحها وغزا هرجان وكان حليما وقورا مشهورا بالكرم والبر مات بقره سنة بالحق سنة ثلاث وخمسين .

(٢) هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة القرشي المخزومي ، قال ابن حبان ولد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يسمع منه ، ثم ذكره في ثقات التابعين وما قيل من أنه كان ابن عشر في حياة النبي هو وم ، مات أبوه ==

قريش (١) فإنما نزل بلسانهم فقاموا بمهمتهم خير قيام وكتبوا المصاحف مرتبة بالسور على الوجه المعروف اليوم فلما انتهوا أرسل عثمان إلى كل مصر من الأمصار المشهورة بمصحف ليجمع الناس في القراء عليه تلافياً لما حدث في ذلك الوقت من الاختلاف والتنازع وأمر بما سواها من المصاحف أن يحرق أو يخرق وبذلك وفق الله عثمان والصحابة إلى لهذا العمل الجليل ، ثم رد المصحف إلى حفصة فبقيت عندها إلى أن توفيت ، فأرسل مروان ابن الحكم إلى أخيه عبد الله بن عمر عقب انصرافه من جنازتها أن يرسل إليه هذه المصحف فأرسلها إليه فأمر بها مروان فشقت وفي رواية أنه أمر بها فغسلت ، وفي رواية أخرى أنه حرقها (٢) وقال : إنما فعلت هذا لأنني خشيت أن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه المصحف مرتاب ، وكانت وفاتها - رضي الله عنها - عام واحد وأربعين ، وقيل عاشت إلى سنة خمس وأربعين .

يدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : إن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان رضي الله عنه وكان يغازي أهل

== وهو يجاهد في الشام في طاعون عمرواس ، فتزوج سيدنا عمرامه ، فنشأ في حجره ، وتزوج بنت سيدنا عثمان ، وقد ذكره البغوي والطبراني في الصحابة ، وذكره البخاري وأبو حاتم في التابعين وكان من أشراف قريش وابنه أبو بكر أحد الفقهاء السبعة مات سنة ثلاث وأربعين (الاصابة ١ ص ٦٦)

(١) لا تنافي بين الروايات لجواز أن تكون عملت أولاً ثم شقت ثانياً ثم حرقت ثالثاً .

(٢) يريد إذا اختلفت في رسم لفظ من ألفاظ القرآن فاكتبوه بالرسم الذي يوافق لغة قريش كما يدل على ذلك قصة اختلافهم في كتابة لفظ التابوت .

الشام في فتح أرمينية وأذربيجان (١) مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب إختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف فنسخها ثم يردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن أى في كتابته - فاكتبوه بلسان قريش فأبى أنزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف مما نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق وكان ذلك في أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين وهو الوقت الذي ذكر أهل التاريخ أن أرمينية فتحت فيه . وقد روى أن زيد بن ثابت قال : فقدت آية من سورة الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها قالتسناها فوجدناها مع خزيمه بن ثابت الأنصاري ومن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فهم من قضى نحبهم ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ، فالحقناها بسورتها في المصحف ، كما روى أنهم اختلفوا في كتابة التابوت فقال زيد بن ثابت : إنما هو التابوت بالهاء وقال الرهط القرشيون إنما هو التابوت بالتاء فرجعوا إلى عثمان فقال : اكتبوه بلسان قريش فان القرآن نزل بلغتهم .

« كتابة المصاحف مكرمة لسيدنا عثمان ،

(١) أرمينية بكسر الهمزة - وفتح - وسكون الراء وكسر الميم . وأذربيجان بفتح الهمزة وسكون الذاو وفتح الراء وكسر الباء أو هما إقليمان .

وقد اتخذ بعض المغرضين من أمر عثمان بتحريق ما عدا المصاحف التي كتبها ووجه بها الى الآفاق ذريعة للطعن فيه مع أنه لم يفعل ما فعل إلا بموافقة من الصحابة ذكر أبو بكر الأنباري في كتاب « الرد » عن سويد بن غفلة قال سمعت علي بن أبي طالب يقول : يا معشر الناس اتقوا الله وأياكم والغلو في عثمان وقولكم حراق المصاحف ، ما حرقها إلا عن ملائنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وروى أيضا عن علي أنه قال . لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان ، وأخرج ابن أبي داود بسند صحيح ما رواه سويد بن غفلة عن علي وفي آخره قال أي عثمان : ما تقولون فقد بلغني أن بعضهم يقول أن قراءتي خير من قراءتك وهذا يكاد يكون كفراً قلنا فما ترى ؟ قال أرى أن أن يجمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ولا اختلاف ، قلنا . فنعم ما رأيت .

هل يجوز حرق كتب العلم ونحوها :

وقد أخذ العلماء من أمر عثمان رضي الله عنه بتحريق الصحف والمصاحف الأخرى حين جمع القرآن في المصاحف المعتمدة جواز تحريق المصاحف البالية والكتب التي يذكر فيها اسم الله تعالى وأن في ذلك إكراها لها وصيانة عن الوطء بالأقدام وكان طاووس يحرق الصحف إذا اجتمعت عنده وفيها بسم الله الرحمن الرحيم وحرق عروة بن الزبير كتب فقهه كانت عنده يوم الحرة .

السبب الباعث على جمع عثمان :

وقد تبين مما ذكرنا أن السبب الباعث على جمع عثمان هو رفع الاختلاف والتنازع في القرآن وقطع المراء فيه . وذلك بجمع الناس على القراءة بحرف واحد وهو لغة قریش ، وأما قبله فكانت الصحف مكتوبة بالأحرف السبعة

التي نزل بها القرآن وما تجتمله من قراءات وقد وفق الله عثمان لهذا العمل الجليل الذي رفع الاختلاف وجمع الكلمة وأراح الأمة فرضى الله عنه وأرضاه

ويعجبني في هذا ما قاله الخارث المحاسبي : المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان ، وليس كذلك إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه ، وبين من شهدوا من المهاجرين والأنصار لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق ، والشام في حروف القراءات ، فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات ، على الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن ، فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق ، وقد قال علي : لو وليت لعملي بالمصاحف التي عمل بها عثمان^(١)

ما امتاز به الجمع في عهد عثمان :

وقد امتاز الجمع في عهد عثمان بما يأتي :

- (١) الاقتصار فيه على حرف واحد وهو حرف قریش .
- (٢) الاقتصار فيه على ما ثبت بالتواتر وما استقر عليه الأمر في العرصة الأخيرة ولم يكتبوا ما ثبت بطريق الآحاد ولا منسوخ التلاوة .
- (٣) ترتيب آياته وسوره على الوجه المعروف اليوم .
- (٤) تجريده من النقط والشكل ومن كل ما ليس به قرآن بخلاف ما كان مكتوباً عند بعض الصحابة فقد كان فيه بعض تأويلات وتفسيرات لبعض ألفاظه .

المصاحف التي وجه بها عثمان إلى الأمصار

المصاحف جمع مصحف بزنة اسم المفعول من أحصفه أي جمع فيه الصحف ، والصحف جمع صحيفة وهي القطعة من الجلد أو الورق يكتب

(١) الاتقان ج ١ ص ٦٠

فيها هذا في اللغة ، وأما في الاصطلاح فقد صار علما على ما جمع فيه القرآن الكريم ؛ والظاهر أن التسمية بالمصحف معروفة من زمن الصديق فتمدروى أن أبا بكر استشار الناس بعد جمع القرآن فقال بعضهم نسميه سفرأ كما يسمى اليهود فكرهوه ، وقال بعضهم نسميه إنجيلا فكرهوه ، فقال بعضهم أن في الحبشة مثله يسمى مصحفاً فارتضى أبو بكر ذلك وسماه مصحفاً (٢) ومقتضى هذه الرواية أن لفظ المصحف كان معروفاً في زمن أبي بكر رضى الله عنه إلا أن ما كتب في عهده اشتهر في الروايات وألسنة العلماء باسم الصحف وما كتب في عهد عثمان رضى الله عنه اشتهر باسم المصحف ، ولعل اشتهار التعبير عن المكتوب في عهد أبي بكر بالصحف — لأن ما كتب فيها كان مرتب الآيات دون السور ، أو لعل اشتهار تسمية المكتوب بالمصحف لم تكن إلا بعد زمن الصديق في عهد عثمان وإن كانت التسمية به معروفة من قبل

عدد المصاحف العثمانية :

وقد اختلف في عدد المصاحف التي كتبت في عهد عثمان ووجه بها إلى الأمصار ف قيل ستة ، وقيل أكثر من ذلك وقال القرطبي في تفسيره (٢) : وقيل سبعة وقيل أربعة وهو الأكثر ووجه بها إلى الآفاق فوجه للعراق والشام ومصر بأمهات فأنخذها قراء الأمصار معتمد اختياراتهم ولم يخالف أحد منهم في مصحفه على النحو الذي بلغه وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف في حروف يزيد لها بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم اعتمد على ما بلغه في مصحفه ورواه إذ كان عثمان كتب هذه المواضع في بعض النسخ ولم يكتبها في بعض أشعاراً بأن كل ذلك صحيح وأن القراءة بكل منها جائزة ، : والذي ذكره الشاطبي أنها ثمانية خمسة متفق عليها وثلاثة مختلف فيها ومراده بالخمسة الكوفي والبصري . والشافعي ، والمدني

العام والمدني الخاص الذي حبسه لنفسه وهو المسمى بالإمام ، وبالثلاثة المسكى ومصحف البحرين والبن ، وقيل إن مصر سير إليها بمصحف أيضاً والذي تميل إليه النفس أن يكون عثمان أرسل بمصحف إلى كل مصر من الأمصار الإسلامية المشهورة لتكون مرجعاً يرجع إليه عند الاختلاف

« الاعتماد في القرآن على التلقي الشفاهي لا على المكتوب ،

ولما كان المعول عليه في تلقي القرآن هو الأخذ بالرواية والمشافهة لا على المكتوب في المصاحف ، فقد أمر أو أرسل سيدنا عثمان مع هذه المصاحف من يقرئ المسلمين بما فيها ، فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدني ، وبعث عبد الله بن السائب مع المسكى ، والمغيرة بن شهاب المخزومي مع الشامي ، وأبا عبد الرحمن السلمي مع الكوفي ، وعامر بن عبد القيس مع البصري وهكذا : وقد أجمع أهل كل مصر على ما في مصحفهم ، وترك ما عداه ، وبذلك زال الخلاف بين القراء ، وتوحدت كلمة الأمة

السبب في تعدد المصاحف :

والسبب في تعدد المصاحف أن عثمان والصحابة تصدوا كتابة المصاحف على ما وقع عليه الإجماع ونقل متواتراً عن النبي ﷺ من القراءات فعدوا المصاحف لتكون مشتملة على جميع القراءات المتواترة : واختلاف المصاحف له حالتان .

١ — أن تحتل صورة اللفظ خطأ للقراء تين المختلفتين أو القراءات وفي هذه الحالة يكتب اللفظ في جميع المصاحف بصورة واحدة تحتملها ذلك مثل «ننشرها» بالزاي «وننشرها» بالراء ومثل «فتثبتوا» بالثاء والباء «فتثبتوا» بالثاء والباء و«هيت لك» فأنها كانت تكتب بصورة واحدة تحتل القراءات ومن المعروف أن المصاحف كانت مجردة من الشكل والنقط.

٢ - أن لا تكون صورة اللفظ خطأ محتملة للقراءات المختلفة وحينئذ تكتب في بعض المصاحف بصورة وفي بعضها بصورة أخرى وذلك مثل «ووصى، «وأوصى، من قوله تعالى «ووصى بها إبراهيم بنبيه ويعقوب، (١) فانها في مصحف أهل المدينة «وأوصى، وفي مصحف أهل العراق «ووصى، ومثل «تجرى تحتها الأنهار، و «تجرى من تحتها الأنهار، في سورة التوبة (٢) ومثل «وما علمته أيديهم، (٣) «وما علمت أيديهم، إلى غير ذلك فانها كتبت في بعض المصاحف بلفظ وفي بعضها بلفظ آخر.

ولانما لم تكتب مكررة في مصحف واحد لئلا يتوهم أنها نزلت هكذا مكررة ولم تكتب أحدهما في الاصل والاخرى في الحاشية لئلا يتوهم أنها تصحيح لها .

ولانما جردت المصاحف من النقط والشكل :

(١) لما روى عن ابن مسعود «جردوا مصاحفكم،
(٢) لتحتمل الكلمة التي تكتب بصورة واحدة أكثر من وجه
مما صح نقله وثبتت تلاوته عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه القراءات
كما بينا آنفا .

(أين المصاحف العثمانية الآن ؟)

قال صاحب مناهل العرفان (٤) - رحمه الله - « ليس بين أيدينا دليل قاطع على وجود المصاحف العثمانية الآن فضلا عن تعيين أماكنها قصارى ما علمناه عنها أخيراً أن ابن الجزرى رأى في زمانه مصحف أهل الشام ورأى في مصر مصحفاً أيضاً.

أما المصاحف الأثرية التي تحتويها خزائن الكتب والآثار في مصر ويقال عنها أنها مصاحف عثمانية فإننا نشك كثيراً في صحة هذه النسبة إلى عثمان

(١) البقرة ١٢٢ (٧) التوبة ١٠٠ (٢) يس ٣٥ (٤) ١٣ ص ٣٦١

رضى الله عنه لأن بهاز ركشة ونقوشاً موضوعة كعلامات للفصل بين السور
ولبيان أعشار القرآن ومعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا
ومن النقط والشكل أيضاً كما علمت .

نعم أن المصحف المحفوظ في خزانة الآثار بالمسجد الحسيني والمنسوب
إلى عثمان رضى الله عنه مكتوب بالخط الكوفي القديم مع تجويف حروفه
وسعة حجمه جداً ، ورسمه يوافق رسم المصحف المدني أو الشامي حيث رسم
فيه كلمة « من يرتد » من سورة المائدة بدالين اثنين مع فك الادغام وهي
فيهما بهذا الرسم ، فأكبر الظن أن هذا المصحف منقول من المصاحف
العثمانية على رسم بعضها ، وكذلك المصحف المحفوظ بتلك الخزانة ويقال
أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه كتبه بخطه ، يلاحظ فيه أنه مكتوب
بذلك الخط الكوفي القديم بيد أنه اصغر حجماً وخطه أقل تجويفاً من سابقه
ورسمه يوافق غير المدني والشامي من المصاحف العثمانية حيث رسمت فيه
الكلمة السابقة « من يرتد » بدال واحدة مع الادغام وهي في غيرهما كذلك
فن الجائز أن يكون كاتبه علياً ، أو يكون قد أمر بكتابتها في الكوفة (١)
ثم أن عدم بقاء المصاحف العثمانية قاطبة لا يضرنا شيئاً مادام المعول عليه
هو النقل والتلقي ثقة عن ثقة ، وأما ما عن إمام إلى النبي ﷺ ، وذلك متواتر
مستفيض على أكمل وجه في القرآن الآن .

وقال ابن كثير في الفضائل (٢) ، وأما المصاحف العثمانية الائمة فأشهرها

(١) وكذلك يقال . إن بخزانة كتب مسجد الإمام علي بالنجف بالعراق
مصحفاً منسوباً إلى سيدنا علي ، وكان بودى وأنا معار بجامعة بـ - داد أن أطلع
عليه ، وذهبت إلى النجف ولكن لم أتمكن من ذلك ، وقد أخبرني القيم على
المخلفات القيمة أنه مكتوب في أوله ومصحف على بن أبوطالب ، والصحيح أبي ،
ولعل في هذا الخطأ النحوي ما يشكك في صحة النسبة

(٢) فضائل القرآن ص ٢٣ وابن كثير توفي عام ٧٧٤ هـ .

اليوم الذى فى الشام بجامع دمشق عند الركن شرق المقصورة والمعصورة بذكر الله ، وقد كان قديما بمدينة طبرية ثم نقل منها إلى دمشق فى حدر دثمانى عشرة وخمسمائة وقد رأيت كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً ضخماً بخط حسن مبين قوى بحكم فى رق أظنه من جلود الأبل والله أعلم .

وذكر السيد محمد رشيد رضا - رحمه الله - فى تعليقاته على كتاب فضائل القرآن (١) : أن صحف الأخبار العامة نقلت أن أحد المصاحف الأئمة العثمانية وهو الذى كان محفوظاً عند قياصرة الروسية وهبه خلفهم الشيوعين لأمير بخارى بعد أن أخذوا صورة منه بالآلة الشمسية الفوتوغرافية ، ويقال أن الأصل فقد ولم يصل إلى الأمير .

الشبه التى اوردت على جمع القرآن

لا ينفك أعداء الإسلام عن تلبس المطاعن فى القرآن الكريم لأنهم يعلمون أنه أصل الدين ، ومنبع الصراط المستقيم ، فالتشكيك فيه إضعاف للدين وصرف للمسلمين عن الطريق الذى لا عوج فيه ولا أمت .

ومعظم هذه المطاعن مبنية على روايات واهية ومختلفة اشتملت عليها بعض الكتب الاسلامية ، وعلى شبه أوردتها بعض الكاتبين فى علوم القرآن وفى أصول الفقه : وأجابوا عنها ، ولم يدريخلدن أنها ذريعة للطعن فى القرآن الكريم .

وبعضها مبنى على روايات صحيحة ولكن لها محامل صحيحة ، ومخارج مقبولة .

ولكن أعداء الإسلام تعاموا عنها ، وصرفوها إلى المحامل التي ترضي أحقادهم وتشفي نفوسهم المريضة .

وقد تلقف هذه الشبه ، وتلك الروايات ، ولا سيما الواهية الباطلة منها المستشرقون والمبشرون فأضافوا إليها ما شاءت لهم نفوسهم الحاقدة على الإسلام والمسلمين أن يضيفوه بما هو من بنات الخيال والأوهام ؛ ومن صنع الأحقاد فزعموا أنه قد ضاع من القرآن بعضه ، ونسى بعضه . بل عنون « نولدكه » المستشرق الألماني في كتابه « تاريخ القرآن » فصلاً بعنوان « الروحي الذي أنزل على محمد ولم يحفظ في القرآن » .

وذكر كاتب مادة « قرآن » في دائرة المعارف الإسلامية « أنه لا شك فيه أن هناك فقرات من القرآن ضاعت .

وفي دائرة المعارف البريطانية في مادة « قرآن » يذكر الكاتب المادة أن القرآن غير كامل الأجزاء ، والذي سهل لهم هذا التجني بعض علمائنا - غفر الله لهم - بما ذكروه في كتبهم بحسن نية ، وأوردوه في رواياتهم ، مع إمكان تأويلها تأويلاً .

قريباً صحيحاً ، ولكن المستشرقين يأخذون الضعيف ، ويتركون القوي ، وينقلون المشكوك فيه ، ويسكتون عن الصحيح الصريح لأنها الخطئة التي تلائم أغراضهم ، وتنفق ومرامهم .
وها هي الشبه التي أوردت قديماً وحديثاً والرد عليها بما يقنع العقل ويطمئن فأقول وبالله التوفيق !

الشبهة الأولى : قالوا كيف يكون جمع القرآن عن إجماع من الصحابة مع أن عبد الله بن مسعود وهو ذو السابقة في الإسلام فذكره أن يتولى زيد جمع المصحف .

وقال : يا معشر المسلمين كيف أعزل عن جمع المصحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وأنه لني صلب رجل كافر وقال أيضاً : أعزل عن المصاحف وقد أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وزيد ابن ثابت ذو ذؤابتين يلعب مع الصبيان .

والجواب : أن قول بن مسعود هذا لا يدل على عدم جواز جمع القرآن في المصحف ولا على أنه كان مخالفاً في الجمع وكل ما يدل عليه أنه يرى أنه أحق من زيد بجمع القرآن لسوابقه في الاسلام ، على أنه قال هذا في وقت غضبه فلما سكنت عنه الغضب أدرك حسن اختيار عثمان ومن معه من الصحابة لزيد بن ثابت وقد ندم على ما قال واستحيا منه فقد روى أبو وائل هذه القصة ثم قال عقبها .

أن عبد الله استحيا بما قال فقال : ما أنا بخيرهم ثم نزل عن المنبر (١) ولم يكن اختيار أبي بكر وعثمان لزيد ألا لما له من المزايا التي تؤهل له هذه المهمة الجليلة وقد أفصح عن هذه المزايا الصديق بقوله : أنك رجل ، شاب ، عاقل ، ولا تهملك كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وصفه بأربع صفات لا بد منها لمن يقوم بهذا العمل وهي الشباب المقتضى للقوة والعبر والجلد ، والعقل وهو جماع الفضائل ، والأمانة وعدم التهمة وهي الصفة التي لا بد منها لمن يقوم بهذا العمل ، وكتابة الوحي ، وبها يتم التوثق والاطمئنان ومع ذلك فقد ضم عثمان إليه ثلاثة من أوثق الصحابة وأعلمهم (٢) وهذه الخصائص لا تقتضى أفضليته على عبد الله بن مسعود ولا على أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى وإنما تقتضى أهليته لما عهد إليه به (٣) .

(١) مقدمتان في علوم القرآن ص ٩٥

(٢) قد حلت عما علقناه أن اثنين منهم وهما عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص . متفق على صحبتهما ، وأن ثالثهما وهو عبد الله بن الحارث يختلف فيه ، وأدنى أمره أنه من كبار التابعين

(٣) وأيضا فقد كان ما أهله لكتابته القرآن في المصحف ، ثم في المصاحف أنه كان شهد المرضة الأخيرة التي مرضها النبي ﷺ على جبريل

الشبهة الثانية : قالوا : كيف يكون القرآن كله متواتراً مع أن زيد بن ثابت قال في أثناء ذكره لحديث الجمع في عهد أبي بكر ، فقامت فتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع غيره ، وقال في أثناء ذكره لحديث الجمع في عهد عثمان ، فقدت آية من الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري الذي جعل رسول الله شهادة بشهادة رجلين ، فهاتان الروايتان تدلان على أنه اعتمد في جمع القرآن على بعض الروايات الأحادية وهو يخالف ما هو مقرر عندكم من أن القرآن - في جملته وتفصيله ثابت بالتواتر المفيد للقطع .

والجواب : أن هذا الذي نقل لا ينافي تواتر القرآن فقد ذكرنا لك فيما سبق أن الاعتماد في جمع القرآن كان على الحفظ والكتابة وكان غرضهم من ذلك زيادة التوثق والأطمئنان وأن ما كتبوه إنما هو من عين ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ فقول زيد : لم أجدهما أى لم أجدهما مکتوبتين . وهذا لا ينافي أنهما كانا محفوظتين عند جمع يثبت بهما التواتر إنما هو في الحفظ لا في الكتابة يدل على ذلك قول زيد في الرواية الثانية : فقدت آية من الأحزاب كنت أسمع رسول الله يقرأ بها ، فهو إذاً كان حافظاً لها ومتيقناً لقرآنها ، ولكن كان يبحث عن أصلها المكتوب .

فإن قيل أن انجحه هذا الجواب . واستقيم في الرواية الأولى فكيف يتجه في الرواية الثانية ، فقد كانت آية الأحزاب مكتوبة في الصحف التي كتبت في عهد الصديق ؟ قلت : لعلها انمحت وتطاير مداها فلم يبق ما يدل عليها أو لعل الأرضة أكلت موضعها من الصحيفة فاضطر أن يبحث عن أصلها المكتوب فوجده مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ، على أن المعول عليه في القرآن التواتر الحفظي لا الكتابي :

الشبهة الثالثة : قالوا : إن القرآن قد زيد فيه ما ليس منه بدليل ما ورد أن عبد الله بن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه ، وفي رواية كان

يحك المعوذتين من مصحفه ويقول : إنما أمر النبي ﷺ أن يتعوذ بهما
ويقول أنهما ليستا من كتاب الله .

والجواب : أن هذه الروايات غير صحيحة وأغلب الظن أنها مدسوسة على
ابن مسعود وإليك ما قاله الأئمة فيها قال الإمام النووي في شرح المذهب :
« أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن وأن من جحد منها
شيئاً كفر وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح » . وقال ابن حزم
في كتاب « القدح الملعون » تتميم المجلى : « هذا كذب على ابن مسعود
وموضوع وإنما صح عنه قراءة عاصم عن زر عنه وفيها المعوذتان والفاتحة ،
وقال القاضي أبو بكر : « لم يصح عنه أنها ليست من القرآن ولا حفظ عنه ،
إنما حكها وأسقطها من مصحفه إنكاراً لكتابتها ، لا جحداً لكونهما قرأنا
لأنه كانت السنة عنده ، أن لا يكتب في المصحف إلا ما أمر النبي ﷺ
فيه ولم يجده كتب ذلك ولا أمر به » .

وذهب الحافظ ابن حجر إلى صحة ما روى عن ابن مسعود وقال :
« قول من قال أنه كذب عليه مردود والطعن في الروايات الصحيحة بغير
مستند لا يقبل بل الروايات صحيحة والتأويل محتمل وقد أوله القاضي
وغيره على إنكار الكتابة كما سبق » . وعلى فرض صحة الرواية يجاب
بما يأتي :

١ - عدم كتابتهما أو حكمها لا يستلزم أنكار كونهما من القرآن
لجواز أنه كان لا يكتبهما اعتماداً على حفظ الناس لهما لا أنكار لقرآنيتهما
فالفاتحة يقرؤها كل مسلم في الصلاة ، المعوذتان يعوذ بهما المسلمون
أولادهم ، وأهلهم ويحمل قوله : « كتاب الله » على المصحف قال ابن قتيبة
في مشكل القرآن : « وأما إسقاط الفاتحة من مصحفه فليس لظنه أنها ليست
من القرآن معاذ الله ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين

مخافة الشك والنسيان والزيادة والنقصان ، ومعنى ذلك أنه يرى أن الشك والنسيان والزيادة والنقصان مأمونة في سورة الحمد لقصرها ووجوب تعليلها على كل أحد لأجل الصلاة .

٢ - أنها رواية آحادية فهي لا تعارض القطعى الثابت بالتواتر ، والعبرة في التواتر أن يروى عن جمع يحيل العقل تواطهم على الكذب لا أن لا يخالف فيه مخالف ، فظن ابن مسعود أنهما ليستا من القرآن لا يطعن في قرأتهما قال ابن قتيبة في مشكل القرآن : ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن لأنه رأى النبي يعود بهما الحسن والحسين فأقام على ظنه ولا نقول أنه أصاب في ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار ، ٣ - على فرض صحة الرواية فيحمل ذلك على أنه كان قبل أن يستيقن ذلك فلما علم ذلك وتيقنه رجع إلى رأى الجماعة وليس أدل على ذلك من أن الذين تعزى قراءتهم إلى ابن مسعود متفقين على أن هذه السور الثلاث من القرآن . قال ابن الصباغ : أنه لم يستقر عنده القطع بذلك ثم حصل الاتفاق بعد ذلك ، (١) . وهذا الجواب هو الذى تستريح إليه النفس .

الشبهة الرابعة : قالوا أن القرآن نقص منه ما كان بعض الصحابة يكتبه في مصحفه يدل على ذلك ما روى عن أبي بن كعب أنه كان يكتب في مصحفه سورتي (٢) الخلع والحقد ، وهو دعاء القنوت : اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك . . . ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليك نسعى ونحفد . . .

والجواب على ذلك : لا نسلم أنهما من القرآن وكتابة أبي بن كعب

(١) الإتقان ج ١ ص ٨٠

(٢) يجعل نهاية الأولى لفظ يفجرك ، وجعل بدء الثانية اللهم إياك نعبد وليس أدل على تهافت الرواية من هذا الخلط بجعل الشئ الواحد شيئين .

لهذا الدعاء في مصحفه لا يدل على القرآنية ونحن نعلم أن مصاحف الصحابة لم تكن قاصرة على المتواتر بل كان بعضها مشتملا على الأحادي؛ والمنسوخ تلاوة ، وعلى بعض تفسيرات ، وتاويلات ، وأدعية ، ومأثورات ، ومن ذلك هذا الدعاء الذي يقنت به بعض الأئمة في الوتر ووجوده في مصحف لا يدل على أنه قرآن كما أن القنوت به في الصلاة لا يدل على القرآنية ، ولا يشك ذو نظر فاحص وذوق أدبي أن هذا الدعاء عليه مسحة من سحر القرآن وبلاغته وإعجازه وإشراقه مما يلقى بهذه الشبهة في غيابة الإهمال .

(٢) على فرض أن أيما أثبتتها في المصحف على أنها قرآن فهي رواية أحادية ظنية لا تعارض القطعي الثابت بالتواتر كما أنها لا تكفي في إثبات كونها من القرآن لأن المعول عليه في ثبوت القرآن التواتر .

وهنا قاعدتان ينبغي التنبيه اليهما في رد كل رواية تفيد زيادة شيء في القرآن أو نقص شيء منه وهما :

- ١ — كل رواية أحادية لا تقبل في إثبات شيء من القرآن .
- ٢ — كل رواية أحادية تخالف المتواتر من القرآن لا تقبل ، ويضرب بها عرض الحائط .

الشبهة الخامسة : ما نقله العلامة الألوسي عن بعض الشيعة والملاحدة وخلاصته أن عثمان بل وأبا بكر حرفا القرآن وأسقطا كثيرا من آياته وسوره وقالوا : أن القرآن الذي نزل به جبريل كان سبع عشرة ألف آية وأن سورة الأحزاب كانت مثل سورة الأنعام أسقطوا منها فضائل أهل البيت وأن سورة الولاية أسقطت بتمامها إلى غير ذلك من الأباطيل والخرافات .

والجواب : أن هذه دعاوى لم يقيم عليها شبه ذليل ولو أن كل دعوى تقبل من غير استدلال لما ثبتت حقيقة ولما توصل الناس إلى علم ومعرفة

وهذا الكلام من غلو الشيعة في آرائهم الجائرة ولهذا نجد العقلاء منهم يتبرأون من مثل هذه الخرافات ، قال الطبرسي في « جمع البيان » وهو من علمائهم « أما الزيادة في القرآن فجمع على بطلانها وأما النقصان فيه فروى عن قوم من أصحابنا وقوم من حشوية العامة والصحيح خلافه ، ثم ماذا تقولون أيها المنتشعون ، لقد صار الأمر إلى على كرم الله وجهه ودانت له الأقطار كلها ماعدا مصر والشام . والمصاحف التي كتبها عثمان تتلى وقد ظلت دولة أهل البيت ما يقرب من خمس سنين فكيف يسكتون على ذلك وهو منكر شنيع يجب على الإمام أن يسارع إلى إزالته ، ولو أن شيئاً من ذلك وقع لنقله المؤرخون الأثبات ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن .

الشبهة السادسة : ما زعمه صاحب ذيل مقالة في الإسلام من أن القرآن قد أسقط منه ما هو منه وزيد فيه ما ليس منه وأيد زعمه بما يأتي :

١ — ما ورد في الحديث أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - قال : رحم الله فلانا لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتها من سورة كذا وكذا ، وفي رواية « أنسيها » فهذا فيه اعتراف من النبي بأن أسقط بعض الآيات أو أنسيها .

٢ — ما جاء في سورة الأعلى « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله » وزعم هذا المفترى أن النبي صلى الله عليه وسلم أنسى آيات لم يتفق له من يذكره إياها .

٣ — قال : أن الصحابة قد حذفوا من القرآن ما رأوا المصلحة في حذفه فمن ذلك آية المتعة أسقطها على بته وكان يضرب من يقرؤها ، وهذا ما شنت عائشة به عليه فقالت : أنه يجلد على القرآن وينهى عنه وقد حرقه وبذله ، وما روى أن أيما كان يكتب في مصحفه « اللهم إنا نستعينك الخ ، الدعاء ولا يوجد اليوم في المصحف .

٤ - قال : أن كثيراً من آياته لم يكن لها من قيد سوى تحفظ الصحابة وكان بعضهم قد قتلوا في الغزوات وحروب خلفائه الأولين وذهب معهم ما كان يتحفظونه من قبل أن يوعز أبو بكر إلى زيد بن ثابت بجمعه ، فذلك لم يستطع زيد أن يجمع سوى ما كان يتفحظه الأحياء ، أما ما كان مكتوباً على العظام وغير فإنه كان مكتوباً عليها بلا نظام ولا ضبط وقد ضاع بعضها ، وهذا ما حدا العلماء إلى الزعم أن فيه آيات نسخت لفظاً لا حكماً وهو من غريب المزاعم وحقيقة الأمر أنها قد سقطت بضياغ العظم ولم يبق منه سوى المعنى محفوظاً في صدورهم .

٥ - زعم أن الحجاج لما قام بنصرة بني أمية لم يبق مصحفاً إلا جمعه وأسقط منه أشياء كثيرة قد نزلت فيهم وزاد فيه أشياء ليست منه وكتب ستة مصاحف وجه بها إلى الأمصار وهي القرآن المتداول اليوم وأعدم المصاحف المتقدمة التي كتبها عثمان ، وإنما رام بفعله التزاف إلى بني أمية .

٦ - زعم أنه آية ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل الآية ، من كلام أبي بكر قالها يوم السقيفة . وكذا آية « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » من كلام عمر ثم لما جمع القرآن ضم إليه هذا الكلام .

وبالنظر في هذه الدعاوى نجد أنها عارية عن الدليل وأنها أما ادعاءات واقتراءات أو تحريفات وتأويلات لبعض الآيات والأحاديث بغير حجة ، وسنناقشه فيما قال كي يتبين للنصفين أنه لا يعدو أن يكون هراء من القول وإليك تفنيد هذه المزاعم .

١ - أما ما ذكره من الحديث فهو ثابت^(١) ولكن حمله مالا يتحمل وفهمه على غير وجهه ، فالرواية الثانية تفسر الأولى وتدل على أن الإسقاط

(١) صحيح البخارى كتاب فضائل القرآن - باب نسيان القرآن - أنظر فتح البارى ج ٩ ص ٥٥

عن طريق النسيان لا العمد، ولا يضر نسيان النبي صلى الله عليه وسلم مادام يحصل له التذكر أما من نفسه أو من مذكر كما في هذا الحديث ، وزيادة في التوضيح نقول النسيان من النبي لشيء من القرآن على قسمين .

أحدهما : نسيان الشيء الذي يتذكره عن قرب وذلك قائم بالطباع البشرية وعليه يدل قوله صلى الله عليه وسلم : « **لأنما أنا بشر أنسى كما تنسون** » .

والثاني : أن يرفعه عن قلبه على إرادة فسخ تلاوته وهو المشار إليه بقوله تعالى : « **سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله** » .

أما الأول : فعارض سريع الزوال يدل عليه قوله تعالى : « **أنا نحن نزولنا الذكر وأنا له لحافظون** » .

وأما الثاني : فداخل في قوله تعالى . « **ما ننسخ من آية أو ننسها** » بضم النون وبغير همز ، فالنسيان عارض بشري يجوز على الأنبياء فيما ليس طريقه البلاغ من أمور الدين والشرعة ، أما ما كان من الدين والشرعة مما هو واجب البلاغ فيجوز لكن بشرطين .

(١) أن يكون بعد تبليغه كما هنا .

(٢) أن لا يستمر على نسيانه بل يحصل له تذكره أما بنفسه وأما بغيره وأما قبل التبليغ فلا يجوز أصلاً وهذا ما قام عليه الدليل العقلي إذ لو جاز النسيان قبل التبليغ أو بعده بدون أن يتذكر أو يذكره الغير لأدى إلى الطعن في عصمة الأنبياء ولجاز ضياع بعض الشرائع والأديان .

٣ — أن ما استدل به من قوله . « **سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله** » فهو تحريف للحكم عن مواضعه ، وزعم من لم يعرف سبب نزول الآية ، ولا المراد من الاستثناء ، ولا الغرض الذي سيقت له الآية أما سببها فهو

أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتذكر القرآن في نفسه مخافة أن ينسى ، فأزال الله خوفه بهذه الآية وأما الاستثناء فالمحققون من العلماء على أنه ليس بحقيق وإنما هو صوري يراد منه تأكيد عدم النسيان بتعليق الشيء على ما هو مستحيل وقوعه وليدل على استحالة البرهان ، وقد ضمن الله لنبيه تحقيقه له فكيف يشاء إنساه له ؟ قال تعالى : « لا تحرك به لسانك ، الآيات (١) » ومثل هذا الاستثناء قوله تعالى : « ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا كىلاً » (٢) . ونحن نقطع أنه سبحانه ما شاء ذلك والغرض من هذا الاستثناء على هذا ؛

(١) تعريفه صلى الله عليه وسلم أن عدم النسيان من فضل الله تعالى عليه فيديم له الشكر والعبادة والذكر في كل وقت .

(٢) تعريف أمته ذلك حتى لا يخرجوه صلى الله عليه وسلم من مقام العبودية ويرفعوه إلى مقام الألوهية كما فعل اليهود والنصارى بأنبيائهم . .

وهناك رأى آخر في الآية وهو أن المراد بإشياء الله أن ينساه هو ما أراد الله نسخه فيذهب من قلبه وأيا كان المراد فليس في الآية ما يشهد لما زعمه هذا الطاعن .

٣ ما زعمه من أن الصحابة أسقطوا ما رأوا المصلحة في إسقاطه تجن على الصحابة وعلى الحق والواقع وإنما يزعم هذا من يحمل ما كانوا عليه من عنايتهم بالقرآن وامتزاجه بلحمهم ، ودمهم ، وحبيهم له حباً يفوق الأهل والولد ، ومراقبتهم لمنزل القرآن حق المراقبة ، وهل يعقل أن تنفق جماعة تعد بالآلاف على باطل من غير أن يقوم بينهم من ينكر ذلك ويجهر به ؟ وبحسبك أن تقرأ ما كتبتاه في جمع القرآن لئرى كيف أحاط الصحابة بالقرآن بسياج قوى من الحفظ والعناية فلم يزدوا فيه حرفاً أو ينقصوا منه حرفاً

أما ما يذكره عن علي أنه أسقط آية المتعة الخ فكذب وافتراء عليه ولا أدري ما يريد الطاعن بالمتعة فإن أراد نكاح المتعة فالآية التي يستدل بها بعض القائلين بأباحته موجودة في سورة النساء لم تحذف وهي قوله تعالى «فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن» فريضة (١) ونكاح المتعة أحل للضرورة ثم حرم إلى يوم القيامة .

وأما ما ذكره عن مصحف أبي فقد بينت أنه دعاء وليس بقرآن قطعاً .

٤ — أما ما زعمه من أن القرآن لم يكن له من قيد سوى تحفظ الصحابة الخ فردود بأن من بقى من حفاظ الصحابة كان أكثر ممن مات بدليل قول عمر رضي الله عنه للصديق «وإني أخاف أن يستجر القتل بالقراء في المواطن وكذلك زعمه أن كتابته مفرقا في العظام وغيرها كانت سبباً في ضياع بعضه زعم باطل ، ولو أن الاعتماد في حفظ القرآن على الأخذ من الصحف لجاز هذا الفرض ، وليس الأمر كذلك فالمعول عليه في القرآن هو التلقي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو عن سماع منه والحفظ في الصدور ، وأما الكتابة فإنما كانت لنا كيد المحفوظ في الصدور والوقوف على مرسوم الخط الذي هو توفيقى ، ولا شك أن الشيء إذا توارد عليه الأمران الحفظ والكتابة يكون هذا أدعى إلى اليقين ، والثبوت به والاطمئنان إليه وما دام أن المعول عليه في القرآن الحفظ . فاحتمال ضياع معظم المکتوب فيه لا يضيرنا في شيء ، وإن كان هذا الاحتمال بعيداً جداً إذ كانوا يحافظون على المکتوب غاية الحفظ

ه — أما دعوى أن الحجاج زاد في القرآن وأنقص منه فدعوى لا وجود لها إلا في خيال قائلها إذ لم ينقل ذلك في أى تاريخ من التواريخ

على كثرتهم وذكرها ماصح وما لم يصح ، وكيف يفعل الحجاج أمراً إذا
كهدا له خطره ، ويكثر المعارضون له ولا يرتفع صوت في معارضته ؟
ومهما قيل في قسوة الحجاج فقد كان هناك من السلف الصالح من لا يخافون
في الحق لومة لائم ويرون موتهم في هذا السبيل استشهاداً ، ولو فرضنا
أن الحجاج قوة أسكتت المؤمنين المخلصين في حياته أفلا يرجعون إلى
كتابهم ويرجعونه إلى حالته الأولى بعد وفاته ١٩ ومثل هذا العمل من أوجب
الواجبات وأعظم الفرائض على الأمة ١٩

٦ - ما زعم من أن آية ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل
الآية ، من كلام أبي بكر أغراق في الجهل وإسراف في الوهم والآية قد
نزلت بعد أحد وحفظها كثير من الصحابة أن ذلك المسلمين لما أصيبوا في
أحد وأشيع بأن الرسول قد قتل اختل نظام الجيش وفر الكثيرون ، وقال
بعضهم ليت لنا رسولاً إلى عبد الله ابن أبي فياخذ لنا أماناً من أبي سفيان ،
وبعضهم جلسوا وألقوا ما بأيديهم من السلاح ، وقال أناس من أهل النفاق
إن كان محمد قتل فالحقوا بدينكم الأول فقال أنس بن النضير عم أنس بن
مالك يا قوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد لم يقتل وما تصنعون بالحياة بعد
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات
عليه ، ثم ألقى بنفسه في القتال حتى لقي ربه شهيداً فأنزل الله هذه الآية
ليبين لهم خطأهم فيما فعلوا وقالوا حينما علموا أن الرسول قد قتل ، وأن النبوة
لا تقتضى الخلود وأنه كثيره من الأنبياء يجوز عليه ما جاز عليهم ، وكان
هذا الحادث الجاهل قد التبس عليه الأمر بما جرى بعد وفاة الرسول فقد
أنكر عمر - في سورة الغضب وغمرة الحزن - موت الرسول وتوعد
من يقول ذلك وغفل عن هذه الآية ، وما إن جاء الصديق ودخل على
رسول الله وقبلة وقال : « طبت حيا وميتاً ، حتى قال على رسلك يا عمر ثم
حمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات

ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا الآية : وما محمد الخ ، قال عمر
فو الله ما أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ماتحملني
قدماي ، إذ قد تحقق ما غاب عنه من أن موت الرسول حق لا شك فيه .

وأما آية : واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، فليست من كلام عمر .
ولما المروى أن عمر قال : لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى بصيغته التي ،
فنزلت الآية أمرة بالاخذ فأين أسلوب التني من الأمر ؟ وكون القرآن
يوافق عمر في أشياء كان له فيها رأى واجتهاد لا يدل على أنه من كلام عمر
وليس بعد الحق إلا الضلال فأنى يؤفكون

الشبهة السابعة

روى مسلم^(١) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : : كان فيما أنزل من
القرآن عشر رضعات معلومات يحرم من ثم نسخن بخمس معلومات فتوفي
رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن .

وروى بعضهم أنها كانت في صحيفة وفي رواية في جليلد ، وأنهم اشتغلوا
بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل الداجن^(٢) فأكلها . قالوا : والقرآن
اليوم ليس فيه ما يدل على خمس رضعات فتكون الآية الدالة على هذا الحكم
قد سقطت من القرآن .

والجواب :

إن هذه الرواية مهما صحت فهي آحادية لا يثبت بها قرآن لأن القرآن

(١) مسلم بشرح النووي ج ١ ص ٢٩ - ٣٠

(٢) في القاموس (ودجن بالـ كان دجونا أقام والحمام والشاة وغيرهما
ألفت البيوت وهي داجن)

لا يثبت إلا بالتواتر ثم هي أيضا لا تعارض القطعى الثابت بالتواتر وهو القرآن الذى بين أيدينا اليوم وغاية ما تدل عليه هذه الرواية أنها خبر لا قرآن .

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (١) فى معرض ذكر ما يقوى مذهب الجمهور القائلين بتحريم قليل الرضاع وكثيرة ، وأيضا فقول عائشة عشر رضعات معلومات ثم نسخت بخمس معلومات ، فمات النبى صلى الله عليه وسلم ، وهن عما يقرأ لا ينهض للاحتجاج على الأصح من قول الأصوليين لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر والراوى روى هذا على أنه قرآن لا خبر فلم يثبت كونه قرآنا ، ولا ذكر الراوى أنه خبر ليقبل قوله فيه والله أعلم . وما يدل على أنه ليس قرآنا ، وأنه كان تشريعاً ثابتاً بالسنة ثم نسخ بالسنة اختلاف الرواية عنها فى القدر المحرم فى رواية الموطأ عنها عشر رضعات . وعنها أيضا سبع رضعات ، أخرجه ، ابن أبى خزيمة باسناد صحيح عنها ، وعبد الرزاق أيضاً ، وجاء عنها أيضاً خمس رضعات ، وهى ما يدل عليها رواية مسلم التى معنا فاختلاف الرواية عنها يدل على أنه كان باجتهاد منها استندت فيه على ما ظهر لها من السنة ولو كان قرآنا لما نقل عنها كل هذا الاختلاف (٢)

وقال الإمام النووى فى شرحه على مسلم (٣) : « واعترض أصحاب مالك على الشافعية - يعنى القائلين بأن لحرمة إلا بالخمس - بأن حديث عائشة هذا لا يحتج به عندكم ، وعند محققى الأصوليين ، لأن القرآن لا يثبت بخبر الواحد ، وإذا لم يثبت بخبر الواحد عن النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن خبر

(٢) المرجع السابق

(١) ج ٩ ص ١٢٠

(٣) ج ١٠ ص ٣٠

الواحد إذا توجه إليه قادح يوقف عن العمل به وهذا إذا لم يجيء إلا بأحد مع أن العادة مجيئه متواترا توجب ريبة والله أعلم ، وهكذا يتبين لنا أن الأئمة على أنه ليس بقرآن قط وأقصى درجاته أن يكون خبرا صحيحا ، وأما رواية أكل الداجن فهي مردودة ومتهافة وليس أدل على هذا من أن القرآن كان محفوظا في الصدور فضياع صحيفة منه - فرضا - لا يؤثر في ثبوت فرآيته مادامت تحفظه الكثرة الكاثرة من المسلمين ثم أن القرآن كان مكتوبا في العصب ، والرقاع ، والعظام ، وصحائف الحجارة ؛ ومثل هذه الأشياء مما لا يتيسر في العادة الداجن أن تأكله ولا سيما والرواية لم تعين لنا نوع هذا الداجن أهو شاة أم حمام أم غيرها .

فإن قال قائل فكيف يتفق ماذهب إليه من تأويل وما ثبت في الرواية « كان فيما أنزل من القرآن ، ؟

قلت : المراد كان فيما أنزل من شرح القرآن وبيانه ولاشك أن السنة شارحة للقرآن ومبينة له قال الله تعالى ، « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، وأيضا فإن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ويكون الأمر من نسخ السنة بالسنة ، ويكون قولها في الحديث (فتوفى رسول الله وهن عما يقرأ من القرآن) أى من حكم القرآن على أنه سنة لا قرآن ولاشك أنهم كان يعنون بحفظ السنة أيضا أو يكون المراد وهن فيما يعلم من أحكام القرآن .

٢ - وللهديث تأويل آخر وهو أنه يحمل على أنه كان قرآنا ثم نسخ لفظه وبقي حكمه وبعد النسخ لم يعد يسمى قرآنا ولا له حكمه ، فإن قيل هذا تأويل مقبول لولا ما يعارض من قولها (فتوفى رسول الله وهن فيما يقرأ من القرآن) قلت أن غرضها الأخبار بأن هذا النسخ لم يقع إلا قبيل

وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فعلم بالنسخ الكثيرون وتركوا القراءة به ولم يعلم البعض ، فبقى هذا البعض على القراءة حتى تيقنوا فيما بعد نسخه فتركوا القراءة به قال : الإمام النووي في شرح هذا الحديث (ومعناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جداً حتى أنه صلى الله عليه وسلم توفي وبعض الناس يقرأ خمس رضعات ويجعلها قرآناً متلوا لكونه لم يبلغه النسخ لقرب عهده ، فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يتلى (١)

وهذا الجواب إنما يتم على مذهب من يرى أن من أقسام النسخ ما نسخت تلاوته وبقي حكمه ، وهذا النوع قد أنكره بعض العلماء قال الإمام السيوطي في الاتقان (٢) : حكى القاضي أبو بكر في الانتصار عن قوم أنكروا هذا الضرب لأن الاختصار فيه أخبار آحاد ، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها .

هذا ولعل الوجه الأول في الجواب أولى وأسلم .

الشبهة الثامنة :

مارواه البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ، وفي رواية أخرى له أيضاً نحو هذا وفي آخرها (قال ابن عباس فلا أدري من القرآن هو أم لا ؟) قال : وسمعت ابن الزبير يقول ذلك على المنبر (وروى

عن أنس عن أبي قال . (كُنَّا نَرَى هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى نَزَلَتْ الْمَسَامِكُ التَّكَاثُرُ (١) .

ورواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس وفي آخره (فلا أدري أمن القرآن هو أم لا؟) وفي رواية أخرى له عن أنس مثله وفي آخره (فلا أدري أشيء منزل أم شيء كان يقوله) وروى عن أبي موسى الأشعري قصة وفيها (وأنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها غير أني حفظت منها لو كان لابن آدم واديان خ ، (٢) كما روى في غيري الصحيحين فظاهر هذه الروايات أنها كانت قرآنا ، واسكن أني هي في المصاحف المقرؤة اليوم ؟

والجواب :

١ - إن هذه الروايات كلها لا تدل على أن هذا قرآن ؛ إذ القرآن لا يثبت إلا بالتواتر ؛ وغاية ما تدل عليه أنها من كلام النبي ﷺ ، وهما أنت قد رأيت أن بعض الروايات قد جاءت مصرحة بأن ذلك من كلام النبي ﷺ فحسب ، وأما الروايات التي فيها إيهام أن ذلك قرآن فإنما جاءت على صيغة الشك كما سمعت ، وإذا كان الجزم في هذا لا يثبت القرآنية فما بالك بالشك والتردد ؟ وليس من ريب في أنه إذا تعارض اليقين والشك فالرجحان لليقين وعليه فتكون الروايات التي نسبت ذلك إلى النبي ﷺ على أنه من كلامه هي المعول عليها وهذا الذي ذهبنا إليه هو ما سبق إليه أئمة العلم .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٣) تعليقا على قول أبي وكننا نرى (٤) هذا من القرآن حتى نزلت الماسم التكاثر ، ووجه ظنهم أن الحديث المذكور من القرآن ما تضمنه من دم الحرف على الاستكثار من جمع المال والتقرير

(١) فتح الباري ج ١١ ص ٢١٢ ومسلم بشرح النووي ج ٧ ص ١٣٩

(٢) الاتقان في علوم القرآن ج ٢ ص ٢٥

(٣) ج ١١ ص ٢١٥ (٤) نرى بضم النون بمعنى نظن .

بالموت الذى يقطع ذلك ولا بد لكل أحد منه فلما نزلت هذه السورة وتضمنت معنى ذلك مع الزيادة عليه علموا أن الأول من كلام النبى ﷺ

٢ - إن هذا كان قرآننا ثم نسخت تلاوته لما أنزل الله دالهاكم ، ثم بقى حكم ذلك مقررأ قال الحافظ ابن حجر ، وقد شرحه بعضهم على أن ذلك كان قرآننا ونسخت تلاوته لما نزلت دالهاكم التكاثرة ، فاستمرت تلاوتها ، فكانت ناسخة لتلاوة ذلك ، فأما الحكم والمعنى فيه فلم ينسخ ، إذ نسخ التلاوة لا يستلزم المعارضة بين الناسخ والمنسوخ كمنسخ الحكم والأول أولى وليس ذلك من النسخ فى شيء . ومراد الحافظ بالأول أى أنه من كلام النبوة لا قرآن ولعل مما يشهد لهذا التأويل الثانى ماورد فى حديث أبى موسى الأشعرى فى صحيح مسلم وهو ما ذكرناه آنفا ، وهذا الوجه لا يثبت إلا بتسليم كونه قرآننا فى أول الأمر ، ودون إثبات ذلك خرط القتاد إذ القرآن لا يثبت بالأحاد كما هو رأى المحققين .

٣ - إن هذا من قبيل الأحاديث القدسية التى هى من الله وقد ورد فى بعض الروايات النصريح بنسبته إلى الله بلفظ « أن الله يقول » ويشهد لذلك أن أسلوبه ومعناه شبيهان بأساليب ومعانى الأحاديث القدسية إذهى كثيراً ما تدور حول الزهد والفضائل ، قال الحافظ ابن حجر فى الفتح فى أثناء شرحه لهذا الحديث « ومنه ما وقع عند أحمد وأبى عبيد فى فضائل القرآن من حديث أبى واقد اللبثى قال : كنا نأتى النبى ﷺ إذا نزل عليه فيحدثنا فقال لنا ذات يوم « أن الله قال أنى أنزلت المال لأقام الصلاة ، وأيتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم الحديث ، وهذا يحتمل أن يكون النبى ﷺ أخبر به عن الله تعالى على أنه من القرآن ويحتمل أن يكون من الأحاديث القدسية والله أعلم وعلى الأول فهو مما نسخت تلاوته جزماً وأن كان حكمه مستمراً ،

والذى يترجح عندى أن يكون هذا من الأحاديث النبوية أو القدسية إذ ليس فيه شيء من إعجاز القرآن وسحره وجلاله .

الشبهة التاسعة :

روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن ابن عباس حديثا طويلا وفيه أن عمر قال على المنبر : أن الله بعث محمدا ﷺ بالحق ، وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل الله آية الرجم فقرأناها ، ووعيناها ، رجم رسول الله ﷺ ورجننا بعده فأخشى أن طال بالناس زمان أن يقول قائل : والله ما نجد الرجم فى كتاب الله ، فضلوا بترك فريضة أنزلها الله والرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف ، وفى الموطأ عن سعيد بن المسيب لما صدر عمر من الحج وقدم المدينة خطب الناس فكان مما قال : أياكم أن تهلكوا عن آية الرجم أن يقول قائل لا نجد حدين فى كتاب الله فقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجننا والذي نفسى بيده لولا أن يقول الناس زاد عمر فى كتاب الله لسكتبته يدي ، الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة .

وروى أبو عبيدة وغيره عن زرين حبش قال قال لى أبى بن كعب كأين تعد سورة الأحزاب ؟ قال اثنيتين وسبعين آية أو ثلاثا وسبعين آية قال . أن كانت لتعدل سورة البقرة وإن كنا لنقرأ فيها آية الرجم قلت وما آية الرجم قال . إذا زنا الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم ، (١) قالوا . فهذه الروايات تدل على أن القرآن سقطت منه هذه الآية .

والجواب على ذلك نقول .

أن رواية أبى بن كعب التى هى أصرح الروايات فى القرآنية غير صحيحة

(١) أنظر فتح البارى ج ١٢ ص ١١٩ ، ١٢٣ صحيح مسلم بشرح

النووى ج ١١ ص ١٩١ ، الإتيقان ج ٢ ص ٢٥

لإذ في سندها عاصم بن أبي النجود وهو مضعف في الحديث وإن كان إماماً
في القراءة (١) .

وأما الروايات عن عمر فهي صحيحة ولا شك ، وليس من الصواب
ولا البحث العلى الصحيح رد روايات صحيحة بمجرد الهوى ، ولكن
الواجب أن نعملها على محملها الصحيح من غير تعسف ، ولا تكلف ، وأحب
أن أنبه إلى أن رواية الصحيحين ليس فيها التصريح بقوله الشيخ والشيخة الخ ،
ولا أنها كانت قرأنا ، قال الحافظ في الفتح ، وقد أخرجه الإسماعيلي من رواية
جعفر الفريابي عن علي بن عبد الله شيخ البخاري فيه فقال بعد قوله ، أو
الاعتراف ، وقد قرأناها ، الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة ، فسقط
من رواية البخاري من قوله ، وقرأناها ، إلى قوله ، البتة ، ولعل البخاري هو
الذي حذف ذلك عمداً فقد أخرجه النسائي عن محمد بن منصور عن سفيان
كرواية جعفر ثم قال ، لا أعلم أحداً ذكر في هذا الحديث الشيخ والشيخة غير
سفيان وينبغي أن يكون وهم في ذلك ، قلت ، أي الحافظ ابن حجر - وقد
أخرج الأئمة هذا الحديث من رواية مالك ويونس ومعمرو صالح بن كيسان
وعقيل وغيرهم من الحفاظ عن الزهري فلم يذكروها وقد وقعت هذه الزيادة
في هذا الحديث من رواية الموطأ عن يحيى ابن سعيد عن سعيد بن المسيب الخ
ما قال ، وهي الرواية التي اشرت إليها آنفاً .

ومهما يكن من شيء فقد وردت آثار كثيرة في هذا المعنى واستشهد
الأصوليون بآية الشيخ والشيخة الخ ، لما نسخ لفظه وبق حكمه وقد روى
حديثها البخاري ومسلم ومالك وأحمد وأبو داود والنسائي والترمذي ولئن
كانت روايات الصحيحين خلت من ذكر الآية فقد جاءت في رواية غيرهما
وإذا كان الحال على ما سمعت فما هي المحامل الصحيحة لهذا الحديث ؟ .

(١) إن هذه الروايات آحادية فهي لا يثبت بها قرآن ولا تعارض القطعى الثابت بالتواتر وغاية ما تدل عليه أنها حديث من أحاديث رسول الله وسنة من سنته ، ولا ينافى هذا قول عمر رضى الله عنه « وكان فيما أنزل عليه ، فان جبريل كما ذكرت - كان ينزل ببعض السنة كما ينزل بالقرآن ، وتسميتها آية بالمعنى اللغوى لا الاصطلاحى وكذلك قوله « فقرأناها ووعيناها » فالمراد به نروها عن رسول الله فعبر عن الرواية بالقراءة ومنه يقال . فلان يقرأ الحديث والسنن على فلان ويكون قوله « والرجم فى كتاب الله حق ، أى فى شرع الله وحكمه وتقديره أو يكون المراد به الاشارة إلى قوله تعالى (أو يجعل الله لمن سبيلا) فقد بينت السنة أن المراد جلد البكر ، ورجم الثيب ، ويؤيد هذا التأويل قول الفاروق رضى الله عنه (نولا أن يقال زاد عمر فى كتاب الله لكتبتها فى المصحف إذ لا يقال زاد لما عرف أنه منه لكنه لما كانت عنده سنة مؤكدة وحكما لازما حث على حفظها وقراءتها ودراستها حتى لا يغفل الناس عنها ، كما حث على حفظ آى القرآن ، والذي يؤكد هذا التأويل ما رواه بن حمدويه بسنده عن الحسن أن عمر قال هممت أن أدعو بنفر من المهاجرين والأنصار معروفة أسمائهم وأسابهم ، واكتب شهادتهم فى ناحية المصحف أى حاشيته . هذا ما شهد عليه عمر بن الخطاب و« فلان وفلان يشهدون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم فى الزنا وأنى خفت أن يحى قوم من بعد يرون أن لا يجدونها فى كتاب الله فيكفرون بها ، وعمر رضى الله عنه ما كان يخشى فى الحق لومة لائم فلو أنها كانت من القرآن لأثبتها ، ولما خاف مقالة الناس ، وكونه هم أن يكتبها فى الحاشية لافى الصلب دليل على أنها ليست قرأنا قال العلامة الألوسى عند تفسير قوله تعالى (الزانى والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) (إن الجلد نسخ فى حق المحصن قطعاً لأن الحكم فى حقه الرجم واختلاف فى النسخ هل هى السنة القطعية أو ما رواه عمر رضى الله عنه من الآية المنسوخة (الشيخ والشيخة) قال العلامة ابن الهمام . إن كون السنة القطعية أولى من

(م ٢٠ - المدخل)

كون ما ذكر من الآية . لعدم القطع بثبوتها قرآنا ثم نسخ تلاوتها ، وإن ذكرها عمر وسكت الناس ، فإن كون الإجماع السكوتي حجة مختلف فيه وبتقدير حجيته لا نقطع بأن المجتهدين من الصحابة رضی الله عنهم كانوا إذ ذاك حضورا ثم لاشك في أن الطريق في ذلك إلى عمر ظني ولهذا - والله أعلم - قال على كرم الله وجهه حين جلد شراره ثم رجمها (جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعلل الرجم بالقرآن المنسوخ) .

ويؤيد هذا التأويل أيضا ما أخرجه النسائي أن مروان بن الحكم قال لزيد بن ثابت ؛ ألا تسكتبها في المصحف ؟ قال لا . ألا ترى بأن الشابين الثيين يرجمان ولقد ذكرنا ذلك فقال عمر : أنا أكفيكم فقال يا رسول الله أكتب آية الرجم ؟ قال ولا أستطيع .

وإن نظرة فاحصة في الشيخ والشيخة الخ ، لترينا أنها ليس عليها نور القرآن ومسحته ولا فيها حكمته وإعجازه ، وأن قول زيد رضي الله عنه ، ألا ترى أن الشابين الثيين يرجمان ، ما يشير إلى عدم بلوغها الغاية في الدقة والأحكام كما هو الشأن في القرآن ، وهذا يدل على فرق ما بين كلام الله وكلام الإنسان .

٢ - إن هذه الآية كانت قرآنا ثم نسخ لفظها وبقي حكمها . قال الإمام النووي رحمه الله ، أراد آية الرجم ، الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، وهذا عما نسخ لفظه ليس له حكم القرآن في تحريمه على الجنب ونحو ذلك ، وفي ترك الصحابة كتابة هذه الآية دلالة ظاهرة على أن المنسوخ لا يكتب في المصحف ونحو ذلك قال ابن كثير في تفسيره^(١) والحافظ ابن حجر في الفتح^(٢) ولعل السر في نسخ لفظها عدم أحكام معناها ، وأن العمل

(١) ٦٣ ص ٥١ .

(٢) ١٢ ج ١٢٣ ص ١٢٣ .

على غير الظاهر من عمومها فقد روى الحاكم عن عمر أنه قال : لما نزلت أميت النبي ﷺ فقلت اكتبها فكأنه كره ذلك . فقال عمر : ألا ترى أن الشيخ إذا زنى ولم يحصن جلد وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم ، هذا إلى ما في ظاهرهما من تجرئة الشباب على الوقوع في الزنا ؛ إذ الشأن في الكبير والكبيرة البعد عن مواطن الإثم والفجور فاتضحت حكمة الله تنزيه الأسماع عن سماعها ، وهذا الجواب الثاني إنما يتم بعد تسليم قرآنيتهما وقد خالف في هذا كثير من العلماء .

الشبهة العاشرة :

ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي بن كعب قال : أن رسول الله ﷺ قال لي : أن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن قال فقرأ ولم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ، قال فقرأ فيها : ولو أن ابن آدم سأل وأديا من مال فأعطيه لسأل ثانيا ، ولو سأل ثانيا فأعطيه لسأل ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب ، وأن ذات الدين عند الله الحنيفة السمحة غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ، ومن يفعل خيرا فلن يكفره . ورواه الترمذى أيضا وكذلك روى هذا الأثر بزيادات أكثر من هذه (١) .

وللجواب على ذلك نقول :

١ - إن هذا الحديث وأمثاله أحاديث لم تشتهر بين نقلة الحديث وإنما يرغب فيه من يكتبها طلباً للغريب ، وما كان كذلك فليس لأحد أن يعترض به على الكتاب الذى حفظ عن رسول الله بالتواتر ؛ إذ هو على تسليم صحته أحاد فلا يعارض القطعى الثابت بالتواتر ، ولا يثبت به أيضاً قرآن .

٢ - إن هذا الحديث طعن فيه بعض أهل العلم بأنه باطل ولعل بما يدل

على بطلانه أن سورة لم يكن د بلفظها الذي ورد في المصاحف ثبتت متواترة عن أبي بن كعب ، وقد قدمنا أن قوله د لو كان لابن آدم وادمن مال الخ ، ليس بقرآن وإنما هو حديث نبوى أوقدسى وكذلك ما زيد في هذه السورة من ألفاظ هو بالبيان والتفسير أشبه منه بالقرآن إذ ليس عليه شيء من نور القرآن ، ولا له أعجازه ، ولا ينبغي أن يغرب عن بالنأ أن بعض الصحابة كان يقرأ بعض آيات القرآن على سبيل التفسير والبيان كما كان بعضهم - كآبى وابن مسعود - يكتب في مصحفه بعض تفسيرات ، وتأويلات ، وأدعية ، ومأثورات فيظن من يسمعها أو يقف عليها أنها من القرآن ، والحق خلاف ذلك قال أبو بكر الأنبارى بعد أن ذكر ما روى أن عكرمة قرأ على عاصم د لم يكن ، ثلاثين آية هذا فيها قال : وهذا باطل عند أهل العلم لأن قراءة ابن كثير وأبى عمرو متصلتان بآبى بن كعب لا يقرأ فيها هذا المذكور في د لم يكن ، مما هو معروف في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه من كلام الرسول عليه السلام لا يحكيه عن رب العالمين في القرآن وما رواه اثنان معها الإجماع أثبت مما يحكيه واحد يخالف مذهب الجماعة ، (١) .

وقال بعض العلماء د والذي يؤكد ما قلناه اتصال قراءة أبى جعفر بابن عباس وأبى هريرة وابن مسعود وغيرهم وهم قرأوا على أبى بن كعب ؛ واتصال قراءة ابن كثير بمجاهد وقرأ مجاهد على ابن عباس وقرأ ابن عباس على أبى واتصال قراءة أبى عمرو بمجاهد وسعيد بن جبير وهما قرأ على ابن عباس وقرأ ابن عباس على أبى فرولاه الأئمة وأعلام الدين الذين رووا عنهم وحفظوا عليهم نبره ومده وتشديده ، فلو كان من قراءة أبى ذلك لقراء عليهم ، ولرووا عنه ، وحفظوا عليه لطول تلك الألفاظ ، (٢) .

(١) تفسير القرطبى ج ٢٠ ص ١٣٩ .

(٢) مقدمتان في علوم القرآن ص ٩٢ .

وأيضاً فقد اضطرب النقل في هذا الأثر فمن قائل أنه آية من سورة لم يكن ومن قائل آية من سورة تشبه سورة براءة والباطل دائماً الجليج والحق دائماً أبلج ، وقد وردت هذه القصة في الصحيحين (١) بدون هذه الزيادات ولا شك أن روايات الصحيحين أوثق من غيرها وأولى بالقبول مما يؤيد أن هذا التخطيط المروى باطل .

٣ — أن ذلك كان قرآنًا ثم نسخ ويكون من حمل ذلك عن أبي إنما هو قبل أن ينسخ ثم لما نسخ رجع أبي عنه ، وبقواهم على قرائته لعدم علمهم بالنسخ أما جمهور المسلمين العارفين بأنه نسخ فلم يقرأوا به ولم ينقلوه .

الشبهة الحادية عشرة :

روايات (٢) يوم ظاهرها سقوط شيء من القرآن .

(أ) ماروى أن أياً كان يقرأ ، إذ جعل للذين كفروا في قلوبهم الحية حمية الجاهلية - ولو حيتهم كما حموا القصد المسجد الحرام ، الفتح الآية ٢٦
(ب) ماروى أن عمر بن الخطاب قال لعبد الرحمن بن عوف : ألم تجد فيما أنزل الله علينا أن ، جاهدوا كما جاهدتم أول مرة ، ؟ فإننا لانجدها ، قال أسقطت فيما أسقط من القرآن .

(ج) ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال : كنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسجات مانسيناها ، غير اني حفظت منها : «بأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون» فتكتب شهادة في أعناقكم — فتمسألون عنها يوم القيامة ،

(١) أنظر فتح الباري ج ٨ ص ٥٨٩ وما بعدها صحيح مسلم بشرح النووي

ج ١٦ ص ٢٠

(٢) الإتيان ج ٢ ص ٢٥ مقدمتان في علوم القرآن ص ٩٩

(د) ما روى في الصحيحين عن أنس في قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا غدرا ، قال أنس : ونزلت فيهم قرآن قرأناه حتى رفع ، أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا .

(هـ) ما روى عن عمرو بن دينار قال سمعت ابن الزبير يقرأ « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستمعنون بالله على ما أصابهم ، ال عمران ١٠٤ .

(و) ما روى عن ابن عباس وأبي أنهما قرءا « أن الساعة آتية أكاد أخفيها من نفسي فكيف أطلعكم عليها » .

(ز) ما روى عن علي أنه قرأ « والعصر - ونواب الدهر - إن الإنسان لفي خسر ،

والجواب :

١ - أن هذه الروايات أغلبها باطلة لم يصح منها شيء وإنما هي غرائب ومناكير رواها الذين أولعوا بهما ، وليس ادل على بطلانها من رواية « أكاد أخفيها من نفسي » وهل يعقل أن يخفي الله شيئا من نفسه ؟ ومن رواية « والعصر ونواب الدهر » فقد تواتر عن علي رضي الله عنه أنه كان يقرأ بقراءة الجماعة ، وهل يعقل أن يدع علي شيئا يرى أنه من القرآن ثم لا يثبتته ولا سيما أنه قد قد آلت إليه الخلافة ، وصار صاحب الكلمة النافذة بين المسلمين ! إن هذا إلا بهتان مبين .

٢ - إن هذه الروايات ، على فرض صحتها تحمل على أن ذلك كان قرآنا ، ثم نسح لفظه وبقي معناه كما تدل على ذلك رواية الصحيحين في أصحاب بئر معونة .

٣ - أن بعض هذه الروايات محمول على التفسير والتوضيح ويكون الراوى سمع من يقرأها مفسرا ومبيناً لمعناها فظن أن الكل قرآن . ولعل

هذا يظهر في وضوح في الرواية المتعلقة بقوله تعالى . ولتكن منكم امة الية
والرواية المتعلقة بقوله تعالى دلم تقولون ما لا تفعلون .

رد عام

واليك ردا عاما يرد به على هذه الشبه وعلى غيرها مما اورد على جمع
القرآن .

وهو ان المسلمين اجمعوا على أن هذا الذي كتب في المصاحف وحفظه
الآلوف عن الآلوف هو القرآن الذي انزله رب العالمين على نبيه محمد صلى
الله عليه وسلم لا زيادة فيه ، ولا نقصان ، فمن ادعى زيادة عليه ، او نقصانا
فقد ابطال الاجماع وبهت جمهور الناس ، ورد ما قد صح عن الرسول صلى
الله عليه وسلم ، وغير معقول ان يبطل ما اجمع عليه المسلمون بروايات جلها
باطل موضوع . وما صح منها فله حامل صحيحة ، وليس نصاعلي ما يزعم
الزاعمون ، وان من يزعم ان القرآن نقص منه شيء او زيد فيه شيء . كمن زعم
ان الصلوات المفروضة كانت عشرةا فانقصها المسلمون إلى خمس او انها
كانت ثلاثا فصيروها خمسا - سواء بسواء - فاذا صح في العقول شيء من هذا
صح ما تقولوه على القرآن

والله سبحانه - وقد وعد بحفظ كتابه - قد هيا لآل من الأسباب الداعية
إلى حفظه وصيانتة من التحريف والتبديل ما لم يتهيأ لكتاب غيره في الدنيا ،
وعلى كثرة ما صوبه اعداء الاسلام إلى القرآن من سهام غير صائبة ، وتلفيات
مزورة فقد بقى القرآن كالطود الشامخ الذي لا توحرجه عن مكانه الرياح ،
والاعاصير ، مهما اشتدت وقد تكسرت على صخرته العاتية كل ماراشوا
من سهام وبيتوا من كيد وسيبقى هكذا صلدا قويا حتى يرث الله الأرض
وما عليها وصدق الله حيث يقول إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ولأنه
لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

المبحث الثامن

ترتيب آيات القرآن وسوره

الآية لغة : وردت بمعنى العلامة ومنه قوله تعالى : « إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم الآية ، أى علامة ملكه ، وبمعنى الدليل . ومنه قوله تعالى « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، أى دلائل قدرته ، وبمعنى العبرة ومنه قوله تعالى « إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، أى عبرة لمن بعدهم ، وبمعنى المعجزة ومنه قوله تعالى « سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ، أى من معجزة واضحة إلى غير ذلك من المعاني .

وفى الإصلاح : جزء من السورة لها مبدأ ونهاية وآخرها يسمى فاصله (١) وقيل : طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وعما بعدها وهذا التعريف غير مانع لدخول السورة فيه إلا إذا راعينا فى التعريف اندراجها فى السورة والمناسبة بين المعنى اللغوى والاصطلاحى ظاهرة لأنها علامة على نفسها بانفصالها عما قبلها وما بعدها ، أو لأن فيها عبرا ودلائل لمن أراد أن يتذكر أو لأنها بانضمامها إلى غيرها تكون معجزة دالة على صدق الرسول .

(١) الفاصلة هى الكلمة التى تكون آخر الآية وهى كسافية الشمر وقربنة السجع . وقال بعض القراء الفاصلة هى الكلمة التى تكون آخر الجملة فى أعم من رؤس الآى فكل رأس آية فاصلة ولا عكس واستدل على ذلك بأن سيبويه ذكر فى التمثيل للفواصل « يوم يأت ، « ما كنا نبغ ، وليس رأس آية بإجماع ، مع « إذا يسر . مع أنه رأس آية باتفاق . ورد قوله بأنه مخالف لاصطلاح القراء وما ذكره سيبويه مشى فيه على مصطلح النحويين لا القراء .

وآيات القرآن تختلف طولا وقصرا وأكثر الآيات الطوال في السور الطوال وأكثر الآيات القصار في السور القصار وأطول آية هي آية الدين^(١)، وأقصر آية طه ويس عند من عددهما وقد تكون الآية مكونة من كلمة واحدة كدهامتان^(٢)، وقد تكون مؤلفة من كلمتين مثل والضحي وقد تكون من أكثر من ذلك وهو غالب آيات القرآن وقال بعض العلماء : ليس في القرآن كلمة واحدة آية إلا دمهامتان ، ومراده بما اتفق على كونه آية بخلاف ما سواها مما هو كلمة واحدة أو أقصر منها في التلفظ. فإنه ليس بمتفق عليه مثل طه ويس ، والحاقة والقارعة^(٣) .

وقد يطلق اسم الآية ويراد بعضها مجازا وذلك مثل قول ابن عباس : أرجى آية في القرآن ، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، فإنه جزء آية باتفاق ووقع إطلاق اسم الآية على أكثر من آية وذلك مثل قول ابن مسعود : أحكم آية ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، وهتان آيتان باتفاق ، ومثل ذلك يرد كثيرا في كلام السلف والخلف ، وفي باب المجاز ما يصحح كل ذلك .

فوائد معرفة الآيات : ومعرفة الآيات وعددها وفواصلها فوائد^(٤) منها :

١ - معرفة الوصف ، والوقف على روس الآية سنة كما يدل عليه بعض الأحاديث الواردة.

٢ - أنه يعين على صحة الصلاة فإن الإجماع انعقد على أن الصلاة لا تصح بنصف آية وقال جمع من العلماء تجزى بآية وآخرون بثلاث آيات

(١) البقرة / ٢٨٢ .

(٢) الرحمن الآية ٦٤ .

(٣) عدداً آيات السكوفى .

(٤) الاتقان ج ١ ص ٦٩ .

وآخرون لا بد من سبع ، وكذلك اعتبارها فيمن جهل الفائحة فإنه يجب بدلها سبع آيات . عند من أوجبها ومنها اعتبارها في الخطبة فإنه تجب فيها قراءة آية كاملة ، ولا يكفي شطرها إن لم تكن طويله ، وكذا الطويلة على ما عليه الجمهور .

٣ - أن الأعجاز لا يقع بأقل من ثلاث آيات قصار أو آية طويلة تعاد لها فما لم تعرف الآية لا يمكنها أن نقف على القدر المعجز من القرآن .
(٤) ومنها اعتبارها في قراءة قيام الليل ، ففي أحاديث : « من قرأ بعشر آيات لم يكتب من الغافلين » ، ومن قرأ بخمسين آية في ليلة كتب من الحافظين ، « ومن قرأ بمائة آية كتب من القانتين » ، ومن قرأ بمائتي آية كتب من الفائزين ، « ومن قرأ بثلاثمائة آية كتب له قنطار من الأجر » ، « ومن قرأ بخمسمائة ، وسبعمائة ، وألف آية ... » أخرجها الدارمي في مسنده مفرقة .
عدد آيات القرآن :

وأما عدد آيات القرآن فقد قال فيه الداني : أجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف ومائتا آية ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك فمنهم من لم يزد ومنهم من قال ومائتا آية وأربع آيات ، وقيل وأربع عشرة آية ، وقيل وخمس وعشرون آية ، وقيل وست وثلاثون آية .

وذلك يرجع إلى اختلاف القراء البصريين والكوفيين والشاميين والمكيين والمدنيين في العدد . قال أبو عبد الله الموصلي في شرح قصيدته ذات الرشد في العدد اختلف في عدد الآي أهل المدينة ومكة والشام والبصرة والكوفة ، ولأهل المدينة عددان : عدد أول وهو عدد أبي جعفر بن يزيد بن القعقاع وشيبة بن نصاح وعدد آخر هو عدد إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري^(١) ، وأما عدد أهل مكة فهو مروى عن عبد الله بن كثير عن

(١) قال صاحب التبيان ص ١٧٠ (أن عدد المدنى الأول غير منسوب =

مجاهد عن ابن عباس عن أبي ابن كعب ، وأما عدد أهل الشام فرواه هرون بن موسى الأخفش وغيره عن عبد الله بن ذكوان وأحمد بن يزيد الحلواني وغيره عن هشام بن عمار ، ورواه ابن ذكوان وهشام عن أيوب بن تميم الذماري عن يحيى بن الحارث الذماري قال : هذا العدد الذي نعهده عدد أهل الشام مما رواه المشيخة لنا عن الصحابة ورواه عبد الله بن عامر اليحصبي لنا وغيره عن أبي الدرداء ، وأما عدد أهل البصرة فداره على عاصم بن العجاج الجحدري ، وأما عدد أهل الكوفة فهو المضاف إلى حمزة بن حبيب الزيات وأبي الحسن الكسائي وخلف بن هشام ، قال حمزة أخبرنا بهذا العدد ابن أبي ليلى عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب ، (١) .

والسبب في الاختلاف في عدد الآي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف فإذا علم محلها وصل للتمام فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة فنظر إلى الوقف قال أنها رأس آية ، ومن نظر إلى الوصل لم يقل أنها آية ، وآخر كلمة في الآية تسمى فاصلة وتجمع على فواصل ، ومعرفة الفواصل هو العمدة فيما نحن فيه ولمعرفتها طريقان توفيقى وقياسى .

أما التوقيفى فما ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف عليه بتحققنا أنه فاصلة ، وما وصله دائماً بتحققنا أنه ليس بفاصله . وما وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة ، أو لتعريف الوقف التام

إلى أحد بعينه ، وإنما نقله أهل الكوفة عن أهل المدينة مرسلًا ولم يسموا في ذلك أحداً . وعدد المدنى الأخير منسوب إلى أبي جعفر بن يزيد وشيبة بن نصاح . . وقد وهم من نسب عدد المدنى الأول إلى أبي جعفر وشيبة وعدد المدنى الأخير إلى إسماعيل بن جعفر الخ ما قال .

أو للاستراحة ، واحتمل الوصل أن يكون غير فاصلة وصلها لتقدم تعريفها
وأهـ القياسى فهو ما ألحق من غير المنصوص عليه بالمنصوص عليه لأمر
يقتضى ذلك ، ولا محذور فى ذلك ؛ لأنه لازيادة فيه ولا نقصان ، وإنما
غايته أنه محل فصل أو وصل ، والوقف على كل كلمة جائز .

معرفة الآيات توقيفية :

وآيات القرآن كلها توقيفية لا تعلم إلا من الشارع قال الزمخشري فى
تفسيره « فإن قلت ما بالهم عدواً بعض الفواتح آية دون بعض ؟ قلت :
هذا علم توقيفى لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور أما « ألم ، فآية حيث وقعت
من السور المفتحة بها وهى ست ، وكذلك « ألمص ، آية ، و « ألمر ، لم تعد
آية ، و (ألر ، ليست بآية فى سورها الخمس ؛ و « طسم ، آية فى سورتيها ،
و « طه ، و « ديس ، آيتان ، و « طس ، ليست بآية ، و « حم ، آية فى
سورها كلها ، و « حم ، عسق ، آيتان ، و « كهيعص ، آية واحدة و « ص »
و « دق ، و « ن » ثلاثهما لم تعد آية ، هذا مذهب الكوفيين ومن عداهم لم
يعدوا شيئاً منها .

فإن قلت فكيف عد ما هو فى حكم كلمة واحدة آية ؟ قلت . كما عد
« الرحمن ، وحده و « مدهامتان ، وحدها آيتين على طريق التوقيف -
وقال ابن العربى « ذكر النبى صلى الله عليه وسلم أن الفاتحة سبع آيات ،
وسورة الملك ثلاثون آية وقد صرح أنه قال . من قرأ الايتين من آخر سورة
البقرة فى ليلة كفتاه .

كلمات القرآن وحروفه .

وكما عدوا آيات القرآن عدوا كلماته ففيل سبعة وسبعون ألف كلمة وتسعمائة
وأربع وثلاثون كلمة ، وقيل : وأربعمائة وسبع وثلاثون ، وقيل : ومائتان

وسبع وسبعون وسبب الاختلاف أن الكلمة لها حقيقة ومجاز ولفظ ورسم واعتبار كل منها جاز وكل من العلماء اعتبر أحد الجوانب .

وكذلك عنوا بعد حروفه وبيان أنصافه بالكلمات والحروف وأثلاثه وأرباعه وأخماسه ... وكذا عدوا ما في القرآن من ألفات ، وباءات إلى آخر حروف الهجاء ، وليس من قصدى التعرض لمثل ذلك فإن الاشتغال به - كما قال السيوطى - مما لا طائل تته وقد استوعبه ابن الجوزى فى فنون الألفان وأوسع القول فيه فمن أراد استيعابا فليرجع إليه ، أو إلى «مقدمتان فى علوم القرآن» (١) فقد فصل القول فى ذلك

ترتيب الآيات

ترتيب الآيات فى سورها توقيفى ، فقد كان جبريل عليه السلام يوقف النبى صلى الله عليه وسلم على مواضع الآيات من سورها ، وكان رسول الله عليه وسلم يقول ضعوا آية كذا روى أحمد وأصحاب السنن الثلاثة وصححه ابن حبان والحاكم من حديث ابن عباس عن عثمان بن عفان قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتى عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشئ يدعو بعض من يكتب فيقول وضعوا هذا فى السورة التى يذكر فيها كذا ، الحديث وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا فى المصحف وقد أجمع العلماء أن ترتيب الآيات توقيفى وتواردت النصوص الصحيحة على ذلك .

أما الإجماع فنقله غير واحد منهم الزركشى فى البرهان ، وأبو جعفر ابن الزبير فى مناسباته ، ونص عبارته «ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره بلا خلاف فى هذا بين المسلمين» .

وقال ابن الحصار : ترتيب السور ، ووضع الايات إنما كان بالوحى ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ضعوا آية كذا فى موضع كذا ، وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم ، وما أجمع الصحابة على وضعه هكذا فى المصنف .
وأما النصوص فكثيرة منها ما أخرجه البخارى عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان ، والذين يتوفرون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير أخراج ،^(١) قد نسختها الآية الأخرى^(٢) فلم تكتبها أو تدعها — أى لم تكتبها وهى منسوخة أو لم تدعها مكتوبة وقد نسخت فأو ، للشك من الراوى أى اللفظين قال ، قال : يا ابن أخى لا أغير شيئاً منه من مكانه ، وكان ابن الزبير فهم أن ما ينسخ حكمه لا يكتب فأفهمه سيدنا عثمان أن الأمر فى إثبات الايات فى مواضعها إنما هو بالتوقيف وليس لأحد أن يغير شيئاً من مكانه .

ومنها ما رواه مسلم عن عمر قال : ما سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن شىء أكثر مما سألت عن السكالة حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال : « أما تكفيك آية العصف التى فى آخر النساء » ومنها الأحاديث الصحيحة فى خواتيم سورة البقرة . من قرأ الايتين من خواتيم سورة البقرة فى ليلة كفتاه ،^(٣) رواه البخارى وغيره .

ومنها ما أخرجه الإمام أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبى العاص قال : كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال . أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية فى هذا الموضع من هذه السورة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، الآية .

(١) البقرة ٢٤٠ . (٢) البقرة ٢٣٤ .

(٣) هما من قوله تعالى « آمن الرسول ... » إلى قوله . « فانصرنا على

القوم الكافرين » .

وروى أبو يعلى في مسنده عن المسور بن مخرمة قال . قلت لعبد الرحمن ابن عوف يا خال ، أخبرني عن قصصكم يوم أحد قال . إقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران ، تجد قصتنا وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ... ، الآية وهو من أقوى الأدلة على أن الترتيب اليوم . هو الذي كان في عهدي النبي والصحابة فإذن هذه الآية رقمها المائة وواحد وعشرين من المصحف .

ومن النصوص الإجمالية الدالة على ذلك ما ثبت من قراءة صلى الله عليه وسلم لسور عديدة كسورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، و الم تنزيل ، و هل أتى على الإنسان ، في صبح الجمعة . و دق ، و اقتربت ، في العيد وغير ذلك من السور ، وكان يقرأها على ترتيبها المعروف وبمشهد من الصحابة الذين أخذوا عنه ونقل ذلك عنهم نقلاً متواتراً فدل ذلك على أن الترتيب توفيقى .

وإليك بعض ما قاله العلماء في هذا . أخرج ابن وهب قال . سمعت مالكا يقول . إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال مكى ابن أبى طالب القيسى وغيره . ترتيب الآيات في السور بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما لم يأمر بذلك في أول برائة تركت بلاسمة ، وقال القاضي أبو بكر . ترتيب الآيات أمر بذلك واجب وحكم لازم ، فقد كان جبريل يقول . ضعوا آية كذا في موضع كذا ، . وقال أيضا . الذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بإثبات رسمه ولم ينسخه ، ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذي بين الدفتين ، والذي حواه مصحف عثمان ، وأنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه ، وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمته الله ، ورتبه عليه رسوله من آى السور ، لم يقدم من ذلك مؤخر ولا آخر منه مقدم ، وأن الأمة ضبطت عن النبي صلى الله عليه وسلم ترتيب آى كل سورة ومواضعها ، وعرفت مواقعها ، كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة ، وأنه يمكن أن يكون الرسول قد رتب سورة وأن يكون قد وكل ذلك

إلى الأمة بعده ولم يتول ذلك بنفسه قال : وهذا الثاني اقرب .

ومن المجمع عليه أن ترتيب الآيات ليس بحسب نزولها وإنما يرجع إلى المناسبات والروابط البلاغية ، فقد نزل الآية بعد الآية بسنين وتكون في ترتيب الكتابة قبلها . وليس أدل على هذا من تقدم بعض الآيات الناسخة على الآيات المنسوخة مع أن الناسخ متأخر عن المنسوخ في النزول قطعاً ، وذلك مثل آية : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ، فإنها ناسخة لآية « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج ، فالأولى متقدمة في الترتيب متأخرة في النزول .

وفي الأثر عن محمد بن سيرين قال : قلت لعكرمة . ألفوه — أي القرآن — كما أنزل الأول ، فالأول ؟ قال : لو اجتمعت الإنس ، والجن ، على أن يؤافوه هذا التأليف ما استطاعوا وصدق عكرمة فإن ترتيبه على حسب النزول غير مستطاع لأحد من البشر ، لأن الله لم يرد أن يكون تأليف كتابه المعجز على حسب النزول ، وإنما اقتضت حكمته أن يكون على حسب المناسبات البلاغية ، وأسرار الإعجاز .

(السور وترتيبها)

السورة في إصلاح العلماء طائفة من آيات القرآن جمعت وضم بعضها إلى بعض حتى بلغت في الطول المقدار الذي أراده الله سبحانه وتعالى — لها وكل سور القرآن بدئت بالبسملة ألا براءة (١) .

(١) الصحيح أن التسمية لم تكن فيها لأن جبريل لم ينزل بها ويفصح عن السر في ترك البسملة في صدرها ما رواه الحاكم في المستدرک عن ابن عباس قال : سألت علي بن أبي طالب لم لم تكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال : لأنها أمان ، وبراءة نزلت بالسيف .

وقد اختلف في أصل مأخذها ف قيل هي مأخوذة من سور المدينة ، لإحاطتها بآياتها لإحاطة السور بالبنين ، وقيل : لأنها ضمت آياتها بعضها إلى بعض كما أن السور توضع لبناته بعضها فوق بعض حتى يصل إلى الارتفاع الذي يراد ، وقيل : مأخوذة من السورة وهي الرتبة والمنزلة قال النابغة الذبياني .

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
وسور القرآن مراتب ومنازل يترقى فيها القارىء من منزلة إلى أخرى .
وقيل مأخوذة من السور وهو ما بقي من الشراب في الإناء كأنها قطعة من القرآن وبقيته منه وهي على هذا مبهوزة وحذفت همزتها تخفيفا .
معرفة السور توقيني .

ومعرفة سور القرآن كلها توقيني كمعرفة آياته وسور القرآن تختلف طولا وقصرا فأطول سورة هي البقرة وأقصر سورة هي الكوثر .

هل يقال سورة كذا؟ والصحيح جواز أن يقال سورة البقرة : وآل عمران والنساء ، والأعراف ، وهكذا بدون كراهة ولا يشترط أن يقال السورة التي يدكر فيها البقرة وهكذا سائر السور ، وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة . وأما ما رواه الطبراني والبيهقي عن أنس مرفوعا : لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذا القرآن كله ، فإسناده ضعيف بل قال ابن الجوزي . إنه موضوع ، وقال البيهقي إنما يعرف موقوفا عن ابن عمر ثم أخرجه عنه بسند صحيح وعلى هذا فيكون رأيا له واجتهادا منه .

الحكمة في تسوير القرآن

ولتسوير القرآن سورا فوائدها .

(١) حسن الترتيب والتنويع والتبويب فالجنس إذا انطوت تحته أنواع

وأصناف كان أحسن وأفخم من أن يكون بابا واحدا ونوعا واحدا ولا يزال المؤلفون من قديم الزمان إلى يومنا هذا يجعلون كتبهم أبوابا وفصولا حتى أضحي حسن الترتيب والتبويب من أعظم المشوقات إلى قراءة الكتاب بل أصبح تبويب الكتب وتنسيقها فنا مستقلا برأسه .

(٢) تسهيل الحفظ وبعث الهممة والنشاط ألا ترى أن القارىء إذا أكمل سورة ثم أخذ في حفظ غيرها كان ذلك أنشط له وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله ، ومثل ذلك المسافر إذا قطع رحلة ثم شرع في غيرها ازداد قوة ونشاطا ولا يزال يتجدد نشاطه كلما قطع مرحلة حتى يصل إلى غايته .

(٣) أن الحافظ إذا حفظ سورة وحذفها أعتقد أنه أخذ من كتاب الله خطأ ونصيبا ، فيعظم عنده ما حفظه ، ويعظم هو في نفوس الناس . يشير إلى هذا المعنى حديث أنس : « كان الرجل إذا حفظ البقرة وال عمران جد في أعيننا ، أى عظم .

(٤) أن في التيسير والتفصيل تلاحق الأشكال ، والنظائر ، وملاءمة بعضها لبعض ، ولذلك نجد أغلب سور القرآن يدور الحديث فيها حول موضوع بارز ولها نمط خاص تستقل به فسورة يوسف تتحدث عن قصته وسور إبراهيم تتحدث عنه ، وسورة النساء تتحدث عن ما هن ، وما عليهن . وسورة آل عمران تتحدث عن قصصهم وهكذا .

وما ذكره الزمخشري في تفسيره من أن الله أنزل التوراة والإنجيل والزيور وما أوحاه إلى أنبيائه مسورة هو الصحيح فقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال كنا نتحدث أن الزيور مائة وخسون سورة كلها مواعظ وثناء ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود وذكروا أن في الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال^(١) .

(١) الاتقان ج ١ ص ٦٦ . لكن ينبغي أن يعلم أن السورة ، والاية =

والحكمة في كون سوره طوالا وقصارا .

١ - التنبيه على أن الطول ليس شرطا للعجاز فهذه سورة السكوتر ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة البقرة ، وفي هذا إثبات اعجاز القرآن ، على أبلغ وجه .

٢ - التدرج في تعليم القرآن من السور القصار إلى ما فوقها وفي ذلك تيسير من الله على عباده لحفظ كتابه إلى غير ذلك من الحكم .

عدد السور : وسور القرآن - في المصاحف العثمانية - مائة وأربع عشرة سورة بإجماع من يعتد به ، ونقل عن مجاهد أنها مائة وثلاث عشرة سورة يجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة . والاول هو الذى عليه المعول . وعدم ذكر البسملة فى أول براءة . لا يمنع أن تكون سورة مستقلة ، وقد بينت السر فى عدم بدئها بالبسملة انقأ .

وأما عدد السور فى مصحف ابن مسعود فهى مائة واثننا عشرة سورة لأنه كما قيل لم يكن يكتب المعوذتين فى مصحفه .

وأما فى مصحف أبى قحافة وست عشرة لأنه كتب فى آخر دعاء القنوت وجعله فى صورة سورتين سماهما « سورتي الخلع والخفد » وقال بعضهم مائة وخمس عشرة سورة « لإيلاف قريش » سورة واحدة .

والمعول عليه هو ما فى المصاحف العثمانية التى أجمع عليها الصحابة ، ولا نلتفت إلى غيرها .

= قد صارتا علما بالغلبة على سور القرآن وآياته وأن اليهود والنصارى لا يطلقون عليها اسم السورة . ولكن يسمونها « إصحاحا » وهى تشتمل على فقرات ، وعلى هذا فلا ينبغي أن نسمى الإصحاح سورة ولا الفقرة آية كما يفعل بعض المسلمين ، ولنبقى إطلاق السورة والآية على القرآن الكريم فحسب .

(أسامي السور)

وقد يكون للسورة اسم واحد وهو كثير مثل النساء ، والاعراف ، والأنعام ومريم ، وطه ، والشورى ، والمدثر ، وقد يكون لها أكثر من اسم فمن ذلك الفاتحة ، تسمى فاتحة الكتاب ، وأم الكتاب ، وأم القرآن والسبع الثاني ، والشافية والكافية . والأساس وقد أنهى الامام السيوطي ^(١) أسماءها إلى خمس وعشرين ودراسة ، تسمى أيضا التوبة ، والفاضحة ؛ والبحوث ^(٢) بفتح الباء ، والمنقرة وقد أنهاها السيوطي إلى عشرة أسماء ، والاسراء ، وتسمى أيضا سبحان ، وسورة بني إسرائيل وسورة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتسمى أيضا القتال ، وسورة دال ، وتسمى أيضا المعارج ، وسورة دهم ، وتسمى أيضا النبأ ، والتساؤل ، والمعصرات ، وسورة دأرايت ، وتسمى أيضا الدين ، والماعون ، وسورة الإخلاص ، وتسمى أيضا الأساس ، وسورنا ، الفلق ، ود الناس ، وتسميان أيضا المعوذتين بكسر الواو المشددة وقد استوعب السيوطي السور ذات الأسماء المتعددة في الإتيان ^(٣) .

وكما سميت السورة الواحدة بعدة أسماء سميت سور عدة باسم واحد ، وذلك كالسور المسماة بآلم وحم ؛ وذلك على القول بأن فواتح السور أسماء لها ، وتكون هذه الأسماء من قبيل المشترك اللفظي والتمييز بين السور بقرينة ضخمة إليها ، فيقال : ألم البقرة ، د الم آل عمران ، ويقال دحم غافر ، ودحم فصلت ، وهكذا .

(١) الإتيان ج ١ ص ٥٢ - ٥٣ (٣) الإتيان ج ١ ص ٥٢ - ٥٥ .

(٢) البحوث والمنقرة لأنها نقرت وبحشت عن صفات المنافين ومحاربههم .

التسمية توقيفية أم اجتهادية؟

قيل أنها توقيفية وعليه فنقف عند حد الوارد منها ، وقيل أنها اجتهادية وعلى هذا فلا يعدم الناظر أن يستنتج للسورة الواحدة أسماء أخرى غير الواردة ؛ والظاهر الأول ، قال السيوطي : وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار ، ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك ، وعلى هذا يكون التوقيف أعم من أن يكون عن النبي صلى الله عليه وسلم . أو عن الصحابة الذين شهدوا الوحي والتنزيل .

وللزركشي في هذا المقام كلام حسن قال : في البرهان . ينبغي البحث عن تعداد الاسامي هل هو توفيقى أو بما يظهر من المناسبات ؟ فإن كان الثانى فلم يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معانى كثيرة تقتضى اشتقاق أسماء لها وهو بعيد ، قال : وينبغي النظر فى اختصاص كل سورة بما سميت به ولا شك أن العرب تراعى فى كثير من التسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون فى الشيء من خلق أو صفة تخصه ، أو تكون معه أحكم . أو أكثر . أو أسبق لأدراك الرأى للسمى . ويسمون الجملة من الكلام والقصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها . وعلى ذلك جرت أسماء سور القرآن كتسمية سورة البقرة بهذا الإسم لقريظة قصة البقرة المذكورة فيها ، وعجيب الحكمة فيها . وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها شيء كثير من أحكام النساء . وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها . وإن كان ورد لفظ الأنعام فى غيرها إلا أن التفصيل الوارد فى قوله تعالى : « ومن الأنعام حمولة وفرشا » إلى قوله : « أم كنتم شهداء الاية » لم يرد فى غيرها كما ورد ذكر النساء فى سور . إلا أن ما تكرر . وبسط من أحكامهن لم يرد فى غير سور النساء . وكذا سورة المائدة لم يرد ذكر المائدة فى غيرها فسميت بما يخصها .

قال : فإن قيل قد ورد في سورة هود ذكر نوح . وضالح . وإبراهيم ولوط وشعيب . وموسى فلم خصت باسم هو وحده ؟ مع أن قصة نوح فيها أوعب وأطول ؟ (١) قيل : تكررت هذه القصص في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء بأوعب مما وردت في غيرها . ولم يتكرر في واحدة من هذه السور الثلاث اسم هود كتكرره في سورته فإنه تكرر فيها في أربعة مواضع والتكرار من أقوى الأسباب التي ذكرنا .

قال . فإن قيل فقد تكرر اسم نوح فيها في ستة مواضع ؟ قيل . لما أفردت لذكر نوح ، وقصته مع قومه سورة برأسها . فلم يقع فيها غير ذلك كانت أولى بأن تسمى باسمه من سورة تضمنت قصته وقصة غيره .

قال السيوطي تعقيباً وبحناً ، ولك أن تسأل فنقول . قد سمت سور جرت فيها قصص أنبياء بأسمائهم كسورة نوح ، سورة هود وسورة إبراهيم وسورة يونس وسورة آل عمران . وسورة طس سليمان (٢) وسورة يوسف . وسورة محمد صلى الله عليه وسلم : وسورة مريم ، وسورة لقمان وسورة المؤمن ، وقصة أقوام كذلك كسورة بني إسرائيل وسورة أصحاب الكهف وسورة الحجر ، وسورة سبأ ، وسورة الملائكة ، وسورة الجن ؛ وسورة المنافقين ، وسورة المطففين ، ومع هذا كله لم يفرد لموسى سورة تسمى به مع كثرة ذكره في القرآن حتى قال بعضهم : كاد القرآن أن يكون كله لموسى وكان أولى سورة أن تسمى به سورة طه أو سورة القصص أو الأعراف ؛

(١) من آية ٢٥ إلى ٤٨ وقصة هود من آية ٥٠ إلى ٦٠ .

(٢) هي سورة النمل ، ولم تبسط قصة سليمان في سورة مثل ما بسطت في هذه السورة . من آية ١٦ - ٤٤ على ما ذكر في قصته هنا من العجائب كقصة الهدد ، وقصة نقل عرشها ، وقصة السرح الذي بناه بلقيس ملكة سبأ

تبسط قصته في الثلاثة مالم يسط في غيرها : (١) وكذلك قصة ادم ذكرت في عدة سور ولم تسم به سورة كأنه اكتفاء بسورة الإنسان وكذلك قصة الذبيح من بدائع القصص . ولم تسم به سورة الصافات ، وقصة داود ذكرت في سورة ص ولم تسم به فانظر في حكمة ذلك على أنى رأيت في جمال القراء للسخاوى ، أن سورة طه تسمى « سورة السكيم » وسماها الهذلى في كامله « سورة موسى » وأن سورة ص تسمى « سورة داود » ورأيت في كلام الجعبرى أن سورة الصافات تسمى « سورة الذبيح » وذلك يحتاج إلى مستند من الآثار .

وهذا الفصل الذى ذكره الزركشى من النفاسة بمكان ، وما عقب به الإمام السيوطى يحتاج إلى بحث ونظر في حكمة ذلك .

والذى يظهر لى — والله أعلم — أن قصة موسى تكررت في هذه السور أكثر من غيرها وهى متقاربة في الهمك كما بينت بالهامش ، فلم تكن أحد السورتين الاخرين أولى من الاخرى ، بقيت السور طه ، وهى وإن كانت أطول إلا أنها لم تعرض لنشأة موسى الأولى كما عرضت سورة القصص ، فلم تكن أولى منها من هذه الحيثية ، ولو صح وثبت ما ذكره السخاوى لكان لتسمية طه بسورة السكيم وجه وجيه ، ولكن لا مستند له من الآثار كما قال السيوطى .

تقسيم السور باعتبار الطول والقصر

قد قسم العلماء السور إلى أربعة أقسام .

(١) الطوال : وهى سبع البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ،

(١) ذكرت في سورة طه من آية ٩ — ٩٩ وفى القصص من ٢ — ٤٦ معظمها طوال وفى الأعراف من ١٠٣ — ١٥٥ معظمها قصار ، والأولى استغرقت في المصحف نحو ست صفحات ، والثانية ، والثالثة استغرقت كل منهما خمس صفحات .

والأنعام والأعراف ، والسابعة قيل الأنفال وبراءة لعدم الفصل بينهما
بالبسمة ، وقيل يونس .

(٢) المثنون : ماولى الطوال وهى ما تزيد آياتها عن مائة أو تقاربها .

(٣) المثنائى : ماولى المئين وهى السور التى آياتها تقارب المئة وسميت
مثنائى لأنها تثنى أكثر مما يثنى الطوال والمثنون .

(٤) المفصل : ماولى المثنائى من قصار السور سمي بذلك لكثرة الفواصل
التي بين السور بالبسمة ، وقيل لقلة المنسوخ فيه ، وقد اختلف فى أوله على أقوال
فقيهين : أوله (ق) ، وقيل الحجرات وهو الذى صححه النووى ، وللإمام
طوال وأوساط وقصار ، فالطوال من الحجرات إلى سورة البروج ، والأوساط
من سورة (الطارق) إلى سورة (لم يكن) ، والقصار من سورة الزلزلة
إلى آخر القرآن .

« تقسيم السور من حيث عدد الآيات إتفاقا واختلافا ،

تنقسم سور القرآن من هذه الحثية إلى ثلاثة أقسام .

(١) قسم لم يختلف فيه لافى إجمال ولا تفصيل .

(٢) قسم اختلف فيه تفصيلا لا إجمالا .

(٣) قسم اختلف فيه إجمالا وتفصيلا .

فالأول أربعون سورة يوسف ، الحجر ، النحل ، الفرقان ، الأحزاب
الفتح الحجرات ، ق ، الذاريات ، القمر ، الحشر ، الممتحنة ، الصف ، الجمعة
المنافقون التغابن ، التحريم ، ن ، الإنسان ، المرسلات ، التكويد ، الانفطار
التطهيف ، البروج ، سبح ، العاشية ، البلد ، الليل ، والضحي ، ألم نشرح ،
التين ، العاديات ، الهاكم ، الهمزة ، الفيل ، الكوثر ، الكافرون ، النصر
تبت ، الفلق .

والثانى أربع سور : (١) القصص ثمان وثمانون ، عد أهل الكوفة

طسم اية والباقون بدلها ، ولما ورد ماء مدين وجد عليها أمة من الناس يشفقون ،^(١)
 (٢) والعنكبوت تسع وتسعون ، عد أهل الكوفة ألم والبصرة بدلها ، فإذا
 ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، والشام ، وتقطعون السبيل^(٢)
 (٣) والجن ثمان وعشررون عد المسكى ، لن يحيرني من الله أحد ، والباقون
 بدلها ، ولن أجد من دونه ملتحداً ، (٤) والعصر ثلاث عد المدنى الأخير
 « وتواصوا بالحق ، دون « والعصر ، وعكس الباقر ، فعدوا « والعصر ،
 وجعلوا ، إلا الذين امنوا ... ، إلى آخر السورة اية وأما الأولون فقد
 جعلوها ايتين .

والقسم الثالث سبعون سورة ، وهى ماعدا ما سبق من السور منها البقرة
 وهى مائتان وخمس وثمانون فى عدد المسكى والمدنى والشامى ، وست وثمانون
 فى عدد الكوفى ، وسبع وثمانون فى عدد البصرى وقد اختلفوا فى أحد عشر
 موضعاً منها « ألم ، عده الكوفى ، « ولهم عذاب أليم ، عده الشامى ، إنما
 نحن مصلحون ، عده غير الشامى ، ... أولئك ما كان لهم أن يدخلوها
 إلا خائفين ، عده البصرى ... الخ
 ومن أراد استيعاباً فى هذا فليرجع إلى كتاب التبيان^(٣) فقد فصل ما أجمله
 السيوطى فى الاتقان .

ترتيب سور القرآن

اختلف فى ترتيب السور على أقوال ثلاثة :
 الأول : ما ذهب إليه جماعة من العلماء ، وهو أن ترتيب السور بتوقيف
 من النبى صلى الله عليه وسلم فلم توضع سورة فى موضعها من المصحف
 إلا بناء على أمر النبى صلى الله عليه وسلم وتعليمه أو برمزه وإشارته على
 حسب ما فهموه من تلاوته صلى الله عليه وسلم ، ومن ذهب إلى هذا أبو جعفر .
 ابن النحاس والكرمانى^(٤) ، وأبو بكر

(١) القصص ٢٢ (٢) العنكبوت ٢٨ ، ٦٥
 (٣) التبيان (٤) الإتقان ج ١ ص ٦٢

الأنباري، قال أبو بكر الأنباري، أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ثم فرقه في بضع وعشرين سنة فكانت السورة تنزل لأمر يحدث والآية جواباً لمستخبر، ويوقف جبريل النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم على موضع الآية والسورة فأتساق السورة كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ فن قدم سورة وأخرها فقد أفسد نظم القرن .

وأخرج ابن ائنه في كتاب المصاحف عن سليمان بن بلال قال : سمعت ربيعة يسأل : لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزلت قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة وإنما أنزلنا بالمدينة ؟ فقال : قدمتا وألف القرآن على علم من ألف به ومن كان معه فيه واجتماعهم على علمهم بذلك فمنذا مما ينتهي إليه ولا يسأل عنه .

استدل هؤلاء :

١ - بأن الصحابة أجمعوا على ترتيب المصحف الذي كتب في عهد عثمان ولم يخالف في ذلك أحد حتى من كان عنده مصاحف مكتوبة على ترتيب آخر فلو لم يكن الأمر توقيفياً لحصل من أصحاب المصاحف الأخرى المخالفة في الترتيب التمسك بترتيب مصاحفهم ، لكن عدو لهم عنها وعن ترتيبها بل وإحراقها دليل على أن الأمر ليس للرأى فيه مجال ولا يشترط أن يكون التوقيف بنص صريح بل قد يكفي فيه الفعل أو الرمز والإشارة .

٢ - بالآثار الواردة التي تدل على التوقيف منها : ما أخرجه أحمد وأبو داود عن حذيفة الثقفى قال : كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف الحديث وفيه فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم طراً على حزب فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه فسالنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور ، وحزب المفصل من ق (١) حتى نختم : فهذا يدل على أن ترتيب سور الفصل على ما هو في المصحف الآن كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) جمهور العلماء على خلاف في هذا وأنه من الحجرات إلى آخر المصحف .

ويمكن أن يناقش هذا الدليل بأن غاية ما يدل عليه هو ترتيب المفضل
أما ما عداه فلا ، لأنه عرض للتخريب ، لا للترتيب .

٣- مما يدل على التوقيف كون الحواميم رتبت ولاء أى متابعه ولم ترتب
المسبجات ولاء بل فصل بين سورها بالمجادلة والممتحنة والمنافقون ، كما
فصل بين طسم الشعراء . وطسم القصص ، بطس النمل مع أنها أقصر منها فلو
كان الترتيب اجتهاديا لما حصل الفرق بين المتماثلات من السور في القوائم
مع التناسب في الطول والقصر (١) .

الرأى الثانى : أن الترتيب كان باجتهاد من الصحابة رضوان الله عليهم
ونسب هذا القول السيوطى إلى الجمهور ومن قال بهذا الإمام مالك وأبو بكر
الطيب فى أرجح قوله ، واستدل القائلون بهذا باختلاف ترتيب مصاحف
الصحابة قبل الجمع فى عهد عثمان رضى الله عنه فلو كان الترتيب توقيفيا لما
اختلفت مصاحفهم فى ترتيب السور لكنها اختلفت فمنهم من رتب على
النزول كمصحف على رضى الله عنه كان أوله اقرأ ثم المدثر ثم ن ثم المزل الخ .
وأما مصحف ابن مسعود فكان مبدؤا بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران ثم
الأعراف ، ومصحف أبى كلن مبدؤا بالحمد ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران
ثم الأنعام الخ . وأجيب عن هذا بأن الاختلاف لا يصلح أن يكون دليلا
على أنه ليس توقيفيا وذلك لأن مصاحفهم لم تكن مصاحف عامة بل كانت
مصاحف خاصة جمعت إلى القرآن بعض مسائل العلم والتأويل وبعض
المأثورات فهى إلى كتب العلم والتأويل أقرب منها إلى المصاحف المجردة ،
لذلك لم يعتمد عليها عند جمع المصاحف فى عهد عثمان فى زيادة أو نقص
وكذلك لم يعول عليها فى الترتيب ؛ أو يقال أن اختلافهم كان قبل العلم بالتوقيف
فلما علموا تركوا ترتيب مصاحفهم واتبعوا ترتيب المصاحف العثمانية .

محاولة التوفيق بين الرايين : وقد حاول الزركشى فى البرهان أن يجعل الخلاف
بين الفريقين لفظيا لأن القائل الثانى - الاجتهاد - يقول أنه رمز إليهم ذلك
لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته ولهذا قال مالك : إنما ألفوا القرآن على

(١) سورة الشعراء ، والقصص كل منهما نحو تسع صفحات .

ما كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم ، مع قوله أن ترتيب السور
باجتهاد فآل الخلاف إلى أنه هل هو بتوقيف قولى أو بمجرد إسناد فعلى
بحيث يبقى لهم فيه مجال للنظر وسبقه إلى ذلك أبو جعفر بن الزبير .

الرأى الثالث . أن الكثير من السور علم ترتيبها بالتوقيف والبعض
كان ترتيبها باجتهاد من الصحابة ، وإلى هذا ذهب بعض فطاحل العلماء
كالقاضى أبى محمد ابن عطية حيث قال (ظاهر الآثار أن السبع الطوال
والخواص والمفصل كان مرتبا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وكان فى
السور مالم يرتب فهذا هو الذى رتب وقت الكتب (١)

وقال البيهقى فى المدخل (كان القرآن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم
مرتبا سورة وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة) فقد حصر البعض
الذى هو باجتهاد فى هاتين السورتين فقط ، وقال الحافظ ابن حجر (ترتيب
بعض السور على بعضها أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفيا) وقد اختار
السيوطى ما ذهب إليه البيهقى حيث قال ، والذى ينشرح له الصدر ما ذهب
إليه البيهقى وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفى إلا براءة والأنفال ولا ينبغى
أن يستدل بقراءته صلى الله عليه وسلم سوراً ولاء على ترتيبها كذلك ،
وحينئذ فلا يرد حديث قراءته النساء قبل آل عمران لأن ترتيب السور فى
القراءة ليس بواجب ولعله فعل ذلك لبيان الجوار ، .

ويشهد لما ذكره البيهقى ما رواه أحمد والترمذى وغيرهما عن ابن عباس
قال . قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من الثانى وإلى
براءة وهى من المثني فقرتم بينهما ولم تكتبوا سطر ، بسم الله الرحمن الرحيم ،
ووضعتموها فى السبع الطوال فقال عثمان رضى الله تعالى عنه كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذوات العدد فكان إذا نزل عليه

شيء دعا بعض من يكتب فيقول . ضعوا هذه الايات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الانفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من أواخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب ، بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتها في السبع الطوال وأجيب عن هذا الدليل .

١ - بأن هذا الحديث غير صحيح (١) لأن الترمذي الذي هو أحد من خرجه قال حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يزيد القاضى عن ابن عباس . ويؤيد هذا مجهول الحال فلا يصح الاعتماد على حديثه الذي انفرد به في ترتيب سور القرآن .

٢ - على تسليم صحته فيجوز أن يكون عثمان حين إخباره لابن عباس لم يكن عنده شيء مسموع بشأن الترتيب بين السورتين فلا ينافى أنه علم بعد ذلك .

وسواء أكان الترتيب توقيفيا أم اجتهديا فإنه ينبغي احترامه والاحتياط به في كتابة المصاحف لأنه عن إجماع من الصحابة ولأن مخالفته تجر إلى الفتنة . ودرء الفتنة وسد ذرائع الفساد واجب .

وأما ترتيب السور في التلاوة فليس بواجب إنما هو مندوب قال الإمام النووي في التبيان ، قال العلماء الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ثم البقرة ، ثم آل عمران . ثم ما بعدها على الترتيب سواء أقرأ في الصلاة ، أم في غيرها ثم قال : قال بعض أصحابنا ويستحب إذا قرأ سورة

(١) قال الحافظ في الفتح ج ٩ ص ٢٤ ، وقد أخرج أحد ، وأصحاب السنن ، وصححه ابن حبان ، والحاكم من حديث ابن عباس قال . قلت لعثمان . الحديث ولم ينازع في تصحيحه وهو من هو في العام بالتصحيح والتضعيف ونقد الرجال

أن يقرأ بعدها التي تليها ودليل ذلك أن ترتيب المصحف إنما جعل لحكمة
فينبغي أن يحافظ عليه إلا فيما ورد الشرع باستثنائه كصلاة الصبح يوم
الجمعة يقرأ في الأولى ، ألم السجدة) وفي الثانية (هل أتى) ولو خالف
المواولة فقرأ سورة لا تلي الأولى ، أو خالف الترتيب فقرأ سورة قبلها جاز
فقد جاءت بذلك آثار كثيرة ، وقد قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في
الركعة الأولى من الصبح بالكهف . وفي الثانية يوسف . وقد كره جماعة
مخالفة ترتيب المصحف روى عن الحسن أنه كان يكره أن يقرأ القرآن إلا على
تأليفه في المصحف قال . وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فممنوع
منها مؤكداً لأنه يذهب ببعض الإعجاز ويزيل حكمة ترتيب الآية وقد
روى عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قيل له . إن فلانا يقرأ القرآن
منكوساً فقال . ذلك منكوس القلب ، وأما تعليم الصبيان القرآن من آخر
المصحف إلى أوله فحسن وليس من هذا الباب فإن ذلك قراءة منفصلة في
أيام متعددة على ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم .

المبحث التاسع (كتابه القرآن ورسمه)

الكتابة عند العرب : يحسن بنا قبل البحث في كتابة القرآن ورسمه أن نبين كيف كان حال الكتابة في مكة والمدينة قبل البعثة المحمدية فنقول . يكاد يجمع المؤرخون على أن الخط دخل إلى مكة بوساطة حرب بن أمية بن عبد شمس وإن كانوا اختلفوا في المصدر الذي تعلم منه حرب بن أمية الكتابة ، ففي رواية ابن الكلبي أن حرباً تعلمها من بشر بن عبد الملك أخى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، ذلك أن حرباً تعرف به في أسفاره إلى العراق فتعلم منه الكتابة ثم قدم معه بشر إلى مكة وتزوج ، الصباه بنت حرب ، أخت أبي سيفان وبذلك تنسب جماعة من قریش أن يتعلموا الكتابة والقراءة ، وقد أخذ أهل العراق الكتابة عن أهل الأنبار ، وأهل الأنبار تعلموا الخط من جماعة من عرب طيء أخذوا الكتابة عن كاتب الوحي لسيدنا هود عليه السلام .

وفي رواية أبي عمرو والداني عن زياد بن أنعم عن بن عباس أن حرباً تعلم الخط من عبد الله بن جدعان ، وعبد الله تعلم من أهل الأنبار ، وأهل الأنبار تعلموا من طاريء طرأ عليهم من اليمن ، وهذا الطاريء تعلم من الخليل بن موهم وكان كاتب الوحي لهود نبي الله بالوحي عن الله عز وجل ، وبذلك وجد من يكتب بمكة قبل البعثة .

وأما الخط في المدينة المنورة فقد ذكر أصحاب السير أن النبي صلى الله عليه وسلم دخلها وكان فيها يهودى يعلم الصبيان القراءة والكتابة ، وكان فيها بضعة عشر رجلاً يعرفون الكتابة منهم زيد بن ثابت الذى تعلم كتابة اليهود بعد الهجرة بأمر النبي صلى الله عليه ، والمنذر بن عمرو ، وأبي بن وهب ، وعمرو بن سعيد وغيرهم .

ومن ثم نرى أن الكتابة وجدت في العرب قبل الإسلام وكان الذين يحذقونها

قليلين جداً ، أما الغالبية العظمى فكانت أمية لا تقرأ ولا تكتب ولهذا سميت
الامة العربية بالامة الامية .

وقد كان وجود الكتابة في العرب قبيل الإسلام ، إرهاباً^(١) لبعثة خاتم
الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليجتمع للقرآن الكتابة في الصحف والتقييد
في السطور إلى الحفظ في الصدور ، وبذلك يتهيأ للقرآن من دواعي الحفظ ما لم
يتهيأ لغيره ويتحقق وعد الحق جل وعلا ، إننا نحن نزلنا الذكر وإناله لحافظون وأيضاً
بعد صلح الحديبية .

فقد كانت الكتابة من أسباب تبليغ الرسالة المحمدية إلى الملوك والأمراء ، فقد
كانهم النبي صلى الله عليه وسلم داعياً إلى عبادة الله وحده ، والأنصراً تحت لواء
الإسلام وبذلك الشرك وعبادة الأوثان ، وبذلك تعدت الرسالة حدود الجزيرة
العربية ، إلى العالم المعروف آنئذ ، وقد عثر على كتاب من هذه الكتب
وهو كتاب رسول الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط ، وهو أثر من
الآثار النبوية القيمة^(٢) .

الإسلام والكتابة .

ولما جاء الإسلام رفع من شأن الكتابة وتعلّمها ، وشأن العلم والمعرفة
وليس أدل على ذلك من أول سورة نزلت منه أشادت بالقلم وأنه أداة العلم
والمعرفة الكسبيين وهي قوله تعالى . (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان
من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) فقوله
(علم بالقلم) إشارة إلى العلم الكسبي ، وقوله (علم الإنسان ما لم يعلم) إشارة
إلى العلم الوهي

[١] مقدمة بين يدي البعثة

[٢] انظر صوره الكتاب ، في كتاب « الوسيط في الادب العربي وتاريخه » ،

وهذا هو الله سبحانه وتعالى يقسم بالقلم فيقول . (ن والقلم وما يسطرون)
وفي القسم به من ذى الجلال لإشادة به، وتنبيه الناس إلى ما فيه من الفوائد والمزايا
وفي الحديث الصحيح المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال . (أول
ما خلق الله القلم ، ثم قال . اكتب . فخرى بما هو كائن إلى يوم القيامة)
رواه أحمد والترمذي وصححه .

وبن دينا يشيد بالقلم هذه الأشادة لهُو دين العلم والمدنية الصحيحة .
وهذا هو النبي صلوات الله وسلامه عليه تواتيه أول فرصة لنشر القراءة
والكتابة فيتهنّها كي يتعلمها أكبر عدد من أبناء المسلمين وصبيانهم . فقد روى
الرواة الإثبات إن المسلمين أسروا في غزوة بدر الكبرى سبعين رجلا من
المشركين فقبل النبي بمن عنده مال الفداء ، وكان ذلك أربعة آلاف درهم من
الموسرين ، أما من كان يحسن القراءة والكتابة فقد جعل فداؤه أن يعلم
عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة (١) وقد فعل النبي هذا في
وقت كان المسلمون أحوج إلى درهم ليزيلوا به خصاصتهم ويتقوا به على
أعدائهم ، ولكن ذا المواهب أدرك أن تعليم الأمة الكتابة خير من المال وأنهم من
عوامل تقدم الأمة ورقها وهذه السياسة الحكيمة كان النبي صلى الله عليه وسلم
أول من وضع لبننة في إزالة الأمية من الأمم والشعوب ؛ وأن الاسلام سبق
إلى محاربه الأمية والجهل من قرابة أربعة عشر قرنا ، على حين كان غير من يبدعهم
مقابلد الأمور يحرصون على أن تبقى شعوبهم منغمسة في حمة الجهل والخرافات
ولقد كان لهذه السياسة الرشيدة أثرها فقد انتشرت الكتابة بين المسلمين وانتشر العلم
والمعرفة وصارت تنتشر في كل فطر فتحة المسلمون ، ولا يخالف هذا ما روى من
قوله صلى الله عليه وسلم « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، إذ هو أخبار عما كانت
عليه غالبية الأمة وصار العلم ، والثقافة الأصلية من أخص خصائص الأمة
الاسلامية .

(١) العميرة النبوية في ضوء القرآن والسنة لنزول ٢٠ ص ١٢٨

كتابة القرآن الكريم

لقد كتب القرآن جميعه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم غير أنه كان مفرقا في العصب ، واللخاف والأكتاف ، والرقاع ، ونحوها وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه شيء من القرآن دعا بعض كتّاب الوحي فيأمره بكتابة ما نزل ويرشده إلى موضعه من سورته والكيفية التي تكتب عليها الكتابة ، ولم يجاور الرسول الرفيق الأعلى إلا والقرآن كله مكتوب مسطور .

ثم كتب في عهد الصديق رضي الله عنه في صحف مجموعة ، وكانت كتابته من عين ما كتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم كتب في عهد عثمان رضي الله عنه في المصاحف على ما هو عليه ، وكانت كتابته من عين ما كتب في عهد الصديق رضي الله تعالى عنه ؛ ألا أنه اقتصر في رسمه على ما وافق حرف قریش وقد بينا آنفا في مبحث جمع القرآن الأطوار التي مرت بها كتابة القرآن وتدوينه ولعلك على ذكر منها .

كتاب الوحي

لقد كان لكتابة القرآن بين يدي النبي كتاب من الصحابة معروفون بالدين الكامل والأمانة الفاتقة والعقل الراجح ، والتثبت البالغ ، كما كانوا معروفين بالحقق في الهجاء والكتابة ، وقد اشتهر منهم بكتابته أبو بكر ، عمر ، عثمان ، وعلى وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وهو أول من كتب له بمكة ، والزبير بن العوام ومعاوية ، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص بن أمية ، وأبي بن كعب ، وهو أول من كتب له بالمدينة وزيد ابن ثابت ، وهو أكثرهم كتابة بالمدينة وشرحيل بن حسنة . وعبد الله بن رواحه ، وعمر بن العاص ، وخالد بن الوليد ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وثابت بن قيس وعبد الله بن الأرقم

الزهرى ، وحظظة بن الربيع الاسدى فى آخرين (١) ، وقد كان هؤلاء يكتبون ما يمليه عليهم الرسول ويرشدهم إلى كتابته من غير أن يزيدوا فيه حرفاً أو ينقصوا منه حرفاً ، فقد روى أحمد ، وأصحاب السنن الثلاثة : وصححه ابن حبان ، والحاكم حديث عبد الله بن عباس عن عثمان قال . (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتى عليه الزمان ينزل عليه من السور فوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشئ يدعو بعض من يكتب عنده فيقول (ضعوا هذا فى السورة التى يذكر فيها كذا) ويدل على كتابة القرآن فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم عدا هذا أدلة كثيرة منها .

١ — ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى سعيد الخدرى قال . قال رسول الله صلى الله عليه (لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن ومن كتب عني غير القرآن فليسمحه) .

٢ — ما روى فى صحيح البخارى من قول الصديق أبى بكر لزيد بن ثابت (أنك رجل شاب عاقل لا تهملك كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ — ما رواه الترمذى أنه لما نزل قوله تعالى . (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) الآية قال عبد الله بن أم مكتوم (وعبد الله) ابن جحش (٢) يا رسول الله إنا أعميان ، فهل لنا رخصة فأنزل

(١) فتح البارى ج ٩ ص ١٨ الاستيعاب ج ١ ص ٥١ على هامش الإصابة تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ٢٩

(٣) الظاهر أن عبد الله بن جحش الاسدى ابن عمه النبی ، وشهيد أحد لأنه لم يكن أعمى ، أما الذى نزلت بسببه الكلمة فكان أعمى ، وقد ذكر هذه الرواية السكيتى فى تفسيره ، ونقلها عنه الثعلبى ، وقد نبه على أنه ليس الاسدى (الإصابة ج ٢ ص ٢٨٧) والذى ذكره الحافظ فى الفتح غير هذا

أق (غير أولى الضرر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوني بالكف والدواة وأمر زيد أن يكتبها فكتبها فقال زيد فكأنى أنظر إلى موضعها عند صدع في الكنف .

رسم المصحف

(ما هو رسم المصحف ؟)

رسم المصحف يراد به الوضع الذي ارتضاه عثمان رضى الله عنه ، ومن كان معه من الصحابة في كتابة كلمات القرآن وسم حروفه ، في المصاحف التي وجه بها إلى الافاق ، والمصحف الإمام الذي احتفظ به لنفسه ، وقد كان علما مستقلا وعنى بالتأليف فيه علماء من المتقدمين والمتأخرين ، منهم الشيخ الإمام أبو عمرو الداني في كتابه (المقنع) ومنهم الشيخ العلامة أبو عباس المراكشي (١) فقد ألف في توجيه ما خالف قواعد الخط منه كتاباً سماه (عنوان الدليل في مرسوم خط التذييل) يبين فيه أن هذه الأحرف إنما اختلف حالها في الخط بحسب اختلاف أحوال معاني كلماتها ، وأن فيها فوائد بلاغية ، ولغوية ونحوية ومنهم العلامة الشيخ محمد بن أحمد الشهير بالمتولي

فقد قال . إن الصواب أنه أبو أحمد عبد بن جحش من غير إضافة عبد إلى شيء ، وهو أخو عبد الله ، وقد خرج الطبري على الصواب ، وليس في رواية البخاري ذكر ابن جحش ، والخلاصة أنه إما عبد بن جحش كما صوبه الحافظ وإما عبد الله بن جحش آخر كما قال الثعلبي (فتح الباري ٨ - ٢١١) والحمد لله الذي هداني لهذا .

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأسدي المراكشي المعروف بابن البناء المتوفى سنة إحدى وعشرين وسبع مائة .

لإذ نظم في ذلك أرجوزة ، ثم جاء المرحوم العلامة الشيخ محمد علي خلف الحسيني شيخ المقاريء المصرية ، فشرح تلك المنظومة وذيّل الشرح له بكتاب له سماه (مرشد الحيران إلى معرفة ما يجب أتباعه في رسم القرآن) وألف فيه أيضاً أستاذنا الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي كتباً صغيراً سماه (أيقاظ الأعلام إلى أتباع رسم المصحف الإمام)

قواعد رسم المصحف .

الأصل في المكتوب أن يكون موافقاً للنطق من غير زيادة ولا نقص ولا تغيير ولا تبديل مع مراعاة الإبتداء به والوقف عليه ، والفصل والوصل وقد مهد له العلماء أصولاً وقواعد ، وقد خالفها في بعض الحروف خط المصحف الإمام ، وينحصر أمر الرسم في ستة قواعد (١) الحذف (٢) الزيادة (٣) الهمز (٤) البدل (٥) الوصل والفصل (٦) ما فيه قراءتان متواترتان وكتب على أحدهما ولتذكر لذلك أمثلة بقدر الإيضاح من غير استقراء وخصر لجميع ما ورد .

١ - الحذف . وذلك مثل حذف الألف من ياء النداء في (يا أيها الناس) ومن هاء التنبيه مثل (هأنتم هؤلاء) ومن (نا) إذا وليها ضمير نحو (أنجيئكم) و (وآتيته) ومن كل جمع تصحيح لمذكر أو مؤنث مثل (سمعون للكذب) (المؤمنت) (المسلمات) (القاتلات) إلى آخره ومن كل جمع على وزن مفاعل وشبهه نحو (مسجد) (والعمرى) إلا ما استثنى .

وتحذف الياء من كل منقوص منون رفعا وجرا مثل (غير باغ ولا عاد والمضاف إلى الياء إذا نودي مثل (يا عباد فاتقون) إلا (قل يعبادي الذين أسرفوا) في الزمر (يعبادي الذين آمنوا) في العنكبوت ومن مثل (أطيعون) (واتقون) (فارهبون) (فأسلون) (أعبدون) ألا في يس (وأخشون) إلا في البقرة و (كيدون) إلا (فكيدوني جميعاً)

وتحذف الواو إذا وقعت مع واو أخرى نحو «لا يستون» «فأو إلى الكهف» وكذلك حذفت من هذه الأفعال الأربعة «ويدع الإنسان بالشر دعاه بالخير» بالاسراء «ويمحو الله الباطل» في الشورى (يوم يدع الداعي إلى شيء نكر) في القمر (سندع الزبانية) في اقرأ وسياتى توجيه ذلك .

٢ - الزيادة : وذلك مثل زيادة الألف بعد آخر اسم مجرور أو مافى حكمه مثل «يلاقوا ربهم» «بنوا إسرائيل» «أولو الألباب» وفي «مائة» و «ماتين» و «الظنونا» و «الزسولا» و «السديلا» «لا أذبحنه» في النمل «ولا أوضعوا خلاصكم» في التوبة وفي نحو «تفتيوا» «أتوكؤ» «تفتيوا» «ولا تظمؤا» وبين الجيم والياء فى «جى» في الزمر والفجر فقد كتبت في المصحف هكذا «وجاى» فى السورتين .

وتزاد الياء فى نحو «نبأى المرسلين» «ملايهم» «وملايه» «ومن آناى الليل» «وايتاى ذى القربى» فى النحل «بأييكم المفتون» «والسما بنيناها بأيد» وتزاد الواو فى نحو «أولوا» «أولئك» «أولاء» «أولات» «ساوريك» وقد علل ذلك الكرماني فقال فى كتاب العجائب «كانت صورة الفتحة فى المخطوط قبل الخط العربى ألفاً وصورة الضمة واواً وصورة الكسرة ياء فكتبت» «لا أوضعوا» ونحوه بالآلاف مكان الفتحة «وايتاى ذى القربى» بالياء مكان الكسرة و «أولئك» ونحوه بالواو مكان الضمة لقرب عهدهم بالخط الأول .

وقال الزمخشري فى تفسيره . (فإن قلت كيف خط فى المصحف (ولا أوضعوا) بزيادة ألف ؟ قلت ؛ كانت الفتحة تكتب ألفاً قبل الخط العربى ، والخط العربى اخترع قريباً من نزول القرآن ، وقد بقى من ذلك الألف - بكسر الهمزة وسكون اللام - أثر فى الطباع فكتبوا صورة الهمزة ألفاً ، وفتحها ألف أخرى ونحوه (أو لا أذبحنه) (١) وهذا يشعر أنه

يرى ما يراه الكرماني ، وأنها يريان أن خط المصحف بالاجتهاد .
أقول . ولو كان الأمر كما يقولان فلم طبق ذلك في هذه الآيات ، وفي
القرآن ألوف الفتحات ، والكسرات ، والضمات ؟

٣ — قاعدة الهمزة . أما الهمزة الساكنة فالأصل فيها أن تكتب بحرف
حركة ما قبلها أولاً ، أو وسطاً ، أو آخراً نحو « أئذن لي » ، « أوتمن » ،
« البأساء » ، « اقراء » ، « جئناك » ، « هي » ، إلما استثنى مثل (فأداره تم) (وره يا)
فحذف الحرف فيهما ، وكتبت الهمزة مفردة .

أما الهمزة المتحركة فأن كانت في أول الكلمة أو اتصل بها حرف زائد
كتبت بالآلف مطلقاً أى سواء كان فتحاً ، أو ضمّاً ، أو كسراً نحو (أيوب)
(إذا) (أولوا) (سأصرف) (فبأى) إلا في مواضع مثل (قل أنتم لتكفرون)
في (فصلت) (أئنا لنخرجون) في النمل (أئنا لناركوا آلهتنا) (أئن لنا) في
الشعراء فكتبت فيها بالياء و (قل أو نبئكم) و (هؤلاء) فكتبت بالواو .

وإن كانت الهمزة وسطاً فأنها تكتب بحرف من جنس حركتها نحو
(سأل) (سئل) (نقرؤه) إلما استثنى ؛ وأن كانت طرفاً فأنها تكتب بحرف
حركة ما قبلها مثل (سبأ) (شاطىء) (لؤاؤ) وقد وردت في مواضع من القرآن
مخالفة لهذا الأصل مثل (نفثوا) (تفيثوا) (أتوكؤا) (ولا تظمئوا)
(ما يعبئوا) (يدروا) (ينشئوا) فأنها رسمت في المصحف بالوار ، وزيدت
بعدها ألف ، فإن سكن ما قبل الهمزة حذف الحرف مثل (ملء الأرض)
(دفء) (شىء) (الخبء) .

(٤) قاعدة البدل .

كتبت في الرسم الآلف واوا للتفخيم أو التهويل والتقطيع في مثل
(الصلواة) (الزكوات) (الحيوانات) (الربوا) غير مضافات (كشكوة)
(ومنوة) إلما قوله تعالى ، وما كان صلاتهم عند البيت إلما مكاء وتصدية)

(الأنفال ٣٥) وقوله تعالى . إن صلاتي ونسكي (الأنعام ١٦٢) وقوله (إنه هي إلا حياتنا الدنيا) (الأنعام ٢٩) وقوله وما آتيتم من رب ليريوا في أموال الناس فلا يريوا عند الله (الروم ٣٩) فقد كتبت بالالف .

وكتبت ياء في كل ألف منقلبة عنها نحو (يتوفىكم) في اسم أوفعل اتصل به ضمير ، أم لا ، بقى ساكنا ، أم لا ، ومنه (يا حسرتي) (يا أسنى على يوسف) إلا ما استثنى مثل (تترا) (كلنا) (هداني) (ومن عصاني) وتكتب ألفاً نون التوكيد الخفيفة ونون (إذا) ويكتب بالنون نحو (كأين من نبى) (١) وكتبت هاء التانيث على خلاف الأصل تا . في مواضع من القرآن وذلك مثل (رحمت) في البقرة وآل عمران وغيرهما و (نعمت) في البقرة وآل عمران والمائدة وغيرهما و (سنت) في الأنفال وفاطر (وامرات مع زوجها) و (لعنت) في قوله تعالى (فنجعل لعنت الله على الكاذبين) في آل عمران (والخامسة أن لعنت الله عليه) في النور و (محصيت) في (قد سمع) و (شجرت) في إن (شجرت الزقوم طعام الآثيم) و (قرت عين لي ولك) و (بقيت) في قوله تعالى (بقيت الله) و (جنت) في قوله (وجنت نعيم) إلى غير ذلك .

[٥] قاعدة الفصل والوصل

وردت بعض الألفاظ في رسم المصحف تارة موصولة ، وتارة مفصولة وورد بعضها في الرسم على حالة واحدة وذلك مثل وصل ، ألا ، بفتح

(١) أقول : يمكن أن يعلل ذلك بأن صلاتهم غير شرعية وغير معتد بها فلا يستأهل التفضيم ، وأن قوله « بأن صلاتي .. » مقام تذلل واستسلام لله ، فليس المقام بلاتق بالتفضيم ، وقوله : « إن هي إلا حياتنا الدنيا ، بأن الدهر بين حياتهم ضائعة ، فليست جديرة بالتضخيم ، وقوله « وما آتيتم من ربا ، بأن الربا ليس بمعناه الشرعى ، فلم يكن ثمت داع التهويل ، والتفطيع .

وتشديد اللام وفصلها في عشرة مواضع منها ، أن لا تقولوا ، في الاعراف
 ، أن لا تعبوا ، في هود ، ويس ، وأن لا تعملوا على الله ، في الدخان
 ووصل بما إلا ، من ماملكت أيمانكم ، في النساء ، والروم ، ومن مارزقناكم
 في المنافقين ووصل

(عن) مطلقا ووصل (عما) إلا (عن ما نوا عنه) ووصل عن إلا قوله
 (ويصرفه عن من يشاء) في النور و (عن من تولى) في النجم ، ووصل
 كلما إلا (كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها) و (من كل ما سألتوه) ووصل
 (أمن) إلا (أم من يكون عليهم وكيلا) في النساء (أم من أسس) في
 التوبة (أم من خلقنا) في الصافات (أم من يأتي أمنا) و (إمام) بكسر الهمزة
 والتشديد (إلا) وإن ما نرينك (في الرعد و) أما (بفتح الهمزة مطلقا ، إلى
 غير ذلك عما جاء في الرسم تارة موصولا وتارة مفصولا مثل (أنما) و (أن
 لم بالفتح والكسر و أن لن و أين ما و لكي لا و في ما .

٦ - ما فيه قراءتان وكتب على إحداهما ومرادنا غير القراءات الشاذة
 ومن ذلك ملك يوم الدين ويخضعون ووعدنا تفدوهم تظهرون وأولا دفع الله
 الناس ، فمن عقدت إيمانكم أو لمستم النساء وحرم على قرية سكرى وماهم
 بسكرى إلى غير ذلك فقد كتبت كلها في المصاحف العثمانية بلا ألف وقد قرئت
 بالآلف وبجذفها ، ومثل (غيبت الحب) في يوسف الآية ١٥ ثمرت من أكامها في
 فصلت (وهم في الغرقات امنون) فقد كتبت كلها بالتاء المفتوحة وبلا ألف
 وقد قرئت بالجمع : والإفراد ، ومثل (فكمون) فقد كتبت بلا ألف وقرئت

بالآلف وبعدها ومثل (الصراط) كيف وقع (وبسطة) في الأعراف (١) و (المصيطرون) ومصيطر (فقد كتبت بالصاد لا غير وقد قرئت بالصاد والسين (٢) .

وأما القراءات المختلفة المتواترة بزيادة لا يحتملها الرسم نحو (أوصى) ووصى في البقرة وتجري تحتها الأنهار و (من تحتها في التوبة) وما عملت أيديهم (وما عملته أيديهم في ليس وقوله سيقولون لله ويقولون الله في المؤمنين (٢) .

فقد كانت تكتب في بعض المصاحف دون بعض كما أسلفنا وبحسبنا ما ذكرنا في التمثيل لهذه القواعد ومن أراد استيفاء فليرجع إلى الاتقان (٣) أو كتب القراءات .

« رسم المصحف توقيفي أم اصطلاحى »

ذهب جمهور العلماء إلى أن رسم المصحف العثمانى توقيفى لا يتجزأ مخالفة واستدلوا بما يأتى

(١) وقد عللوا ذلك بأن الأصل فى هذه الألفاظ كتابتها بالسين على ما هى اللغة الغالبة ولكنها كتبت فى المصاحف العثمانية بالصاد لتعادل القراءتان القراءة التى يشهد لها الرسم والقراءة التى يشهد لها الأصل . ولو كتبت هذه الكلمات بالسين لفات ذلك ، ولاعتبرت الصاد مخالفه للأصل والرسم ، ولهذا اختلفت القراء فى (بسطة) فى الأعراف فقد قرئ بالصاد والسين ولم يقع اختلاف فى (بسطة) فى البقرة لكونها كتبت بالسين . فانظر كيف بلغ الصحابة فى رسم المصاحف إلى هذا الحد من الدقة وتحقيق العلم ؟

(٢) المؤمنون ٨٦ - ٨٩ فقد كتبنا فى مصاحف أهل البصرة بنظر (الله) بدون اللام جواباً للاستفهام وكتبنا باللام فى مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام على المعنى ، لأن من رب كذا؟ لمن هو؟ فى معنى واحد ، ولذلك جاء جواب الآية الأولى باللام حسب قال تعالى (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون) بخلاف الآيتين اللتين تليها

(٣) الاتقان ج ٢ ص ١٦٧ - ١٧٠

- إن القرآن الكريم كتب كله بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يعمل على كتاب الوحي ويرشدهم في كتابته بوحي من جبريل عليه السلام فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمعاوية (١) ألق الدواة وحرف القلم وانصب الباء، وفرق السين، ولا تغور الميم وحسن الله، ومد الرحمن. وجود الرحيم، وضع قلبك على أذنك اليسرى فإنه أذكرك هذا إلى قراره صلى الله عليه وسلم الكتاب على جميع ما كتبوه وتقريره صلى الله عليه وسلم أحد وجوه السنن المعروفة.

٢ - إطباق القراء على إثبات الياء في (واخشوني) في البقرة الآية ١٥ وحذفها في الموضعين في المائدة (٢) وغير ذلك مما خولف فيه بين نظائر مختلفة بالحذف والإثبات والزيادة والنقصان كما ذكرنا آنفاً فلو كان الرسم بالاجتهاد لما خولف فيه بين هذه النظائر والمتشابهات.

ولعل قائل يقول: لعل هذا من تعدد كتاب الوحي. فإنهم لم يكونوا سواء في الحذف بالهجاء. فمن نشأ هذا الاختلاف.

والجواب. لو كان الأمر على ما يزعم هذا القائل لناقش بعضهم بعضاً في هذا. ولا سيما الأمر يتعلق بالأصل الأول للإسلام. ونزف الدواعي لحرية الرأي في هذا العصر. ولكن لم ينقل إلينا أنهم تناوشوا في هذا أو عاب بعضهم بعضاً كتابته على أن هذا الاحتمال يبعد غاية البعد في مثل قوله تعالى هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أن ملاق حساية

(١) في القاموس المحيط لاق الدواة يليق بالقية وليقاو ألا فاجعل لها ليقة أو اصلح مدادها فلاقت الدواة لصق المداد بصوفها أي اصلح مدادها بوضع ليقة فيها وهو صوفة أو نحوها.

(الحاقة ١٩ - ٢٠ فقد كتبت كتيبه بعير ألفا . وكتبت حسايه بألف
والكلمتان سواء ؟ .

٣ - لما جاور الرسول الرفيق الأعلى وجمع القرآن في الصحف والمصاحف
أجمع الصحابة على رسمه ولا سيما الخلفاء الراشدون ولم يخالف في ذلك أحد
وإجماعهم حجة وقد حدث الرسول على الاقتداء بالخليفتين من بعده فقال
« اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر » أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن
ماجه وفي حديث العرياض بن سارية « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين
من بعدي عضوا عليها بالنواجذ » رواه أبو داود والترمذي وقال . حديث
حسن صحيح وقد أقر هذا الرسم الخلفاء الراشدون ومن ورأهم الصحابة
فكان لزاما على الأمة الإسلامية من بعدهم أن يقتدوا بهم ويتمسكوا برسم
المصحف ولا يحدوا عنه وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه « من كان منكم
متأسيا فليتناس بأصحاب رسل الله صلى الله عليه وسلم ، فإنهم كانوا أبر هذه
الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، وأقومها هديا ، وأحسنها حالا ،
اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإقامة دينه فاعرفوا
لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم ، فمن ثم ذهب جمهور الأئمة إلى التزام
هذا الرسم .

أقوال الأئمة في التزام الرسم العثماني :

قال أشهب . سئل مالك هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من
الهجاء ؟ فقال . لا إلا على الكتابة الأولى رواه الداني في المقنع ، قال .
ولا يخالف له من علماء الأئمة وقال في موضع آخر . سأل مالك عن الحروف
في القرآن من الواو والالف أتري أن يغير من المصحف إذا وجد فيه كذلك
قال لا قال أبو عمرو . يعني الواو والالف المزيدين في الرسم المعدومتين في
اللفظ نحو « أولوا » و « أولات » .

وقال الإمام أحمد : يحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف أو نحو ذلك .

وفي حواشي المنهج في فقه الشافعية مانعه ، إنه ينبغي ألا يكتب المصحف بغير الرسم العثماني ، وقال البيهقي في « شعب الإيمان » ، « من كتب مصحفا ينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفهم فيه ، ولا يغير مما كتبه شيئا فإنهم كانوا أكثر علما وأصدق قلبا وأسانا وأعظم أمانة فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكا عليهم ، إلى غير ذلك من أقوال الأئمة في التزام الرسم العثماني .

ويسلينا هذا الرأي إلى معرفه هل تعلم النبي صلى الله عليه وسلم القراءة والكتابة بعد أن لم يكن يعلمها ؟ أو أنه استمر على أميته وإليك بيان وجه الحق في هذا .

د هل صار النبي قارئاً كاتباً ،

اتفق العلماء قاطبة على أن النبي صلى الله عليه وسلم حين بعث إلى الناس قاطبة ، لم يكن قارئاً ولا كاتباً وذلك كي تقوم عليهم الحجة وتنفي الشبهة في ثبوت معجزته الكبرى ، وهو القرآن ، إذ لو كان قارئاً كاتباً لراجت شبهتهم وقوى ارتيابهم في أن ما جاء به نتيجة قراءة وإطلاع ، ونظر في الكتب السابقة ، وقد أشار إلى هذا الحق تبارك وتعالى فقال : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه يمينك » ، إذ الارتاب المطلوب ، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يحد بآياتنا إلا الظالمون ، (١) .

أما بعد أن قامت حجته وعلت كلمته وعجزت العرب عن أن يأتوا بأقصر سورة منه ولم يعد للريب والظنون موضع فقد كان محل بحث ونظر فن العلماء

من قال : إنه تعلم القراءة والكتابة ومنهم من منع وقال : إنه استمر على أميته وقد بسط القول في هذا الامام الألوسى فقد قال عقب تفسيره الآية السابقة مانصه :

« واختلف في أنه صلى الله عليه وسلم هل كان بعد النبوة يقرأ ويكتب أم لا ؟ فقيل أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة واختاره بغوى في التهذيب وقال إنه الأصح ، وادعى بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها وعدم معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمر الارتباب (١) تعرف الكتابة حينئذ وروى ابن أبي شيبة وغيره « ما مات - صلى الله عليه وسلم - حتى كتب وقرأ » ونقل هذا للشعبي فصدقه وقال : سمعت أبا ما يقول أنه وليس في الآية ما ينافية وروى ابن ماجه عن أنس قال قال صلى الله عليه وسلم « رأيت ليلة أُسرى في مكتوبا على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر » ثم قال :

ويشهد للكتابة أحاديث في صحيح البخارى وغيره كما ورد في صلح الحديبية « فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ، الحديث (٢) وعن ذلك أبو ذر عبد الله ابن أحمد الهروى ، وأبو الفتح النيسابورى ، وأبو الوليد الباجى من المغاربة وحكاه عن السمنانى وصنف فيه كتابا وسبقه إليه ابن منية

(١) لعل مراده ظهور فساد الارتباب وأنه لم يعد له مسوغ ، وفى فتح البارى ج ٧ ص ٤٠٥ « وأمن الارتباب »

(٢) صحيح البخارى - كتاب المغازى - باب عمرة القضاء ورواه أيضاً النسائى فى سننه ، وأحمد فى مسنده ، وأما مسلم فرواه بدون « وليس يحسن يكتب » ولكن فى روايته اثبات الكتابة كما هنا ، والحديث نص فى أنه صلى الله عليه وسلم تعلم الكتابة وأنه لم يحسنها .

ولما قال أبو الوليد ذلك طعن فيه ورمى بالزندقة وسب على المنابر ، ثم عقد له مجلس فأقام الحجة على مدعاه وكتب إلى علماء الأطراف ، فأجابوا بما يوافقه ، ومعرفة الكتابة بعد أميته صلى الله عليه وسلم لا ينافي المعجزة ، بل هي معجزة أخرى لكونها من غير تعليم . وقد رد بعض الأجلة كتاب الباجي لما في الحديث الصحيح « إنا أمة أمية » لا نكتب ولا ولا نحسب ، وقال ، كل ما ورد في الحديث من قوله « كتب » فغناه أمر بالكتابة كما يقال . كتب السلطان بكذا لفلان ، وتقديم قوله تعالى . « من قبله » على قوله سبحانه « ولا تخطه » كالصریح في أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقا ، وكون القيد المتوسط راجعا لما بعده غير مطرد ، وظن بعض الأجلة رجوعه إلى ما قبله وما بعده فقال . يفهم من ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان قادراً على التلاوة والخط بعد إنزال الكتاب ولولا هذا الاعتبار لكان الكلام خلوا عن الفائدة ، وأنت تعلم أنه لو سلم ما ذكره من الرجوع لا يتم أمر الفائدة إلا إذا قيل بحجية المفهوم ، والظان بمن لا يقول بحجتيه (ثم قال الألوسي في تفنيد هذه الردود ما نصه .

« ولا يخفى أن قوله عليه الصلاة والسلام ، إنا أمة لا نكتب ولا نحسب ، ليس نصافي استمرار نفي الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام ولعل ذلك باعتبار أنه بعث عليه الصلاة والسلام وهو أكثر من بعث إليهم ، وهو بين ظهرانيهم من العرب أميون . لا يكتبون ولا يحسبون ، فلا يضر عدم بقاء وصف الأمية في الأكثر بعد ، وأما ما ذكر من تأويل كتب بأمر بالكتابة فنخلاف الظاهر ، وفي شرح صحيح مسلم للنووي عليه الرحمة نقلا عن القاضي عياض . أن قوله في الرواية التي ذكرناها . ولا يحسن يكتب فكتب . كالنص في أنه صلى الله عليه وسلم كتب بنفسه فالعدول عنه إلى غيره مجاز لا ضرورة إليه ، ثم قال . وقد طال كلام كل فرقة في هذه المسألة ؛ وشنت كل فرقة على الأخرى في هذا قاله تعالى أعلم (١) .

(١) تفسير الألوسي ج ٢١ ص ٤٥ ، ط منير ، وفتح الباري ج ٧ ص ٤٠٥ ، ٤٠٦

والذى يترجح عندى أنه صلى الله عليه وسلم تعلم الكتابة بعد أن لم
يمكن تعلمها وكفى فى هذا دليلاً حديث البخارى ، ومستبعد جداً من مثل
رسول الله - فى ذكائه وفطنته ولقائه - أن لا يتعلم الكتابة بعد طول
إملاء القرآن على الكاتبين ورؤيته لهم وهم يكتبون ، على أنه من
الممكن جداً أن يكون الله سبحانه وتعالى علم نبذة القراءة والكتابة كما علمه
غيرهما - مما لم يكن يعلم بطريق وهمى من غير ضرورة إلى تعلم أو كسب ،
وأيا كان الأمر فلا تنافى بين كونه صلى الله عليه وسلم بعث وهو أُمى ،
وكون رسم القرآن توقيفياً ، لأنه إن كان تعلم الكتابة فالأمر ظاهر وإن
لم يكن تعلمها فيكون تلقينه ، وإرشاده الكاتبين إلى طريقة كتابته بتلقين
من جبريل ووحى منه .

« فوائد الرسم العثمانى »

لاتباع رسم رسم المصحف العثمانى فوائدها منها .

١ - اتصال السند بالقرآن الكريم فلا يجوز لأحد أن يقرأه أو يقرئه
غيره إلا بروايته بسند متصل ؛ فن علم القواعد العربية ، ولكن لا يأخذ
القرآن عن غيره لا بعرف قراءته على وجهها الصحيح ، فإن بعض ألفاظه
كتبت على غير النطق بها كما أسلفنا ، فرائح بعض سورة كتبت برسم الحروف
لا بهيئات النطق بها وإلا فقل لى - بربك - كيف يتوصل القارىء إلى
قراءة ، و دحم عسق ، و د طسم ، و د المص ، ^(١) وغيرها فالذى يعلم

(١) إنما قطعت (حم عسق) لشورى فى الرسم دون أخواتها
المذكورات معها طرداً للأولى بأخواتها الستة وهى الحواميم غافر وفصلت ،
الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف

العربية والهجاء ولكنه لا يتلقى عن غيره كيفية القراءة والآداء قد يقرؤها على غير وجهها الصحيح ، إذ النطق بها صحيحة يتوقف على التلقى والسماع من قراء القرآن وحفاظه المشتغلين به ، واتصال السند من خصائص القرآن الكريم بالنسبة لغيره من الكتب السماوية وبه ظل محفوظا كما وعد الله سبحانه وتعالى بقوله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وليس من شك في أن الرسم المخصوص له أعظم الأثر في اتصال السند إذ لو كانت جميع ألفاظه مكتوبة طبق النطق بها لتجرأ الكثيرون على قراءته بغير رواية عن غيره ، وحينئذ يفوتهم معرفة ما فيه من طرق الآداء من مد وتخفيف وإمالة وإظهار وإدغام وإخفاء إلى غير ذلك من طرق الآداء .

٢ - الدلالة على أصل الحركة ككتابة الكسرة باء والضمه واوا ونحو « وإيتاى ذى القربى ، و « ساورىكم ، أو الدلالة على أصل الحرف ككتابة الصلاة والزكاة والحياة والربا بالواو بدل الألف .

٣ - الدلالة على بعض اللغات الفصيحة ككتابة هاء التأنيث تاء في لغة طىء ومثل حذف آخر المضارع المعتل لغير جازم مثل « يوم يأت ، في لغة هذيل :

٤ - الدلالة على معنى خفى دقيق كزيادة الياء في قوله « والسماء بينناها بأييد ، بياين وذلك للإيما . إلى قدرة الخالق جل وعلا - التى بنى بها السماء وأنها لا تشبها قوة على حد القاعدة المشهورة زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، وكزيادة الألف فى وجاىء بالنبيين ، فى الزمر وجاىء يومئذ بجهنم ، فى الفجر ، للهويل والتفخيم والوعيد والتهديد .

ومن هذا القبيل كتابة هذه الأفعال بغير واو « ويدع الإنسان باشر ،^(١)

« ويمح الله الباطل »، (١) « يوم يدع الداعي »، (٢) « سندع الزبانية »، (٣) « فإنها كتبت في المصاحف العثمانية بغير وار ولذلك سر دقيق لمن أمعن النظر فالسر في حذفها - كما قال المراكشي - التنبيه على سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدة قبول المنفعل المتأثر به في الوجود، أما الحذف في الأولى فللإشارة إلى أن الإنسان يسارع إلى الدعاء بالشر، كما يسارع إلى الخير، بل إثبات الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير، ولا سيما عند الغضب، وأما السر في حذفها في الثانية فللإشارة إلى سرعة ذهاب الباطل واضمحلاله وأما السر في حذفها في الثالثة فللإشارة إلى سرعة الدعاء وسرعة إجابة الداعين، وأما السر في حذفها في الرابعة فللإشارة إلى سرعة الفعل، وإجابة الزبانية (٤) .

أقول : وفيه - أيضاً - تطابق بين المتجاورين في اللفظ إذ قبلها « فليدع ناديه »، وإشارة إلى أن إجابة الزبانية أسرع من إجابة أهل ناديه .

وعلل الشيخ العلامة المراكشي لزيادة الواو في قوله تعالى « سأوريكم دار الفاسقين »، (٥) وقوله : « سأوريكم آياتي »، للدلالة على ظهور معنى الكلمة في الوجود، في أعظم رتبة للبيان قال : ويدل على ذلك أن الآيتين جاءتا بالتهديد والوعيد ، أقول : فيكون فيه تطابق بين اللفظ والمعنى .

أقول : وعلى هذا اللون من الاجتهاد في التعليل للرسم يمكن أن نقول (٦) في زيادة الألف في قوله تعالى : « ولا اوضعوا خلالكم »، (٧) « السرفه الايمان

(٢) القمر / ٦

(١) الشورى ٢٤

(٤) الإنشقاق ٢ ص ١٠٨ .

(٣) اقرأ / ٦

(٥، ٦) قد استغدت في كثير من هذا بما ذكره العلامة الشيخ المراكشي

ولكنني زدته توضيحا وبعضها مما اجتهدت فيه كما اجتهد العلماء من قبل

(٧) براءة ٤٧ .

إلى أن هؤلاء المعتذرين المتخلفين من المنافقين لو خرجوا معكم لا كثروا من
الايضاع في الفتنة ، والإفساد - والايضاع هو الاسراع - ولجاوزوا الحد
في هذا ، فتوافق الرسم والمعنى .

وفي زيادة الباء في قوله تعالى . « بأيكم الفتون » ، (١) أى المجنون : الإشارة
إلى أن جنون المشركين بلغ الغاية ، وتجاوز الحد ، وأنهم المجانين لا أنت ،
لأن مثلك يا محمد فى رجاحة عقلك ، وعظم اخلاقك ، وسمو فضائك لا يصح
أن يرمى بالجنون فمن رماك به فقد رجح على نفسه بالجنون ، وبذلك يتوافق
الرسم ، والمعنى والكلام فى ظاهره ترديد بين أمرين ، وهو فى الحقيقة
يراد به ما ذكرت ، وهو لون من ألوان الحجاج فى القرآن يدل على غاية
النصفة مع الخصوم ، ومثله قوله سبحانه :

« وإنا أو إياكم لعلى هدى . أو فى ضلال مبين » ، مع اليقين أن النبي وأتباعه
على الهدى . وهم الذين فى ضلال بين ظاهر .

وأن نقول فى زيادة الألف آخرافى قوله تعالى « تالله تفتوا تذكر
يوسف (٢) » .

الدلالة على كثرة ذلك . وأن سيدنا يعقوب ما كان ينفك عن ذكر يوسف
عليه السلام .

وفى قوله تعالى . « أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء . يتفثوا ظلالة عن
اليمين والشمال » .

سجد الله . وهم داخرون (٣) الدلالة على كثرة تفيء الظلال وعمومها
لكل ذى جرم .

وقوله تعالى : « وأنت لا تظلموا فيها » . ولا تضحى (٤) الدلالة على
دوام عدم الظما ، واستمرار الرى لمن كان فى الجنة .

وقوله تعالى : « قل ما يعبدوا بكم ربى لولا دعاؤكم (١) أى عبادتكم .
أو تضرعكم بالدعاء المبالغة فى عدم اعتناء الله بمن لا يعبد . ولا يتضرع إليه .
وكذلك زيادة الألف فى لفظ « الربوا » ليتوافق الرسم والمعنى . فالربا
زيادة بلا مقابل ، وهذه الألف زيادة بلا مقابل فى التلفظ .

وكذلك نقول فى زيادة الألف بعد الفعل المضارع المعلن الآخر فى
قوله تعالى :

وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم . ويعفو عن كثير (٢) فيها
الإشارة إلى كثرة عفو الله . واستمراره . وإلا فلو أخذنا الله بمعاصينا وآثامنا
لما ترك على ظهر الأرض من دابة

فإن قيل : إن بعد هذه الآية آيات قوله تعالى : « أو يؤمنون بما كسبوا
وعفو عن كثير ، قلت أما على قراءة « ويعفو » عطفاً على « المجزوم قبله » (٣)
مخذف الواو ظاهر ؛ وأما على قراءة « ويعفو » بالرفع على الاستئناف بغير
ألف فذلك لأنه لما كانت حالة الإهلاك بسبب تسليط الأعاصير على السفن
قليلة كان ما يترتب على ذلك من العفو ليس كثيراً أيضاً فلذلك لم يوث فيها
بالألف بعد الواو على أن يجيئها بغير ألف هو الأصل فلا يسأل عنه

وكذلك زيادة الألف فى قوله تعالى « ويدروا عنها العذاب » (٤) أى يدفع
للإشارة إلى قوة واستمرار درء الحد عنها ما دامت شهدت هذه الشهادات
الخمس .

وكذلك زيدت الألف بعد الهمزة فى قوله تعالى « إني أريد أن تبوء
بإيمى . وإيمك . (٥) »

(٢) الشورى ٣٠ .

(١) الفرقان ٧٧

(٢) وهو قوله تعالى « إن يشأ يسكن الريح ، فيظئن روا كد على ظهره ... »

(٥) المائدة ٢٩ .

(٤) التوز ٨ .

وقوله لتنوء بالعصبة أولى القوة (١) للإشارة فى الأولى إلى أنه يئوه مأمن بسبب فعل واحد ؛ وفى الثانية إلى كثرة مفاتيح قارون كثرة بها ثقلت وأثقلتهم . فكانها ثقلان لجاء الرسم موحيا بهذا المعنى .

وأما حذف الألف من سعو فى قوله تعالى : والذين سعو فى آياتنا معاجزين (٢) .

فللإشارة إلى أنه سعى بالباطل لا يصح أن يكون له ثبات فى الوجود وأنهم لن يحصلوا منه على طائل .

ومثل ذلك « وجاء وبسحر عظيم » (٣) وقوله « وجاء وظلما وزورا » (٤) « وجاءو أباهم عشاء يبكون » (٥) « وجاءو على قبيصه بدم كذب » (٦) فهو لبيان أن مجيئهم ليس على وجه صحيح ، ويغلب عليه التصنع . والزور ، والتمويه فمن هنا جاء رسم الكلمات على غير المعمود المعروف .

وكذلك حذف الألف من قوله : « دعوتو عتوا كبيرا » للإشارة إلى أنه باطل ولا أثر له يذكر فى الوجود .

وقالوا : حذفت الألف من معظم الألفاظ الأعجمية فى الأصل كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وهارون ونحوها لكثرة الاستعمال ، فقد رسمت فى المصاحف بدون ألف وإنما لم تحذف من داود لأنه حذفت منه الواو ، فلم يحذفوا بحذف ألف أخرى .

وأما زيادة الياء فى قوله تعالى وإيتاء ذى القربى (٧) فللإشارة إلى الإيتاء ينبغى أن يكون بمدوداً موصولاً غير منقطع ، فيكون فيه تطابق بين اللفظ

(١) القصص ٧٦ . (٢) سبأ آية ٥ . (٣) الاعراف ١١٦ .

(٤) الفرقان ٤ . (٥) يوسف ١٦ ، ١٨ . (٧) النحل ٩٠ .

والمعنى وفى قوله تعالى ولقد جاءك من نبأى المرسلين (١) للإشارة إلى كثرة ما جاء فى القرآن من أخبار الانبياء وتحملهم الاذى البالغ والصبر الصابر حتى جاء نصر الله .

وفى قوله ومن آتأى الليل فسيح وأطراف النهار لعلك ترضى ٢ للإشارة إلى أنه ينبغى أن يشغل معظم ساعات الليل بالقيام والتسبيح فجاءت هيئة رسم اللفظ موجهة بهذا المعنى وفى قوله « أو من وراءى حجاب » (٣) . للإشارة إلى كلام من وراء وراء ، فهو وراء فسيح بمدود لاحذله . وهكذا لا يعدم التأمل فى رسم القرآن بعقل فسيح وقلب مستنير من أن يجد فى الرسم من أسرار القرآن الشئ الكثير فلله در القرآن ما أعظم تركاته وما أكثر أسرارها معنى ولفظا ورسمًا

(٥) إفادة بعض المعانى المختلفة بطريقة لاخفاء فيها وذلك نحو قطع كلمة أم فى قوله تعالى « أم من يكون عليهم وكيلا » ووصلها فى قوله تعالى « أم من يمشى سويًا على سراط مستقيم » فقطع الأولى فى الكتابة للدلالة على أنها « أم » المنقطعة بمعنى بل ، ووصل أم الثانية للدلالة على أنها ليست المنقطعة ، وإنما هى المتصلة .

(الرأى الثانى)

إن رسم المصحف اصطلاحى لا توقيفى ومن ذهب إلى هذا ابن خلدون فى مقدمته (٤) والقاضى أبو بكر الباقلانى فى الانتصار حيث قال إن رسم

(١) الانعام ٣٤

(٢) طه ١٣٠

(٣) الشورى ٥١

(٤) المقدمة ص ٣٥١ ، فقد قال : إن الكتابة من الصناعات التى تتبع الحضارة تقدماً وتأخراً فكما كانت الحضارة قوية كانت الكتابة أحكم وأجود وكما كانت

المصحف كان باصطلاح من الصحابة لأنهم كانوا حديثى عهد بالكتابة وإليك ما قاله القاضى ابو بكر ، واما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً ، إذا لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجه عليهم وترك ما عداه ؛ إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والنوqيف . وليس فى نصوص الكتاب ولا مفهومه ان رسم القرآن وضبطة لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه . ولا فى نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه ولا فى إجماع الأمة ما يوجب ذلك ولا دلت عليه القياسات الشرعية . بل السنة دلت على جواز رسمه بأى وجه سهل ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ، ولم يبين لهم وجهاً معيناً . ولا نهى أحداً عن كتابته . ولذلك اختلفت خطوط المصاحف . فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ . ومنهم من كان يزيد وينقص . لعلمة بأن ذلك اصطلاح وان الناس لا يخفى عليهم الحال ، ولاجل هذا بعينه جاز ان يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول ، وان يجعل اللام على صورة الكاف ، وان تعوج الألفات وان يكتب على غير هذه الوجوه وجاز ان يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين ، وجاز ان يكتب بالخطوط والهجاء الحديثة ، وجاز ان يكتب بين ذلك .

وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة وأن الناس قد أجازوا ذلك وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته، وما هو أسهل وأشهر وأولى من غير تأنيث ولا تنكير ، علم أنه لم يؤخذ فى ذلك على الناس حد محدود مخصوص ، كما أخذ عليهم فى القراءة والأذان ،

== البدارة مستحكمة كانت الامية أغلب وأعم . وأن الصحابة لم يكونوا على درجة من إتقان الخط ، فن ثم خالفت خطوط المصاحف ما هو معروف من القراء — هـ الخطية فى بعض الآيات القرآنية ، وأن من جاء بعدهم . اقتدى برسمهم . اتباعاً لهم وتبركاً بهم إلى آخر ما قال ...

والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والمعقود والرموز فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها يجب صحته وتصويب الكاتب به على أى صورة كانت .

وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه ، وأنى له ذلك ؟) وقد نقش هذا المذهب بما يأتى .
١ — بالأدلة التى ساقها جمهور العلماء لتأييد القول بالتوقيف وقدمت بك عن كذب .

٢ — ما ادعاه من أنه ليس فى نصوص السنة الخ مردور بما روى من قوله صلى الله عليه وسلم لمعاوية (ألق الدواة ، وحرف القلم) الحديث .
وبما ذكرناه من أن النبى أقر الكاتبين على ما كتبوا والتقرير أحد أنواع السنة .

٣ — ما ذكره من قوله (ولذلك اختلفت خطوط المصاحف الخ) غير مسلم لقيام الاجتماع على الرسم العثمانى وعدم وجود المخالف وتتابع الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم على ما جاء فى هذه المصاحف من غير تكبير له .
٤ — أما ما ذكره ابن خلدون من أن العرب كانوا مغرقين فى البداهة .

فنقول : إنهم بعد الإسلام قد خطوا فى الحضارة العلمية ، والكتابية خطوات ملبوسة ، وذلك لما بينا من أن الإسلام دين العلم ، والمعرفة ؛ وأنه دعا إلى إزالة الأمية من أول يوم ، وأما متابعة من جاء بعد الصحابة لهم فى رسم المصحف تبركاهم . فلم يكن التبرك هو الماعول عليه فى هذا العصر ، وإنما كان ديدنهم ما وافق الحق والصواب قبلوه ، وما خالف الحق والصواب نبذوه وأما أن الصحابة لم يكونوا على درجة من اتقان الخط فردود ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم اختار كتاب القرآن من الخذاق بالكتابة ، ومنهم من كان يعرفها فى الجاهلية ، ثم جاء الإسلام ، فزاده حذقا ومعرفة بها ، وقد مرت مثل مما التزموه فى الكتابة يدل دلالة أكيدة على أن هذا أمر كان

مقصودا لهم وأنهم كانوا على درجة من الخلق بالهجاء والكتابة..
(رأى صاحب الذهب الأبريز)

ولعل مما يستحسن ذكره في هذا المقام لنفاسته وكفايته في الرد على
القائلين بالاجتهاد ما ذكره العلامة ابن المبارك نقلا عن شيخه العارف بالله
الشيخ عبد العزيز الدباغ إذ يقول في كتابه (الذهب الأبريز) مانصه :
(رسم القرآن سر من أسرار الله المشاهدة ، وكال الرفعة ، قال ابن المبارك
فقلت له . هل رسم الواو في سؤريكم وأولئك ، وأولاء . وأولات ،
وكالياء في نحو (هدايهم) ، (ملايه) و (بأبيكم) هذا كله صادر من النبي
صلى عليه وسلم أر من الصحابة ؟ فقال : هو صادر من النبي صلى الله عليه وسلم
وهو الذي أمر الكتاب من الصحابة أن يكتبوه على هذه الهيئة . فأنقصوا .
ولا زادوا على ما سمعوه من النبي .

فقلت له أن جماعة من العلماء ترخصوا في أمر الرسم وقالوا . أننا هو
اصطلاح من الصحابة مشوا فيه على ما كانت قریش تكتب عليه في الحاهلية
وإنما صدر ذلك من الصحابة لأن قریشا تعلوا الكتابة من أهل الحيرة وأهل
الحيرة ينطقون بالواو في الربا فسكتبوا على وفق منطقتهم ينطقون فيه بالآف
وكتابتهم له بالواو على منطوق غيرهم وتقليد لهم حتى قال القاضي أبو بكر
الباقلاني . كل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن
يقيم الحججة على دواه . فإنه ليس في الكتاب ولا في السنة ولا في الإجماع
ما يدل على ذلك فقال :

(ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة وإنما هو
توقيف من النبي وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة
الآف ونقصانها لأسرار لا تهتدى إليها العقول . وهو سر من الأسرار
خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية . وكما أن نظم القرآن
معجز فرسه أيضاً معجز . وكيف تهتدى العقول إلى سر زيادة الآف في

(مائة) دون (فئة) ؟ وإلى سر زيادة الياء في (بأيد) (وبأيكم) ؟ أم كيف تتوصل إلى زيادة الألف في (سعوا) بالحج ونقصانها من (سعو) بسبب ؟ وإلى سر زيادتها في (عتوا) حيث كان ونقصانها من (عتن) في الفرقان وإلى سر زيادتها في (آمنوا) وإسقاطها من (بأو) و«فاهو» بالبقرة ، و«جأو» في سورتى يوسف والنمل و«تبوءو» في سورة الحشر وإلى سر زيادتها في «أو يعفوا» الذى ، ونقصانها من «أن يعفو عنهم» في النساء ؟ أم كيف تبلغ القول إلى وجه حذف بعض أحرف من كلمات متشابهة دون بعض كحذف الألف من «قرءنا» يوسف والزخرف وإثباتها في سائر المواضع ؟ وإثبات الألف بعد «واو» (سموات) في فصول وحذفها من غيرها ؟ وإثبات الألف في «الميعاد» مطلقاً وحذفها من الموضع الذى في الانفصال ؟ وإثبات الألف في «سراجا» حينما وقع وحذفه من موضع الفرقان ؟ وكيف تتوصل إلى فتح بعض التاءات وربطها في بعض ؟ فكل ذلك لأسرار إلهية ، وأغراض نبوية ، وإنما خفيت عن الناس لأنها أسرار باطنية

لا تدرك إلا بالفتح الرباني ، فهي بمنزلة الألفاظ والحروف المتقطعة التي في أوائل السور ، فإن لها أسرار عظيمة ، ومعاني كثيرة وأكثر الناس لا يهتمون إلى أسرارها ، ولا يدركون شيئاً من المعاني التي أشير إليها ، فمكذلك أمر الرسم الذي في القرآن حرفاً حرفاً .

وأما قول من قال . إن الصحابة اصطلاحوا على أمر الرسم المذكور فلا يخفى ما في كلامه من البطلان ، لأن القرآن كتب في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وبين يديه ، وحينئذ فلا يخلو ما اصطلاح عليه الصحابة ، إما أن يكون هو عين الهيئة أو غيرها ، فإن كان عينها بطل الإصلاح ، لأن سبقيّة النبي صلى الله عليه وسلم تنافي ذلك وتوجب الاتباع ، وإن كان غير ذلك فكيف يكون النبي صلى الله عليه وسلم كتب على هيئة كهينة الرسم القياسي مثلاً والصحابة خالفوا وكتبوا على هيئة أخرى ؟ فلا يصح ذلك لوجهين . أحدهما

نسبة الصحابة إلى المخالفة وذلك محال . ثانيهما . أن سائر الأمة من الصحابة ، وغيرهم أجمعوا على أنه لا يجوز زيادة حرف في القرآن ولا نقصان حرف منه وما بين الدفتين كلام الله عز وجل ، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أثبت ألف الرحمن والعالمين مثلاً ، ولم يزد الألف في (مائة) ولا في (ولا اوضعوا) ولا أيا في (بأيد) ونحو ذلك والصحابة عاكسوه في ذلك وخالفوه لزم أنهم - وحاشاهم من ذلك - تصرفوا في القرآن بالزيادة والنقصان ووقعوا فيما أجمعواهم وغيرهم على ما لا يحل لأحد فعله ، ولزم تطرق الشك إلى جميع ما بين الدفتين ، لأننا مهما جوزنا أن تكون فيه حروف ناقصة أو زائدة على ما في علم النبي صلى الله عليه وسلم وعلى ما عنده ، وأنها ليست بوحي ولا من عند الله ولا نعلها بعينها ، شككنا في الجميع ولئن جوزنا للصحابي أن يزيد في كتابته حرفاً ليس بوحي ، لزمنا أن نجوز لصحابي آخر نقصان حرف من الوحي ، إذ لا فرق بينهما ، وحينئذ تنحل عروة الإسلام بالكنية ثم قال ابن المبارك بعد كلام . . فقلت له ؛ فإن كان الرسم توقيفياً بوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه كالألفاظ القرآن ، فلم لم ينقل تواتراً حتى ترتفع عنه الريبة وتطمئن به القلوب كما لألفاظ القرآن ؟ فإنه ما من حرف إلا وقد نقل تواتراً لم يقع فيه اختلاف ولا اضطراب ، وأما الرسم فإنه إنما نقل بالآحاد كما يعلم من الكتب الموضوعة فيه ، وما نقل بالآحاد وقع الاضطراب بين النقلة في كثير منه وكيف تضيق الأمة شيئاً من الوحي ؟ فقال « ماضيت الأمة شيئاً من الوحي والقرآن بحمد الله محفوظ ألفاظاً ورسماً ؛ فأهل العرفان والشهود والعيان حفظوا ألفاظه ورسمه ولم يضيعوا منها شعرة واحدة ، وأدركوا ذلك بالشهود والعيان الذي هو فوق التواتر ، وغيرهم حفظوا ألفاظه الواصلة إليهم بالتواتر واختلافهم في بعض الحروف في الرسم لا يقدح ولا يصير الأمة مضطربة كما لا يضر جهل العامة بالقرآن وعدم حفظهم لألفاظه . .

الرأى الثالث

وهو أنه يجوز كتابة المصحف الآن لعامة الناس على الاصطلاحات المعروفة الشائعة ، ليكون أبعد عن اللبس ، والخلط فى القرآن ، ولكن يجب فى الوقت ذاته المحافظة على الرسم العثمانى كما أثر من الآثار الإسلامية النفيسة الموروثة عن السلف الصالح ، فلا يهمل مراعاة للجاهلين بل يجب أن يبقى فى أيدي العلماء العارفين الذين لا تخلو منهم الأرض ، وإلى هذا الرأى ذهب الإمام ابن عبد السلام وتابعه صاحب البرهان .

قال صاحب التبيان : وأما كتابته - أى المصحف - على ما أحدث الناس من الهجاء فقد جرى عليها أهل المشرق بناء على كونها أبعد من اللبس ، وتعاماها أهل المغرب بناء على قول الإمام مالك - وقد سئل : هل يكتب المصحف على ما أحدث الناس من الهجاء ؟ فقال : لا ، إلا على الكتبة الأولى ، قال فى البرهان قلت : وهذا كان فى الصدر الأول والعلم حى غض ، وأما الآن فقد يخشى الالتباس ، ولهذا قال الشيخ عز الدين ابن عبد السلام . لا يجوز كتابة المصحف الآن على المرسوم الأول باصطلاح الأئمة لثلا يوقع فى تغيير من الجهال ، ولكن لا ينبغى لإجراء هذا على إطلاقه لثلا يؤدى إلى درس العلم وشىء أحكمته القدماء لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين ، ولن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة (١) وهذا الرأى وسط بين المذهبين السالفين ، ويقوم على رعاية الاحتياط للقرآن وتنزيه ساحته عن التغيير والتبديل بالإبقاء على الرسم العثمانى الذى هو الأصل ، وعلى رعاية التسهيل والتخفيف على العامة والناشئة بكتابته على حسب ما يتيسر لهم ويتسهل عليهم ، ولعله الأولى بالقبول .

(رأى جديد جدير بالبحث والنظر)

ومع أنى مقتنع بالتزام الترقيف في المصاحف العثمانية ، وأنه لا بد من الإبقاء عليه عند كتابة المصاحف وطبعها ولكنى أضع بين يدي القارىء هذا التساؤل :

أأخير في الإبقاء على هذا الرسم في المصاحف ، والأجزاء ، والكتب المؤلفة لطلبة المدارس ، والمعاهد ، والجامعات غير الدينية وفي الصحف . والمجلات ونحوها على ما في ذلك من التعسير على القراء ولا سيما هؤلاء الطلاب ، وعدم التيسير عليهم في قراءة القرآن ؟ !

أم الأخير في التزام الرسم العثماني ، في المصاحف الكاملة ، التي كتب فيها القرآن جميعه ، والتي هي الحجة والمرجع عند الاختلاف ، والاحتكام وكتابة القرآن فيما عدا هذه المصاحف من الكتب العلمية والأجزاء القرآنية ، والمجلات ، والصحف ونحوها على الرسم المعروف ، الآن ، وقبل الآن والذي يتلقاه الطلاب والتلاميذ في مدارسهم ومعاهدم ؟ !

الذي يترجح عندي وأرى فيه الخير ، والمصلحة هو الثاني ، وبذلك يتيسر على قارىء القرآن الذي لم يتلق القراءة عن شيخ ومعلم ، قراءته ، وحفظه ، ونكون قد جذبنا طلاب المدارس إلى القرآن ، الذي هو مصدر الإيمان ، والهدى والحق ، والخير وفي الوقت نفسه حافظنا على الرسم العثماني في ملايين المصاحف المبثوثة في العالمين الإسلامي والعربي .

ويمكن زيادة في التحوط عند كتابة القرآن في كتب العلم ، والدين . والأجزاء ، والمجلات ونحوها أن ننبه في الهامش على الكلمات التي كتبت على حسب القواعد الإملائية وأنها كتبت في المصاحف على رسم كذا ، حتى يكون التلاميذ ، والطلاب على بينة من الأمر ، ولا يقعوا في بلبلة وشكوك وبذلك نكون جمعنا بين الحسنيين ، وحققنا المصلحتين .

وهذا الرأي أشد توثيقاً للمصاحف العثمانية ، وأرعى لحاجات المسلمين ، ومصالحهم ، وأخص من رأى الإمام العز بن عبد السلام لأنه أجاز ذلك فى المصاحف وغيرها ، وأما أنا فقصرت جواز ذلك على غير المصاحف ، واحتفظت للمصاحف بقدسيته ، وجلالها ، والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

(لا يجوز كتابة القرآن بغير الحروف العربية)

« الشبه التى أثرت حول كتابة القرآن ورسمه ،

من دأب القسس (١) والمبشرين والمستشرقين أن يتلبسوا المطاعن فى القرآن الكريم وكتابته ورسمه المجمع عليه فى المصاحف العثمانية ، وقد مر به ما أوردوه على جمع القرآن من شبه وترهات ، وكذلك صنعوا حول كتابة القرآن ورسمه وكل ما استندوا إليه يرجع إما إلى روايات باطلة نسبت إلى السلف الصالح كذبا وزورا ، وقد تنبه العلماء إليها من قديم الزمان ، وإما إلى اعتراضات (٢) أوردوها المؤلفون فى تفسير القرآن وعلومه وأجابوا عنها بما يقنع ويشقى ، فجاء هؤلاء القسس الذين تستروا تحت اسم « المستشرقين » فاطلعوا على هذه الروايات والاعتراضات فطاروا بها فرحا ،

(١) حمل لواء هذا الافك قس يدعى « فندر » فألف كتاباً سماه « ميزان الحق » وأولى به أن يسمى ميزان الباطل وقس آخر مجهول تستر تحت اسم هاشم العربى فى « تذيل مقال فى الإسلام » وقس ثالث يدعى « تسدل » أنظر كتاب « أدلة اليقين » ص ٨ ، ٩ للبغفور له أستاذنا الشيخ عبد الرحمن الجزيرى .

(٢) أنظر مقدمان فى علوم القرآن ص ١٠٤ وما بعدها .

وهولوا ما شاء لهم هواهم أن يهولوا وظنوا أنهم وصلوا إلى ما يريدون من تشكيك المسلمين في أقدم مقدساتهم وهو القرآن الكريم .

وقد قبض الله لهذه الشبه من علماء المسلمين من زيفها وبين بطلانها واسترى بعد إيرادنا هذه الشبه والرد عليها أنها سراب لا حقيقة له ، وأنهم طعنوا في في غير مطعن ، وطاروا في غير مطار .

الشبهة الأولى :

قالوا روى عن عثمان - رضى الله عنه - أنه حين عرض عليه المصحف قال أحسنتم وأجملتم إن في القرآن لحنا ستقيمه العرب بالسنتها وروى عن عكرمة أنه قال . لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن فقال . لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو قال ستعربها بالسنتها ، لو السكاتب من ثقيف والمملى من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف ، قالوا : فكيف تكون المصاحف العثمانية مع هذا موضع إجماع من الصحابة وثقة من المسلمين ؟ بل كيف يكون رسم المصحف توقيفياً وهذا هو عثمان يقول إن فيه لحنا ؟

والجواب :

(١) إن هاتين الروايتين ضعيفتا الإسناد وإن فيهما اضطراباً وانقطاعاً يذهب بالثقة بهما كما قال الإمام السخاوى في الرواية الثانية ونقله الإمام الألوسى في تفسيره (١) وعكرمة لم يسمع من عثمان أصلاً وقد روى

الأثر الثاني عن يحيى بن يعمر عن عثمان وهو أيضاً لم يسمع من عثمان وقد روى الرواية الأولى جماعة من العلماء كالإمام أبي بكر الباقلاني والحافظ أبي عمرو الداني وأبي القاسم الشاطبي والجمبري وغيرهم وغير خفي على المتأمل ما في الروایتين من اضطراب وتناقض فإن قوله : أحسنتم وأجملتم مدح وتناء وقوله . أن فيه لحناً يشعر بالتقصير والتفريط فكيف يصح في القول أن يمدحهم على التقصير والتفريط .

وأيضاً فالغرض من كتابة المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه - على حرف قريش أن تكون مرجعاً عاماً يرجع إليه المسلمون عند الاختلاف هي حروف القرآن وقراءاته ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يكل تصحيحها إليهم ، إن هذا إن صح فسيصل بنا إلى الدور المحال ؛ إذ تكون صحة قراءتهم متوقفة على القراءة وفق المصاحف التي كتبها لهم عثمان ، وصحة المصاحف وسلامتها من اللحن متوقفة على صحة قراءتهم ، وهذا ما ننزه عنه أي عاقل فضلاً عن عثمان رضي الله عنه .

٢ - إن هذين الأثرين يخالفان ما كان عليه عثمان رضي الله عنه من حفظه القرآن ، وملازمة قراءته ، ومدارسته حتى صار في ذلك ممن يؤخذ عنهم القرآن وقد حرص غاية الحرص على إحاطة كتابة المصاحف بسياج قوى من المحافظة على القرآن أن يتطرق إليه لحن أو تحريف أو تبديل وجعل من نفسه حارساً أميناً على كتاب المصاحف في عهده ، والمرجع عند أي ختلاف في كيفية الرسم فقد قال لأرط القريشيين : إذا اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش ، وقد اختلفوا في التابوت ، أ يكتبونه بالتاء أم بالهاء ؟ ورفعوا الأمر إليه . فأمرهم أن يكتبوه بالتاء . فإذا كان هذا شأنه وشأنهم في حرف لا يتغير به المعنى ولا يعتبر تحريفاً ولا تبديلاً لاستناده إلى الحروف التي نزل بها القرآن فكيف يعقل منه أن يرى في المصاحف لحناً ثم يقرم عليه؟ وإليك رواية أخرى تدل على مبلغ عنايته بالقرآن عند الكتابة .

أخرج أبو عبيد عن عبد الرحمن بن هانئ مولى قال : كنت عند عثمان وهم يمرضون المصاحف فأرسلني بكتف شاة إلى أبي بن كعب فيها ولم يتسن ، وفيها د لا تبديل للخلق ، وفيها د فأمهل الكافرين ، فدعا بالدواة فحاج أحدى اللامين وكتب د لخلق الله ، ومحا ، فأمهل ، وكتب د فمهل ، وكتب د لم يتسنه ، فألحق فيها الهاء فمهل يصح في العقول من هذا شأنه أن يرى لحنًا في المصاحف ثم يقرهم عليه ويدعه للعرب تصلحه ؟ ومن أحق بإصلاح اللحن والخطأ منه وهو من هو في حفظ القرآن والحفاظ عليه ؟

ولو جوزنا فرضاً أن عثمان تساهل في إصلاح هذا أفيدعه جمهور المسلمين من المهاجرين والأنصار دون أن يصححوه ؟ وهم الذين لا يخشون في الحق لومة لائم ولا يقرون على باطل ، ولو صحت هذه المقالة عن عثمان لأنكروا عليه غاية الإنكار ولو أنكروا لاستفاض ونقل إلينا وأنى هو ؟ ولقد كانوا يعترضون عليه وعلى غيره فيها دون هذا فما بالك بأمر يتعلق بالقرآن الكريم ؟ الحق أن هذا لا يصدقه إلا من ألقى عقله .

٣ - على فرض صحة هذين الأثرين فيمكن أن تؤولهما بما يتفق هو والصحيح المعروف عن عثمان في جمع القرآن ونسخ المصاحف ، وذلك بأن يحمل لفظ د لحنًا ، على معنى اللغة ويكون المعنى أن في رسم القرآن وكتابته في المصاحف وجهاً في القراءة لا تآين به السنة العرب جميعاً الآن ، ولكنها لا تلبث أن تآين به ألسنتهم جميعاً بالمرآة ، وكثرة تلاوة القرآن بهذا الوجه .

الشبهة الثانية :

قالوا : إن سعيد بن جبیر كان يقرأ د والمقيمین الصلاة (١) ويقول هو من لحن الكتاب .

(١) هي من آية في سورة النساء (١٦٢) ونصها : لكن الراسخون في العام =

والجواب . إن هذه الرواية أن صحت فإن جدير لم يرد باللحن الخطأ وإنما أراد اللغة وهو أحد معاني اللحن كما في القاموس وغيره من كتب اللغة ولو كان يريد باللحن الخطأ لما قرأ به وكيف يقرأ بحرف يرى أنه خطأ؟ وقد قرئت هذه الكلمة بقراءتين سبعيتين قرأ الجمهور بالنصب وقرأ غير الجمهور بالرفع ، والمقيمون الصلاة ، أما الرفع فظاهر إذ هو معطوف على ما قبله ، وأما النصب فوجه النصب على المدح لبيان فضل الصلاة ومثلتها من شرائع الدين ولهذا الأسلوب شواهد كثيرة في لغة العرب وقد عقد له سيويه في الكتاب باباً فقال . « هذا باب ما ينتصب على التعظيم ، وما انشده .

لا يبعدون قومي الذين هم سم العفاة وآفة الجزر
النازليين بكل معترك والطيبون معابد الأرض

وإليك ما قاله إمام من أئمة العربية قال الزمخشري في تفسيره ج ١ ص ٣٩٧ عند تفسير هذه الآية « ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنا في خط المصحف وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب (١) ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتتان وغبي (٢) عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام وذب المطاعن عنه ، من أن يتركوا في كتاب الله ثلة ليسدها من بعدهم ، وخرافا يرفوه من يلحق بهم ، .

الشبهة الثالثة :

قالوا ؛ روى عن ابن عباس في قوله تعالى « لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم

= منهم . والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك . وما أنزل من قبلك . والمقيمون الصلاة والمؤثرون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً .

(١) مراده كتاب سيويه . وهو علم بالغلبة عند المنحويين .

(٢) أى خفى عليه . ولم يفتن له

حق تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، إن الكاتب أخطأ إنما هو تستأذنوا ،
فهذا يدل على أن القرآن دخله بعض التحريف والتبديل بسبب الكتابة .

والجواب :

١ — أن هذا القول غير صحيح في نسبه إلى ابن عباس وهو مدسوس
عليه دسه الملاحدة والزنادقة قال أبو حيان مانصه « أن من روى عن ابن عباس
أنه قال ذلك فهو طاعن في الإسلام ملحد في الدين وابن عباس يرى من ذلك القول »
وقال الزخشري في تفسيره : « وعن ابن عباس وسعيد بن جبير إنما هو : حق
تستأذنوا فأخطأ الكاتب ولا يقول على هذه الرواية » وقال القرطبي في تفسيره (١)
بعد ذكر هذا عن ابن عباس أو سعيد بن جبير (وهذا غير صحيح عن ابن عباس
وغيره فإن مصاحف الإسلام كلها قد ثبت فيها (حق تستأذنوا) . وصح
الاجماع فيها من لدن مدة عثمان . فبى التي لا يجوز خلافها . وإطلاق الخطأ
والوهم على الكاتب في لفظ أجمع الصحابة عليه قول لا يصح عن ابن عباس :
وقد قال عز وجل . (لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم
حميد) . وقال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، وقد روى
هذا الخبر عن ابن عباس ابن جرير ، ولا يخلو إسناده من مدلس أو
مضعف (٢) وراوه الحاكم وصححه ، وتصحيح الحاكم غير معتبر عند أئمة
الحديث ، وقد تعقبه الامام الذهبي في نحو مائة حديث موضوع ذكرها في
كتابه (المستدرک) فضلا عن الضعيف والواهى .

٢ — يؤيد رد هذه الرواية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه ورد
عنه تفسير (تستأنسوا) بقوله . تستأذنوا من يملك الإذن من أصحابها ، فثبت
هذا التفسير عنه يرد ما ألحق به ، وقد روى هذا التفسير عنه ابن أبي حاتم وابن
الأنبارى في المصاحف وابن جرير وابن مردويه (٣) ولعل الراوى عن ابن عباس

(١) ج ١٢ ص ٢١٤ (٢) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٦ ص ٩١ هامش

(٣) تفسير الألوسى ج ١٨ ص ١٢٣ .

وهم حيث فهم من تفسير الاستثناس بالاستئذان أنه الصواب فروى الخبر على ما ظن وهو وهم .

ويردها أيضا إجماع القراء السبعة على لفظ (تستأنسوا) ومن المستبعد جداً أن يقرأ ابن عباس بقراءة يكون الإجماع على خلافها ، ولا سيما وهو ممن أخذ القراءة عن زيد بن ثابت وهو عمدة الذين جمعوا القرآن في المصاحف بأمر عثمان رضى الله عنه ، وما نقل عن ابن عباس وأبى أنهما كانا يقرءان (تستأذنوا) فمحذول على أنها قراءة تفسير وتوضيح : وأيضاً فالقراءة المتواترة الثابتة (تستأنسوا) متمكنة في باب الإعجاز من القراءة المزعومة (تستأذنوا) . فلا استئذان ينصرف إلى الاستئذان بالقول ، وأما الاستثناس فيشمل القول وغيره من الأفعال التي تؤذن بالقدوم كالسبيح والحمد والتكبير وما شابه ذلك ، هذا إلى ما تشير إليه القراءة المتواترة من أن يكون الاستئذان يقصد به الأناشيد وإزالة الوحشة وعدم إيلام المستأذن عليه ، ولا هكذا لفظ (تستأذنوا) فقد يكون الاستئذان مصحوباً بالخشونة ، أو الإيجاش . أو الإيلام إلى غير ذلك من الأسرار والمعاني النبيلة التي تظهر لمن يمعن النظر في القرآن .

٣ — إن صحت الرواية فيمكن أن تحمل على الخطأ في الاختيار من السكاتب ويكون ذلك على حسب ظن ابن عباس لا بحسب الواقع ونفس الأمر قال ابن أشته في كتاب (المصاحف) (مراد ابن عباس الخطأ في الاختيار وترك ما هو أولى القراءتين بحسب ظنه) وتكون قراءة ابن عباس مما ترك بسبب جمع الناس على حرف واحد ، وهو حرف قريش ، فإنهم التزموا جمع ما ثبت بالتواتر دون ما روى آحاداً وما ثبت نسخه .

٤ - إن هذه الرواية على فرض صحتها رواية آحادية والاحادى لا يعارض القطعى الثابت بالتواتر ولا يثبت بها قرآن ولا سيما وقد خالفت رسم المصحف فإلّا وهى ضعيفة ومعارضه بروايات أخرى عن ابن عباس كما بينا ؟ ؟

الشبهة الرابعة :

قالوا : روى عن ابن عباس أنه قرأ (أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ، فقليل له أنها فى المصحف) أفلم يأتس الذين آمنوا الآية (١) فقال : أظن الكاتب كتبها وهو ناعس وهذا القول يقلل الثقة بكتابة القرآن ورسمه ويعود على القرآن ورسمه ويعود على القرآن بالتحريف .

والجواب :

١ - أن هذا القول لم يصح عن ابن عباس وأنه مخلق عليه قال الإمام الجليل أبو حيان فى تفسيره (بل هو قول ملحد زنديق ، وقال الآلوسى فى تفسيره بعد نقل كلام أبى حيان) وعليه فرواية ذلك - كما فى الدر المنثور - عن ابن عباس رضى الله عنهما غير صحيحة (وقال الزخشرى فى تفسيره (ج ١ ص ٦٥٥) بعد حكاية هذا الزعم (وهذا ونحوه مما لا يصدق فى كتاب الله الذى لا يأتى الباطل من بين يديه ولا من خلفه) وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتاً بين دفتى الإمام (٢) وكان متقلباً فى أيدى أولئك الأعلام المحتاطين فى دين الله ، المهتمين عليه ، لا يغفلون عن جلالته ودقائقه ، خصوصاً عن القانون الذى إليه المرجع . والقاعدة التى عليها البناء هذه والله فرية ما فيها مزية .

(١) سورة الرعد الآية ٣١ وكتابتها هكذا فى الرسم العثمانى بزيادة ألف بعد الياء الأولى .

(٢) يريد بالإمام مصحف عثمان .

٢ — بما يرد هذه الرواية أن القراءة الصحيحة المتواترة صحت عن ابن عباس فلو كان ما نسب إليه صحيحاً لما قرأها قال أبو بكر الأنباري (٢) : روى عكرمة عن ابن أبي نجيح أنه قرأ (أفلم يتبين الذين آمنوا) وبها احتج من زعم أنه الصواب في التلاوة وهو باطل عن ابن عباس لأن مجاهداً وسعيد بن جبير حكياً الحرف عن ابن عباس (على ما هو في المصحف بقراءة أبي عمرو ، وروايته عن مجاهد وسعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، وأيضاً لقد أخذ ابن عباس القرآن عن زيد بن ثابت فيمن أخذ عنهم ، وزيد كان كاتب الوحي ، وهو الذي جمع القرآن في عهد أبي بكر وهو أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن في عهد عثمان ، فغير معقول أن يقرأ ابن عباس على خلاف قراءة زيد بن ثابت وما كتبه في المصاحف العثمانية .

وفى مسائل نافع ابن الأزرق لابن عباس أنه سأله عن قوله تعالى (أفلم يأس الذين آمنوا) فقال ابن عباس : أفلم يعلم بلغة بني مالك قال - أى نافع - وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم أما سمعت مالك بن عوف يقول :

لقد يئس الأقوام أنى أنا ابنه وأن كنت عن أرض العشيرة نائياً (٢)
فلو كانت غير ثابتة - كما افترى عليه - لما فسرناها ولبن للسائل أنها خطأ ولما استشهد لها بكلام العرب .

٣ — على فرض صحة هذه الرواية فهي احادية فلا تعارض القطعى الثابت بالتواتر ، ولا يثبت بها قرآن ولا سيما وهي مخالفة لرسم المصحف

الشبهة الخامسة :

قالوا . روى عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله تعالى (وقضى ربك

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٣٢٠ .

(٢) الإتقان ج ١ ص ١٢١ .

ألا تعبدوا إلا إياه) إنما هي (ووصى ربك) التزقت الواو بالصاد وقد ورد هذا الأثر بروايات مختلفة وفي بعضها (ولو كان قضاء من الرب لم يستطع أحدر قضاء الرب ولكنها وصية أوصى بها العباد) قالوا : وهذا يدل على وقوع تحريف القرآن والجواب على ذلك نقول .

١ - إن هذه الروايات ضعيفة ، ومدحوسة على ابن عباس ونقلها من نقلها بدون تثبيت وتحريقال ابن الأنباري ، إن هذه الروايات ضعيفة ، والضعيف لا يحتاج ولا يؤخذ به في دون هذا فما بالك في شيء يتعلق بالقرآن الكريم .

٢ - إن ابن عباس رضي الله عنهما قد استفاض عنه أنه قرأ (وقضى) وذلك دليل على أن ما نسب إليه غير صحيح قال الإمام أبو حيان في البحر المحيط : والمتواتر هو ، وقضى ، وهو المستفيض عن ابن عباس والحسن وقتادة بمعنى أمر وقال ابن مسعود وأصحابه بمعنى وصى ، وأما ما روى عن ابن مسعود من أنه كان في مصحفه ، ووصى ، وأنه كان يقرأ به فحمل على التفسير ، ولم يكن مصحفه مصحف قرآن فحسب ، وإنما مزجه بالتفسير والتأويل لبعض آياته ، وذكر بعض الادعية والمأثورات .

٣ - ما استندوا إليه من أن اللفظ القرآني لو كان ، وقضى ، لما أشرك أحد غير لازم لمن تدبر وتأمل ؛ لأن هذا الاعتراض إنما يتجه لو حملنا القضاء على التقدير الأزلي ؛ فأما لو أريد به معناه اللغوي الذي هو البت والقطع فلا يتجه ولا يرد ، ولذلك فسر الجمهور قضى بامر ، وهذا التفسير نفسه ثابت عن ابن عباس كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال أمر وهذا يرد ما نسب زورا إلى ابن عباس .

٤ - إن هذه الروايات معارضة للمتواتر القطعي وكل ما عارض القطعي فهو ساقط عن الاعتبار .

الشبهة السادسة :

قالوا إن ابن عباس كان يقرأ « ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء » وذكر المتقين (١) ، بدون الواو قبل « ضياء » ويقول : خذوا هذه الواو واجعلوها في « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم » وروى عنه أنه قال : انزعوا هذه الواو واجعلوها في « الذين يحملون العرش ومن حوله » ونجيب على هذه الشبهة بما يأتي :

(١) إن ماري عن ابن عباس ضعيف فلا يؤخذ به ، ثم هو مخالف للقطعي الثابت بالتواتر ، فهو مردود لاحالة .

(٢) إن ذكر الواو في الآية هو الذي تقضى به البلاغة الفائقة لا حذفها سواء أفسر الفرقان بالتوراة أم فسر بالنصرو قد روى هذا الثاني عن ابن عباس وغيره ويشهد له قوله تعالى « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » فالمراد به يوم بدر ؛ وبيان ذلك أما على الأول فيكون المراد بالفرقان والضياء والذكر التوراة وهي فرقان لأنها تفرق بين الحق والباطل وضياء لأنها تنير الطريق للسالكين ، وهي ذكر لما فيها من التذكير والمواعظ ، ومثل هذا الأسلوب يجوز أن يأتي بدون الواو على أنه حال ويجوز أن يأتي بالواو وكل يبلغ ولكن الإتيان بها أبلغ تنزيلا لتغاير الصفة - والحال صفة في المعنى - ممزلة تغاير الذات ولذلك سر بلاغي . وهو الإشارة إلى بلوغها درجة عالية في كونها ضياء حتى أضحيت كأنها جنساً مستقلاً رأسه عن سابقه ، وهذا السر لا يتم على حذف الواو ومثل هذا من كلام العرب .

إلى المسلك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزدحم
وأما على الثاني وهو تفسير الفرقان بالنصرفتكون الواو لازمة البتة لتغاير

المعطوف والمعطوف عليه ويكون المراد بالضياء التوراة أو الشريعة .

الشبهة السابعة . —

قالوا : روى عن ابن عباس في قوله تعالى « مثل نوره كشكاة فيها مصباح ،
النور الآية ٣٥ » انه قال : هي خطأ من الكاتب ، هو اعظم من ان يكون
نوره مثل نور المشكاة ، إنما هي مثل نور المؤمن كشكاة .

والجواب غلى ذلك نقول : —

(١) إن هذه الرواية معارضة للقطعي الثابت بالتواتر ، فهي مردودة
وباطلة ولا يثبت بها قرآن قط .

(٢) إن هذه الرواية ضعيفة ، وأغلب الظن أنها مختلفة عليه ، وليس
أدل على هذا من أنه قرأ بهذه القراءة المتواترة المعروفة ، ولم ينقل عنه أنه
قرأ « مثل نور المؤمن » وأن المأثور عنه في تفسيرها لا يتفق هو وما نقل
عنه فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء
والصفات عن ابن عباس أنه قال : مثل نوره : مثل هداه في قلب المؤمن
وهذا التفسير لا يتأتى إلا إذا عاد الضمير في « نوره » على لفظ الجلالة وهو
أرجح الروایتين عنه في مرجع الضمير ولو سلطنا مارواه الحاكم عنه من
أن مرجع الضمير هو المؤمن فلا يلزم منه رد القراءة المتواترة ، بل هو
تفسير لمرجع الضمير فيها ، وأياً كان المروي عنه فلا يشهد لهذا الدس
والاختلاس ، ويضعف هذه الرواية التي رواها الحاكم عنه أن رجوع
الضمير الى مذكور في الكلام إذا لم يكن في الكلام ما يدل عليه ، أو كان
ولكن دلالة عليه خفية خلاف الظاهر جداً ، ولا سيما إذا فات المقصود
من الكلام على ذلك^(١) وإنما تتم الروعة في التمثيل في الآية لورجع الضمير

(١) أنظر تفسير الألوسي ج ١٨ ص ١٦٥ ، ١٦٦ ،

إلى المذكور ، وهو لفظ الجلالة على أن يكون المراد بالنور الحق الذى قامت عليه السموات والأرض ، وصلاح به أمر الناس ، أو الهدى الذى غرسه الله فى قلب المؤمن ، وأما على الوجه الآخر ففيه تفكيك للقرآن وتقويت لروعة التمثيل .

ولو أن هذا الدس نقل عن أبى بن كعب لكان الأمر أهون إذ هو الذى نقل عنه أنه قرأ « مثل نور المؤمن » ، وفى رواية « مثل نور المؤمنين » ، وفى رواية « مثل نور من آمن » ، (١) وهى قراءات شاذة لا يعتد بها ولا يقرأ بها لمخالفتها لرسم المصحف وعدم تواترها ولكن شاء الله أن تتم الحبكة فى نسج هذه الرواية المكذوبة على ابن عباس ، وهكذا الباطل يكون فى طيه ما يلقى أضواء على بطلانه .

الشبهة الثامنة :

قالوا : روى عن ابن عباس أنه قال : لا تقولوا « فإن آمنوا » بمثل ما آمنتكم به فقد اهتدوا (٢) ، فإن الله تعالى ليس له مثل ، ولكن قولوا « بالذى آمنتكم به » ، وأنه كان يقرأ « فإن آمنوا بما آمنتكم به » ، قالوا : فهذا ينفى القراءة المشهورة التى كتب بها المصحف ويدل على أن المصحف قد حصل فيه تغيير

والجواب :

١ - أن هذه الرواية آحادية مخالفة للقطعى الثابت بالتواتر ؛ والذى

(١) فى هذا الاختلاف دلالة قوية على أن ما روى عن أبى أنه قرأه إنما مراده به التفسير ، وإلا فيبعد أن تكون هذه كلها قراءات ثابتة بالتلقى والسمع ، وهذه القراءات التفسيرية كثيرا ما ترد عن بعض الصحابة ، والتابعين ، فيظن من لا يعرف أنها قراءات تلاوة والحق ما ذكرنا لك .

أجمع عليه المسلمون من لدن الصحابة إلى وقتنا هذا ، ومخالف القطعى مردود
ثم هى لا يثبت بها قرآن قط

٢ - على فرض ثبوت هذه الرواية ، فتحمل على التفسير ، ويسان المعنى
للقرأة المتواترة قال ابن عطية الامام المفسر : هذا من ابن عباس على جهة
التفسير أى هكذا فليأول .

٣ - إن القرأة المتواترة التى عليها عامة القراء لها وجوه صحيحة ومحامل
تحمل عليها فمنها .

(١) إن مثل زائدة للتأكيد والمعنى فإن آمنوا بما أمتنم به وذلك كما قيل
فى قوله تعالى : ليس كمثلهم .

(ب) إن معنى آمنوا صدقوا والباء زائدة للتوكيد كما زيدت فى قوله
تعالى : وهزى إليك بجذع النخلة ، والمعنى فإن صدقوا تصديقاً مثل
تصديقكم فقد اهتدوا وزيادة بعض الحروف والكلمات للتوكيد مستفيض
فى لغة العرب .

الشبهة التاسعة :

قالوا : روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها سئلت
عن قوله تعالى : إن هذان لساحران ، طه الآية ٦٣ ، وعن قوله تعالى :
« إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى الآية ، المائدة الآية
٦٩ ، وعن قوله تعالى : « والمقيمى الصلاة والمؤتون الزكاة ، النساء الآية
١٦٢ : فقالت : يا ابن أخى هذا خطأ من الكاتت ، والجواب .

١ - إن هذه الرواية غير صحيحة عن عائشة ، وعلى فرض صحتها
فهى رواية آحادية لا يثبت بها قرآن ، وهى معارضة القطعى الثابت بالتواتر
فهى باطلة ومردودة ولا التفات إلى تصحيح من صحح هذه الرواية وأمثالها
فإن من قواعد المحدثين أن مما يدرك به وضع الخبر ما يؤخذ من حال المروى

كأن يكون مناقضاً لنص القرآن ، أو السنة ، أو الإجماع القطعى ، أو صريح العقل حيث لا يقبل شىء من ذلك التأويل ؛ أو لم يحتمل سقوط شىء منه يزول به المحذور ، وهذه الروايات مخالفة للتواتر القطعى الذى تلقته الأمة بالقبول . فهى باطلة لا محالة .

٢ - وأما آية « إن هذان لساحران » فالذى نص عليه أئمة الرسم والقراءة أن « هذان » لم تكتب فى المصحف العثمانى بالآلف ولا بالياء ، وذلك ليحتمل وجوه القراءات المتواترة كلها ، وهذان أسرار الرسم العثمانى ، فنسبة الخطأ إلى السكاك غير معقول ، وإنما المعقول أن تخطئ السيدة عائشة رضى الله عنها من يقرأ أن بتشديد النون ، وهذان بالآلف ، وأما من يقرأ بتشديد النون فى « إن » والياء فى « هذين » أو بتخفيف النون فى « إن » والآلف فى « هذان » فلا وجه فى تخطئته ، وهذا مما يلحق ضوءاً على اختلاق هذه الروايات على عائشة وغيرها ، وأنها من وضع الملاحدة . كى يشككوا المسلمين فى كتابهم الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد قرئ هذا الجزء من الآية القرآنية بقراءات سبعة متواترة ، وهاك بيانها .

(أ) قرأ أبو عمرو . « إن هذين لساحران » بتشديد النون فى « إن » والياء فى « هذين » ، وهذه القراءة الثابتة قد سلت من مخالفة المصحف وجارية فى الإعراب على المهيغ المعروف الظاهر فلا إشكال فيها أصلاً .

(ب) قرأ ابن كثير وعاصم فى رواية حفص عنه « إن هذان » بتخفيف النون فى « إن » وبالآلف فى « هذان » ، غير أن ابن كثير يشدد نون « هذان » وهذه القراءة أيضاً سلت من مخالفة الرسم العثمانى ومن مخالفة العربية وتخرج على أن « إن » هى المخففة وهى مهمة وهذان مبتدأ وساحران خبره واللام هى الفارقة بين أن النافية والمخففة من الثقيلة وقبل أن « ان » نافية ، واللام بمعنى إلا ، والتقدير ما هذان إلا ساحران ، ويشهد له قراءة أبى

«إن ذان إلا ساحران ، وهى قراءة تفسير وتوضيح .

(ج) وقرأ الباقون «إن هذان لساحران ، بتشديد نون إن وبالألف فى هذان وهى موافقة للرسم ولكنها مشكلة فى الأعراب وهذه القراءة هى التى زعم الزاعمون أنها خطأ ونسبوا ذلك زورا إلى السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها وهذه القراءة لها وجوه صحيحة فى العربية وقد أفاض فى بيانها العلماء وأحسن هذه الوجوه وأجودها (١) أنها جارية على لغة بعض العرب فى الزام المثنى الإلف فى جميع حالاته وهى لغة لكتنائة ، ولبنى الحارث بن كعب ، ولخثعم ، وزبيد . ومراد وغيرهم ولذلك شواهد كثيرة من مثل قول الشاعر العربى .

واها لسلى ثم واها واها يا ليت عيناها لنا وفاها
وموضع الخلخال من رجلاها بضمن نرضى به أباهها
إن أباهها وأبا أباهها قد بلغا فى المجد غايتها
وقد اعتبر العلامة ابن هشام النحوى هذه القراءة أقبى إذ الأصل فى المبنى أن لا تختلف صيغة مع أن فيها مناسبة لألف «ساحران» .

٣ - وأما عن آية «والمقيمى الصلاة» فلا يصح ذلك عنها قال الإمام أبو حيان فى البحر المحيط ما نصه «وذكر عن عائشة رضى الله عنها ، وعن أبان بن عثمان أن كتبها بالياء من خطأ الكاتب ، ولا يصح ذلك عنهما ، لأنهما عريبان فصيحان وقطع النعوت أشهر فى لسان العرب وهو باب واسع ذكر عليه شواهد سيويه وغيره وعلى القطع خرج سيويه ذلك ، ولعلك

(١) من أراد استيعابا لما قاله العلماء فى توجيه هذه القراءة من الآراء وشواهد فى العربية فليرجع إلى تفسير القرطبى ج ١١ ص ٢١٦ وما بعدها وتفسير الألوسى ج ١٦ ص ٢٢٢ وما بعدها ، ومقدمتان فى علوم القرآن ص ١٠٩ وما بعدها .

على ذكر ما ذكرته آنفا عن الزمخشري في كشفه في الرد على من طعن في هذه القراءة المتواترة .

٤ - وأما قوله : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . فله وجوه ومحامل صحيحة في العربية وأحسن هذه الوجوه أن يكون « والصابئون » مقدم من تأخير وخبر أن قوله « من آمن إلى الخ » ، ويكون خبر والصابئون محذوف لدلالة خبر أن عليه والتقدير والصابئون والنصارى كذلك ولعل السر في التقديم وذكرهم بين طوائف أهل الأديان الدلالة على أن الصابئين مع ظهور ضلالهم وزيفهم عن الأديان كلها تقبل توبتهم أن صح منهم الإيمان والعمل الصالح فغيرهم من أهل الأديان أخرى وأولى ومثل هذا الاستعمال العربي قول الشاعر :

فن يك أمسى بالمدينة رحله فأنى - وقيارها (١) - لغريب

أو يكون قوله والصابئون وما عطف عليه استئناف آخر والخبر من آمن الخ . وقد أغنى هذا الخبر عن خبر إن ، ومثل هذا الاستعمال قول الشاعر العربي .

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف
فقد حذف الخبر من الأول لدلالة الثانى عليه ، أى نحن بما عندنا راضون .

الشبهة العاشرة .

قالوا . كيف اعتمدتم المصحف وفيه من الخطأ الظاهر واللعن والاختلاط مالا يكاد يخفى على من له علم بالعريضة ومثلوا لذلك بما يأتى .

(أ) قوله تعالى . « والموفون بعدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وخين الناس (والظاهر) والصابرون) ،

(ب) قوله تعالى . (وأسروا النجوى الذين ظلموا) (ثم عموا وصموا كثير منهم) والظاهر أن بقول (وأسر عمي) (صم) .

(ج) قوله تعالى . (لو لا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) وكان الظاهر أن يقول (وأكون) .

والجواب : - أن هذه مزاعم باطلة منشؤها الجهل بلغات العرب ومذاهبهم في الخطاب وأساليبهم في البيان ، وقد شاء الله سبحانه - وله الحكمة البالغة - أن يحجى القرآن الكريم - عدا اللغة القرشية السائدة فيه - مشتملا على بعض لغات العرب واستعمالاتهم سواء في ذلك الفصح والافصح ولذلك سر ذلك أن القرآن هو كتاب العربية الأكبر ، وجامعة العرب الكبرى ، ومرجعهم الأوثق في معرفة أساليب العرب في البيان ، ومذاهبهم في التعبير ، فكان الأليق والأوفق أن يأتي مشتملا على المقبول السهل منها غير المستعجن والمستثقل ، أيجد العرب فيه ما يرضى أذواقهم وملسكاتهم ، ولإليك بيان وجه الحق فيما ذكر .

(أ) أما قوله : « والصابرين » فهو منصوب على المدح يعنى وأمدح الصابرين وإنما غاير في الأسلوب ، ولم يأت على نسق ما سبقه ، تبياناً لفضيلة الصبر وبيان منزلته من البر ، فكان الله سبحانه يبين لنا أنه وأن جاء في الذكر آخراً فهو بمكان من الفضيلة والثوبة الحسنة ، وقد قدمت عن أئمة اللغة والنحو ما للعرب من التفنن في النصب على الاختصاص ، وغير خفي ما لتغير الأسلوب ، والتفنن في الخطاب من أثر جليل من الناحية النفسية ، لأنه يجذب الانتباه ، ويوقظ الشعور ، ويحمل العقول على التساؤل والبحث ، فتمكن المعاني في النفس فضل تمكن فله در التنزيل فكم له من أسرار ولطائف .

(ب) وأما قوله (وأسروا) (ثم عموا وصدوا) فهو وارد على بعض لغات العرب وهى لغة (أكلوني البراغيث) ولها شواهد كثيرة فى العربية وهذه اللغة تخرج على أن اللواحق بالأفعال ليست ضمائر وإنما هى علامات على التثنية أو الجمع وما بعدها هو الفاعل أو أن تكون اللواحق هى الفاعل والظواهر بعدها بدل منها أو فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور والتقدير فى الآية مثلاً (وأسروا النجوى أسرها الذين ظلموا) .

(ج) وأما قوله تعالى (فأصدق وأكن من الصالحين) ففيها قراءتان سبعيتان الأولى (وأكن) بالنصب وبها قرأ أبو عمرو ووجهها ظاهر ، الثانية (وأكن) بالجزم وتخرج على أنها عطاف على المعنى فإن الكلام فى معنى الشرط فكأنه سبحانه قال . « أن أخرتنى إلى أجل قريب أصدق وأكن » وهذا النوع يسميه التجويون العطاف على التوهم وهو باب معروف فى العربية

الشبهة الحادية عشرة .

ما رواه الإمام أحمد بسنده عن إسماعيل المكي قال . حدثنا أبو خلف مولى بنى جمع أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة رضى الله عنها فقالت (مرحباً بأبى عاصم ما يمنعك أن تزورنا أو تلم بنا ؟ فقال أخشى أن أملل فقالت . ما كنت لتفعل قال جئت لأسألك عن آية من كتاب الله عز وجل كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ؟ قالت آية آية ؟ قال . الذين (يؤتون ما آتوا) أو (الذين يأتون ما أتوا) فقالت أيتهما أحب إليك ؟ فقلت والذي نفسى بيده لأحدهما أحب إلى من الدنيا جميعاً أو الدنيا وما فيها قالت وما هى ؟ فقلت (الذين يأتون ما أتوا) فقالت . « أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك كان يقرؤها وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حرف ، فهى توهم أن القراءة الأخرى غير ثابتة وأن الرسم ليس بمجمع عليه .

والجواب :

١ - أن هذه الرواية في سندها لإسماعيل المسكي وهو ضعيف (١) فلا تعارض القطعي الثابت بالتواتر ولا يثبت بها قرآن حتى ولو كانت صحيحة .

٢ - هذه الرواية على فرض صحتها لا تفيد إنكار القراءة الثابتة التي أجمع عليها السبعة وهي (يؤتون ما آتوا) (٢) وقولها . أن رسول الله كان يقرأ بها وكذلك أنزلت ، لا ينال أن تكون القراءة المتواترة منزلة وقرأ بها النبي ولا سيما وهي المتواترة التي أجمع عليها القراء السبعة . وأما القراءة الأخرى التي وافقت السيدة عائشة السائل على استحسانها فهي غير متواترة ولا يثبت بها قرآن ، وقد ذكرت في بعض كتب الحديث ولكن لم يروها القراء من طرقهم (٣) ولعلها بما نسخ من القراءات في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، أو بما ترك عند جمع القرآن لعدم ثبوتها وتواترها ، وأما قولها . أن الهجاء حرف فالمراد بالحرف اللغة أي القراءة الثابتة لغة ، ووجه من وجوه الأداء للقرآن ، ولا يصح أن تريد من الحرف الخطأ والتحريف إذ اللغة لا تشهد له .

الشبهة الثانية عشرة :

قالوا : روى عن خارجة بن زيد بن ثابت أنه قال : قالوا لزبد يا أبا سعيد أوهمت إنما هي : ثمانية أزواج من الضأن اثنين اثنين ، ومن المعز اثنين اثنين ، ومن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين اثنين ، فقال لا إن الله تعالى يقول . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، فهما زوجان كل واحد منهما زوج الذكر زوج والأنثى زوج .

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٦ ص ٣٦ (٢) القراءة المتواترة من الإتيان وهو الإعطاء أي يعطون ما أعطوا ، وأما الثانية فن الإتيان بمعنى الفعل أي يفعلون ما يفعلون (٣) تفسير الألوسي ح ١٧ ص ٤٤ .
(٢٥٢ - للدخل)

قالوا : فهذه تدل على تصرف النساخ في المصحف ، واختيارهم ماشاؤا
في كتابة القرآن

والجواب : - إن هذه الرواية - على تسليم صحتها - لا تدل على ما زعموا
وأما هي بيان وتوجيه لما كتبه ، وقرأه ، وثبت عنده سماعا من النبي صلى
الله عليه وسلم لا تصرفا من تلقاء نفسه وقد فهم المستشكل أن الزوج لا يطلق
إلا على الاثنين المتزاوجين فبين له سيدنا زيد رضى الله تعالى عنه وأرضاه
أن الزوج كما يطلق على الإثنين المتزاوجين يطلق على كل واحد منهما أنه
زوج واستدل له بالقرآن الكريم الذى هو الحجة البالغة ، وقد انتفع السائل
وسكت . والصحابة الذين كتبوا القرآن ، والذين حملوه ، بلغوه لمن بعدهم
كانوا الغاية فى الضبط ، والتثبت والأمانة الفائقة ، وفى الذروة منهم زيد
ابن ثابت الذى كان كاتب الرضى بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم والذى
حمل العبء الأكبر فى جمع القرآن فى عهد الصديق وعهد عثمان رضى الله
تعالى عنهما .

رد عام ، وهنا رد عام يرد به على كل ما سبق من شبه وهو أن العمدة
فى القرآن وحفظه هو التلقى ، والسماع من النبي صلى الله عليه وسلم ، أو من
سمع منه أو سمع عن سمع منه ، وهكذا حتى وصل إلينا القرآن غضا كما أنزل
ولم يكن يؤخذ القرآن من المصحف ، أو المصاحف المكتوبة ، وإنما كان
القصد من المكتوب معاودة المحفوظ ، والرجوع إليه عند الاختلاف .
فى القراءة ، أو الرسم ، وأن الذين عزيت إليهم هذه الروايات ، ولا سيما
ابن عباس ، وتلامذته ، قد قرؤوا بالقراءات الثابتة المتواترة على خلاف
ما نقل عنهم من الطعن فيها بما يدل على بطلان هذه الطعون .

وبعبارة ، فلعلك رأيت معنى أن هذه الشبه وأمثالها أو هى من بيت
الغيبوت فلا تلق إليها بالا ولعلك إزدددت يقيناً بأن القرآن كما هو فى
المصاحف اليوم ، هو ما أنزل على نبيينا محمد ، وأن كل ما يخالف هذا

المتواتر القطعى فهو مردود باطل ، وأن القرآن لا يثبت برواية آحادية ، ولو بلغت أعلى درجات الصحة فكن على ذكر من كل ذلك ، ثبتنا الله وإياك بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

(شكل القرآن)

الشكل هو ما يدل على عوارض الحرف من حركة وسكون سواء أكان ذلك فى أول الكلمة أو وسطها أو آخرها قال فى القاموس مادة شكل « والكتاب أعجمه كأشكله كأنه أزال عنه الأشكال ، أى وشكل الكتاب ولا شك أن ما يميز الحرف من جهة كونه متحركاً أو ساكناً يزيل إبهامه ، وإشكاله ، فبين المعنى اللغوى والاصطلاحى مناسبة ظاهرة .

وقد اتفق المؤرخون على أن العرب فى عهدهم الأول لم يكونوا يعرفون الشكل بمعناه الاصطلاحى بل كانوا ينطقون بالألفاظ مضبوطة مشكولة بحسب سليقتهم وفطرتهم العربية من غير لحن ، ولا غلط ، لما كان متأسلاً فى نفوسهم من الفصاحة والبلاغة ، واستقامة أسننتهم على النطق بالألفاظ المؤلفة على حسب الوضع الصحيح من غير حاجة إلى معرفة القواعد ، ولذا لما كتبت المصاحف فى العهد الأول جردت من الشكل والنقط اعتماداً على هذه السليقة وعلى أن المعول عليه فى القرآن هو التلقى والرواية فلم يكن بهم حاجة إلى الشكل ، فلما اتسعت رقعة الاسلام واختلط العرب بالعجم فسدت الفطرة العربية ، ودخل اللحن فى الكلام ، وحدثت حوادث نهت المسلمين إلى القيام بحفظ القرآن الذى هو أصل الدين ومنبع الصراط المستقيم من أن يطرق إليه اللحن والخطأ ، وكان قد ظهر فى المسلمين من عرف أصول النحو وقواعده ، وبرع فى حفظ القرآن وقراءاته ، أمثال أبى الأسود الدؤلى ويحيى بن يعمر العدوانى قاضى خراسان ، ونصر بن عاصم الليثى ، وقد حدث أن سمع أبو الأسود الدؤلى قارئاً يقرأ « أن الله يرمى المشركين ورسوله ،

بجر « رسوله » فأفوه ذلك وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله : وذهب إلى زياد وإلى البصرة وقال له ، قد أجبته إلى ما سألت ، وكان زياد قد سأله أن يضع للناس علامات تدل على الحركات والسكنات فجعل للفتحة نقطة فوق الحرف وللكسرة نقطة أسفله وللضممة نقطة بين الحرف والتوين نقطتين ، وسار الناس على هذا النهج مدة ثم بدأوا يزيدون ويبتكرون فجعلوا علامة للحرف المشدد كالقوس ولألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو وسطها على حسب ما قبلها من فتحة ، أو كسرة ، أو ضمة حتى كان عبيد الله بن مروان ، واضطروا إلى وضع النقط الذي هو الأعجام للباء والتاء والثاء الخ ، فالتبس النقط بالشكل ، فجعلوا لكل منهما مدادا مخالفا للون الآخر ، ثم وضعوا للشكل علامات أخرى وهي العلامات المعروفة اليوم للفتحة والكسرة والضممة والشدة ونحوها فجعلوا الفتحة ألفا أفقية من فوق الحرف ، والكسرة ألفا من تحت الحرف والضممة على هيئة رأس الواو وبذلك صار القرآن مشكولا .

(إعجام القرآن)

الإعجام هو ما يدل على ذوات الحروف ، وتميز الحروف المتماثلة في الرسم بعضها عن بعض قال في القاموس وشرحه « تلج العروس » مادة أعجم « وأعجم فلان الكلام أى ذهب به إلى العجمة بالضم وكل من لم يفصح بشئ فقد أعجمه وأعجم الكتاب خلاف أعربه - كما في الصحاح - أى نقطه ، وفي النهاية أزال عجمته كمجمه عجمها وعجمه تعجيبا . . . وقال ابن جنى أعجمت الكتاب أزلت أستعجمه قال ابن سيده وهو عن سدي على السلب . . . وقالوا أعجمت الكتاب فجاءت فعلت للسلب أيضا كما جاء أفعلت وله نظائر ، وقد تقدم في مادة « شكل » أن الشكل هو الإعجام فشكل منهما يرادف الآخر لانه غير أن الاصطلاح فرق بينهما كما علمت فخص الشكل بالحركات ، والإعجام بالنقط .

ولم تكن المصاحف منقوطة في مبدأ الأمر لأن الاعتماد لم يكن على القراءة من المصحف بل كان على التلقي والسماع ولتبقى صورة الكلمة الواحدة في الخط صالحة لكل ماصع وثبت من وجوه القراءات ، ولما روى عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ، جردوا القرآن ولا تخطوه بشيء ، أخرجه أبو عبيد وغيره .

وقد اختلف المؤرخون في النقط ، فمنهم من يرى أن الإعجام كان معروفا قبل الإسلام لتمييز الحروف المتشابهة ، غير أنه ترك عند كتابة المصاحف لما ذكرنا ومنهم من يرى أن الإعجام لم يعرف إلا من طريق أبي الاسود الدؤلي ، ثم اشتهر ووضع في القرآن في عهد عبد الملك بن مروان والظاهر الأول لأنه يبعد جداً أن لا يكون للحروف علامات تميز المتشابهات بعضها عن بعض ، ومهما يكن من شيء فقد اشتدت الحاجة إليه حينما اتسعت رقعة الإسلام ، واختلط العرب بالمعجم وبدأ اللبس والأشكال في قراءة المصاحف ، حتى ائشق على الكثير منهم أن يميزوا بين حروف القرآن وقراءاته في مثل قوله تعالى ، ننشرها ، وننشرها ، وقوله « فنبينوا » فثبتوا ، فاهتم عبد الملك بن مروان بذلك وأمر الحاجب أن يعنى بهذا الأمر الجليل ، فاختر الحاجب له رجلين من خيرة المسلمين نصر بن عاصم الليثي ، ويحيى بن يعمر العدواني ، تليئذى أبي الاسود الدؤلي ، وكافا من الورع والصلاح ؛ وبلوغ الغاية في العربية ، والقراءات بمكان ، فوضعا النقط من واحدة إلى ثلاث للحروف المتشابهة ، وكان في هذا توفيق عظيم للأمة إلى هذا العمل الذي يتوقف عليه حفظ القرآن الكريم وقبل أن أول من نقط المصحف أبو الاسود الدؤلي وأن ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر ، ويمكن التوفيق بين هذا وما تقدم بأن أبا الاسود أول من نقط المصحف بصفة شخصية وتبعه في ذلك ابن سيرين ، وأما عبد الملك فأول من أمر بنقط المصحف بصفة عامة رسمية شاعت وذاعت بين الناس قاطبة .

ما استحدث في كتابة المصاحف :

وأما ما استحدث في كتابة المصاحف من التجزيب والتجزئة والتخميس والتعشير^(١) وكتابة فواتح السور وخواتمها ونحو ذلك فكل ذلك مما زيد لغرض التيسير على القارئ ولكن ليس له من الأهمية ما للشكل والنقط قال قتادة . بدأوا فنقطوا ثم خمسوا وعشروا وقال غيره : أول ما أحدثوا النقط عند آخر الآية ثم الفواتح والخواتم .

وقد جزء العلماء القرآن تجزئات شتى : منها التجزئة إلى ثلاثين جزءاً وأطلقوا على كل واحد منها اسم الجزء بحيث لا يخطر بالبال عند الإطلاق غيره . فإذا قال قائل قرأت جزءاً من القرآن تبادر للذهن أنه قرأ جزءاً من الأجزاء الثلاثين ثم جزؤا كل واحد من هذه الأجزاء الثلاثين إلى جزئين ، وقد أطلقوا على كل واحد منها اسم الحزب ؛ فصارت الأحزاب ستين حزباً ، فثلاً من أول الفاتحة إلى قوله تعالى « سيقول السفهاء » جزء ، ومن « سيقول السفهاء » إلى تلك الرسل » جزء وهكذا ، ومن أول الفاتحة إلى قوله « وما الله بغافل عما تعملون » حزب ، ومن « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم » إلى « ولا تسألون عما كانوا يعملون » حزب وهكذا ، وجعلوا الجزء ثمانية أرباع ، والحزب أربعة أرباع ؛ وقد جرت عادة كثير من نساخ المصاحف أن يذكروا اسم الأجزاء ، والأحزاب ، والأرباع في حاشية المصحف غير أنهم يكتبون ذلك بخط مخالف لخطه ومداد مخالف لمداده تحوطاً من أن يظن أنه من القرآن .

حكم نقط المصحف وشكله وما شابه ذلك :

كان العلماء في الصدر الأول يرون كراهة نقط المصحف وشكله ونحوهما

(١) التخميس كتابة لفظ خمس عند رأس كل خمس آيات ، والتعشير كتابة لفظ عشر عند رأس كل عشر آيات ومنهم من يكتب في كتابة حرفي (خ) و(ع) .

مبالغة منهم في المحافظة على القرآن من التزيد وكتابته في المصاحف على هيئة ما كتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أخرج أبو عبيد عن النخعي أنه كره نقط المصاحف وأخرج ابن أبي داود عنه أنه كان يكره العواشر ، والفواتح ، وتصغير المصحف وأن يكتب فيه سورة كذا وكذا ، ولما أتى بمصحف مكتوب فيه سورة كذا . كذا آية قال . امح هذا ، فإن ابن مسعود كان يكرهه ، وعن الإمام مالك أنه كره العشر التي تكون في المصحف بالحرمة وغيرها ، وعنه أنه قال : لا بأس بالنقط في المصاحف التي يتعلم فيها الغلمان ، أما الأمهات فلا .

ولكن الحال قد تغيرت عما كان في العهد الأول ؛ فاضطر المسلمون إلى نقطه وشكله للمحافظة على القرآن من اللحن والتخريف والتصحيف ، وللتيسير على الحفاظ والقارئ ، وبعد أن كانوا يكرهون ذلك صار واجباً أو مستحباً لما هو مقرر في علم الأصول من أن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً ، قال الإمام النووي في التبيان مانصه : « قال العلماء : ويستحب نقط المصحف وشكله ، فإنه صيانة من اللحن فيه وتصحيحه ، وأما كراهة الشعبي والنخعي للنقط فإنما كرها ذلك في ذلك الزمان خوفاً من التغيير فيه ، وقد أمن ذلك اليوم ، فلا منع ، ولا يمنع من ذلك لكونه محدثاً ، فإنه من المحدثات الحسنة فلا يمنع منه كمنظأره ، مثل تصنيف العلم وبناء المدارس والرباطات ، وغير ذلك والله أعلم ، والخطب في هذا ونحوه مثل التنبيه على الوقوف والسكات سهل مادام الغرض هو التيسير والتسهيل على القارئ . ، ومادام الأمر بعيداً عن اللبس والتزيد والاختلاق ومادام الأمن متوفراً .

احترام المصحف :

لا يكاد التاريخ للصادق يعرف كتاباً أحيط بهالة من التقديس والتكريم مثل ما عرف ذلك للقرآن الكريم ، ولا عجب فقد وصفه الحق جل وعلا

بأنه كتاب مكنون ، وحكم بأنه لا يمسه إلا المطهرون ، وأقسم على ذلك
مكنون ، وحكم بأنه لا يمسه إلا المطهرون ، وأقسم على ذلك حيث يقول ،
« فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم - لو تعلون - عظيم ، إنه لقرآن
كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين ، ^(١)
ولقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن السفر به إلى أرض العدو إذا
خيف وتويع المصحف في أيديهم ، كما روى في الصحيحين ، وقد ألقى العلماء
بكفر من مزقه أو أهانه أو رمى به في قاذورة ، وبجرمة من باعه لسافر ولو
ذمياً ، وأوجبوا الطهارة لمسه وحمله . بل قالوا : لكل ما يتصل به من
خريطة ^(٢) وغلاف ؛ وصندوق على الصحيح ، واستحبوا تحسين كتابته
وإيضاحها ، وتحقيق حروفها ، وتعظيمها ، وعدم تصغيرها ، كما استحبوا
تعظيمه والقيام له ، قال الإمام النووي : « ويستحب أن يقوم للمصحف
إذا قدم به عليه ، لأن القيام يستحب للعلماء والاختيار للمصحف أولى ،
« ويجب على من عنده مصاحف أو أوراق منها غير صالحة للقراءة أن يهونها
عن مواطن الأقدام وعن عبث الصبيان ، وعليه أن يحرقها أو يدفنها في
الأرض بعيداً عن مواطن الأقدام والقاذورات ، رزقنا الله سبحانه التآدب
معه ومع كتابه .

(١) الواقعة الآية ٧٥ - ٨٠

(٢) الكيس من الجلد الذي يوضع فيه .

ثبوت النص القرآني بالتواتر

المفيد للقطع واليقين

لم يعرف التاريخ في عمره الطويل كتابا أحيط بسياجات من العناية والرعاية مثل ما عرف ذلك للقرآن الكريم ، ولا كتابا ثبت في جملته وتفصيله بالتواتر المفيد للقطع واليقين مثل ما عرف ذلك للقرآن الكريم ، ولا كتابا أوجب الله حفظه على الأمة كلها غير القرآن الكريم ، ولا كتابا سلم من التحريف والتبديل غير القرآن الكريم .

وقد احتاط النبي صلوات الله وسلامه عليه ، والصحابه رضوان الله عليهم لهذا الكتاب غاية الاحتياط ، فلم يكتفوا بحفظه في الصدور ، وعلى صفحات القلوب ، وإنما جمعوا إلى الحفظ الكتابة في الرقاع ، والعصب ، والأكتاف ، واللخاف ونحوها ، ثم في الصحف ، ثم في المصاحف كما بينت ذلك فيما سبق من الفصول ، وبذلك اجتمع للقرآن الوجودان : الوجود في الأذهان والصدور ، والوجود في الكتابة والصدور .

ولم يكن المعول عليه في حفظ القرآن وتلقيه الأخذ من الرقاع ، والصحف ، والمصاحف ، وإنما كان المعول عليه الأول التلقي الشفاهي ، والأخذ بالسماع فالنبي صلى الله عليه وسلم أخذ عن أمين الوحي جبريل عليه السلام ، وعن النبي أخذ الكثير من الصحابة النجباء ، العدول ، الضابطین الامناء ، وعن الصحابة أخذ الألوف من التابعين الفضلاء ، وهكذا نقله العدد الكثير ، عن العدد الكثير ، حتى وصل إلينا كما أنزله الله من غير زيادة ، ولا نقصان ، ولا تغيير ، ولا تحريف مصداقا لقول الحق تبارك وتعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، وقد كان من أسباب توثيق

النص القرآني ، حفظ النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن ، وحفظ الصحابة له .

« حفظ النبي للقرآن »

قلنا فيما سبق أن أول آيات نزلت عن النبي صلى الله عليه وسلم هي صدر سورة « اقرأ » ، إلى قوله تعالى « علم الإنسان ما لم يعلم » .

ثم فتر الوحي مدة كي يشتاق إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعد فترة الوحي نزل القرآن ، وتتابع ، وكان أول آيات نزل بعد هذه الفترة صدر سورة « المدثر » ، إلى قوله تعالى « والرجز فاهجر (١) » .

ثم حمى الوحي وتتابع حتى نزول القرآن كله قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بواحد وعشرين يوما وقيل بأحد عشر يوما ، وقيل بتسع ليال ، وكان آخر ما نزل على الصحيح هو قوله تعالى : « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون (٢) » .

« حرص النبي على القرآن » .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم شديد العناية بحفظ القرآن ، وحريصا على تلقفه من جبريل عليه السلام حتى بلغ من شدة عنايته به ، وحرصه عليه أنه كان يحرك به لسانه أكثر من المعتاد عند قراءته ، ويعالجه أشد المعالجة حتى كان يجد من ذلك شدة ، يقصد بذلك استعجال حفظه خشية أن تفلت منه كلمة ، أو يعزب عنه حرف حتىطمأنه ربه ، ووعد أنه يحفظه له في صده ، وأن يقرنه لفظه ، وأن يفهم معناه فأنزل عز شأنه قوله : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرأانه ، ثم إن علينا بيانه » (٣) أي جمعه لك في صدرك . وإقرائه لك

(٢) البقرة / ٢٨١ .

(١) المدثر / ١ - ٥ .

(٣) القيامة ١٦ - ١٩ .

بوساطة أمين الوحي جبريل ، فإذا قرأه جبريل فأنصت ، حتى إذا فرغ ، فاقراً عليه ما سمعت منه ، ثم إنا سنتكفل لك أيضاً ببيان تفسيره ، وتوضيح ما أجمل منه ، وإزالة إشكال ما عسى أن يشتككه منه ، وهو ضمان من الله عز وجل — بأنه لن يخشى النسيان ، أن تتفقت منه كلمة أو حرف ، وقد ورد تفسير هذه الآيات عن ابن عباس (١) رضى الله عنهما .

« معارضة جبريل النبي بالقرآن ،

وكان من الدواعى القوية لحفظ النبي صلى الله عليه وسلم القرآن وتثبيته في قلبه الشريف معارضة جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن في رمضان من كل عام روى البخارى في صحيحه بسندهم عن ابن عباس قال ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة ، (٢) فكان جبريل عليه السلام يقرأ والنبي يسمع حيناً ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقرأ وجبريل يسمع ، حتى كان العام الذى توفى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فعارضه جبريل بالقرآن مرتين ، وقد شهد العرضة الأخيرة أحد مشاهير كتاب الوحي لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه وهو زيد بن ثابت الأنصارى رضى الله تعالى عنه .

روى الإمام البخارى في صحيحه بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : « أقبلت فاطمة تمشى ، وكانت مشيتها (٣) مشى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : النبي صلى الله عليه وسلم « مرحباً يا بنتى » ثم أجلسها عن يمينه ، أو (٤) عن

(٢٠١) صحيح البخارى — باب كيف كان بدء الوحي إلى النبي صلى

الله عليه وسلم .

(٣) مشيتها - بكر الميم - أى هيئة مشيتها .

(٤) أو للشك من الراوى .

شماله ، ثم أسر إليها حديثا فسكت ، فقلت لها . لم تبكين ؟ ثم أسر إليها حديثا فضحكت ، فقلت ما رأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن ، فسألتها عما قال ، فقالت : ما كنت لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قبض النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألتها ، فقالت . أسر إلى أن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة ، وإنه عارضني العام مرتين ، ولا أراه^(١) إلا حضور أجلي ، وإنك أول أهل بيتي لحاقا بي فبكيت ، فقال : أما ترضن أن تكون سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين ، فضحكت^(٢) .

وكان القرآن شغل النبي الشاغل في صلاته ، وتهجده ، وفي سره ، وعلايته وفي حضره ، وسفره ، وفي وحدته ، وبين صحابته ، وفي عسره ويسره ومنشطه ، ومكرهه ، ولا يغيب عن قلبه ، ولا يألوا جهدا في تعبه وتسكراره والانتباه بأوامره ، والانتباه عن نواهيه ، والاعتبار بمواعظه ، وقصصه ، والنأثر بأمثاله ، وحكمه ، والتأدب بآدابه ، وأخلاقه ، وتبليغه إلى الناس كافة .

كما كان أعلم الناس بأسباب نزوله ، ومواقع تنزلاته ، ومدلول خطاباته وأحكامه وآدابه ، وحدوده ، ومعالمه ، وظاهره ، وباطنه ، فمن ثم كان أشد الناس حفظا له ، وإجادة لقرآته ، ومعرفة لحروفه ، وقراءاته ، وكان المرجع الأول للمسلمين في حفظ القرآن ، وفهمه ، والوقوف على معانيه ، وأسراره ومرامييه والتثبت من نصوصه ، وحروفه . وقراءاته .

« الحفظ عن ظهر قلب خصيصة للقرآن » .

ومن خصائص هذا الكتاب السماوي الكريم أن الله عز وجل كاف الأمة الإسلامية بحفظه كله بحيث يحفظه عدد كثير يثبت بهم التواتر المفيد للقطع واليقين على هذا الوضع ، وبهذا الترتيب الذي وجد ، ويوجد في

(١) بضم الهمزة بمعنى أظنه .

(٢) صحيح البخارى - باب علامات النبوة .

المصاحف العثمانية من لدن الصحابة إلى اليوم ، فإن لم يحفظه عدد يثبت بهم التواتر أئمت الأمة كلها .

بخلاف التوراه والإنجيل والزبور ، وصحف إبراهيم ، وموسى وغيرها بما أنزله الله تبارك وتعالى ، فلم تسلك أممها بحفظها عن ظهر قلب ، بل ترك ذلك لاختيار من يريد ، فمن شاء حفظ ، ومن شاء اعتمد في القراءة على المكتوب ، وهذا الأخير هو الأعم الأغلب من شأن بني إسرائيل وغيرهم ولم تتوفر الدواعي لحفظ هذه الكتب والصحف كما توفرت للقرآن الكريم .

فمن ثم لم يكن لها من ثبوت النص القطعي الموثوق به مثل ما للقرآن العظيم ، ومن هنا سهل التحريف ، والتبديل في التوراة والإنجيل من الأحبار والرهبان والقسيس ، وبعضها كالصحف ضاع من الزمن ، ولم يبق له وجود .

والحكمة في تكليف الأمة بحفظ القرآن .

والمر في أن الله سبحانه وتعالى كلف الأمة المحمدية بحفظ القرآن العظيم ، ولم يكلف الأمم السابقة بحفظ كتبها ، وصحفها — أن هذه الكتب لم تكن معجزة بالفاظها ولم يشأ الله ذلك لحكمة يعلمها ، بخلاف القرآن الكريم ، فقد شأ الله سبحانه — وله الحكمة البالغة — أن يكون معجرا بلفظه فضلا عن معانيه ، فكان من الضروري المحافظة على النص بالطريق المتيقن للقطع واليقين ، وليس ذلك إلا بأن يحفظه العدد الكثير في كل جيل وعصر الذين لا يجوز عليهم التكذيب ، ولا الغلط ، ولا السهو ، وهو ما يعرف في علم الرواية بالتواتر ، وقدوفر الله له من الدواعي إلى حفظه ما لم يتوفر لغيره من الكتب السماوية ، بله (١) الأرضية وأيضا من الحكم

(١) بله اسم فعل بمعنى دع أى دع الكتب غير السماوية فأمرها حفروغ منه .

أن القرآن هو الأصل الأصيل للدين العام الخالد الباقي ما بقي لإنسان على وجه هذه الأرض ، وهو سلام ، فكان لا بد من المحافظة على كتابه ، ليخلد خلود هذا الدين الذي يعتبر القرآن أصلا له .

بخلاف التوراة ، والإنجيل ، فقد كانتا كتباً لدينيين يمثلان طورين خاصين محدودين بحدود الزمان والمكان ، من الأطوار التي مرت بها الأديان السماوية حتى وصلت إلى الأكتمال ، في « دين الإسلام » ، قال صلى الله عليه وسلم ، وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس عامة . رواه البخاري .

« الأدلة على وجوب حفظ القرآن على الأمة » .

(١) ما رواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن ربى قال لى : قم فى قریش فأندرم ، قلت : « أى ربى إذن . يتلغوا رأسى ، حتى يدعوہ خبرة » ، (١) فقال : « إنى مبتلىک ، ومبتل بک ، ومنزل علیک کتابا لا یغسله الماء ، تقرؤہ نائما » (٢) ، وبقظان ، فابعث جندا أبعث مثلهم ، وقاتل بمن أطاعک من عصاک ، وأنفق ینفق علیک ، فقد أخبر سبحانه وتعالى أن القرآن لا یتکفی فی ثبوته وحفظه بصحيفة أو لوح یغسل بالماء ، وإنما محله القلوب ، والصدور وذلك بالحفظ عن ظهر قلب ، فإذا انضم إلى الحفظ فى الصدور ، السکتاب فى الصحف فقد ازداد التوثق ، والاطمئنان ، وقوله « لا یغسله الماء » صیغة نفی ولكن النفی قد یأتى للنهى والنهى عن غسله بالماء یتلزم عادة الأمر بحفظه فهو مثل قوله : « لا یمسہ إلا المطهرون » ، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج .

(٢) ما ورد فى وصف الأمة الإسلامية « أناجیلهم فى صدورهم » ، أى

(١) أى مهشما كالقطعة من الخیر .

(٢) أى مستلقیا أو مضطجعا کهيئة النائم .

كتابهم المقدس ، المعول عليه في بقائه وسلامته من التحريف والتبديل ،
الحفظ في الصدور بخلاف أهل الكتاب ، فإنهم لا يحفظون كتابهم إلا
من الصحف ، ولا يقرؤنه كله إلا نظرا ، لا عن ظهر قلب ، كما هو الشأن
في جمهرة المسلمين ، وذكر هذا الوصف في معرض المفاضلة بينهم وبين غيرهم
يدل على أن هذا أمر مختص بهم .

(٣) ما رواه البخارى في صحيحه في قصة الرجل الذى أراد أن يتزوج
المرأة التى عرضت نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن له بها حاجة
ولم يكن يملك شيئا ليكون مهرًا لها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « فما
معك من القرآن » ، قال : سورة كذا ، وكذا ، قال : اتقروهن عن ظهر
قلب ، قال نعم قال : فاذهب فقد زوجتكها بما معك من القرآن ، (١) وهذا
الحديث وإن لم يدل على الوجوب ولكنه يدل على أن الحفظ عن ظهر
قلب أمر مرغوب فيه ، ومستحب ، وفضيلة من الفضائل التى يختص
بها المسلمون .

« حفظ الصحابة للقرآن الكريم »

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزلت عليه الآية ، أو الآيتان ،
أو الخمس أو العشر ، أو السورة ، يقرأها على أصحابه ، ويحفظهم إياها ،
ويفقههم بها ويبين لهم طريقة أدائها ، وآداب تلاوتها ، كي يحفظوا اللفظ ،
ويفقهوا المعنى ، ويلتزموا ما نزل عملا ، وسلوكا ؛ ويستقيموا عليه .

وقد أحل الصحابة - رضوان الله عليهم - القرآن في المحل الأول من
نفوسهم ، وأنزلوه المنزلة اللاتمة به يتنافسون في حفظ لفظه ، ويتسابقون
في فقه معناه ، وجعلوه متبديهم في ليلهم ، ومسلاتهم في فراغهم ، وصاحبهم

(١) صحيح البخارى - كتاب فضائل القرآن - باب القراءة عن
ظهر قلب .

في أسفارهم ، وأنيسهم في وحدتهم . وصديقهم الصدوق ، في منشطهم . ومكرهمهم . ومستشارهم الأمين في شؤون دينهم . ودينام وما ظنك بكتاب يعتقدون - وحق لهم ذلك - أن تلاوته عبادة ، والاستغلال به من أعظم القربات إلى الله : وأن عزم لن يكون إلا به ، وسعادتهم في الدنيا والآخرة لن تنحقق إلا بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، والتأدب بأدابه ، والتخلق بأخلاقه ، لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرا على قوم يقدم أكثرهم قراءة للقرآن ، وإذا بحث بحثا جعل إمامهم في صلاتهم أكثرهم أخذًا للقرآن ، بل إذا جمع بين اثنين ، أو أكثر في قبر لضرورة - كما حدث في شهداء أحد - سأل : أيهم أخذًا للقرآن ، ؟ فإذا أشير إليه قدميه في اللحد (١) .

ولم يكن مهمهم من القراءة مجرد الحفظ من غير تدبر وفهم كما هو الشأن في كثير من الحفاظ اليوم ، وإنما المراد الحفظ ، والفهم ، فالعمل بما حفظوا وعلموا ، روى عن أبي عبد الرحمن السلي (٢) قال : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا عن النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم ، والعمل جميعا ، فالقراء في الصدر الأول كانوا فقهاء فاهمين ، وعلماء عاملين واعتمادهم في الحفظ على التلقي الشفاهي .

وكان اعتمادهم - رضون الله عليهم - في الحفظ على التلقي والسماع من

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى - باب من قتل من المسلمين يوم أحد .

(٢) هو عبد الله بن حبيب السلي ، من خيار التابعين ، وثقاهم أخذ القراءة عن عثمان بن عفان ، وغيره من القراء المعروفين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه من النبي من الصحابة ، ولا سيما
القارئ المجيد منهم كعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وعبد الله
ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأمثالهم .

وما كانوا يعتمدون في حفظه على المكتوب في عهد النبي ، ولا على
النقل من الصحف ، والمصاحف بعد كتابتها في عهد ذي النورين عثمان
رضي الله عنه .

وكذلك من جاء بعد الصحابة من التابعين ، وتابع التابعين ومن بعدهم ،
كان اعتمادهم على التلقي الشفاهي من الشيوخ أو العرض ، والقراءة عليهم ،
وهذا هو الغالب من شأنهم ، ولا تزال هذه السنة في حفظ القرآن متبعة ،
وملتزمة لدى القراء المجيدين إلى عصرنا هذا ، وبذلك بقيت سلسلة الإسناد
متصلة بالقرآن ، وسبق ياذن الله حتى يرث الله الأرض وما عليها .

، تفاوت الصحابة في الحفظ ، .

وقد كان الصحابة متفاوتين في الحفظ قلة ، وكثرة ، وإتقاناً وتجويداً ،
فمنهم من كان يحفظه كله ، ومنهم من كان يحفظ جله ، ومنهم من كان يحفظ
بعضه ، ومنهم من كان يحفظ السورة ، ومنهم من كان يحفظ السورتين ،
والثلاث ، والخمس ، والعشر ، والآكثر ولكن مما لا ينبغي أن يشك فيه
أن القرآن كله كان محفوظاً عند الكثرة الكثيرة منهم ، التي تفيد التواتر
المفيد للقطع واليقين بحيث كان مجموع القرآن عند مجموعهم .

، المشتهرون بالحفظ والإقراء من الصحابة ، .

وقد اشتهر بحفظ القرآن الكريم ، وإقراءه من الصحابة من المهاجرين
أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى وطلحة بن عبد الله ، وسعد بن أبي
وقاص ، وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان ، وسالم مولى أبي حذيفة ،
وأبو هريرة ، وعبد الله بن السائب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ،
(٢٦٢ - المدخل)

وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن أم مكتوم ، ومصعب بن عمير وغيرهم كثير .

ومن الأنصار : عبادة بن الصامت ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، وأبو زيد قيس بن السكن أحد عمومة أنس ابن مالك ، ومجمع بن حارثة ، وفضالة بن عبيد ، ومسلمة بن مسلمة ، وغيرهم كثير .

ومن النساء : عائشة ، وحفصة ، وأم سلمة ، وأم ورقة وغيرهن وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يثنى على بعض أصحابه القراء المجيدين ، حتى يقرأ عنهم ، أو ينهج منهجهم من يريد أن يلحق بهم ، وذلك أسلوب تربوي عظيم ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » (١) وابن أم عبد هو عبد الله ابن مسعود كان يعرف بذلك .

كما كان صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمعه من بعض أصحابه كإبن مسعود (٢) ، ففي صحيح البخاري رضى الله عنه قال . « قال النبي صلى الله عليه وسلم « اقرأ على ، ! قلت . يا رسول الله ، أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ ! قال : « نعم » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئناك على هؤلاء شهداء » (٣) قال . « حسبك الآن ، فالتفت إليه ، فإذا عيناه تذرفان ، يعنى بالدموع إما فرحاً بهذه المنزلة التي تفرد بها ؛ وإما حزناً وأسفاً لأنه سيشهد على أمته ؛ وفيهم المسيء والعاصي وعن الصحابة حفظه الألوف من التابعين ثم ألوف الألوف من جاء بعدهم حتى وصل إلينا القرآن كما أنزله الله من غير زيادة . ولا نقصان . ولا تغيير ولا تبديل . وتحققت كلمة الله « إنا نحن نزلنا الذكر . وإنا له لحافظون » صدق الله العظيم .

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنى هريرة ، ورواه أيضاً عن عمر ، ورواه الترمذى والنسائى ، وصححه الدارقطنى .

(٢) كتاب فضائل القرآن لابن كثير من ص ٤٣ - ٤٨ . (٣) النساء ٤١ -

(العوامل المساعدة على حفظ القرآن)

إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أمراً هياً له الأسباب ، وهذان رحمته
بخلقه . فقد أوجب على الأمة الإسلامية حفظ القرآن ، وجعل لهم القواعي
والحوافز ما أعانهم على حفظه ، ومداومته قراءته ، وتلاوته فمن هذه
العوامل :

العامل الأول التعبد بالقرآن الكريم في الصلاة وخارجها :

وقد اتفق الفقهاء قاطبة على أن الصلاة سواء أكانت فرضاً أم نفلاً ،
جماعة ، أو غيرها لا تصح إلا بالقرآن ، ولا تصح بالأحاديث القدسية ،
ولا النبوية ، ولا بالآذكار المأثورة ، فالقراءة ركن في الصلاة وهذا محل
إجماع ، إلا أن منهم من جعل قراءة الفاتحة ركناً لا تصح الصلاة إلا به
وهم الأئمة مالك ، والشافعي ، وأحمد في المشهور عنه .

ومنهم من لم يجعل الفاتحة ركناً ، فالصلاة تصح بالفاتحة وغيرها وهو
الإمام أبو حنيفة وأصحابه إلا أن الصلاة عندهم ناقصة الثواب غير كاملة ؛
لأنهم جعلوا قراءة الفاتحة واجبة لركننا ، فمن ترك قراءتها عمداً أساء ،
وعليه إعادتها ، ومن تركها سهواً جبر بسجود السهو . ومن ذلك يتبين أن
الواجب على كل مسلم ومسلمة أن يحفظ من القرآن ما يصحح به صلاته .

وأيضاً فقد كان قيام الليل واجباً في صدر الإسلام على النبي ، وقيل
عليه . وعلى أصحابه . وعماد القيام بالصلاة . ومن أركانها قراءة القرآن .
قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا : نَصْفَهُ (١) » أو انقص منه قليلاً

(١) نصفه بدل من الليل أو من قليلاً فكان الواجب إما النصف ،
أو الثلث ، أو الثلثان .

أورد عليه ، ورتل القرآن ترتيباً ، (١) وكانوا يخبرين في هذا الوجوب بين الثلث ، أو النصف ، أو الثلثين ، وقد مكثوا على هذا عاماً أو عامين ، وقيل عشر سنين حتى كانت تنتفخ أقدام بعضهم من طول القيام تخفف الله عنهم ، وصار مستحباً ، ونسخ الفرضية بقوله سبحانه في آخر السورة « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ، ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار » (٢) علم أن لن تحصوه فتاب عليهم ، فاقروا ما تبسر من القرآن (٣) ، علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ، فاقروا ما تبسر منه ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأقروا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير يجوده عند الله هو خيراً ، وأعظم أجراً ، واستحفظوا الله إن الله غفور رحيم ، (٤) وبذلك صار مستحباً مرعوباً فيه وוכל إلى كل ما يستطيعه من ساعاته .

وقد كان النبي ، وأصحابه ملازمين للقيام وقراءة القرآن حتى بعد التخفيف ونسخ الفرضية حتى استحقوا الثناء من الله عز وجل قال سبحانه « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا ، وبما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » (٥)

(١) المزمّل / ١ - ٤ .

(٢) أي ساعاتها ، ويعلم القدر الذي يقومون منه وأنكم لا يمكنكم المواظبة على هذا ، لأن لكم طاقة ، كما أنه منكم المرضى ، ومنكم من يسعى على رزقه ، كما أنه سيفرض عليكم الجهاد فيما بعد ، فكان من حكمتي ورحتي التخفيف عليكم .

(٣) بهذا الجزء من الآية استدل أبو حنيفة وأصحابه على صحة الصلاة بالفتحة وغيرها .

(٤) المزمّل / ٢٠ . (٥) السجدة ١٦ ، ١٧ .

وقال سبحانه : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، رفي أموالهم حق للسائل والمحروم ، » (١) .

وقد كان هذا القيام لونا من ألوان التربية الإسلامية حتى تصفو نفوسهم وتبدل أخلاقهم ، وتقوى عزائمهم وتربى فيهم ملكات الصبر ، والتحمل ، وعدم الخضوع لأهواء النفس وشهواتها ، ويكونوا على استعداد للتضحية والكفاح في سبيل عقيدتهم ودينهم رضوان الله عليهم ، فلا سهر في لهو ، ولا في شرب خمر ، ولا في متابعة للجوارى والحسان ولا في قمار ، ولا ميسر إلى غير ذلك من مبادئ الجاهلية .

وإنما هو سهر في حب الله ، وفي مدارسة كتاب الله ، وفي الصلاة ، والذكر ، والدعاء خلوات ما أحلاها من خلوات ، وسمو بالآرواح إلى معارج القدس الأعلى .

فلا تعجب إذا كانوا كتب الله لهم النصر والعزة على قلوبهم ، وأن حملوا رسالة نبينهم فبلغوها إلى الدنيا كلها ، وأنهم لم يمض عليهم نصف قرن من الزمان حتى دانت لهم فارس ، والروم بل لم يمض قرن على الدعوة حتى بلغ الإسلام ما بلغ الليل والنهار .

وما ظنك برجال كان بعضهم يختم القرآن في ركعة يحكي بها ليله كذى النورين عثمان رضي الله عنه وتيم الدارى ، بل روى عن سليم بن عتر التجيبي أنه كان يقرأ القرآن في الليلة ثلاث مرات ! وروى عن الإمام الشافعى أنه كان يختم في اليوم ، واللييلة من شهر رمضان ختمتين ، وفي غيره ختمة ، وروى عن أبي عبد الله البخارى صاحب الصحيح أنه كان يختم القرآن في الليلة ويومها من رمضان (٢) إلى غير ذلك مما ذكر عن بعض

(١) الذاريات ١٧ — ١٩ .

(٢) كتاب فضائل القرآن لابن كثير ص ٨١ ، ٨٢ .

السلف ، وقد كان الإمام أبو حنيفة من يختم القرآن في ليلة ، وذلك أنه مر على قوم ، فسمعهم يقولون : هذا يختم القرآن في ليلة ، فأبى عليه نفسه وأخلاقه إلا أن يكون كما يقولون فواظب على ذلك .

(العامل الثاني)

(٣) د الترغيب في قراءة القرآن ، وحفظه . .

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ما لا يحصى من الأحاديث في الترغيب في قراءة القرآن ، وتلاوته كما ينبغي ، وحفظه ، والوصاية به .

فالقرآن الكريم أصدق الحديث وأحسنه روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله قال : « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال . « أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وإن أفضل الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة ، وراه مسلم أيضاً في صحيحه .

والقرآن أفضل الكلام وأشرفه روى الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم . « إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » وراوه البيهقي في الاسماء والصفات من حديث .

والقرآن أحب إلى الله من كل شيء ، روى الدارمي من حديث عبد الله ابن عمرو مرفوعاً « القرآن أحب إلى الله من السماوات والأرض ، ومن فيهن . .

وأهل القرآن : هم أهل الله وخاصته ، روى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك قال . قال رسول الله ﷺ : « إن لله أهلين ^(١) من الناس

(١) أى ناساً من خلقه يرعاهم ، ويكرمهم ، ويبجلهم كما يرعى ، ويكرم الملك أهله وخاصته المنتصين به الملازمين له ، قال كلام من قبيل التتميل والمجاز

قيل : من هم يارسل الله ؟ قال : « أهل القرآن ، هم أهل الله وخاصته ،
وبحسبهم شرفا هذه النسبة إلى الله .

وأهل القرآن . وحفظته هم عرفاء الجنة ففي الحديث الذى رواه الطبرانى
« حملة القرآن عرفاء (١) أهل الجنة .

وتعلم القرآن ، وتعليمه يجعل صاحبه خير الناس وأفضلهم روى
الشيخان عن عثمان بن عفان — رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : خيركم من
تعلم القرآن وعلمه ، والاشتغال به خير من الاشتغال بصلاة
النوافل ، روى ابن ماجه فى سننه من حديث أبى ذر : « لأن تقدر
فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة » .

وقارىء القرآن ماجور على قراءته عمل به أو لم يعلم . فهم معناه : أم لم
يفهم ، وإن كان من فهم ؛ وعمل أعظم أجرا ، وأكثر ثوابا روى الشيخان
فى صحيحهما ما بسندهما عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : « مثل
المؤمن الذى يقرأ القرآن ، ويعمل به كالأترجة (٢) طعمها طيب ، وريحها
طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن ، ويعمل به . كالثمرة . طعمها
طيب ، ولا ريح لها ومثل المنافق (٣) الذى يقرأ القرآن كالريحانة : ريحها
طيب ، وطعمها مر ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر
أو خبيث . وريحها مر . وفى رواية أخرى « ولا ريح لها ، وهى أصح من
جبة المعنى .

والقرآن الكريم حبل ممدود بين السماء والأرض ، يصل الإنسان

(١) رؤساء .

(٢) نوع من الفاكهة الجيدة كالنفاخ ولكنها أكبر .

(٣) المراد نفاق العمل والخلق لانفاق العقيدة ، وقيل : نفاق العقيدة ،

وفى بعض الروايات « الفاجر » .

الحافظ له ، والعامل به بالله تعالى روى ابن أبي شيبة من حديث أبي شريح الخزاعي : « إن هذا القرآن سبب (١) طرفه بيد الله ، وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به ، فإنكم لن تضلوا ، ولن تهلكوا بعده أبدا ، وروى ابن جرير مرفوعا : « إن هذا القرآن هو جبل الله الممدود من السماء والأرض » .

وروى ابن مردويه بسنده عن عبد الله بن مسعود : رضي الله عنه — قال قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن هو جبل الله المتين وهو النور المبين ، وهو الشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه » ، وفي حديث الترمذي الذي رواه عن الحارث الأعور ، عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « ... وهو جبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم » .

والاشتغال بحفظ القرآن عن الذكر ، وسؤال الله يعطيه الله أفضل مما يعطى السائلين ففي الحديث الذي رواه الترمذي بسنده عن النبي ﷺ قال : يقول الرب — عز وجل من شغله القرآن عن ذكرى وعن مسألتي أعطيته أفضل مما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه . .

وقراءة القرآن ومدارسته ، تستنزل الملائكة ، والسكينة ، والرحمة ، ففي حديث : أسيد بن حضير : أنه قرأ سورة البقرة ذات ليلة ، فاضطربت فرسه ، فسكت ، فسكنت ، ثم قرأ فاضطربت ، فسكت فسكنت . .

فلما فرغ من قراءته رفع رأسه إلى السماء ، فإذا هو بمثل الظلة (٢) فيها أمثال المصاييح ، عرجت إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث النبي ﷺ بذلك فقال له : « تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت — أى استمرت في قراءتك — لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم » ، وفي حديث

(١) جبل .

(٢) السحابة .

الصحابى الذى كان يقرأ سورة « الكهف » فتخشته مثل السحابة ، فجعلت تدنو ، وجعل فرسه ينفر منها ، فعجب من ذلك فلما أصبح أتى النبى ﷺ فذكر له ذلك ، فقال : « تلك السكينة (١) تنزل للقرآن ، متفق عليه . وروى الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن النبى ﷺ قال : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتمهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » (٢)

وقارئ القرآن ، وحافظه ، العامل به ، يغبطه الناس ، ويتمنون أن يكونوا مثله . روى البخارى وغيره عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا حسد (٣) إلا فى اثنتين : رجل علمه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل ، وآناء النهار ، فسمعه جار له ، فقال : ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان ، فعملت مثل ما يعمل ، ورجل آناه الله مالا فهو يهلكه (٤) فى الحق ، فقال رجل : ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل » .

وحافظ القرآن ، وصاحبه الملازم لقراءته له بكل آية درجة يرقاها

(١) السكينة هى الطمأنينة ، وراحة القلب والنفس والمراد بها هنا الملائكة التى نزلت بها لسماح القرآن .

(٢) صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء - باب الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر .

(٣) المراد بالحسد . الغبطة ، وهى تمنى المرء أن يكون له مثل ما لغيره من غير أن يتمنى زواله ، بخلاف الحسد ، ففيه زوال النعمة ، وكأنه ﷺ أطلق الحسد على الغبطة المشابهة من وجه ، وللبالغة فى تحصيل الخصلتين كأنه قيل : لو لم يمكننا إلا بالحسد المذموم لترخص فيه ، فكيف وتحصيلهما يمكن بالطريق المحمود المشروع .

(٤) ينفقه .

يوم القيامة ، فانظر - أيها القارىء - كم يرقى من الدرجات ؟

عن أبي سعيد الخدرى قال : « قال نبي الله ﷺ . « يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة . اقرأ ، وارق ، واعد فيقرأ ، ويصعد ، بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه ، رواه الإمام أحمد في مسنده .

والقرآن أحد الشفعا ، الذين تقبل شهادتهم يوم القيامة ، روى أبو عبيد عن أنس مرفوعا : « القرآن شافع مشفع (١) ، وما جد مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار ،

وروى مسلم في صحيحه بسنده عن النبي ﷺ قال : « اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه ،

وروى أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : « الصيام والقرآن بشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أي رب مننته الطعام والشراب بالنهار فشفعني فيه ، ويقول القرآن مننته النوم بالليل فشفعني فيه قال - فيُشَفَّعَان -

وحافظ القرآن عن ظهر قلب ، والعامل بما فيه يشفعه الله في أهله يوم القيامة أخرج الترمذى ، وابن ماجه ، وأحمد من حديث علي ، من قرأ القرآن ، فاستظهره (٢) فأحل حلاله ، وحرم حرامه أدخله الله الجنة ، وشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار ، وحافظ القرآن الذى لا يغلط فيه ، ولا يغيب عنه شيء مع السفارة الكرام ، البررة من الملائكة ، روى الشيخان ، وغيرهما من حديث عائشة مرفوعا ، الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ، ويتتبع فيه (٣) ، وهو

(١) شفيع - بضم الميم ، وفتح اللعين ، ثم فاء . مشددة مفتوحة - أى مقبول الشفاعة .

(٢) حفظه عن ظهر قلب . (٣) أى يتتبع في قراءته .

عليه شاق له أجران ، أما الأول فأجره أكثر ، وأضعاف مضاعفة .

وما من أحد يقرأ شيئاً من القرآن حين يأخذ مضجعه إلا حفظ حتى يصبح أخرجه أحمد في مسنده والترمذي في سننه من حديث شداد بن أوس : ما من مسلم يأخذ مضجعه ، فيقرأ سورة من كتاب الله تعالى إلا وكل الله به ملكاً يحفظه ، فلا يقر به شيء يؤذيه حتى يهب متى هب .

وفي حديث أبي هريرة وقصته مع الشيطان الذي كان يسرق من الزكاة وقوله له . « إذا أويت إلى فراشك فاقراً آية الكرسي ، لم يزل معك من الله حافظ ؛ ولا يقربك شيطان حتى تصبح » فقال النبي صلى الله عليه وسلم « صدقك ، وهو كذوب (١) » ، ذاك شيطان ، رواه البخاري .

والبيت الذي يقرأ فيه القرآن يكثر خيره ، ويقل شره روى البزار من حديث أنس مرفوعاً البيت الذي يقرأ فيه القرآن يكثر خيره ، والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره .

والقلب الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب روى الإمام أحمد والترمذي بسندهما عن ابن عباس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب ، ومن ذا الذي يرضى أن يكون قلبه خراباً ؟ .

والقرآن هو الغنى الحقيقي ، فمن رزقه رزق الغنى كله ، ومن حرمه فلا غنى له وإن كان عنده مال فارون ، روى الطبراني بسنده عن أنس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « القرآن غنى لا فقر بعده ، ولا غنى دونه » (٢) .

(١) هذا تقرير من النبي لما أخبره به الشيطان ، ولعل الشيطان عرف ذلك من الرسول فأخبره أبا هريرة ، ومعنى صدقك . . أنه صدق في هذه وإن كان الشأن في قوله الكذب .

(٢) أى لا غنى في غيره .

وقارىء القرآن له بكل حرف حسنة ، عن ابن مسعود قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، ولا أقول : ألم حرف ولكن ألف ؛ حرف ؛ ولام حرف وميم حرف . رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في فضل القرآن ، وفضل آيات أو سور خاصة كالقائمة ، وخواتيم سورة البقرة ، والبقرة ، وآل عمران ، والكهف والإخلاص ، والمعوذتين وغيرها .

فمن ذا الذى يسمع ، أو يصل إليه كل هذا الترغيب الحبيب ، والوعد الجميل ولا يسارع إلى حفظ القرآن وتفهمه ، والعمل به ، فلا تعجب إذا كان الصحابة تنافسوا في هذا المضمار الشريف ، وكذلك تنافس فيه من جاء بعدهم ، حتى حفظ الألف ، بل وألف الألف .

(العامل الثالث)

٣ - الأمر بتعهد القرآن والتحذير من نسيانه .

وكذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وكل من يجيئ من الأمة بعدهم بتعهد القرآن وممارسة قراءته حتى لا يتفلت منهم . وضرب لهم في ذلك المثل النوابغ ، والكلم الجوامع الزواجر .

ففي الصحيحين وغيرهما عن أبي موسى — رضى الله عنه — عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« تعاهدوا القرآن (١) فوالذى نفس محمد بيده لو أشد نقصيا من الإبل في عقلها (٢) . »

(١) تعاهدوا القرآن . أى حافظوا على قراءته ، وداوموا على تلاوته

(٢) التفصى : التخاص والتفلت ، عقلها جمع عقال وهو جبل يعقل

به البعير أى يشد به وسط ذراعه وإنما ضرب المثل بالإبل ، لأنها أشد الحيوانات نفوراً وشروداً ، يصعب إرجاعها بعد استمكان نفورها .

ويزيد النبي صلى الله عليه وسلم الأمر توضيحاً فيقول: إنما مثل صاحب القرآن (١) كمثل الإبل المعقلة (٢) إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت ، رواه الشيخان وفي الأمر بالتعهد . والمواظبة عليه تحذير من نسيانه أو ذهابه .

وقد جاء الترهيب من نسيان القرآن في أو شيء منه ودم من يسهل حتى ينساه وذلك في غير ما حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفك منها إلا عدله . وما من رجل تعلم القرآن ثم نسيه إلا لقي الله يوم القيامة أجزم (٣) ، ولأبي داود عن سعد بن عبادة مرفوعاً (٤) من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله وهو أجزم ، قال الحافظ وفي إسناده مقال .

وروى أبو عبيد بسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« عرضت على أجور أمتي حتى القذاة والبعرة يخرجها الرجل من المسجد وعرضت على ذنوب أمتي ، فلم أر ذنباً أكبر من آية أو سورة من كتاب الله أوتياها رجل فنسيها .

وروى أبو داود والترمذي . وأبو يعلى والبخاري وغيرهم من حديث ابن أبي داود عن ابن جريج ، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب . عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضت على أجور أمتي حتى

(١) أي الحافظ له . والتمكن من حفظه والملازم له .

(٢) أي ربطت بالعقال

(٣) أي مقطوع اليد كناية عن نقصان الأجر ، وارتكاب الإثم وقيل مقطوع السبب من الخير . وقيل صفر الدين من الخير . ومعانيها متقاربة وقيل يحشر هكذا يوم القيامة ليكون علامة عليه .

(٤) أي منسوباً إلى النبي من قوله ، أو فعله ، أو تقريره ، وهذا من قوله .

القضاء يخرجها الرجل من المسجد وعرضت على ذنوب أعمى فلم أر ذنباً أعظم من سورة: من القرآن. أو آية من القرآن أوتيتها رجل ثم نسيها قال الترمذى: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وذا كرت به البخارى فاستغربه . وقال الحافظ فى الفتح فى إسناده ضعف ولكن إيراده له فى الفتح . وإيراد بن كثير له فى كتاب فضائل القرآن يدل على أنه ضعف محتمل يحتاج به فى مثل هذا .

« نسيان القرآن كبيرة ،

وقد اعتبر كثير من السلف نسيان القرآن كبيرة من الكبائر لما قدمنا من الأحاديث وغيرها وقد أخرج أبو عبيد — رحمه الله — من طريق الضحاك بن مزاحم موقوفاً قال :

« ما من أحد تعلم القرآن ثم نسيه إلا بذنب أحده ، لأن الله يقول : وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ، ونسيان القرآن من أعظم المصائب .

وروى عن أبى العالية موقوفاً أى عليه « كنا نعد من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن ، ثم ينام عنه حتى ينساه » قال الحافظ ابن حجر : وإسناده جيد ومن طرق ابن سيرين بإسناد صحيح فى الذى ينسى القرآن ، كانوا يسكروهونه ويقولون فيه قولاً شديداً (١) .

قال ابن كثير : وقد أدخل بعض المفسرين هذا المعنى فى قوله تعالى « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك اتلك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وهذا الذى قاله هذا . وإن لم يكن هو المراد جميعه .

(١) أنظر فضائل القرآن لابن كثير ص ٦٧ — ٧٠ . وفتح البارى ج

٩ ص ٧٠ - ٧١ وكتاب فضائل القرآن فى صحيح البخارى وفضائل القرآن

فى رياض الصالحين وفضائل القرآن فى الاتقان ٢ ص ١٥١ — ١٥٣ .

فم وبعضه . فإن الإعراض عن تلاوة القرآن وتعرضه للنسيان . وعدم
الاعتناء فيه تهاون كبير وتفريط شديد نعوذ بالله منه . ولهذا قال عليه السلام
تعاهدوا القرآن وفي لفظ استذكروا القرآن فإنه أشد نقصاً من صدور الرجال
من النعم . . . أى أن القرآن أشد تفلتاً من الصدور من النعم إذ أرسلت من غير
عقال ثم قال : ولهذا قال إسحاق بن راهويه . وغيره : يكره للرجل أن يمر
عليه أربعون يوماً ؛ لا يقرأ فيها القرآن . كما يكره له أن يقرأه في أقل من
ثلاثة أيام .

(العامل الرابع)

(٤) ارتباط بعض الوظائف الدينية والدينية بحفظ القرآن

الإمامة في الصلاة بجميع أنواعها من المناصب الدينية الهامة ، ولا يتولاها
إلا أولو الفقه ، والعلم ، والفضل ، وقد كانت وظيفة رسول ﷺ طيلة
حياته ، ولم يتولها أحد في حياته إلا بإذن منه أو باستخلاف إذا سافر أو
خرج في غزوة أو نحوها ، وكذلك تولى الإمامة في الصلاة الخلفاء الراشدون
من بعده رضوان الله عليهم ، وتولاها الولاة ، والأمراء في الأمصار ،
والأقاليم ، وكذلك تولاها أمراء المؤمنين بعد الخلافة الراشدة

وقد كان حفظ القرآن ، واستظهاره ، وإجادته ، والعلم به ، والتفقه
فيه المرشح الأول لهذا المنصب الديني الخطير ، فكان الأحق بها أقرو^(٣)
الناس لكتاب الله .

(٣) ليس المراد بالقراءة مجرد الحفظ من غير فقه وعلم ، وإنما المراد
بالأقرأ الأحفظ ، والافقه ، والأعلم وقد كان القراء هكذا في الصدر الأول
وقد مر بك عن قرب ما قاله التابعي عن القراء من أصحاب رسول الله ﷺ

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أبي مسعود الأنصاري قال قال رسول الله ﷺ : « يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرَأُكُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَهُمْ بِالسَّنَةِ ، فَإِنْ كَانُوا فِي السَّنَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا - أَيْ إِسْلَامًا - وَلَا يُؤْمَنُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ (١) وَلَا يَقْعُدُ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ (٢) إِلَّا بِإِذْنِهِ ، قَالَ الْأَشْبَحُ فِي رَوَايَتِهِ مَكَانَ سِلْمًا سَنَاءً ، أَيْ أَكْبَرَهُمْ سَنَاءً

وكذلك كان حفظ القرآن وفقهه من الأسباب المرشحة لتولي الإمامة العظمى كالصديق أبي بكر ، والولاية والقضاء ، وقيادة السرايا ، والجيوش كآبي موسى الأشعري ، وسالم مولى أبي حذيفة وقد كان يحمل اللواء يوم اليمامة ، ف قيل له : إنا نخاف أن نؤتى من قبلك ؟؟ فقال هذه الكلمة التي تم عن إيمان عميق ، وقوة حفظ وفقه للقرآن الكريم « بدس أنا حامل القرآن إذا

نعم - والله - فما كان لحامل القرآن من أمثال سالم - رضى الله تعالى عنه - أن يفر ، أو يتكص على عقبه ، أو لا يرغب عن الشهادة ، وقد صدق فيما عاهد الله عليه فصار يتقدم باللواء ويقا تل حتى قطعت يمينه ، فأخذ اللواء يساره ، فتمطت يساره ، فاحتضنه بعضديه وهو يتلو قول الله تبارك وتعالى

(١) معناه أن صاحب البيت ، والمجلس ، وإمام المسجد أحق من غيره وإن كان ذلك الغير أفقه ، وأقرأ ، وأروع ، وأفضل منه ، فإن حضر السلطان أو نائبه قدم على صاحب البيت ، وإمام المسجد وغيرهما لأن ولايته وسلطنته عامة ، وتستحب لصاحب البيت ، أو إمام المسجد ، أن يأذن ويقدم من هو أفضل منه .

(٢) بفتح التاء وكسر الراء الفراهش أو نحوه كالسرير ، الكرسي مثلا عما ينسط ويعد لصاحب المنزل ويخص به وهذا من آداب الإسلام الاجتماعية الراقية التي تتفق والأذواق العالية

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . » (١) وقوله : « وكان من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين » (٢)

وهكذا كان حفاظ القرآن وقراؤه ، لقد كانوا أسبق الناس إلى نشر دعوة الإسلام وأرغب الناس في الجهاد ، والاستشهاد ، وأهل البطولات والتضحيات والفداء ، وما كان حفظ القرآن لهم من الخروج في السرايا والغزوات

فأصحاب « بئر معونة » (٣) كانوا من القراء ، وقد استشهدوا جميعاً في سبيل الله بنفس راضية ، فلا تعجب إذا كان النبي ﷺ حزن عليهم حزناً شديداً ، حتى لقد مكث شهراً يدعو على « رعل وذكوان ، وعصية » وهي القبائل التي غدرت بهم ، وليس أدل على رضائهم بالشهادة مارواه البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ لما نعى القراء قال : « إن أصحابكم قد أصيبوا ، وأنهم قد سألوا ربهم ، فقالوا : ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضىنا عنك ، ورضيت عنا ، فأخبرهم عنهم فأنزل الله فيهم قرآناً كان يتلى : « بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا » ثم نسخ بعد (٤)

وحتى بعد الوفاة كان الفضل والتقدمة لحفاظ القرآن ، وقراءه ، ففي الصحيح أن النبي ﷺ كان يجمع بين الرجلين والثلاثة من شهداء أحد في قبر واحد ، وكان يسأل : « أيهم أكثر أخذاً للقرآن ، أي حفظاً له فيقدمه في اللحد » رواه البخاري فمن ثم عنى المسلمون عناية فائقة بحفظ القرآن وأجادته ، فقد كان وسيلة من الوسائل للدرجات الدينية ، والدينية وقد

(٢٠١) آل عمران ١٤٤ ، ١٤٦

(٣) اسم موضع من بلاد هذيل ، بين مكة ، وعسفان وفي هذا المكان

كان الغدير والحجاة بأصحاب السرية

(٤) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب سرية الرجيع ، وبئر معونة

(٢٧ م - المدخل)

روى الفاروق رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين ، رواه مسلم »

« العامل الخامس »

(٥) تفرغ بعض الصحابة ومن بعدهم لحفظ القرآن وضبطه وقد تفرغ لحفظ القرآن ، والتفقه فيه أناس في عهد النبي ﷺ وهم أهل الصفة (٢) وهم أضياف الله ، وأضياف الإسلام ، كانوا يتطربون بالنهار ، ويقومون الليل ويقرأون القرآن ، ويحفظونه ، ويتدارسون ، ولا يناون بأنفسهم عن العمل والكسالى ولا خاملين ، وإنما كانوا إذا وجدوا عملاً عند أحد - د عملوا ، وإذا لم يجدوا احتطبوا ، وأطعموا إخوانهم ، وجعلوا همهم حفظ القرآن ، واعدوا أنفسهم للجهاد ، فكان إذا دعاهم النبي ﷺ إلى الجهاد لبوا سراعاً ، وليس هذا قولاً حملي عليه - بهم ، أو الدفاع عنهم وإنما هو ما جاءت به الروايات الصحيحة الثابتة في الصحيحين وغيرهما ، قصدت تجليلته للرد على هؤلاء الذين يشنعون بهم ، ويتجنون عليهم .

ففي صحيح البخارى عن أبي هريرة قال : « ... وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل . ولا مال ، ولا إلى أحد ، إذا أتته ، أى النبي صلى الله عليه وسلم - صدقة بعث بها اليهم ، ولم يتناول منها شيئاً ، وإذا أتته هدية أرسل اليهم ، وأصاب منها ، وأشركهم فيها ، (١) وكان أبو هريرة منهم . »

(٢) مكان مظلل كان في مسجد النبي ﷺ ، كان يأوى إليه ، من لادار له ، ولا أهل ، ولا مال فكانوا يبيتون فيه ، ويطعمون ، ويعانون

(١) صحيح البخارى - كتاب الرقاق - باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ، وتخليمهم عن الدنيا

وفي مرسل يزيد بن عبد الله بن قسيط عند ابن سعد ، كان أهل الصفة ناساً
فقراء ، لا منازل لهم ، فكانوا ينامون في المسجد لا مأوى لهم غيره ، (١) .
وفي حديث عبد الرحمن بن أبي بكر ؛ أن أصحاب الصفة كانوا ناساً
فقراء ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كان عنده طعام اثنین
فليذهب بثلاث ، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع »
الحديث (٢) .

وفي صحيح البخارى أيضاً عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن
رعلاً ، وذكوان ، وعصية ، وبني لحیان استمدوا رسول الله صلى الله عليه
وسلم على عدو ، فأمدهم بسبعين من الأنصار كنا نسبهم القراء ، في زمانهم
كانوا محتطبون بالنهار ، ويصلون بالليل ، حتى كانوا يثر معونه فقتلوه .
وغدروا بهم ، (٣) .

وفي رواية ثابت عند مسلم . ويشترى الطعام لأهل الصفة ،
ويتدارسون القرآن ، (٤) وفي صحيح البخارى أيضاً عن أبي هريرة قال
« رأيت سبعين من أصحاب الصفة ، ما منهم رجل عليه رداء (٥) ، إما
لزار (٦) ، وإما كساء قد ربطوا - أى الأكسية - في أعناقهم فيها ما يبلغ
نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين ، فيجمعه بيده كراهية أن ترى
عورته ، (٧) .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح : « يشعر بأنهم كانوا أكثر من سبعين ،

-
- (١) فتح البارى ج ١١ ص ٢٢٨ (٢) صحيح البخارى - باب علامات النبوة
(٣) صحيح البخارى - كتاب المغازى - باب غزوة الرجيع . . وبئر معونة . .
(٤) فتح البارى ج ٧ ص ٣٠٩ (٥) هو ما يستر أعالي البدن (٦) ما يشد
في الوسط فيستر النصف الأسفل (٧) صحيح البخارى - كتاب الصلاة -
باب نوم الرجال في المسجد .

وهؤلاء الذين رآهم أبو هريرة غير السبعين الذين بعثهم النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر معونة ، وكانوا من أهل الصفة أيضاً لكنهم استشهدوا قيل لإسلام أبي هريرة ، وقد اعتنى بجمع أصحاب الصفة ابن الأعرابي ، والسلي ، والحاكم ، وأبو نعيم ، وعند كل منهم ما ليس عند الآخر ؛ وفي بعض ما ذكره اعتراض ومناقشة ، لكن لا يسع هذا المختصر تفصيل ذلك ، (١) .

وقال في موضع آخر من الفتح : « ولم أقف على عددهم - يعني أهل الصفة - إذ ذاك وقد تقدم في أبواب المساجد ، في أوائل كتاب الصلاة من طريق أبي حازم عن أبي هريرة ، رأيت سبعين من أصحاب الصفة ... » الحديث وفيه أشعار بأنهم كانوا أكثر من ذلك وذكرت أن أبا عبد الرحمن السلي ، وأبا سعيد بن الأعرابي ، والحاكم اعتنوا بجمع أسمائهم ، فذكر كل منهم من لم يذكر الآخر ، وجمع الجميع أبو نعيم في الحلية ، وعدتهم تقرب من المائة ، لكن الكثير من ذلك لا يثبت ؛ وقد بين كثيراً من ذلك أبو نعيم ، وقد قال أبو نعيم : كان عدد أهل الصفة يختلف بحسب اختلاف الحال ، فربما اجتمعوا فكثروا ، وربما تفرقوا إما لغزو ، أو سفر ، أو لستغناء ، فقلوا ، ووقع في عوارف السهروردي أنهم كانوا أربعمائة (٢) .

أقول والذي يظهر أنهم كانوا كثيرين ، وأنهم كانوا يقلون ويكثرون بحسب اختلاف الأحوال كما قال أبو نعيم .
ومهما يكن من شيء فقد كان أهل الصفة ثروة عظيمة للقرآن الكريم وكانوا ركائز ودعائم لحفظ القرآن ، وإشاعته ، ونشره بين المسلمين ، كما كانوا جند الله ، وجند الإسلام ، كلما سمعوا همة (٣) طاروا إليها ،

(١) فتح الباري - ١ ص ٤٢٤ (٢) فتح الباري - ١١ ص ٢٤١

(٣) الصيحة إلى الجهاد

وهكذا تبين أنهم برءاء بما رموا به وكذلك كان المشتغلون من الصحابة
براعاتهم ، وتجاراتهم شديدي الحرص على الوحي ، ولا سيما القرآن ،
وحفظ ما نزل منه روى البخاري في صحيحه عن سيدنا عمر بن الخطاب
رضي الله تعالى عنه - أنه قال : كنت أنا وجارلي من الأضواء في بني أمية
بن زيد - أي ناحية - وهي من عوالي المدينة ، وكنا تتناوب النزول على
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل يوماً ، وأنزل يوماً ، فإذا نزلت جئته
بخبز ذلك اليوم من الوحي ، وغيره وإذا نزل فعل مثل ذلك
الحديث (١) .

وهكذا نجد أنهم ما كان يشغلهم دينهم عن دنياهم ، ولا تشغلهم دنياهم
عن أمور دينهم ، وحفظ كتاب ربهم ، وسنة نبيهم ، ولا عجب فهم
رأس الأمة الخيرة ، الوسط .

وقد اشتهر باقراء القرآن من الصحابة سبعة . عثمان ، وعلى ، وأبي بن
كعب ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري
كما ذكر الذهبي في طبقة القراء .

• التفرغ للقرآن بعد عصر الصحابة ، •

ثم تفرغ لحفظ القرآن ، وإقراءه كثير من التابعين بالامصار الإسلامية
فمنهم من كان بالمدينة . سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ،
وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعمر بن عبد العزيز ، وسليمان ، وعطاء
أبن يسار ، ومعاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القاري . وعبد الرحمن بن
هرمز المشهور بالأعرج ، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري القرشي عالم
الحجاز والشام ، وجندب بن مسلم ، وزيد بن أسلم .

وكان بمكة عبيد بن عمير ، وعطاء بن أبي رباح ، وطاوس بن كيسان

اليماني ، ومجاهد بن جبر ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وابن أبي مليكة .
وكان بالكوفة علقمه ، والأسود ، وسروق بن الأجدع ، وعبيد
بن عمرو السلمي وعمرو بن شرحبيل والحارث بن قيس والربيع بن خثيم
وعمر بن ميمون وأبو عبد الرحمن السلمي ، وذر بن حبش ، وعبيد بن
فضيلة ، وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي ، والشعمي
وبالبصرة . أبو العالية ، وأبو دجاء ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر
والحسن البصري ، ومحمد بن سيرين ، وقتادة بن دعامة السدوسي وبالشام .
الغفيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب عثمان ، وخليفة بن سمدة صاحب
أبي الدرداء .

ثم تجرد أقوام لحفظ القرآن ، وحنبط قراءاته ، وغنوا بذلك أتم حناية
حتى صاروا أئمة في القرآن ، والقراءة ، يقتدى بهم ، ويرحل لهم .

فكان بالمدينة : أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، ثم شيبة بن نصاح ، ثم
تافع بن أبي نعيم .

وبمسكة : عبد الله بن كثير ، وحמיד بن قيس الأعرج ، ومحمد بن أبي
عبيس .

وبالكوفة : يحيى بن وثاب ، وعاصم بن أبي النجود ، وسليمان بن مهران
المعروف بالاعمش ، ثم حمزة ، ثم الكسائي .

وبالبصرة : عبد الله بن أبي اسحق ، وعيسى بن عمر ، وأبو عمر بن
العلاء وعاصم الجحدري ، ثم يعقوب الحضرمي .

وبالشام : عبد الله بن عامر ، وعطية بن قيس الكلبي ، وإسماعيل
بن عبد الله بن المهاجر ، ثم يحيى بن الحارث الذماري ، ثم شرحبيل بن زيد
الحضرمي .

• الأئمة القراء السبعة •

واشتهر من هؤلاء في الآفاق الأئمة السبعة

(١) نافع : قد أخذ عن سبعين من التابعين منهم : أبو جعفر ، وابن كثير ، وأخذ عن عبد الله بن السائب الصحابي .

(٢) وابن عامر : وأخذ عن أبي الدرداء الصحابي الجليل ، وأصحاب عثمان رضى الله عنه .

(٤) وعاصم . وأخذ عن كثير من التابعين .

(٥) وحمزة . وأخذ عن عاصم ، والأعمش ، والسيبي ، ومنصور بن المقهر ، وغيرهم .

(٦) والكسائي . وأخذ عن حمزة ، وأبي بكر بن عباس (١) .

ثم انتشرت القراءات في الأمصار ، وكثر القراء كثرة تجاوزت الحصر وصار حفاظ القرآن ، المتقنون له ، المتفرغون لإقراءه في الأقطار الإسلامية يعدون بالآلاف الآلاف فله الحد والمث على ما أنعم به ، وعلى توفيق لامة الإسلامية لحفظ كتابه .

العامل السادس

(٦) اشتهار العرب بقوة الحافظة ، وسيلان الأذهان ، وصفاء الفطرة لقد كان العرب تغلب عليهم البداوة والامية ، فكان من الطبيعي أن يكون معتمد في حفظ أنسابهم ، وأشعارهم ، وخطبهم ، ومفاخرهم ، ومفاخر آباءهم ، وأجدادهم وكل ما يتصل بهم على حوافظهم ، وذاكراتهم قد كانوا يعنون غاية العناية بالأنساب ، والأحساب ، والأشعار ، والمخطب ومن اعتبر بشيء فلا بد أن يسجله ، ويقيده ، ولما كانوا أمة أمية فقد قامت

الحافظة ، والذاكرة مقام التسجيل بالسكتة ، فمن ثم كان من خصائصهم التي فاقوا بها كل الشعوب المعاصرة لهم قوة الحافظة ، وسيلان الأذهان ، وقد كان الواحد منهم كـ « الشريط المسجل » الذي لا يقل ، ولا ينسى ، وكان منهم من يحفظ أنساب قبيلته ، وأشعارها ، ومفاخرها ؛ ومنهم من كان يحفظ أنساب القبائل كلها . وأشعار العرب وخطبهم . ومفاخرهم ، ومثابهم . وقد اشتملت كتب التواريخ والأدب على أمثال عجبية في هذا .

وقد أعانهم على هذا ذكاء العقول . وصفاء النفوس ، وسلامة الفطرية وثقة شواغل الحياة وتكاليفها ، ولا يزال أهل البوادي والقرى إلى وقتنا هذا جل اعتمادهم على حوافظهم . وذاكراتهم تجلس للواحد منهم وهو أمي فيقص عليك من قصص الماضين من قبهم ، ومن لم يلقهم . الكثير من الأخبار . بل قد وجدنا من أهل القرى عتدا في مصر من يعرف تاريخ كل أسرة وعدد أفرادها . ومن مات منها . ومن بقي . وقد يذكر لك حكاية عن كل من تذكره له . وعن غير . وعن لا يزال حيا . ومع هذا فهو أمي لا يقرأ ولا يكتب وما من أحد منا إلا وقد جلس إلى جده . وجداته وسمع منهن الكثير مما حفظوا . ووعوا فما أثر عن العرب ليس بالامر المستغرب في تاريخ البشر .

وقد كان وجود هذه الخصائص العقلية . والذهنية . والنفسية عند العرب قبل الإسلام من المقدمات بين يدي النبوة المحمدية . لأن الله تبارك وتعالى يعلم أنه سيكلف هذه الأمة المحمدية بحفظ كتاب ربه ، وسنة نبيه وأنهم هم أول من يقومون بحمل هذا الدين ، ونشر رسالته ، وتلقى الوحي . فرأى أن يؤتمن من النبي صلى الله عليه وسلم . وأنهم هم الذين سيضطلمون بهذا العبء حين يبلغه إلى الناس كافة ، والعرب هم حملة هذا الكتاب الكريم

وهم الذين بلغوه إلى كل أبيض ، وأسود حتى صار الإسلام مقترنا بهم .
وصدق المبلغ عن رب العالمين حيث قال : « إذا ذل العرب ، ذل الإسلام .
رواه أبو يعلى ، « والله أعلم حيث يحصل رسالته »

العامل السابع

القرآن هو أصل الدين ، ومنبع الصراط المستقيم ، وهو الأصل الأول
من أصول التشريع في الإسلام ، الذي يرجع إليه في الأحكام ، ومعرفة
الحلال من الحرام ، وهو دستور المسلمين الأكبر ، إليه يرجعون في الحكم
والسياسة ، والولاية ، والإدارة ، والاقتصاديات ، والإخلاقيات ،
والأخلاق ، والمعاهدات والمصالحات ، والمبادئ ومعرفة حقوق
الإنسان ، وعلاقات الأفراد ، والجماعات ، فالقرآن هو الذي يضع الخطوط
العريضة ، والقواعد الدقيقة ، والأصول الأصلية لكل ذلك ، وإنه ليحسن
في هذا المقام أن تذكر بالحديث الجامع في وصف القرآن الذي سقته في
صدر الكتاب روى الترمذي في سننه عن الحارث الأعور قال : « مررت
في المسجد ، فإذا الناس يخوضون في الأحاديث ، فقلت : يا أمير المؤمنين ،
ألا ترى الناس قد غلغوا في الأحاديث ؟ قال : أوفد فقلوها ؟ قلت :
نعم قال : أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

إلا إنها ستكون فتنه ، فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال :
« كتاب الله . فيه نأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو
الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في
غيره أضله الله ، وهو جبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط
المستقيم ، هو الذي كان لا تزيع به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ،
ولا تبضج منه العباء ، ولا يخطئ على كثرة الود - لوفى رواية عن - ولا
تلفظ عجايبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا : « إنا سمعنا

قرأنا عجباً ، يهـدى إلى الرشـد فأمنـا به ، من قال به صدق ، ومن عمل به
أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هـدى إلى صراط مستقيم ، خذها
إليك يا أعور ، قال الترمـذى : حديث غريب ، وإسناده مجهول ، وفي
حديث الحارث فقال إن كتاباً هذا بعض شأنه لابد أن يحفظه المسلمون ،
وأن يتنافسوا فيه ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ،

إننا نجد في القديم والحديث أصحاب الدساتير ، وأصحاب القوانين
يعنون غاية العناية بدساتيرهم ، وأصول قوانينهم ، ويصنعون لها التفسير ،
والشروح فإياك بالقرآن ، وهو دستور الدساتير ، والقانون الذى
لا بدأية قانون ، والتشريع الذى لا يساميه تشريع وصدق الحكيم العليم
« وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل
من حكيم حميد ، ومن ذا الذى يسمع من نبيه الأكرم هذا الحديث -
وأمثاله كثير - ثم لا يحفظه عن ظهر قلب ، ولا يفنى عمره فيه إن هذا
الكتاب العظيم أحق ما يفنى فيه الشباب ، وأجدر ما تنفق فيه الأعمار فلا
تعجب إذا كان المسلمون حفظوه غاية الحفظ ، وفهموه غاية الفهم ، وتدبروه
غاية التدبر ، وهذا هو ما كان وهذا هو ما شهد به تاريخ الأجيال ، وإرجع
إلى كتاب التواريخ والرجال والطبقات تقف على ما يضع العقل ، ويثلج
الصدر ، ويطمئن القلب .

العامل الثامن

(٨) إعجاز القرآن ، وسحرياته ، وعجائب أسلوبه ، وحلاوة
كلامه وهذه خصائص للقرآن الكريم ، وقد كانت من أعظم العوامل ،
وأقوى الدوافع إلى حفظ القرآن الكريم .

والعرب كانوا أرباب الفصاحة ، والبلاغة وفرسان البيان ، فن ثم
كانت معجزة النبي العظيم القرآن الكريم وكان العربى تستويه الكلمة

الفصيحة ، ويكاد يخر ساجداً للكلام البليغ ، ويملك ناصيته البيان المعجز ،
والأساليب العجيبة ويجد في الكلام الفصيح البليغ حلاوة ليس بعدها حلاوة
لأن فيه إشباعاً لغريزته ، وإرضاءً لفطرته ، وتلبيةً لمواهبه .

وإليك ما ذكره ابن إسحاق في سيرته عن ثلاثة من فصحاء العرب
وبلغاتهم روى عن الزهري قال . حدث أن أبا جهل ، وأبا سفيان ،
والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليسموا من رسول الله ﷺ وهو يصلي
بالليل في بيته ، فأخذ كل منهم مجلساً ، فيستمع منه ، وكل لا يعلم بمكان
صاحبه ، فجمعهم الطريق ، فتلوا موا ١١ وقال بعضهم لبعض لا تعودوا
خلو آكم بعض سفهائكم لا وقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه . فباتوا يستمعون
له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل
ما قال أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون
له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فقالوا : لا نبرح حتى
تتأهد أن لا نعود ، فتأهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان
في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال :
يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت
أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها . فقال الأخنس : أنا - والذي
حلفت به - كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فقال له : يا أبا الحكم فأرايك فيما
سمعت من محمد ؟

فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا

فأطعمنا وحملوا غنمنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب ،
وكنا كنفرسى رهان .

قالوا : من أين يأتيه الوحي من السماء ؛ ففى ندرك هذه ؛ فوالله لا تؤمن
به أبداً ؛ ولا تصدقه (١) وهو يدل على استلذاذ العرب لسباع القرآن ،
استجابة لقطرتهم المرية وإذا كان تأييد القرآن فى أهل الشرك ، فكيف
يكون تأييده فى أهل الإيمان ؟

وهذا هو الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن ،
فكانما رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأناه ، فقال : يا عم ان قومك يريدون
أن يجمعوا لك مالا ، قال : لم ؟ قال ليعطوكه ، فإتاك أتيت محمداً لتعرض
ما قبله ؛ قال : قد علت قريش أى من أكثرها مالا ، قال : فقل فى القرآن
تولاً يبلغ قومك أنك مفكره ، قال : وماذا أقول ؟ ؛ فوالله ما منكم
أحد أعلم بالاشعار منى ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيدة منى ، ولا بأشعار الجن ،
والله ما يحبه الذى يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه
لطلاوة (٢) ، وإنه لمشر أعلاه ، مندى أسفله (٣) ، وإنه ليعلو ويحطم
ماتحته !!

فإذا كان هذا تأثير القرآن فى مشرك عنيد حتى استشعر هذه الطلاوة ،
وتلك الحلاوة فكيف بمسلم عمر قلبه بالإيمان ، وأشرقت نفسه بنور
القرآن ؟

(١) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة - ١ ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) بضم الطاء . وفتحها : بهجة وحسن شكل .

(٣) أى كثير الفرق أى الماء ، والشجرة إذا كان أصلها غدتاً كانت
لامية مخضرة مشمرة .

وفي الحديث الذي ذكرته آنفاً ، لا يخلق على كثرة الرد ، إى لا يبل ،
ولا تسأمه النفوس مهما تكرر ، وكلما كررته لا يزداد إلا حلاوة ، وكلما
أجلت فيه الفكر والنظر لا يزداد إلا طلاوة ، ومن قرأ القرآن غضا طريا
كما أنزل ، وبخشوع ، وتدبر استشعر هذه الحلاوة ، فأنها تسرى في لسانه
ويجدها في لسانه

وهذه الخاصية القرآنية لا تجدها عند قراءة أى كتاب آخر مهما كان
نعم قد يجد المسلم حلاوة ، ولكنها دون هذه الحلاوة ، حينما يقرأ كلام
الرسول ﷺ ، ولا سيما في جوامع كلمه التي رويت بلفظها ، ولم يدخلها
الرواية بالمعنى

فمن ثم كانت هذه الخصائص البيانية ، والأسلوبية ، والوجدانية من
أكبر العوامل المساعدة على مداومة تلاوته ، وإجادة حفظه والمحافظة
على نصوصه .

العامل التاسع

(٩) تيسير الوسائل لحفظه في المساجد ، والكتاتيب ، والبيوت ،
وغيرها ومن العوامل أيضاً تيسير الوسائل لحفظه فهذا المسجد الحرام ،
وهذا المسجد النبوى ومئات غيرها في العهد النبوى ، ثم ألوف ، وألوف
فيما بعد ذلك كانت عامرة بتلاوة القرآن ، وبقراءة القرآن المجيد له ،
يتورعون عن أخذ الأجرة على تعليمه ، ويرون في قيامهم بالإقراء حصة
لله منزلة ليس فوقها منزلة

وقد ثبت في الصحيح أن الصديق بنى له مسجداً في بيته ، فكان يصل
فيه ، ويقرأ القرآن حتى كاد يفتن بقراءته نساء المشركين وأولادهم ، وكان
قد أجاده ابن الدغنة فذهبوا إليه واشتكوا من فعل الصديق ، فنقض ما بينه
وبين ابن الدغنة ، ورضى بجموار الله عز وجل

وهؤلاء هم أهل الصفة بالمسجد النبوي ، كان من مهماتهم قراءة القرآن وحفظه ، وإقرائه لغيرهم وقد قدمت طرفاً من ذلك

وكان الصحابة قليلاً من الليل ما ينامون ، ولا سيما في رمضان ؛ فلا عجب أن كان يسمع لهم دوى بالقرآن بالليل كدوى النحل في المساجد والبيوت وكان النبي صلوات الله عليه وسلم يشجعهم ويرغبهم في التلاوة زوى أبو عبيد بسنده عن عقبة ابن عامر قال . خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن في المسجد فندارس القرآن قال . « تعلموا كتاب الله واقتنوه » (١) قال وحسبت أنه قال . وتغنوا به (٢) فوالذي نفسي بيده لم أشد تغلثاً من الخاض (٣) من العقول

وكذلك كانت بيوت الصحابة ومن جاء بعدهم معاهد علم ؛ ومدارس قرآن فما من من بيت إلا ويقرأ فيه القرآن ؛ ويتدارس ؛ وسواء في ذلك الكبار ؛ والصغار ؛ والرجال والنساء .

وكذلك كانت توجد الكتاتيب (٤) لتحفيظ القرآن ، وتعليم القراءة والكتابة ؛ وقرأ أنشئت هذه الكتاتيب في عهد مبكر ، وكان لها آثارها العظيمة في حفظ القرآن الكريم فقد ثبت وصح أن النبي ﷺ أخذ من القادرين من أسرى بدر الفراء ؛ ومن لم يكن قادراً قبل منه تعليم عشرة

(١) اقتنوه كما تقتنوا الأموال ، واجعلوه رأس مالكم (٢) أى استغنوا به عن الناس (٣) الإبل (٤) الكتاتيب : جمع كتاب ، والمراد به هنا المكتب الذى يحفظ فيه القرآن ، والأصل فيه جمع كاتب ثم أطلق على المكان مجازاً وقد غلط صاحب القاموس الجوهري في صحاحه في جعله الكتاب بمعنى بمعنى المكتب ؛ ولا أرى داعياً لتغليظه فهو إطلاق مجازى من إطلاق الحال وإرادة المحل

من صبيان المسلمين القراءة ؛ والكتابة وطبعي أنهم كانوا يراولون ذلك في مكان غير المسجد النبوي لأن المشرك ممنوع من دخوله يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء ، فجعل رسول الله ﷺ أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة فجاء غلام يبكي إلى أمه فقالت : ما شأنك ؟ قال . ضربني معلى ؛ فقالت . الخبيث يطلب يدخل بدر ؛ والله لا تأتيه أبدا ،

ثم أنشئت الكتاتيب بعد ذلك ؛ وكثرت كثرة خارجة عن الحصر حتى لا تحمد مصر أو بلدا إلا وفيه كتاب ؛ وكتاتيب

وقد كانت مصر - حرمها الله - بمدنها وقراما ، وكفورها ودماسكرها ونجوعها غاصة بالكتاتيب ؛ وفي هذه الكتاتيب حفظ ألوف الألوف القرآن الكريم وقد كانت هذه الكتاتيب هي الروافد التي تمسد الأزهر الشريف بألوف الطلاب كل عام ؛ والكثيرون من هؤلاء صاروا أئمة في الفقه ؛ والفتوى ، وفي التفسير ؛ والحديث وعلوم اللغة واللسان ، والعلوم العقلية والكونية ، ومنهم من أثر في إصلاح حياة مصر ، بل إصلاح حياة الدول الإسلامية والعربية دينيا وسياسيا ، واجتماعيا في العصر الأخير وكان له الفضل الكبير في إزالة كابوس الاستعمار ، والحكام الظالمين المستبدين كعرايى ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول وغيرهم كثير .

وبعد ، هذا المطاف الطويل نصل إلى هذه النتيجة وهي أن القرآن الكريم توفر له من دواعي الحفظ له والمحافظة عليه ما لم يتوفر لكتاب قط لا في القديم ، ولا في الحديث ، ولا سماويا ، ولا أرضيا والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

« وجوب إحياء الكتابات »

بما ذكرت يتبين أن الكتابات كانت تؤدي خدمة عظيمة في سبيل تحفظ القرآن الكريم ، ولم تكن قائمتها تقف عند حد تحفيظ القرآن الكريم فحسب ، بل كانت من أعظم الوسائل في تعليم القراءة والكتابة ، لأن التحفيظ فيها لم يكن عن طريق التشافة والحفظ في الصدور فحسب ، وإنما كان عن طريق كتابة جزء من القرآن خمس آيات أو عشر آيات ، أو عشرين آية في اللوح (١) كل على حسب إستعداده ، وعلى قدر طاقته ، وطريقة الحفظ عن طريق الكتابة أولاً ، ثم الحفظ لا يجعل الصبي ينسى شيئاً من القرآن فيما بعد ، ومن ثم نرى أن الكتابات كانت أيضاً من أعظم وسائل إزالة الأمية ، لأن الصبي لكي يكتب لوحه ، لابد من تعلمه القراءة والكتابة أولاً ، وقد كانت الكتابة في اللوح تمرينا عملياً على إجادة القراءة والكتابة ، وقد أجدت الكتابة في الكتاب من هذا الطريق والله الحمد والمثله .

وكذلك كانت تعلم فيها مبادئ الدين الإسلامي ولا أنسى قط درس الدين من يوم الخميس كل أسبوع يلقتنا فيه الفقيه أو العريف (٢) أركان الإسلام المذكورة في الحديث المشهور الصحيح « بني الإسلام على خمس » . ونسب

(١) عبارة عن قطعة مستطيلة من الخشب أو نحوه مطلية بطلاء أبيض . يكتب فيها كل صبي ما يريد حفظه . فإذا حفظه أزاله . وكذب غيره وهكذا .

(٢) الفقيه : وينطقها العامة الفقي هو رئيس الكتاب والعماد في تحفيظ القرآن . والعريف — ومن معانيه في اللغة العربية رئيس الجماعة — هو مساعد الفقيه .

التي صلى الله عليه وسلم وأزواجه ، وأبنائه وبناته ، وفرائض الوضوء ، وأركان الصلاة ، والتشهد ونحو ذلك ، وكذلك كنا نتعلم فيها مبادئ الحساب ولكن كان ذلك بقدر

فلما أنشئت المدارس الأولية ، ثم الإلزامية . . . بدأت الكتابات تضمحل شيئاً فشيئاً حتى أوشكت على الزوال ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وأحب أن أقول إن جميعات المحافظة على القرآن الكريم وإن كانت منتشرة في طول البلاد وعرضها . إلا أنها - والحق يقال - لم تغن غناه الكتابات في تحفيظ القرآن ، لأن المنهاج المدرسي غلب عليها ، وأصبح التحفيظ فيها عن طريق الحفظ في المصاحف ، لا الكتابة في الألواح كما كان أسلوب التحفيظ في الكتابات ، وتكاد تكون هذه الطريقة مندثرة اليوم في الديار المصرية بعد أن كانت هي المجلية والسابقة في هذا المضمار .

في البلاد السودانية .

وما يذكر بالاعتزاز والإكبار أن طريقة تحفيظ القرآن الكريم عن طريق الكتابة في الأنواع ، والتصحيح على الفقيه ، والعرض عليه مراراً ، حتى يسمح له بالانتقال إلى كتابة جزء آخر من القرآن وحفظه ، لا تزال في كثير من البلاد السودانية الشقيقة ، ولا يزال كثير من إخواننا السودانيين يحتفظون بالواحد للذكرى والتاريخ ، ويعرضونها على الزائر لهم وهم في غاية الغبطة والسرور ، ويعتبرون ذلك من المفاخر لهم .

وهناك كثيرون من أهل الصلاح ، والتقوى ، والقرآن يجمعون المئات من الصبيان في كتاباتهم التي يسمونها « نار القرآن الكريم » ، ويحفظونها القرآن ، ويتكفلون بهم طعاماً ، وسكنى . وكسوة . وقد زوت بعض هذه البيوت القرآنية وأنا بالجامعة الإسلامية بأم درمان أستاذاً بها نسأل الله سبحانه أن تدوم هذه الكتابات القرآنية لتكون نارا محرقة لأعداء الله .

وأعداء القرآن . ونوراً يملأ قلوب حفاظ القرآن الكريم وطلابه . وأن
يجزى القائمين عليها خير الجزاء . كفاء ما قدموه للقرآن .

« أمل ورجاء »

وقد كانت الديار المصرية زعيمة العالم الإسلامى فى حفظ القرآن
الكريم . وحقق قراءاته وفى الكثرة الكاثرة من حفاظه وأهله وكل ذلك
كان بفضل الكتاتيب التى كانت تنتشر فى كل مكان .

فهل يعمل القائمون على الشؤون الدينية فى الأزهر بكلياته ومعاهده .
وبجمع البحوث الإسلامية . وفى وزارة الأوقاف . وفى المجلس الأعلى
للشئون الإسلامية على إحياء هذه الكتاتيب ولا سيما فى القرى التى كانت -
ولا تزال . المورد الأكبر لحفاظ القرآن الكريم ؟ وعلى النهوض بجمعيات
المحافظة على القرآن الكريم . وإلا كثر من دروس تحفيظ القرآن الكريم
وإنصاف القائمين على التحفيظ بهم — اوسد حاجتهم حتى يقوموا بمهمتهم
خير قيام ؟ .

إن ما يؤسف له أن المدارس التى كان يعتبر حفظ القرآن أساساً لدخولها
« كمدارس المعلمين ، أصبحت لا تشترط ذلك ، ولم يبق اشتراط الحفظ
إلا فى الأزهر الشريف بمعاهده . وكلياته على تساهل كبير فى هذا . فبعد
أن كان الطالب الأزهرى لا يلتحق بالفرقة الأولى الابتدائية إلا بعد حفظ
القرآن كله وتجويده . أصبح الآن يكتفى بما دون حفظه كله . قد يكتفى
بالربع . وقد يكتفى بالأجزاء الثلاثة الأخيرة فى المصحف وهى مصيبة من
أعظم المصائب . لأنها تمس أصل الدين الإسلامى . ومنع الصراط
المستقيم .

إن فى أوقاف المسلمين — وما أكثرها — التى وقفت على إنشاء الكتاتيب
وتحفيظ القرآن الكريم ما يقوم مالياً بما يحتاجه إنشاء هذه الكتاتيب ، والنهوض
بجمعيات المحافظة على القرآن حتى تودى رسالتها كاملة .

بل في خزانة الدولة في بلد إسلامي عريق ، وأهله مسلمون ما يقوم بذلك وإن الاتفاق في مثل هذا لخير ألف مرة مما ينفق بغير حساب في بعض الأبواب الأخرى التي لا تفيد الشعب بقدر ما تضره .

بل في أريحية الخيرين من أبناء هذا البلد الإسلامي العريق ما يقوم بذلك ولو دعوا دعوة جادة صادقة إلى هذا المشروع القرآني العظيم للبتوا سراعا عن طيب نفس .

لقد كان من التشريعات الموقفة في التعليم جعل الدين مادة أساسية من مواد التعليم يترتب عليها نجاح الطالب أو سقوطه ، ولكن التشريعات لا تثمر ثمرتها إلا بالعمل ، والتطبيق ، والتنفيذ ثم إن القدر المقرر حفظه على الطالب من القرآن الكريم شيء قليل مع التساهل في حفظه ، ولو جعل لتحفيظ القرآن حصص خاصة لكان أجدى وأنفع ، ولو كلف التليذ في الابتدائي والإعدادي والثانوي (١) بجزء من القرآن كل عام - وليس حفظ الجزء بالامر المعجز - لوصل التليذ إلى الكليات الجامعية والمعاهد العليا وقد حفظ قسطا كبيرا من القرآن ثم يتم الباقي في الجامعة .

وللا نضاف للتلاميذ أرى أنه لا بد لكي يمكن تحقيق ذلك أن يزاح عن كاهلهم بعض ما يكلفون به من علوم لا تفيد عشر معشار ما يفيد القرآن الكريم في بناء الأمة دينيا ، ودنيويا ، وخلقيا واجتماعيا .

تري أيها القاري المنصف لو أن هذا الاقتراح نفذ في الأقطار الإسلامية والعربية لأرضت ربها ، ورسولها ، ولكانت الأمة الإسلامية بحق خير أمة أخرجت للناس إنها لآمال وأمانى ، فهل تتحقق ؟ ذلك ما نرجو ، وما ذلك على الله بعزيز .

(١) مدة الابتدائي في جمهورية مصر العربية ست سنوات ، والإعدادي ثلاثة والثانوي ثلاثة يعني اثني عشر جزءا

(مسائل في آدب تلاوة القرآن، وحفظه)

لقد أفرد هذه الآداب بعض العلماء منهم الإمام النووي في كتابه «التيان» وقد ذكر فيه ، وفي شرح «المهذب» وفي كتابه «الأذكار» جملة كبيرة منها ، وقد لخصها ، وفصلها ، وزاد عليها أضعافا مضاعفة الإمام جلال الدين السيوطي في كتابه «الاتقان في علوم القرآن» (١) ،

وسأذكر في هذا الفصل خلاصة ما ذكره السيوطي ، وربما زدت عليها زيادات وتعقبات وتوضيحات لما أجمل وإزالة إشكال ما يشكل ، فأقول وبالله التوفيق :

(١) قراءة القرآن من أفضل القربات إلى الله وأعظمها بركة ، وأجلها نفعا ، والقرآن الكريم هو الكتاب المتعبد بتلاوته ، ويستحب الإكثار من قراءته لأنه يرقق القلوب ، ويشرح الصدور ، ويزيل الهموم ، ويكشف الغموم وقد روى في الصحيحين عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار . . . وروى الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم ، «يقول الرب سبحانه وتعالى من شغلته القرآن ، وذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ، إلى غير ذلك من الأحاديث التي سقناها في الدواعي والأسباب الحاملة على حفظ القرآن .

وقد كان للسلف في قدر القراءة عادات ، فأكثر ما ورد في كثرة القراءة من كان يختم في اليوم والليلة ثمان ختمات أربعاً في الليل وأربعاً في النهار

ويليه من كان يختم في اليوم والليلة أربعاً ، ويليه ثلاثاً (١) ، ويليه ختمتين ، ويليه ختمة ، وقد ذمت السيدة عائشة ذلك فأخرج ابن أبي داود عن مسلم ابن خرق قال : قلت لعائشة أن رجلاً يقرأ أحدهم القرآن في ليلة مرتين أو ثلاثة فقالت : « قرءوا أولم يقرؤا كنت أقوم مع رسول الله صلى الله عليه ليلة التمام فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء ، فلا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا ورغب ، ولا بآية فيها تخويف إلا دعا ، واستعاذ . »

ويلى ذلك من كان يختم في ليلتين ، ويليه من كان يختم في كل ثلاث وهو حسن ، وكره جماعات الختم في أقل من ذلك لما روى أبو داود والترمذي وصححه من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً « لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث ، وأخرج ابن أبي داود ، وسعيد بن منصور عن ابن مسعود موقوفاً عليه قال « اقرءوا القرآن في سبع ولا تقرؤوه في أقل من ثلاث ، وأخرج أبو عبيد عن معاذ بن جبل أنه كان يكره أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث

ويليه من ختم في أربع ، ثم في خمس ، ثم في ست ، ثم في سبع ، وهذا أوسط الأمور وأحسنها ؛ وهو فعل الأكثرين من الصحابة وغيرهم ، أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمرو قال : « قال رسول الله ﷺ اقرأ القرآن في شهر قلت : إني أجد قوة ، قال : اقرأه في عشر قلت : إني أجد قوة قال . اقرأه في سبع ولا تزد (٢) على ذلك (٣) ، وفي بعض الروايات مراجعات منه للنبي فيما كان يشير به عليه حتى انتهى الأمر إلى السبع ، قال الحافظ في الفتح ، وكان النهي عن الزيادة ليس على التحريم كما أن الأمر ليس على الوجوب

(١) لعل المراد بذلك إمراره على القلب واستعراضه في الذهن ، أما النطق بالالفاظ ولو على سبيل الإسراع فغير ممكن أن يحدث هذا العدد من الختمات في اليوم والليلة حتى ولو لم ينم « فبالك لو أنه قرأه بتؤدة وتمهل ونام ولو جزءاً قليلاً من الليل والنهار ؟ . (٢) أى لا تنقص عن ذلك فالمراد بالزيادة بطريق التذلل أى لا يقرؤه في أقل من سبع

(٣) صحيح البخارى - كتاب فضائل القرآن - باب في كم يقرأ القرآن

وفي الصحيح أيضاً أنه ندم على ذلك لما كبر وقال . « فليتنى قبلت
ورخصة رسول الله ﷺ ، وذلك أنى كبرت ، وضعفت ،

وبلى ذلك من ختم في ثمان ، ثم في عشر ، ثم في شهر ، ثم في شهرين
أخرج ابن داود عن مكحول قال . « كان أقوياء أصحاب رسول الله ﷺ
يقرؤون القرآن في سبع ، وبعضهم في شهر ، وبعضهم في شهرين ، وبعضهم
في أكثر من ذلك » وقد روى الحسن بن زياد عن أبي حنيفة أنه قال ، من
قرأ القرآن في كل سنة مرتين فقد أدى حقه ، لأن النبي ﷺ عرض القرآن
على جبريل في السنة التي قبض فيها مرتين ، أقول : ولكن عرض القرآن
على جبريل لا ينافي أنه كان يقرؤه وحده من غير عرض

وكره بعض العلماء تأخير ختمه أكثر من أربعين يوماً بلا عذر ، نص
على ذلك الإمام أحمد لأن عبد الله بن عمر سأل النبي ﷺ في كم تختتم القرآن ؟
قال . « في أربعين يوماً ، رواه أبو داود

أقول . وليس في الحديث ما يدل على كراهة الختم في أكثر من أربعين
والعبارة ليست حاصرة حتى يكون ما عداها ليس من سنته ، وغاية ما يدل
عليه أن ذلك كان حالة من حالاته ، أو أنه كان الغالب منها

وبعجبني في هذا ما قاله الإمام النووي في «الأذكار» . أن ذلك يختلف
 باختلاف الأشخاص ، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ، ومعارف
فليقتصر على قدر يحصل له معه كمال فهم ما يقرأ ، وكذلك من كان مشغولاً
ينشر العلم ، أو فصل الحكومات ، أو غير ذلك من مهمات الدين والمصالح
فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصده ، ولا فوات كماله
وان لم يكن من هؤلاء المذكورين فليكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد
الملل أو الهزيمة (١) في القراءة وهو تفصيل حسن

(١) الإسراع إلى حد عدم تبيين مخارج الحروف ؛ وعدم مراعاة قواعد
تجويد قراءته

(٢) نسيانه كما قلنا سابقا كبيرة صرح بذلك الإمام النووي في «الروضة»
وغيرها للحديث الذي رواه أبو داود وغيره عن النبي ﷺ «عرضت على
ذنوب أمتي ، فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن ، أو آية أو نبيها رجل
ثم نسيها ، وروى أيضاً « من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله يوم القيامة أجزم ،
وفي الصحيحين مرفوعاً « تعاهدوا القرآن ، فوالذي نفس محمد بيده لو أشد
تفلنا من الإبل في عقلها ،

(٣) يستحب الوضوء لقراءة القرآن لأنه أفضل الأذكار ؛ وقد كان
النبي ﷺ يكره أن يذكر الله إلا على طهر ؛ كما ثبت في الحديث .

قال امام الحرمين . ولا تذكره القراءة للحديث ؛ لأنه صح أن النبي
ﷺ كان يقرأ مع الحدث ، قال في شرح المذهب . وإذا كان يقرأ فمعرضت
له ريح أمسك عن القراءة حتى يستتم خروجها

وأما الجنب ، والحائض والنفساء فتحرم عليهم القراءة ، نعم يجوز لهم
النظر وإمرازه على القلب ، وأما متنجس الفم فتكره له القراءة ، وقيل :
تحرم كس المصحف باليد النجسة ، وأما مس المصحف بغير حائل فيحرم
على الجنب ، والحائض والنفساء ، أما حملهم له في حقبة ، أو كيس من غير
ملامسة فجوزه الجمهور سلفاً وخلفاً وشذ بعض العلماء فأجاز مسه للجنب
والحائض ، وطعن في الأحاديث الواردة في ذلك بأنها لم يصح منها شيء
وقد رد عليه بعض الأئمة بأن أكثرها صحاح فمن ذلك ما رواه الدارقطني
بسنده عن النبي ﷺ « لا يمس القرآن إلا طاهر ، ومنها قصة فاطمة بنت
الخطاب مع أخيها عمر في طلبه منها الصحيفة التي فيها قرآن فأبت وقالت له
إنك نجس ولا يمسه إلا المطهرون . . . رواها الدارقطني وأصحاب
السير (١)

(٤) تسن القراءة في مكان نظيف ، وأفضله المسجد ، وكره قوم القراءة في الحمام والطريق ، قال النووي : ومذهبنا لا تكره فيها ، قال : وكرهها الشعبي في الحش (١) ، ويدت الرحا وهي تدور قال : وهو مقتضى مذهبنا .

ولعل مراد الشعبي بالكراهة ، الكراهة التحريمية ، وأحربها أن تكون في الحش محرمة .

(٥) يستحب لقارئ القرآن أن يجلس مستقبلاً القبلة ، متخشعاً ، متحلياً بالسكينة والوقار ، مطرقاً رأسه كما هو شأن الخاشع المتذلل بين يدي ربه .

كما يسن أن يستاك تعظيماً للقرآن الكريم وتطهيراً لفته لأنه وسيلة النطق به ، والمعبر الذي تخرج منه ، وقد روى ابن ماجه عن علي موقوفاً ، والبخاري بسند جيد عنه ، مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن أفواهكم طرق القرآن فطيبوها بالسواك » : قال السيوطي : ولو قطع القراءة ، وعاد من قرب فقتضى استحباب التعوذ ، إعادة السواك أيضاً .

(٦) يسن التعوذ قبل القراءة ، قال تعالى . « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ، أي أردت قراءته ، وشذ البعض فذهب إلى أنه يتعوذ بعدها لظاهر الآية ، ودفع قوم إلى وجوبها لظاهر الأمر قال الإمام النووي : فلو مر على قوم سلم عليهم ، وعاد إلى القراءة ، فإن أعاد إلى التعوذ كان حسناً .

وصفته المختارة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وكان جماعة من السلف يزيدون السميع للعلم ، وعن حمزة القاري : أستعيز ، ونستعيز واستعذت ، واختاره صاحب الهداية من الحنفية لمطابقة لفظ القرآن .

(١) الحش : مكان قضاء الحاجة فلذلك نزه القرآن عن أن يقرأ فيه .

وعن حميد بن قيس : أعوذ بالله القادر من الشيطان الغادر ، وعن أبي السمال : أعوذ بالله القوى ، من الشيطان الغوى ، وعن قوم أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم ، وعن آخرين : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لأنه هو السميع العليم ، وفيها ألفاظ أخر ... قال الحلواني في جامعہ : ليس للاستعاذة حد يقتهى إليه ، من شاء زاد ، ومن شاء نقص .

وفي النشر لابن الجزرى : المختار عند أئمة القراءة ، الجهر بها ، وقيل يسر مطلقا ، وقيل : فيما عدا الفاتحة ، قال : وقد أطلقوا اختيار الجهر بها ، وقيد أبو شامة بقيد لا بد منه ، وهو أن يكون بحضرة من يسمعه ، قال : لأن الجهر بالتعوذ إظهار شعار القراءة كالجهر بالتلبية ، وتكبيرات العيدين أقول : والشئ إذا صار شعارا من شعارات الإسلام ، فالأفضل إعلانه ومن فوائد الجهر أن السامع ينصت للقراءة من أولها لا يفوته منها شئ ، وإذا أخفى التعوذ لم يعلم السامع بها إلا بعد أن فاتته من المقروء شئ وهذا هو الفارق بين القراءة فى الصلاة ، وخارجها

واختلف المتأخرون فى المراد بإخفائها ، فالجمهور على أن المراد به الإسرار فلا بد من التلفظ ، وإسماع نفسه ، وقيل : ، السكتان بأن يذكرها بقلبه بلا تلفظ .

وإذا قطع القراءة لإعراضاً ، أو لسكلام أجنبى ، ولو برد السلام ، استأنفها فإن كان يتعلق بالقراءة فلا ، قال ابن الجزرى وهل هى سنة كفاية أو عين حتى لو قرأ جماعة جملة فهل يكتفى استمادة واحد منهم كالترسمية على الأكل أولاً ؟ لم أر فيه نصا . والظاهر الثانى لأن المقصود اعتصام القارىء ، والتجاوزه إلى الله واعتصامه به من شر الشيطان فلا يكون تعوذ واحد كافياً عن آخر .

أقول إن ظاهر الأحاديث الصحيحة فى الصحيحين وغيرهما أن التسمية على الأكل سنة عين ، وإنما ذهب إلى أنها سنة كفاية الإمام الشافعى قال : الامام النووى فى الأذكار .

« وينبغي أن يسمى كل واحد من الآكلين ، فلو سمي واحد منهم أجراً
عن الباقي نص عليه الشافعي - رضي الله عنه - وقد ذكرته عن جماعة في
كتاب « الطبقات » ، في ترجمة الإمام الشافعي ، وهو شبيه برد السلام ،
وتسميت العاطس (١) فإنه يجري فيه قول أحد الجماعة (٢) .

والذي يظهر لي أن تشبيهه بالسلام ، والتسميت غير ظاهر ولا مسلم لأن
المقصود يحصل بدعاء واحد ، أما التسمية ففائدتها تعود على المسمى لله ، فلا
يكتفي بتسمية غيره عنه ، وكذلك ينبغي أن يكون الشأن في الاستعاذة . فلا
يكتفي فيها استعاذة غيره .

(٧) قراءة البسملة . على القارئ أن يحافظ على قراءة البسملة ، أول
كل سورة غير براءة ؛ لأن أكثر العلماء على أنها آية فإذا أخل بها كان تاركاً
لبعض الحتمية عند أكثرين فإن قرأ من أثناء سورة استحب له أيضاً ، نص
عليه الشافعي فيما نقله العبادي ؛ قال القراء ويتأكد عند قراءة نحو « اليه
برد علم الساعة » وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ...
لما في ذكر ذلك بعد الاستعاذة من البشاعة ، وإيهام رجوع الضمير إلى الشيطان
قال ابن الجزري . والابتداء بالآي وسط براءة قل من تعرض له ، وقد
صرح بالبسملة فيه أبو الحسن السخاوي ، ورد عليه الجعبري .

(٨) هل تحتاج قراءة القرآن إلى نية ؟

لا تحتاج قراءة القرآن إلى نية كسائر الأذكار إلا إذا نذر لها خارج
الصلاة فلا بد من نية النذر أو الفرض ، ولو عين الزمان ، فلو تركها لم نهز
نقله القمولى في الجواهر .

(١) إزالة الشهادة عنه بقوله . يرحمك الله .

(٢) الأذكار للنووي ص ١٠٢ ط دار الكتب .

(٩) ترتيل القرآن..

الترتيل تبين حروف القرآن عند القراءة ، والثاني في أدائها ليكون أدعى إلى فهم معانيها ، وقد روى الطبري بسند صحيح عن مجاهد في قوله تعالى . « ورتل القرآن » قال : بعضه في أثربعض على تؤدة ، وعن قتادة بينه بيانا (١) .

ويسن الترتيل في قراءة القرآن لقول الله سبحانه . « ورتل القرآن ترتيلا » (٢) وقوله تعالى . « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلا » (٣) وأي على تؤده وتمهل .

وروى أبو داود وغيره عن أم سلة أنها نعتت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم قراءة مفسرة حرفا حرفا ، وروى البخاري في صحيحه عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال « كانت مدا ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، بمد الله ، ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم ،

وفي الصحيحين عن ابن مسعود أن رجلا قال له : إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة فقال ، هذا كهذا الشعر (٤) أنا قد سمعنا القراءة ، وأني لأحفظ القرآن التي كان يقرأ بها النبي صلى الله عليه وسلم ثمان عشرة سورة من المفصل ، وسورتين من آل حم (٥) .

(١) فتح الباري ج ١٠ ص ٤٦٥ ط الحلبي

(٢) المزمّل ٤ (٣) الإسراء ١٠٦

(٤) الهذّ هو الاسراع المقرط بحيث يخفى كثير من الحروف أو لا تخرج من خارجها وهو المكروه أما الاسراع في القراءة من غير وصول إلى حد الهذ فلا شيء فيه
(٥) صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن -

باب الترتيل في القراءة ، والمراد بآل حم السور التي بدئت بحم ، أو المراد بآل حم نفسها كقوله ﷺ لأبي موسى : « لقد أوتيت زمزما من زمزيم آل داود ، أي داود نفسه .

وأخرج الأجرى في «حلمة القرآن» عن ابن مسعود لا تنثروه نثر الدقل (١) ولا تهذوه هذ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكون هم أحدكم آخر السورة . .

وأخرج من حديث ابن عمر مرفوعا يقال لصاحب القرآن : اقرأ ، وارق في الدرجات ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها .

قال في شرح المذهب : واتفقوا على كراهة الإفراط في الإسراع ، قالوا : وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزأين في قدر ذلك الزمان بلا ترتيل ، قالوا . واستحباب الترتيل للتدبر ، لأنه أقرب إلى الإجلال ، والتوقير ، وأشد تأثيراً في القلب ، ولهذا يستحب للعجمي الذي لا يفهم معناه .

وفي النشر ، اختلف هل الأفضل الترتيب ، وقلة القراءة : أو السرعة مع كثرتها ؟

وأحسن بعض أئمتنا فقال : إن ثواب قراءة الترتيل أجل قدراً ، وثواب الكثرة أكثر عدداً ، لأن بكل حرف عشر حسنات .

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح : والتحقيق أن لكل من الإسراع والترتيل جهة فضل ، بشرط أن يكون المسرع لا يتخل بشيء من الحروف ، والحركات ، والسكون والواجبات فلا يمتنع أن يفضل أحدهما الآخر ، وأن يستويا ، فإن من رتل ، وتأمل ، كن تصدق بجمهرة واحدة مشتمة . ومن أسرع كن تصدق بعدة جواهر لكن قيمتها قيمة الواحدة . وقد تكون قيمة الواحدة أكبر من قيمة الاخرى . وقد يكون بالعكس وفي البرهان للزركشي كمال الترتيل تفخيم ألفاظه ، والإبانة عن حروفه ، وأن لا يدغم حرف في حرف ، وقيل : هذا أقله وأكمله أن يقرأ على منازله ، فإن قرأ تهديداً لفظ به لفظ التهديد ، أو تعظيماً لفظ به لفظ التعظيم .

(١) الدقل — يفتح الدال والقاف — : أردأ التمر .

وأزيد فأقول: أو ترجيما . وترقيقا لفظ به لفظ الترجيم والترقيق . أو تعجبا
لفظ به لفظ التعجب . أو تديسا لفظ به لفظ التأسيس ، أو توينخا لفظ به
لفظ التوينخ أو إناابة وتوبة لفظ به لفظ الإناابة والتوبة . أو تندما نطق به نطق المتندم
أو خضوعا وتذلل للفظ به نطق الخاشع المتذلل . أو فرحا وسرورا لفظ به
لفظ الفرح السرور وهكذا وبذلك يفهم المعاني بالجرس . ونغم الكلام .
(١٠) تدبر القرآن وتفهمه :

وتسن القراءة بالتدبر . والتفهم . فهو المقصود الأعظم . والمطالع
الائم ، وبه تشرح الصدور ، وتستنير القلوب . قال تعالى : « كتاب
أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته . وليتذكروا أولو الألباب » (١) وقال :
« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (٢) وصفة ذلك أن يشغل
قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به فيعرف معنى كل آية . ويتأمل الأوامر
والنواهي . ويستقذ قبول ذلك . فإن كان بما قصر عنه فيما مضى اعتذر
واستغفر . وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل . أو عذاب أشفق وتعوذ
أو تنزيه نزه وعظم . أو دعاء تضرع وطلب . أخرج مسلم عن حذيفة قال
« صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة . فافتتح البقرة فقرأها . ثم
النساء فقرأها . ثم آل عمران فقرأها . يقرأ مترسلا إذا مر بآية فيها تسبيح
سبح . وإذا مر بسؤال سأل . وإذا مر بتعوذ تعوذ . »

وروى أبو داود . والنسائي . وغيرهما عن عوف بن مالك قال : رقت
مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة فقام . فقرأ سورة البقرة . لا يمر بآية
رحمة إلا وقف وسأل . ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ ، وأخرج
أبو داود . والترمذي حديث « من قرأ ، والتين . والزيتون فانهى إلى
آخرها . فليقل : « (٣) . وأنا على ذلك من الشاهدين . »

(١) ص/٢٩ (٢) محمد/٢٤

(٣) بلى حرف يجاب به النفي ، وهي تنفي النفي فيصير ما بعده مثبتا
فخصار الكلام بعد الإثبات « الله أحكم الحاكمين ، ثم يزيد الأمر توكيدا
بأنه على هذه القضية من الشاهدين

ومن قرأ ، لا أقسم بيوم القيامة ، فأنتهى إلى آخرها ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ، فليقل : « بلى ، ومن قرأ والمرسلات ، فبلغ ، فبأى حديث بعده يؤمنون ، فليقل : آمنا بالله .

وأخرج أحمد ، وأبو داود عن ابن عباس « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى ، قال : « سبحان ربى الأعلى » :

وأخرج الترمذى ، والحاكم عن جابر قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقرأ عليهم سورة الرحمن ، من أولها إلى آخرها فسكنوا ، فقال : « لقد قرأتها على الجن ، فسكانوا أحسن مردودا منكم ، كنت كلما أتيت على قوله . « فبأى آلاء ربك تكذبان ، قالوا . ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد ، وأخرج أبو داود ، وغيره عن وائل بن حجر قال . « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ، ولا الضالين ، فقال « آمين » ، (١) يمد بها صوته ، وأخرجه الطبرانى بلفظ « قال . آمين ثلاث مرات ، وأخرجه البيهقى بلفظ قال « رب اغفرلى آمين ، وأخرج أبو عبيد عن أبى ميسرة أن جبريل لقن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند خاتمة البقرة آمين ، وأخرج عن معاذ بن جبل أنه كان إذا ختم سورة البقرة قال : آمين ، وهى بالإجماع ليست من القرآن .

قال النووى ، ومن الآداب إذا قرأ نحو « وقالت اليهود عزير ابن الله » ، (٢) « وقالت اليهود يد الله مغلولة » ، (٣) أن يخفف بها صوته كذا كان النخعى يفعل .

(١) آمين . اسم فعل أمر معناها استجب

(٢) التوبة / ٣٠

(٣) المائدة / ٦٤

أقول : وينبغي أن يراعى هذا الأدب في الآيات التي عرضت لرسول الله ﷺ مثل « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » ، ومثل : « يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون » .

ولا بأس بتكرير الآية وتزديدها ، روى النسائي وغيره عن أبي ذر أن النبي ﷺ قام بآية يرددها حتى أصبح ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، (١) .

ويستحب البكاء عند قراءة القرآن ، والتباكى لمن لا يقدر عليه ، والحزن والخشوع قال تعالى : « ويخرون للأذقان يسعون » ، ويزيدهم خشوعاً ، (٢) وفي الصحيحين حديث قراءة ابن مسعود - رضى الله عنه - القرآن على النبي ﷺ حتى بلغ قوله تعالى « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » ، وفيه : « فإذا عيناه تذر فان ، أى تجريان بالدموع » ، قيل : إنما بكى رسول الله رحمة لأمته ، وشفقة عليهم لأنه علم أنه لا بد أنه يشهد عليهم بعملهم ، وعلمهم قد لا يكون مستقبيا ، فقد يفضى إلى تعذيبهم ، وقيل : لأنه تمثل أهوال يوم القيامة ، وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بالتصديق ، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف ، وهو أمر يحق له البكاء وقيل : بكى فرحاً بهذه المنزلة العالية التي لم يعطها أحد من الأنبياء .

وفي شعب الإيمان للبيهقي عن سعد ابن مالك مرفوعاً : إن هذا القرآن نزل بحزن ، وكآبة (٣) ، فإذا قرأتموه فابكوا ، فإن لم تبكوا ، فتبكوا .

وفيه من مرسل عيد الملك بن عمير أن رسول الله ﷺ قال : إني قارىء عليكم سورة . فمن بكى فله الجنة ، فإن لم تبكوا فتبكوا .

وفي مسند أبي يعلى حديث « اقرءوا القرآن بالحزن ، فإنه نزل بالحزن »

(١) المائدة رقم ١١٨ .

(٢) الإسراء رقم ١٠٩ .

(٣) يعنى نزل في ظروف كانت مثار أحزان ، وآلام وشدائد .

وعند الطبراني ، أحسن الناس قراءة من إذا قرأ القرآن يتحزن ، .

قال النووي في شرح المذهب ، وطريقه تحصيل البكاء أن يتأمل ما يقرأ من التهديد والوعيد الشديد ، والمواثيق والعهود ، ثم يفكر في تقصيره فيها ، فإن لم يحضره عند ذلك حزن ، وبكاء ، فليبك على فقد ذلك فإنه من المصائب وقد سبق إلى ذلك الغزالي ، والبكاء عند قراءة القرآن صفة العارفين ، وشعار الصالحين .

وقد كان الصديق الأكبر - رضى الله عنه - بكاء بالقرآن ، لا يملك عينيه عند قراءته كما في حديث الهجرة في صحيح البخارى .

(١١) تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها .

يسن تحسين الصوت بقراءة القرآن وتزيينها وفي الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى . وكان حسن الصوت بالقرآن . وكان النبي ﷺ قد سمعه يقرأ القرآن . فأعجبه . فقال له : « لقد أوتيت من مزايا من مزايا آل داود ، المراد داود نفسه ، لأنه لم ينقل أن أحدا من أولاد داود . ولا من أقاربه كان أعطى من حسن الصوت ما أعطى . والمراد بالمزمار الصوت الحسن . وأصله الآلة أطلق على الصوت الحسن للشبابة .

وروى ابن حبان وغيره : « زينوا القرآن بأصواتكم » وفي لفظ عند الداريمى « حسنوا القرآن بأصواتكم . فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا ، وأخرج البزار وغيره حديث « حسن الصوت زينة القرآن ، وفيه أحاديث صحيحة كثيرة . فإن لم يكن حسن الصوت حسنه ما استطاع بحيث لا يخرج إلى حد التمليط .

« القراءة بالآلحان ، والتطريب ، والترنم ، والنغم ، وإليك الحكم في هذا قال الإمام النووي : وأما القراءة بالآلحان فنص الشافعى في المختصر أنه لا بأس بها . وعن رواية الربيع الجيزى أنها مكروهة . فقال أصحابه : ليس الأمر على اختلاف قولين بل على اختلاف حالين . فإن لم يخرج

بالألحان على المنهج القويم جاز ، وإلا حرم . وحكى الماوردي عن الصافى أن القراءة بالألحان إذا انتهت إلى إخراج بعض الألفاظ عن مخارجها حرم . وكذا حكى ابن حمدان الحنبلى فى الرعاية ، وقال الغزالى والبندنجى . وصاحب الذخيرة من الحنفية : إن لم يفرط فى التمتع الذى يشوش النظم لاستحب وإلا فلا .

وأغرب الرافعى لحكى عن أمالى البرخسى أنه لا يضر التمتع مطلقا . وحكاه ابن حمدان رواية عن الحنابلة . وهو شذوذ لا يرجع عليه .
والذى يتحصل من الأدلة أن حسن الصوت بالقرآن مطلوب ، فإن لم يكن حسنا فليحسنه ما استطاع كما قال ابن أبى مليكة أحد رواة الحديث ، وقد أخرج ذلك عنه أبو داود بإسناد صحيح ؛ ومن جملة تحسينه أن يراعى فيه قوائين النغم فإن حسن الصوت يزداد حسنا بذلك وإن خرج عنها أثر ذلك فى حسنه ، وغير الحسن ربما أنجبر بمراعاتها ، ما لم يخرج عن شرط الأداء المعتبر عند أهل القراءات فإن خرج عنها لم يفت تحسين الصوت بقبح الأداء ولعل هذا مستند من كره القراءة بالانغام لأن الغالب على من راعى الانغام أن لا يراعى الأداء ؛ فإن وجد من يراعيهما معا فلا شك فى أنه أرجح من غيره ؛ لأنه يأتى بالمطلوب من تحسين الصوت ، ويحتمل الممنوع من حرمة الأداء . (١)

وهو كلام من التحقيق والتدقيق بمكان وقد فصل القول غاية التفصيل وأحسنه وفيه الكفاية لمن يريد معرفة الحكم الشرعى فى هذه المسألة التى كثر فيها الكلام وقد ورد فى هذا المعنى حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه عليه وسلم . قال : أقرؤا القرآن بلحون العرب وأصواتها (٢) . ولما كرم ولحون أهل الكتابين (٣) وأهل الفسق ، فإنه سيحى أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع

(١) فتح البارى ج ١٠ ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ (٢) أى طريقته فى الترتيم والأداء

(٣) يعنى كما يفعل اليهود والنصارى فى قراءة كتبهم فإنهم إلى الغناء والترتيم =

الغناء والرهبانية ، لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم « وقلوب من يعجبهم ذأهم ، أخرجه الطبراني والبيهقي ويستحب طلب القراءة من حسن الصوت والاصغاء إليها ، وذلك لحديث أبي موسى الذي ذكرناه آنفاً في رواية مسلم في صحيحه وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي موسى ولورأيتني وأنا أسمع قراءة تلك البارحة ، فقال أبو موسى : أما إنى لو علمت بمكانك لجبرته لك تحميراً ، أى لزينة ، وحسنه تحسناً .

ولابأس باجتماع الجماعة في القراءة ولا يادارتها ، وهى أن يقرأ بعض الجماعة قطعة ثم البعض قطعة بعدها ، ويستحب قراءة التفخيم لحديث الحاكم ونزل القرآن بالتفخيم . قال الحلبي ومناه أن يقرأ على قراءة الرجال ، ولا يخضع الصوت فيه كلام النساء

(١٢) الجهر بقراءة القرآن ، والإسرار أيهما أفضل ؟

وردت أحاديث تقتضى استحباب رفع الصوت بالقراءة ، وأحاديث تقتضى الأسرار وخفض الصوت ، فمن الاول حديث الصحيحين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أذن الله (١) لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن يمجهر به ، وقوله يمجهر به تفسير من أبى سلمة بن أبى عبد الرحمن ليغنى ادرج في الحديث وفي رواية ابن عينية تفسيره يستغنى به (٢) وقد

= أقرب منها إلى تحسين الصوت وحسن الاداء وإلى التعمية والخفاء أقرب منها إلى الظهور والوضوح .

(١) أذن بفتح الهمزة وكسر الذال في الماضي وكذا في المضارع مشترك بين الاباحة والاستماع لأن مصدر الاول الإذن بكسرة الهمزة ، وسكون الذال ومصدر الثانى الأذن بفتح الهمزة والذال والمراد بالأذن على الثانى فى حق الله تعالى اكرام القارىء وإجزال ثوابه والرضاعن فعله لأن ذلك ثمرة الاصغاء والاستماع .

(٢) صحيح البخارى كتاب فضائل القرآن باب من لم يتغن بالقرآن

اختلفت العلماء في معنى يتغنى على اقوال : احدها تحسين الصوت بقراءته والجر به ثانيا الاستغناء ثالثها : التحزن رابعها التشاغل ، وإنما يتم الاستدلال به على المعنى الاول (١) وهو يشهد ايضا لتحسين الصوت بالقرآن

ومن الثاني ، حديث أبي داود والترمذي والنسائي ، الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة ، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة ، قال النووي : والجمع بينهما ان الاخفاء افضل حيث خاف الرياء ، أو تأذى مصلون ، أو نيام بجهره ، والجر افضل في غير ذلك لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين ، ولأن يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر ويصرف سمعه اليه ، ويطرده النوم ويزيد في النشاط ويدل لهذا الجمع حديث أبي داود بسند صحيح عن أبي سعيد قال : « اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد فسمعهم يحجرون بالقراءة ، فكشف الستر وقال . ألا أن كلكم مناج ربه فلا يؤذون بعضكم بعضا . ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة » وقال بعضهم يستحب الجهر ببعض القراءة ، والاسرار . ببعضها الآن المسر قد يمل فيأنس بالجهر ، والجاهر قد يكل فيستريح بالاسرار .

(١٣) أيهما أفضل القراءة من ^{المصحف} المصحف أم من الحفظ ؟

قال السيوطي القراءة في المصحف أفضل من القراءة من حفظه ، لأن النظر فيه عبادة ، وقال النووي : هكذا قال أصحابنا ، والسلف أيضاً ، ولم أر فيه خلافاً ثم قال : ولو قيل إنه يختلف باختلاف الأشخاص فيختار القراءة فيه لمن استوى خشوعه ، وتدبره في حالتي القراءة فيه ، ومن الحفظ ، ويختار القراءة من الحفظ لمن يكمل بذلك خشوعه ، ويزيد على

خشوعه، وتدبره لو قرأ من المصحف - لكان هذا قولاً حسناً قال السيوطي :
ومن أدلة القراءة في المصحف ما أخرجه الطبراني ، والبيهقي في «شعب الإيمان» ،
« من حديث أوس الثقفي مرفوعاً « قراءة الرجل في غير المصحف ألف
درجة ، وقراءته في المصحف (١) تضاعف ألني درجة » .

وأخرج أبو عبيد بسند صحيح « فضل قراءة القرآن نظراً على ما يقرؤه
ظاهراً ، كفضل الفريضة على النافلة » ، وأخرج البيهقي عن ابن مسعود
مرفوعاً « من سره أن يحب الله ورسوله فليقرأ في المصحف » ، وقال .
« إنه منكر ، أقول .. والمنكر لا يحتج به » وأخرج بسند حسن عنه موقوفاً
« أديموا النظر في المصحف » .

وحكى الزركشي في البرهان ما بحثه النووي قولاً : وحكى معه قولاً ثالثاً .
أن من الحفظ أفضل مطلقاً . وأن ابن عبد السلام اختاره لأن فيه من
التدبر ما لا يحصل بالقراءة من المصحف ، وأنا أميل إلى هذا القول ، وأرجحه
لما فيه أيضاً من تثبيت المحفوظ والتأكد منه ولا كذلك لو قرأ
من المصحف .

(١٤) قال في التبيان . إذا ارتج على القارئ فلم يدر ما بعد الموضع
الذي انتهى إليه . فسأل عنه غيره فينبغي له أن يتأدب بما جاء عن ابن
مسعود والنخعي ، وبشير بن أبي مسعود قالوا . إذا سأل أحدكم أخاه
عن آية فليقرأ ما قبلها ثم يسكت ولا يقول . كيف كذا ، وكذا فإنه

(١) لعل المراد بالمصحف أى قراءته من المكتوب لأن تسميه ما فيه
القرآن بالمصحف إنما كان بعد وفاة النبي ﷺ وإنما كان القرآن مكتوباً في
المعهد النبوي مفرقاً لما أسلفنا ولم يبين لنا السيوطي درجة هذا الحديث من
الصحة أو الحسن أو الضعف .

يلبس عليه وقال ابن مجاهد . إذا شك القارىء في حرف هل هو بالتاء ، أو بالياء فليقرأه بالياء ، فإن القرآن مذكر ، وإن شك في حرف هل هو مهموز ، أو غير مهموز فليترك الهمزة (١) وإن شك في حرف هل يكون موصولا ، أو مقطوعا فليقرأ بالوصل (٢) وإن شك في حرف هل هو ممدود ، أو مقصود ، فليقرأ بالقصر وإن شك في حرف هل هو مفتوح أو مكسور ، فليقرأ بالفتح لأن الأول غير لحن في موضوع والثاني لحن في بعض المواضع .

قال السيوطى ، أخرج عبد الرازق عن ابن مسعود قال : «إذا اختلفتم في ياء وياء فاجملوها ياء ، ذكروا القرآن ، فهم من ثعلب أن ما حمل تذكيره وتأنيته كان تذكيره أجود ، ورد بأنه يمتنع إرادة تذكير غير الحقيقي التأنيث لذكره ما في القرآن منه بالتأنيث نحو النار وعدّها الله ، والتفت الساق بالساق ، وقالت لهم رسليهم ، وإذا امتنع إرادة غير الحقيقي ، فالحقيق أولى قالوا : ولا يستقيم إرادة أن ما حمل التذكير والتأنيث غلب فيه التذكير كقوله تعالى « والنخل بأسقام » أعجاز نخل خاوية ، فأنت من جواز التذكير قال تعالى « أعجاز نخل منقعر » ومن الشجر الأخضر ، قالوا : فليس المراد ما فهم بل المراد يذكرها بالموعظة والدعاء ، كما قال تعالى ، « فذكر بالقرآن من يخاف وعيده »

إلا أنه حذف الجار والمقصور ذكروا الناس بالقرآن أى إبعثوهم على حفظه كيلا يفسدوا قال السيوطى أول الأثر يمنع هذا الحمل .

وقال الواحدى الأمر ما ذهب إليه ثعلب والمراد أنه إذا احتمل اللفظ التذكير والتأنيث ولم يحتج في التذكير إلى مخالفة المصحف ذكر نحو « ولا تقبل

(١) لأن الهمزة قد تحذف

(٢) لأن الأصل الوصل .

منها شفاعة ، قال : ويدل على إرادة هذا أن أصحاب عبد الله بن مسعود من قراء الكوفة كحمزة والكسائي ، ذهبوا إلى هذا ، فقرأوا ما كان من هذا القبيل بالذكير نحو . يوم يشهد عليهم ألسنتهم ، وهذا في غير الحقيقي .

أقول : واست من هذا الذي ذكره على ثلج ، ولا اطمئنان ، فأنص القرآن لا يجوز فيه الاجتهاد ، ولا إبدال حرف منه بآخر . ولا كلمة بأخرى ولا يجوز التصرف في حروفه إلا في حدود ما تلقى عن النبي ﷺ . وتلقاه النبي عن رب العزة عن طريق جبريل . ومن شك في حرف أهو بالياء أم بالياء ، وأهو بالتذكير أم بالتأنيث ؟ فليمسك عن قراءته . وليرجع إلى المصحف . أو إلى حافظ ليتهاكد من النص القرآن ، نعم : ما فيه قرأتان أو أكثر فله أن يقرأه بإحدهما . ولعل أثر بن مسعود - رضي الله عنه - إن صح محمول على ما فيه أكثر من قراءة من هذا القبيل فيؤثر قراءة التذكير على التأنيث . لا أنه يقول ذلك ما دام يجوز لغة . لأن كثيرا مما جاز لغة لم يجوز قراءة وإنما القراءات في حدود المأثور . المنقول بالتواتر . وما من قراءة إلا ولها وجه في اللغة العربية .

(١٥) هل يجوز قطع القراءة لمكاملة أحد ؟

يكره قطع القراءة لمكاملة أحد . وعلل ذلك الحلبي بأن كلام الله لا ينبغي أن يؤثر عليه كلام غيره ، وأيده البيهقي بما روى في الصحيح : « كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه » ، ويكره أيضا الضحك والعبث . والنظر إلى ما يلي . فإن اضطر إلى مكاملة أحد . أو إلى أي عمل فليختم فإذا فرغ تعوذ وبدأ من حيث انتهى .

(١٦) لا يجوز قراءة القرآن بالعجمية^(١) مطلقا سواء أحسن العربية أم لا . في الصلاة أم خارجها . وعن أبي حنيفة أنه يجوز مطلقا . وعن أبي

(١) العجمية كل ما عدا اللغة العربية التي نزل بها القرآن .

يوسف ومحمد لمن لا يحسن العربية لكن في شارح البردوي أن أبا حنيفة يرجع عن ذلك . أقول . نعم . ما صنع الامام ابو حنيفة حينما رجع عن ذلك والرجوع إلى الحق فضيلة وهو اللائق بالامام الجليل

ووجه المنع وعدم الجواز أنه يذهب إعجازه المقصود منه والذي هو من أخص خصائص القرآن ، والله سبحانه الذي وحد المسلمين تحت راية القرآن يجب أن تتوحد ألسنتهم بلغة القرآن ، اللغة العربية الشريفة ، ولو جوزنا ذلك لغات هذا الغرض الشريف .

وإلى المنع ذهب الإمام القفال من الشافعية ، وكان يقول إن القراءة بالفارسية لا تتصور ؛ ف قيل له : فإذا لا يقدر أحد أن يفسر القرآن !! .

فقال : ليس كذلك ، لأن المفسر يجوز أن يأتي ببعض مراد الله ، ويعجز عن البعض ، أما إذا أراد أن يقرأه بالفارسية فلا يمكن أن يأتي بجميع مراد الله تعالى لأن الترجمة إبدال لفظه بلفظ تقوم مقامها وذلك غير ممكن ، بخلاف التفسير .

أقول . وما ذكره القفال هو الحق والذي يجب أن يفتى به ، فالترجمة الحرفية للقرآن غير ممكنة ، أما الترجمة التفسيرية . أو إن شئت الدقة فقل ترجمة تفسيره فهي ممكنة ، وجائزة .

(١٧) لا تجوز القراءة بالشاذ من القراءات . وهو ما لم يصح سنده وذلك مثل القراءة الشاذة « ملك يوم الدين » ، على أن ملك فعل ماض ؛ ونصب يوم . وقد نقل ابن عبد البر الإجماع على ذلك لكن ذكر موهوب الجزري جوازها في غير الصلاة قياساً على جواز رواية الحديث بالمعنى .

أقول . وما قاله موهوب غير مسلم . والقياس على الرواية بالمعنى قياس مع الفاروق ، فإن اللفظ في القرآن ركن من أركانه ، ولا يتحقق كونه قرآناً إلا به ولا كذلك الأحاديث فإن لفظها ليس معجزاً والمعول عليه فيها المعنى دون اللفظ . وإن كانت الرواية باللفظ أولى وأفضل عند الجمهور لمن يتيقن منه وحفظه

(١٨) الأولى والأفضل أن يقرأ القارئ على ترتيب المصحف لأن

لأن هذا الترتيب ارتضاه الصحابة والسلف الصالح - رضوان الله عليهم
قال في شرح المذهب . لأن ترتيبه لحكمة فلا يتركها إلا فيم ورد فيه
الشرع كصلاة صبح يوم الجمعة بالم تنزيل يعنى السجدة وهل أنى ، يعنى
سورة الانسان ، ونظائره ، فلو فرق السور ، أو عكسها جاز ، ولكن قد
ترك الأفضل .

وقال أيضاً . أما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فمتفق على منعه
لأنه يذهب بعض أنواع الإعجاز - يعنى التناسب البلاغى بين الآيات
ويزيل حكمة الترتيب

قال السيوطى ؛ وفيه أثر ، أخرج الطبرانى بسند جيد عن ابن مسعود
أنه سئل عن رجل يقرأ القرآن منكوساً . قال . ذاك منكوس القلب .

وأما خلط سورة بسورة فعدا الحلیمى تركه من الآداب لما أخرجه أبو
عبیده عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر ببلال .
وعو يقرأ من هذه السورة . ومن هذه السورة فقال يا بلال مررت بك .
وأنت تقرأ من هذه السورة . ومن هذه السورة ، قال . خلطت الطيب
بالطيب . فقال .

« أقرأ السورة على وجهها ، أو قال على نحوها ، مرسلاً صحيح . وهو
عند أبى داود موصول عن أبى هريرة بدون آخره . وأخرجه أبو عبيدة
عن وجه آخر عن عمر بن عفرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبلال :
« إذا قرأت السورة ، فأنقذها ، وقال ، حدثنا معاذ عن ابن عوف قال . سألت
ابن سيرين عن الرجل يقرأ من السورة آيتين ثم يدعها ويأخذ في غيرها ؟
قال ليتق أحدكم أن يأثم . إنما كبيراً وهو لا يشعر . وأخرج عن ابن مسعود
قال . إذا ابتدأت في سورة فأردت أن تتحول منها إلى غيرها فتحول إلى

« قل هو الله أحد ، فإذا ابتدأت فيها فلا تتحول حتى تختمها . وأخرج عن ابن أبي الهزيل قال . كانوا يكرهون أن يقرأوا بعض الآية ويدعوا بعضها قال أبو عبيد : الأمر عندنا على قراءة الآيات المختلفة كما أنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على بلال ، وكما أنكره ابن سيرين على من سألته

وأما حديث عبد الله بن مسعود فوجهه عندي أن يبتدىء الرجل في السورة يريد اتمامها ، ثم يبدو له في أخرى ، فأما من ابتدأ القراءة وهو يريد التنقل من آية إلى آية ، وترك التأليف لآي القرآن فانما يفعله من لا علم له لأن الله لو شاء لأنزله على ذلك

وقد نقل القاضي أبو بكر الإجماع على عدم جواز قراءة آية آية من كل سورة .

قال البيهقي ، وأحسن ما يحتاج به أن يقال إن هذا التأليف لسكتاب الله مأخوذ من جهة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذه عن جبريل فالأولى للقارىء أن يقرأه على التأليف المنقول ، وقد قال ابن سيرين « تأليف الله خير من تأليفكم »

أقول والتنقل من آية إلى أخرى ومن سورة إلى أخرى من غير داع يفعله بعض القراء اليوم وبعضهم قد يترك آية تخويف أو زجر وقرأ ما بعدها ، وبعضهم يترك آية السجدة ويستمر في القراءة والبعض حيث لا ينبغي البدء أو يقف حيث لا يتم الكلام ومن ذلك أن بعضهم إذا قرأ سورة « مريم » يبدأ بقوله تعالى « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » . ويدع « كهيعص » ولا أدري لم هذا ؟

ولعل فيما ذكرناه عن السلف وأهل العلم ما يكون فيه مذكر لهم .
ووائع بزعمهم

(١٩) قال الحلیمی : یسن استیفاء کل حرف — أى قراءة — أئبته قارىء لیكون قد أتى علی جمیع ما هو قرآن .

وقال ابن الصلاح والنووی . إذا ابتداء بقراءة أحد من القراء فینبغی أن لا یزال علی تلك القراءة مادام الكلام مرتبطا ، فإذا انقضی ارتباطه فله أن یقرأ بقراءة أخرى والأولى دوامه علی الأولى فی هذا المجلس .

وقال غیرها : بالمنع مطلقا یعنی سواء أ كان الكلام مرتبطا ببعضه ببعض فی المعنی أم لا ، قال ابن الجزری : والصواب أن یقال إن كانت إحدى القراءتین منع ذلك منع تحریم كن یقرأ ، فتلقی آدم من ربه كلمات ، برفعهما أو نصبهما أخذ رفع آدم من قراءة غیر ابن كثير ، وأخذ رفع كلمات من قراءته (١) ، ونحو ذلك مما لا یجوز فی العریبة واللغة .

ومالم یكن كذلك فرق فیہ بین مقام الرواية ، وغیرها ، فإن كان علی سبیل الرواية حرم أيضاً لأنه كذب فی الرواية ، وتخلیط : وإن كان علی سبیل التلاوة جاز .

أقول . ولعل فی هذا زاجراً ، وواعظاً لبعض القراء الذین یذهبون جمال القرآن بذكر القراءات فی اللفظة الواحدة من غیر فصل بین قراءة وأخرى ، ویريدون إظهار المهاراة فی القراءات ، وما هو علم الله من المهاراة فی شيء ، وإنما هو إغراب ؛ وإشكال علی السامعین ، وعدم مراعاة لما یلیق بالقرآن ، والتأدب فی قراءته .

(٢٠) یسن الاستماع لقراءة القرآن وترك الكلام والحديث مع الغير واللفظ ، عند القراءة والأصل فی ذلك قوله تعالى ، وإذا قرىء القرآن

(١) وأما نصبهما فأخذ نصب آدم من قراءة ابن كثير . ونصب كلمات =

فاستمعوا له ، وأنصتوا لعلكم ترحمون ، (١) .

وظاهر الأمر للوجوب وإلى هذا ذهب بعض السلف والعلماء ، والجمهور على أنه سنة وليس بواجب في غير الصلاة . وذلك لأن الآية نزلت في استماع المأموم عند قراءة الإمام منهم من عمم ذلك في الجهرية . والسرية ومنهم من فرق بين السرية والجهرية فأوجب القراءة في الأولى دون الثانية ومنهم من لم يفرق بينهما وأوجب القراءة فيهما والمراد بالاستماع التأمل والتفكير فيه . ولما كان الاستماع قد يكون مع السكوت . وقد يكون مع النطق بكلام آخر لا يحول بين المتكلم وبين فهم ما يسمع عقب الله سبحانه ذلك بالأمر بالإنصات وهو عدم الكلام .

وكذلك الإنصات قد يكون مع الاستماع أى التدبر فيما يسمع والتفكير فيه . وقد يكون مع عدم الاستماع كأن يكون مفكراً في أمر آخر فن ثم جمع الله سبحانه بينهما لأن المراد بالإنصات . مع التدبر والتفكير . فلا يغني أحدهما عن الآخر ؛ وقيل المراد بالاستماع الاجابة والعمل ، فعلى سماع القرآن أن ينصت ؛ ثم يكون العلم والعمل .

ومهما يكن من شيء فالإصغاء والاستماع عند قراءة القرآن من الآداب التي ينبشئ مراعاتها على كل مسلم تجاه القرآن الذي هو كلام .

وعسى أن يكون في هذا وازع يزع هؤلاء الذين يرفعون أصواتهم بالفاظ الاستحسان عند سماع القرآن كأنما يستمعون إلى مغن أو مغنية ، والله يعلم أنهم لا يعون شيئاً مما يسمعون ، وما يزيد الطين بلة أنهم يرفعون أصواتهم المنكرة في المساجد التي هي بيوت الله ؛ فلا يراعون لبيوت الله حرمة ، كما لا يراعون لكلامه حرمة .

= من قراءة غيره . وهو تلفيق لا يليق . ولا يمكن توجيه هذا التلفيق لغة ونحواً أبداً (١) الأعراف ٢٤٤ .

(٢١) السجود عند قراءة آية سجدة .

يسن السجود عند قراءة آية من آيات السجدة في القرآن الكريم .
وإلى هذا ذهب الجمهور من العلماء على اختلاف بينهم في أعداد هذه
الآيات التي يسجد عندها وذهب الامام أبو حنيفة إلى وجوب السجود
للتلاوة والواجب عنده فوق السنة ، ودون الفرض على ما هو اصطلاحه
في هذا .

وآيات السجدة ذكرت في خمسة عشر موضعاً وهي (١) في الأعراف
(٣) والرعد (٣) والنحل (٤) والاسراء (٥) ومريم (٦، ٧) وفي الحج سجدة (٦)
(٨) والفرقان (٩) والنمل (١٠) وألم تنزيل (١١) وص (١٢) وحج فصات
(١٣) والنجم (١٤) و إذا السماء انشقت ، (١٥) و اقرأ باسم ربك ،
وقد اختلفت أقوال العلماء في مواضع السجود من هذه المواضع

فذهب الامام أحمد وآخرون إلى السجود في هذه المواضع الخمسة عشر
وذهب الامام أبو حنيفة وآخرون إلى السجود في أربعة عشر موضعاً فعدها
كلها إلا سجدة الحج الثانية ؛ واعتبر سجدة ص من عزائم السجود .

وذهب إلى الامام الشافعي وطائفة إلى السجود في أربعة عشر موضعاً
أيضاً غير أنه عد آية الحج وترك آية (ص) وقالوا أنها سجدة شكر وليس
من عزائم السجود

وذهب الإمام مالك وآخرون إلى السجود في أحد عشر موضعاً فأسقط
سجدة المفصل - النجم ، والانشقاق ، وقرأ - وسجدة (ص) ومواقع
السجدة معروفة ومشار إليها في معظم المصاحف إن لم يكن كلها واختلفوا
في موضع سجدة (حم فصات) فقال مالك وطائفة من السلف هي عقب
قوله تعالى : « إن كنتم إياه تعبدون » وقال أبو حنيفة والشافعي رحمهما
الله - والجمهور إلى أنها عقب قوله تعالى : « لا يستون » وسجد التلاوة

واجباً كان أم سنة - على القارئ ، والمستمع له ، ويستحب أيضاً للسامع الذى لا يسمع لكن لا يتأكد فى حقه تأكده فى حق المستمع المصغى (١)

(٢٢) قال الإمام النووي :

د الاوقات المختارة للقراءة أفضلها ما كان فى الصلاة ، ثم الليل ، ثم نصفه الأخير ، وهى بين المغرب والعشاء محبوبة ، وأفضل النهار بعد الصبح ولا تذكره فى شيء من الاوقات لمعنى فيه ، وأما ما رواه ابن أبى داود عن معاذ بن رفاعة عن مشايخه أنهم كرهوا القراءة بعد العصر وقالوا : هو دراسة يهود فغير مقبول ، ولا أصل له ، ونختار من الايام يوم عرفة ، ثم الجمعة ، الاثنين ، والخميس ، ومن الايام العشر الأخير من رمضان ، والعشر الأول من ذى الحجة ، ومن الشهور رمضان ، ونختار لابتدائه ليلة الجمعة ، ونختمه ليلة الخميس ، فقد روى ابن أبى داود عن عثمان بن عفان أنه كان يفعل ذلك ، والأفضل الختم أول النهاو ، أو أول الليل لما رواه الدارمى بسند حسن عن سعد بن أبى وقاص قال : « إذا وافق ختم القرآن أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح ، وإن وافق ختمه أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي قال فى الإحياء : ويكون الختم أول النهار فى ركعتي الفجر وأول الليل فى ركعتي سنة المغرب ، وعن ابن المبارك يستحب الختم فى الشتاء أول الليل ، وفى الصيف أول النهار ، وهى آراء على سبيل الاستحباب لا على سبيل الإلزام ، ولا أدرى ما وجه تفرقة ابن المبارك بين الشتاء والصيف ويسن صوم يوم الختم ، أخرجه ابن أبى داود عن جماعة من التابعين ، ويستحب أن يحضر أهله وأصدقائه : أخرج الطبرانى عن أنس . أنه كان إذا ختم القرآن جمع أهله ، ودعا ، وأخرج ابن أبى داود عن الحكم بن عتيبة

قال : أرسل إلى مجاهد ، وعنده ابن أبي أمامة وقالوا : إنا أرسلنا إليك ،
لأننا أردنا أن نختم القرآن ، ويقول : عنده تنزل الرحمة

(٢٣) التكبير عند قراءة السور القصار من القرآن

يستحب التكبير من الضحى إلى آخر القرآن ، وهي قراءة المسكين ،
والدليل على هذا ما أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » ، وابن خزيمة من
طريق ابن أبي بزة قال : سمعت عكرمة بن سليمان قال : قرأت على إسماعيل
ابن عبد الله المسكي فلما بلغت الضحى قال أكبر حتى تختم ، فإني قرأت على
عبد الله بن كثير فأمرني بذلك ، وقال . قرأت على مجاهد فأمرني بذلك ،
وأخبر مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك ، وأخبر ابن عباس أنه
قرأ على أبي بن كعب ، فأمره بذلك ، كذا أخرجه موقوفا ، ثم أخرجه
البيهقي من وجه آخر عن ابن أبي بزة مرفوعا ، وأخرجه من هذا الوجه -
أعني المرفوع - الحاكم في مستدركه ، وصححه ، وله طرق كثيرة عن البزي
وعن موسى بن هارون قال . قال لي البزي قال لي محمد بن إدريس
الشافعي . ان تركت التكبير فقدت سنة من سنن نبيك ، قال الحافظ حماد
الدين بن كثير . وهذا يقتضى تصحيحه للحديث

وقد اختلفت وجهة العلماء في السر في هذا التكبير ، فروى أبو العلاء
الهمداني عن البزي ، أن الأصل في ذلك أن النبي ﷺ انقطع عنه الوحي
فقال المشركون ، فلا محمد ربه ، فنزلت سورة الضحى ، فكبر النبي ﷺ
قال ابن كثير . ولم يرد ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف

وقال الحلبي . نكتة التكبير التشبيه للقراءة بصوم رمضان ، إذا
أكمل عدته يكبر ، فكذا هنا يكبر إذا أكل عدة السورة ، قال . وصفته
أن يقف بعد كل سورة وقفة قصيرة ، ويقول . « الله أكبر » ، وكذا قال سليم
الرازي من الشافعية في تفسيره . يكبر بين كل سورتين تسكبه ، ولا يصل

آخر السورة بالتكبير بل يفصل بينها بسكتة ، قال : ومن لا يكبر من القراء
حجتهم أن في ذلك ذريعة إلى الزيادة في القرآن ، بأن يداوم عليه
فيتوهم أنه منه

وكذلك اختلفوا في ابتدائه ، أهو من أول الضحى ، أم من آخرها وفي
انتهائه . أهو أول سورة الناس أم آخرها ، وفي وصله بأولها ، أو آخرها
وقطعه والخلاف في الكل مبني على أصل وهو أهو لأول السورة أم لآخرها
وفي لفظه . فقيل . « الله أكبر » وقيل . « لا إله إلا الله » والله أكبر ،
وسواء في التكبير في الصلاة ، وخارجها ، صرح به السخاوي وأبو شامة

(٢٤) يسن الدعاء عقب الختم ، وذلك لحديث الطبراني ، وغيره عن
العرباض بن سارية مرفوعاً « من ختم القرآن فله دعوة مستجابة » وفي شعب
الإيمان ، من حديث أنس مرفوعاً إلى النبي ﷺ « من قرأ القرآن وحمد الرب
وصلى على النبي ﷺ ، واستغفر ربه ، فقد طلب الخير مكانه »

(٢٥) يسن إذا فرغ من الختمة أن يشرع في أخرى عقب الختم لحديث
الترمذي وغيره مرفوعاً « أجب الأعمال إلى الله الحال ، المرتحل الذي يضرب
من أول القرآن إلى آخره ، كلما أحل ارتحل

وأخرج الدارمي بسند حسن عن ابن عباس عن أبي بن كعب « أن
النبي ﷺ كان إذا قرأ « قل أعوذ برب الناس » افتتح من الحمد ، ثم قرأ
من البقرة إلى أولئك هم المفاجئون ، ثم دعا بدعاء الختمة ، ثم قام
وقد جرى عمل الناس أنهم إذا وصلوا إلى سورة الإخلاص كرروها ثلاثاً
وقد روى عن الإمام أحمد بن حنبل أنه منع من تكريرها عند الختم .

أقول ولعل وجهة نظر الإمام أن لا يظن ظان أنها نزلت هكذا مكررة
وقال بعضهم : الحكمة فيه ماورد أنها تعدل ثلث القرآن (١) رواه البخاري

(١) قيل في تعليل كونها تعدل ثلث القرآن أن القرآن عقائد وأحكام :
ومواظظ وأخبار ورأس العقائد مايتعلق بالله وتوحيده . وصفاته وقد =

فيحصل بذلك ختمة فإن قيل كان ينبغي أن تقرأ أربعاً ليحصل له ختمتان قلنا المقصود أن يكون على يقين من ختمة إما التي قرأها . وإما التي حصل عل ثوابها بتكرار قال السيوطي . وحاصل ذلك يرجع إلى جبر ما لعله حصل في القراءة من خلل وكما قاس الحليمي التكبير عند الختم على التكبير عند إكمال رمضان فينبغي أن يقاس تكرير سورة الإخلاص على اتباع رمضان بست من شوال :

(٢٦) حكم التكسب بالقرآن .

يكره إتخاذ القرآن معيشة يتكسب بها أي بقراءته أن لا يكون له عمل غيره أو بالتسول به كما يفعل بعض الناس والدليل على هذا ما أخرجه الأجرى من حديث عمران بن الحصين مرفوعاً « من قرأ القرآن ، فليسأل الله به فإنه سيأتي قوم يقرؤن القرآن يسألون الناس به ، وقد أخرج أبو عبيد ، في فضائل القرآن ، عن أبي سعيد وصححه الحاكم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « تعلموا القرآن . وأسألوا الله به قبل أن يتعلمه قوم يسألون به الدنيا ، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة نفر ، رجل يباهى به ورجل يستأكل به (١) ورجل يقرأه لله ، وأخرج أحمد وأبو يعلى من حديث عبد الرحمن ابن شبل رفعه أقرؤا القرآن ، ولا تغلوا فيه ، ولا تأكلوا به الحديث وسنده قوى كما قال الحافظ وأخرج أبو عبيد عن عبد الله ابن مسعود ، سيجى زمان يسأل فيه بالقرآن فإذا سألوكم فلا تعطوهم (٢) وروى البخارى في تاريخه الكبير بسند صالح

= اشتملت السورة على هذا ، وقيل معنى ذلك أن ثواب قراءتها يحصل للقارى . مثل ثواب من قرأ ثلث القرآن ، وقيل ثواب الثلث من غير تضعيف .

(١) أى يطلب الأكل والمعيشة بقراءته .

(٢) فتح البارى ج ١٠ ص ٤٧٨ .

حديث من قرأ القرآن عند ظالم ليرفع منه لعن بكل حرف عشر لعنات ، وذلك لأنه يريد أن يصيب به دنيا من مال أو جاه أو زلي .

ومن ثم نرى أن قراءة القرآن بأجر كما يفعل بعض القارئین اليوم ، أو للتسول به حرام ، أما أخذ الأجر على تحفيظ القرآن وتعليمه للناس أو بيان ما فيه من عقاب وأحكام وحكم فهذا لا شيء فيه ، بل فاعله مأجور وذو منزلة عند الله ، وإن كان من لا يأخذ عليه أجرا أعظم أجرا ، وأعلى منزلة عند الله ، وقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن عثمان - رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : خيركم من تعلم القرآن وعلمه (١) وراه أيضا أصحاب السنن الأربعة .

وقد كان بعض السلف يكرهون أخذ الأجرة على إلقاء القرآن ، وتجويده وتعليم العلم ولكن جمهور العلماء على جواز أخذ الأجرة على تعليم العلم والقراءة وسائر الوظائف الدينية كالإمامة والخطابة والوعظ والتذكير لأنه لو لم يعطوا أجرًا لتعطلت هذه الوظائف ، ولما وجد من يقوم بها فيدرس العلم ويندر - إن لم ينعدم - العلماء ، وحفظ القرآن .

(٢٧) بكره أن يقول نسبت أية كذا ، بل يقول أنسيتها ، لأن الأولى تفيد التقصير في حق القرآن ، بخلاف الثانية فإنها لا تشعر بذلك والاصل في ذلك ما رواه الشيخان في صحيحيهما عن عبد الله بن مسعود قال : قال

(١) أي خير المعلمين من قام بتعليم القرآن وتعليمه لغيره ؛ أو المراد تعلمه والفقہ فيه كما كان الشأن في الصدر الأول للإسلام فإن لم يكن متفقه فيه فهو دون الأول ويكون غيره خيرا منه ، أو أن من مقدرة في الحديث أي من خيركم ، ولا بد في كل هؤلاء من مراعاة الإخلاص الذي هو أساس الحرية .

النبي صلى الله عليه وسلم « بنس ما لأحدهم أن يقول نسيت آية كيت وكيت (١) بل نسي »، أى بضم النون وتشديد السين المكسورة مبيناً للمجهول وهو الذى وقع فى جميع الروايات فى البخارى ، وكذا فى أكثر الروايات فى غيره ؛ ويؤيده ما وقع فى رواية أبى عبيد فى الغريب بعد قوله « كيت وكيت ليس هو نسي ولكنه نسي الأول بفتح النون ، وتخفيف السين ، والثانى بضم النون وتثقيب السين ، هكذا قال الحافظ فى الفتح ، وذكر الفرطى أنه رواه بعض رواة مسلم مخففاً وقال رواية التثقيب معناه أنه عوقب بوقوع النسيان عليه لتفريطه فى معاهدته ، واستدكاره ، ومضى التخفيف أن الرجل ترك غير ملتفت إليه وهو كقوله تعالى « نسوا الله فأنسيهم » ، أى تركهم فى العذاب ، أو تركهم من الرحمة (٢) ،

وقد بين الحافظ فى الفتح أن النسي عن قول نسيت آية كذا وكذا ليس للزجر عن هذا اللفظ ، بل للزجر عن أسباب تعاطى النسيان المقتضية لقول هذا اللفظ ، أقول ، أى أنه من قبيل إطلاق المسبب وإرادة السبب وهو أسلوب معروف فى اللغة العربية ، قال الحافظ . ويأمل أن ينزل المنع والإباحة على حالتين .

(١) فمن أنشأ نسيانه عن اشتغاله بأمر دينى كالجهاد لم يمتنع عليه قول ذلك لأن النسيان لم ينشأ عن إهمال دينى ، وعلى ذلك يحمل ما ورد من ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من نسبة النسيان إلى نفسه كما ورد فى الحديث الصحيح (٢) ويكون النهى للتنزيه .

(١) كناية عن الجمل الكثيرة ، والحديث الطويل فهى مثل ذيت ، وذيت وكذا وكذا .

(٢) فتح البارى ج ١٠ ص ٤٥٦ ٤٥٧

(٣) المرجع السابق ص ٤٦٣

(٢) ومن نشأ نسيانه عن اشتغاله بأمر دنيوى ، ولا سيما إن كان محظورا
امتنع عليه لتعاطى أسباب النسيان .

(٢٨) اختلف العلماء فى وصول ثواب قراءة القرآن للبيت قال السيوطى
الأئمة الثلاثة على وصول ثواب القراء للبيت ، ومذهبنا - أى الشافعية -
خلافه لقوله تعالى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (١) .

واليك ما ذكره الإمام الآلوسى فى تفسيره لهذه الآية فقد ذكر كلا ما حسنا
فى هذا المقام قال « ويعلم من مجموع ما تقدم أن استدلال المعتزلة بالآية على
أن العبد إذا جعل ثواب عمله أى عمل كان لغيره لا ينجعل ، ويأخو جملة
- غير تام (٢) .

وكذا استدلال الإمام الشافعى بها على أن ثواب القراءة لا تلحق
الأموات ، وهو مذهب الإمام مالك ، بل قال الإمام بن الهمام - هو من
أئمة الحنفية ، أن مالكاً ، والشافعى ، لا يقولان بوصول العبادات البدنية
المحضة كالصلاة والتلاوة ، بل غيرها كالصدقة والحج ، وفى الأذكار للنووى
عليه الرحمة - المشهور من مذهب الشافعى - رضى الله عنه - وجماعة أنها
لا تصل ، وذهب أحمد بن حنبل ، وجماعة من العلماء ، ومن أصحاب الشافعى
إلى أنها تصل ، فالاختيار أن يقول القارىء بعد فراغه اللهم أوصل ثواب
ما قرأته إلى فلان ، والظاهر أنه إذا قال ذلك ونحوه كوهبت ثواب
ما قرأته لفلان بقلبه كفى ، وعن بعضهم اشتراط نية النيابة أول القراءة
قال الآلوسى :

وفى القاب منه شيء ، ثم الظاهر أن ذلك إذا لم تكن القراءة بأجرة ،

(١) النجم ٣٩

(٢) هذا خبره أن استدلال ...

أما إذا كانت بها كما يفعل الناس اليوم ، فإنهم يعطون حفظة القرآن أجرة ليقروا الموتام : فيقرون لتلك الأجرة — فلا يصل ثوابها ، إذ لا ثواب لها ليصل ، لحرمة أخذ الأجرة على قراءة القرآن ، وإن لم يحرم لتعليمه ، كما حققه خاتمة الفقهاء ، المحققين الشيخ محمد الأمين بن عابدين الدمشقي رحمه الله تعالى ، قال ، وفي الهداية من كتاب الحج عن الغير ، إطلاق صحة جعل الإنسان عمله لغيره ، ولو صلاة ، وصوما عند أهل السنة والجماعة ، وفيه ما علمت مما مر آنفا ، وقال الخفاجي هو — أن كلام صاحب الهداية — يحتاج إلى التحرير ، وتحريره أن محل الخلاف العبادة البدنية هل تقبل النيابة فتسقط عن لزمته بفعل غيره سواء كان بإذنه أم لا بعد حياته ، أم لا ، فهذا وقع في الحج كما ورد في الأحاديث الصحيحة ، أما الصوم فلا وما ورد في حديث « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » ، وكذا غيره من العبادات فقال الطحاوي — هو من محدثي فقهاء الحنفية — إنه كان في صدر الإسلام ثم نسخ ، وليس الكلام في الفدية ، وإطعام الطعام فإنه بدل ، وكذا إهداء الثواب سواء أكان بعينه أو مثله ، فإنه دعاء ، وقبوله بفضل الله — عز وجل كالصدقة فاعرفه انتهى ما ذكره الألوسي (١) ، وفي هذا القدر كفاية في هذه المسألة التي يكثر فيها السؤال دائما

والحق أنه لا خلاف في الدعاء والصدقة لورود الأحاديث الصحيحة الكثيرة فيهما ، وكذلك الحج عند الجمهور — وأما الصوم ففيه الخلاف وكذا الصلاة

(حكم الاقتباس وما جرى مجراه)

ومن المسائل المهمة معرفة حكم الاقتباس من القرآن واليك خلاصتها ذكره العلماء في هذا

(١) تفسير الألوسي ج ٢٧ ص ٥٨ ط منير

قال الامام السيوطى فى الاقتباس تضمين الشعر أو النثر بعض القرآن لا على أنه منه بأن لا يقال فيه . قال الله تعالى ونحوه فإن ذلك حينئذ لا يكون اقتباسا وقد اشتهر عن المالكية تحريمه ، وتشديد الزكير على فاعله ، وأما أهل مذهبنا يريد الشافعية فلم يتعرض له الأقدمون ولا أكثر المتأخرين مع شيوع الاقتباس فى أعصارهم واستعمال الشعراء قديما وحديثا

وقد تعرض له جماعة من المتأخرين فسنل عنه الشيخ عز الدين بن عبد السلام فأجازه واستدل له بما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من قوله فى الصلاة وغيرها وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين (١) ، وقوله اللهم فائق الإصباح ، وجاعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا أقض عني الدين ، وأغنني من الفقر (٢) .

وفى سياق كلام لآبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، (٣) وفى آخر حديث لابن عمر ، قد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة (٤) .

وهذا كله يدل على جوازه فى مقام المواظ ، والثناء على الله ،

(١) هو مقتبس من قوله تعالى وإني وجهت وجهى... الآية ٧٩ من سورة الأنعام .

(٢) هو مقتبس من قوله تعالى فائق الإصباح ، وجعل الليل سكنا . الآية ٩٦ من سورة الأنعام

(٣) هو مقتبس من قوله تعالى وسيعلم الذين ظلموا... الآية ٢٧ من سورة الشعراء .

(٤) هو مقتبس من قوله تعالى لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، الآية ٢١ من الأحزاب

والنداء وفي النثر ، ولا دلالة فيه على جوازه في الشعر ، وبينهما فرق :
فإن القاضي أبا بكر من المالكية صرح بأن تضمينه في الشعر مكروه ، وفي
النثر جائز .

واستعمله أيضاً في النثر الإمام القاضي عياض في مواضع من خطبة
كتابه « الشفا » .

وقال الشرف إسماعيل ابن المقرئ البني صاحب مختصر الروضة ، في
شرح بديعته ، ما كان منه في الخطب ، والمواظ ، ومدحه صلى الله عليه
وسلم وآله ، وصحبه ، ولو في النظم فهو مقبول ، وغيره مردود .

أقول وينبغي أن يلحق بذلك مدح الخلفاء الراشدين ، والصحابة والتابعين
والسلف الصالحين ، والعلماء العاملين .

وقال في شرح « بديعته » الاقتباس ثلاثة أقسام : مقبول ، ومباح ،
ومردود ، فالأول : ما كان في الخطب ، والمواظ ، والعهود ، والثاني .
ما كان في الغزل ، والرسائل ، والقصاص ، والثالث على ضربين
أحدهما . ما نسبته الله إلى نفسه ، ونعوذ بالله من ينقله إلى نفسه كما قيل عن
أحد بني مروان أنه وقع على مطالعة فيها شكاية عماله فكتب « إن إلينا إياهم ،
ثم إن علينا حسابهم » (١) .

والآخر : تضمنين آية في معنى هزل ونعوذ بالله من ذلك كقول أحد الشعراء
أرخصي إلى عشاقه طرفه هيهات ، هيهات لما توءا ون (٢)
ورديته ينطق من خلفه لمثل هذا فليعمل العاملون (٣)

(١) أخذ من قوله تعالى في آخر سورة الفاشية الآية ٢٥ و ٢٦

(٢) أخذ هذا من قوله تعالى حكاية لكلام منكري البعث « هيهات

هيهات ... الآية ٣٠ من سورة المؤمنون

(٣) أخذ هذا من قوله تعالى حكاية لمثل هذا فليعمل العاملون ، الآية

٦١ من سورة الصافات

قال السيوطى . وهذا التقسيم حسن جدا ، وبه أقول ، وأنا أيضاً أستحسنه
جد الاستحسان ، وبه أقول

وقد ذكر الشيخ تاج الدين ابن السبكي فى طبقاته ، فى ترجمة الامام أبى
منصور عبد القاهر بن طاهر التميمى البغدادى من كبار الشافعية ، وأجلانهم
أن من شعره قوله

يا من عدى ، ثم اعتدى ، ثم اقرىف ثم انتهى ، ثم ارعوى ، ثم اعترف
أبشر فى قول الله فى آية ^(١) وإن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف
ثم عقب فقال . استعمال مثل الاستاذ أبى منصور مثل هذا الاقتباس
فى شعره له فائدة فإنه جليل القدر ، والناس ينهون عن هذا ، وربما أدى
ببحث بعضهم إلى أنه لا يجوز ، وقيل إن ذلك إنما يفعله الشعراء الذين هم فى
كل واد يهيمون ويثبون على الالفاظ وثبة من لا يبالي ، وهذا هو الاستاذ
أبو منصور من أئمة الدين ، وقد فعل هذا ، وأسند عنه هذين البيتين الاستاذ
أبو القاسم بن عساكر

قال الإمام السيوطى معقباً . ليس هذان البيتان من الاقتباس لتصريحه
بقول الله ، وقد قدمنا أن ذلك خارج عنه

وأما أخوه الشيخ بهاء الدين فقال فى «عروس الأفراح» . الورع اجتناب
ذلك كله ، وأن ينزه عن مثله كلام الله ورسوله

ثم قال السيوطى . رأيت استعمال الاقتباس لأئمة أجلاء منهم الإمام
أبو القاسم الراعى ؛ وأنشده فى أماليه ، ورواه عنه أئمة كبار

الملك الذى عنت الوجوه	ه له ، وذلت عنده الأرباب
منفرد بالملك والسلطان قد	خسر الذين تجاذبوه وخابوا

(١) هو ما أخذ من قوله تعالى « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم
ما قد سلف ... » الآية ٣٨ من الأنفال

دعهم، وزعم الملك يوم غرورهم فسيعلبون غدا من الكذاب (١)
وروى البيهقي في شعب الإيمان عن شيخه أبي عبد الرحمن السلمي قال
أنشدنا أحمد بن يزيد لنفسه

سل الله من فضله ، واتقه فإن التقى خير ما اكتسب
ومن يتق الله ينح له ويرزقه من حيث لا يحتسب (٢)
وأنا أميل إلى عدم استعماله في الشعر حتى لا يتوهم متوهم أن في القرآن
شعراً وإن كان فعله هؤلاء الأئمة الكبار.

وأختم هذا الفصل القيم الذي أمتعنا به الإمام السيوطي في إتقانه (٣)
بأن الكلمة من القرآن الكريم أو الآية يقتبسها المقتبس في كلامه منها بلغ
هذا الكلام من الفصاحة والبلاغة ، فتضفي على الكلام نوراً وبهاء ، وروعة
ونخامة ، وتكون متميزة عما قبلها ، وما بعدها تميز الدرة اليتيمة الثمينة بين
حبات العقد ، والجوهرة المتألثة بين الحصى وحبات الرمل ، وكالشمس إذا
طلعت كسفت بقوة ضوئها ضوء النجوم والكواكب ، وهذا سر من أسرار
كتاب الله الذي لا تنقضي عجائبه ، ولا تنفني أسرار

ما يجري مجرى الاقتباس

ويقرب من الاقتباس شيان

أحدهما : قراءة القرآن يراد بها الكلام لإجابة لسائل . أو رداعلى متكلم ،
أو إلخاماً لخصم ، أو إشارة إلى ما يراد من معانيه قال الإمام النووي في التبيان ،

(١) هو مأخوذ من قوله تعالى . « سيعلمون غدا من الكذاب الأشر »
الآية ٢٦ من سورة القمر

(٢) هو مأخوذ من قوله تعالى . « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه
من حيث لا يحتسب » الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الطلاق

(٣) ١٦ ص ١١٣ ، ١١٤

ذكر ابن أبي داود في هذا اختلافا ، فروى عن النخعي أنه كان يكره أن يتأول القرآن بشيء يعرض من أمر الدنيا ، وأخرج عن عمر بن الخطاب أنه قرأ في صلاة المغرب بمكة ، والتين والزيتون وطور سينين ، ثم رفع صوته وقال : « وهذا البلد الأمين » يريد بيان أن المراد به مكة

وأخرج حكيم بن سعد أن رجلا من المحكة أتى عليا ، وهو في صلاة الصبح فقال : « لئن أشركت ليحبطنك عملك » (١) فأجابته في الصلاة ، فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون » (٢)

وقال غيره : يكره ضرب الأمثال من القرآن صرح به من الشافعية العماد البيهقي تلميذ البخاري كما نقله ابن الصلاح في فوائد رحلته

الثاني : التوجيه بالالفاظ القرآنية في الشعر وغيره ، والتلويح بها إلى معانيها القرآنية وهو جائز — كما قال السيوطي — بلا شك ، قال . وروينا عن الشريف تقي الدين الحسني أنه لما نظم قوله

محساز حقيقتها فاعبروا ولا تعمروا هونها تن
وما حسن بيت له زخرف تراه إذا زلزلت لم يكن

خشى أن يكون ارتكب حراما لاستعماله هذه الالفاظ القرآنية في الشعر فجاء إلى شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد يسأله عن ذلك ، فأنشده إياها ، فقال له . قل وما حسن كهف ... فقال ياسيدي أفدتني ، وأفتيتني « خاتمة » قال الزركشي في كتابه « البرهان » : لا يجوز تعدى أمثلة القرآن

ولذلك أنكر على الحريري قوله . « فأدخلني بيتنا أخرج من الثابت وأوهى من بيت العنكبوت » ، وأي معنى أبلغ من معنى أكده الله من ستة أوجه حيث قال « وإن أوهن البيوت لبنت العنكبوت » ، فأدخل إن ، وبني أفعل التفضيل وبناء من الوهن ، وأضاله إلى الجمع ، وعرف الجمع باللام وأتى في خبر إن باللام (١) هو من قوله تعالى « لئن أشركت ليحبطن عملك » ، ولتكون من

الخامسين ، الآية ٦٥ من سورة الزمر

(٢) هو من قوله تعالى « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك

الذين لا يوقنون الآية ٦٠ من سورة الروم

والإنكار على الحريري غير متجه فقد قال الله تعالى ، إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ، بعوضة فما فوقها ، والآية تحتل معنيين أحدها . فما فوقها في الحجم والمقدار ، وثانيهما . فما فوقها أى في الخسة والقدر يعنى فما دونها في الحجم ، ويؤيد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب المثل بما دون البعوضة ، فقال لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها جرعة ماء ،

وبهذا انتهينا من هذه المسائل والفوائد التى لا يستغنى مسلم عن معرفتها والتأدب بها .

نسأل الله سبحانه أن يرزقنا الأدب معه ومع كتابه ، ومع نبيه

« لا يجوز كتابة القرآن بغير الحروف العربية »

كنت قد كتبت هذا العنوان ريثما أكتب تحته ما أريد ثم طبع العنوان ص ٣٦٦ من غير شيء . وها أنذا أستدرك ما فات فأقول وبالله التوفيق :

من المجمع عليه أنه لا يجوز قراءة القرآن بغير اللغة العربية لافى الصلاة ولا فى خارجها لأن الله أنزله قرآناً عربياً قال تعالى « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون (١) » وقال « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون (٢) » ، وقال « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين (٣) » ولم يقل قرآناً أعجبياً ، وركنا القرآن اللفظ والمعنى معاً ، فإذا قرأ بغير العربية لا يسمى قرآناً وماروى عن الإمام الأعظم أبى حنيفة أنه جوز القرآن بالفارسية فى الصلاة للعاجزين عن العربية قد نقل بعض المحققين من أتباعه أنه رجع

(١) يوسف / ٢

(٢) الزخرف / ٣

(٣) الشعراء / ١٩٣ - ١٩٥

عنه (١) وبذلك صار الأمر إجماعاً من الفقهاء، والقرآن كما ذكرت في مقدمة الكتاب - هو الذى وحد بين المسلمين فى اللسان كما وحد بينهم فى العقيدة والشريعة . وبفضل القرآن كان المسلمون على اختلاف أجناسهم ولغاتهم يتكلمون اللغة العربية من المحيط إلى المحيط بل من الفرس، والرومان، وغيرهم من أجاد اللغة العربية لإجادة العرب الخلفاء لها، ومؤلفاتهم التى لا يحصىها العدد أكبر دلائل على هذا وهذا أمر لم يكن لغير القرآن، وهو سر من أسرار الإعجاز والبيان وصدق الله تعالى فى قوله « ولقد يسرنا القرآن للذکر فهل من مدکر » (٢)

وكما لا يجوز قراءة القرآن بغير اللفظ العربى المبين الذى نزل به، لا يجوز بالاجماع كتابته بغير الحروف العربية لا باللاتينية ولا بغيرها من اللغات، لأن القرآن عربى فى لفظه وعربى فى حروفه وكتابته، ورسم القرآن كما رجحنا سابقاً توقيفى وسنة متبعة لا تجوز مخالفتة، والصحابة رضوان الله عليهم لما كتبوا المصاحف لم يكتبوها إلا بالحروف العربية، وهذا إجماع لا تجوز مخالفته ورسول الله صلى الله عليه وسلم لما كاتب الملوك والأمراء بعد صلح الحديبية كاتبهم باللغة العربية (٣) حتى فيما ليس بقرآن فإذا كان هذا فى غير القرآن فما بالك بالقرآن؟ ونصوص الكتب مدونة فى كتب السير والحديث والتاريخ ولم أوقف على كتاب منها كتب بغير اللغة العربية، والحروف العربية ومن ادعى خلاف ذلك فعليه البيان :

فالدعوة إلى كتابة القرآن الكريم بالحروف اللاتينية أو بغيرها دعوة آثمة ملحده هدامة تدعو إلى فصم العروة الوثقى التى تربط بين المسلمين جميعاً عرباً، وغير عرب، وهى القرآن ولغة القرآن .

(١) حدث الأحداث فى الإسلام الاقدام على ترجمة القرآن من ٦ ط الثانية

(٢) سورة القمر وقد تكررت فيها أربع مرات .

(٣) أنظر صورة كتاب رسول الله إلى المقوقس عظيم الروم فى كتاب

الوصيف فى الأدب العربى ص ١٢٢ ط اولى .

وكما أن اللغة العربية شعار الإسلام والمسلمين. فكذلك الحروف العربية شعارهم ومن منذ نصف قرن قام بعض المصريين وغيرهم يدعون إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، ولكن الله فيض لها من الخاصين من علماء هذه الأمة من قهرها في مهدها، ورد كيدها لهما في نحورهم ، وباءوا بغضب من الله والناس .

إننا لو جوزنا هذا في كتابة القرآن الكريم لفتح باب شرم مستطير ، فسيكتب كل أصحاب لغة من المسلمين القرآن بحروفهم وحيد تكون الطامة الكبرى فسيكون وسيلة لتجريف القرآن الكريم ولزوال الوحدة العربية اللسانية الممثلة في لغة القرآن بين المسلمين ، وما من دولة إسلامية غير عربية إلا وهي لا تحفظ القرآن إلا بلفظه العربي المبين ، ولا تكتبه إلا بحروفه العربية التي أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم واجمع عليها المسلمون ، بل بعض هذه الدول الإسلامية جعلت تدريس اللغة العربية في مدارسها ، وجامعاتها ومعاهدها أمر لزاماً ؛ بل بعضها يسعى في جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد .

إن الدعوة إلى كتابة اللغة العربية أو القرآن بالحروف اللاتينية أو غيرها هي جناية في حق الوطن العربي ، بل في حق الوطن الإسلامي ، فضلاً عن كونها جريمة في حق الدين الإسلامي ، وقد كانت دسيسة استعمارية أو اثر من آثار الصليبية ، ولكن الله وقي الوطن العربي والإسلامي شرورها ، فله الحمد والمنة .

والحمد لله في البداية كما حمدناه في النهاية ، وصلى الله تبارك وتعالى على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه إلى يوم الدين .

كتبه الفقير إلى عفو ربه
محمد بن محمد أبو شهبه
عن علماء الأزهر الشريف

« أهم مراجع الكتاب »

- (١) القرآن الكريم .
- (٢) تفسير ابن جرير ، والبغوى ، والزخشرى ، والرازى ، والقرطبى وابن كثير ، والآلومى ، والمنار ، وغيرهم .
- (٣) أسباب النزول : لواحدى والسيوطى وغيرهما .
- (٤) سنن أبى داود ، والنسائى والترمذى . وابن ماجه . ومسند الإمام أحمد .
- (٥) صحيح البخارى بشرحه فتح البارى : للحافظ ابن حجر .
- (٦) صحيح مسلم بشرحه الإمام محيى الدين النووى .
- (٧) البرهان فى علوم القرآن : للزركشى .
- (٨) الإتيقان فى علوم القرآن . للسيوطى .
- (٩) مناهل القرآن فى علوم القرآن لأستاذنا الشيخ عبد العظيم الزرقانى .
- (١٠) منهج القرآن فى علوم القرآن : للعالم الشيخ محمد على سلامة .
- (١١) التبيان ، لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن ، الشيخ ظاهر الجزائرى .
- (١٢) نقض مطاعن القرآن : للعلامة الشيخ محمد عرفة .
- (١٣) كتاب الوحى المحمدى . للعلامة السيد محمد رشيد رضا .
- (١٤) النبأ العظيم للعلامة الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز .
- (١٥) رسالة فى أصول التفسير الإمام تقى الدين أحمد بن تيمية .
- (١٦) إيقاظ الأعلام فى اتباع رسم المصحف الإمام : الشيخ محمد الشنقيطى .
- (١٧) القراءات واللمحات . الأستاذ عبد الوهاب حمودة .
- (١٨) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة الدكتور محمد أبو شيه .
- (١٩) تاريخ القرآن للزنجانى .
- (٢٠) مدخل إلى القرآن للمستشرق الفرنسى « بلاشير » .
- (٢١) رسالة فى القراءات الشواذ للدكتور مصطفى مندور .
- (٢٢) تاريخ القرآن للمستشرق . نولدكه .
- (٢٣) دائرة المعارف الاسلامية مادة « قرآن » .
- (٢٤) كتب اللغة : لسان العرب ، القاموس المحيط ، المصباح المنير .

فهرس الكتاب

الموضوع

الصحيفة

٣- ٥ مقدمة الطبعة الثانية — مقدمة الطبعة الاولى .

٦- ١٥ التعريف بالقرآن الكريم : القرآن هو المعجزة العظمى للنبي صلى الله عليه وسلم - تكرار التحدى بالقرآن وحكمته - القرآن كتاب العربية الاكبر - القرآن الكريم كتاب الهداية الكبرى - القرآن حارب التقليد ودعا إلى النظر والتأمل فى الكون - القرآن فتح الباب للعلوم الكونية والتجريبية - القرآن حارب العنصرية ، والعنجهية الجاهلية - القرآن هو الذى كون الأمة المثالية - تقدم العلوم لا يزيد القرآن إلا ثبوتاً ورسوخاً ، ويكشف عما فيه من أسرار - حديث من جوامع الكلم فى وصف القرآن - عناية الأمة الإسلامية بالقرآن عناية بلغت الغاية .

١٦- ٢٦ المبحث الاول : معنى علوم القرآن وتحليل هذا المركب الإضافى — معنى « علوم ، ومعنى « القرآن ، وأهو علم مشتق أم جامد ؟ ومهموز أم غير مهموز ؟ - تعريف القرآن ، عند الأصوليين والفقهاء ، وأهل العربية - معنى القرآن عند المتكلمين - القرآن علم شخصى ، أم مسماه أمر كلى كالمشترك المعنوى ؟ - أشهر أسماء القرآن القرآن الكريم - تعريف علوم القرآن بمعناه الإضافى — علوم القرآن بمعناه العلمى على الفن المدون - موضوع علوم القرآن على كلا المعنيين - فائدة دراسة علوم القرآن .

٢٦- ٣٣ تاريخ علوم القرآن : قبل عصر التدوين - فى العهد النبوى وفى عهد الصحابة ، علم الصحابة بالقرآن - رجوعهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم إذا خفى عليهم شئ من عقائده وأحكامه وآدابه

رجوعهم إلى لغة العرب إذا غاب عنهم بعض معانيه اللغوية - جمع الصحابة بين الحفظ ، والعلم ، والعمل - عصر التدوين :

بدء التدوين في علوم القرآن بمعناه العام أشهر المؤلفين في التفسير - أشهر المؤلفين في أسباب النزول ، وفي النسخ والمسنوخ . وفي مشكله وفي غريبه ومفرداته ، وفي إعرابه وفي إعجازه . وفي مجازه . وفي قراءاته وفي أقسامه . وفي أمثاله . وفي فضائله - منهج هؤلاء في تأليف كتبهم .

٣٣ - ٤١ علوم القرآن بمعنى الفن المدون : متى ظهر هذا الاصطلاح ؟ - رأى السيوطي - رأى المؤلف ودليله ، رأى أستاذنا الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني - رحمه الله - والتعقيب عليه ببيان الحق - المؤلفات في القرن السادس - المؤلفات في القرن السابع - المؤلفات في القرن الثامن - المؤلفات في القرن التاسع وهو القرن الذهبي في تدوين علوم القرآن - فارس الحلبة السيوطي - جمعه خلاصة الكتب السابقة في كتابه ، الإتيقان في علوم القرآن - الإتيقان في الميزان ، محاسن الكتاب - مأخذى على الكتاب - محاولة المؤلف الاعتذار عن صاحب الإتيقان .

٤١ - ٤٥ عصر نهضة العلوم : لإدخال الدراسات العليا التخصصية في علوم القرآن في الأزهر الشريف جامعة المسلمين الكبرى - جدت مباحث أخرى أضيفت إلى مآذ كبره العلماء المتقدمون - الرد على الشبه التي أثارها المبشرون . والمستشرقون ومتابعوهم على القرآن الكريم أشهر المؤلفات في العصر الأخير - رسائل وكتب في بعض علوم القرآن لعلماء ، وأدباء - كتب ورسائل حول ترجمة القرآن الكريم - استمرار التأليف في علوم القرآن ، أو بعض أنواعه .

الموضوع

الصفحة

نشاط هذه الحركة لعلماء أزهريين وغير أزهريين - من منن الله على - وما أكثرها - مشاركتي في هذا المضمار الشريف . ظهور كتب جيدة ، ورسائل عليية في مصر وفي غير مصر .

٤٦ - ٥٨ المبحث الثاني . نزول القرآن الكريم .

معنى النزول لغة وشرعا - وجود القرآن في اللوح المحفوظ - وجوده في السماء الدنيا - نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم . ماهو اللوح المحفوظ - وما الحكمة في وجوده - نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا - الأدلة على ذلك - الحكمة في هذا النزول -

نزول جبريل بالقرآن على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقا منجما تحقيق المدة التي نزل فيها القرآن - الأدلة على نزول القرآن على النبي مفرقا - نزول الكتب السماوية السابقة جملة - الدليل عليه

٥٩ - ٦٩ كيف كان جبريل عليه السلام يتلقى الوحي من الله ؟ كيف كان يتلقى النبي الوحي من جبريل ؟ القرآن كله نزل على النبي عن طريق جبريل في البقعة لا مناما ، ولا إلهاما ، ولا مكاملة من غير واسطة - بيان الحق في الروايات التي ظاهرها يخالف هذا - تلقى النبي القرآن عن جبريل وهو على صفته الملائكية - الأدلة على ذلك - ما كان يصاحب نزول جبريل بالوحي من أمارات - القرآن لفظه ومعناه كلام الله ليس لجبريل ، ولا للنبي فيه إلا البلاغ - رأيان باطلان مدسوسان على علماء الإسلام ذكرهما السيوطي في الإتيقان ، ولم يعقب عليهما بالبطلان - نزول جبريل بوحي السنة كما كان ينزل بوحي القرآن - الفرق بين الوحيين .

الموضوع	الصحيفة
حكم نزول القرآن الكريم مفرقا :-	٦٤ - ٨٣
(١) الحكمة الأولى ويندرج تحتها أمران (٢) الحكمة الثانية ويندرج تحتها أربعة أمور (٣) الحكمة الثالثة ويندرج تحتها أربعة أمور (٤) الحكمة الرابعة - تنمة مهمة	
الوحى لغة واستعمالاته - تعريف الوحى شرعاً - أقسام الوحى الشرعى وكيفيةاته	٨٣ - ٨٩
(١) تكليم الله أنبياءه من وراء حجاب (٢) فى المنام (٣) الإلهام أو القذف فى القلب (٤) إعلام الله أنبياءه بوساطة جبريل وتحتة كيفيةات ثلاثة - إمكان الوحى ووقوعه - إمكان الوحى وعدم استحالة - العلم يؤيد معنى الوحى وإمكانه الدليل على وقوع الوحى	
الشبهة التى أوردت على الوحى :	٩٠ - ١٠٨
شبهة الوحى النفسى - المقدمات السبع التى استندوا إليها - إبطال هذه المقدمات فبطل ما أدت إليه من فكرة الوحى النفسى - ردعاه لهذه الفكرة - زعمهم أن قصة الوحى المحمدي كقصة دجان دارك، الفرنسية . إبطال ذلك . شبهة أخرى مزاعم بعض المبشرين والمستشرقين وأبواقهم أن ما كان يعترى النبى عند الوحى حالة من حالات الصرع . الرد على هذه المزاعم . من ناحية العقل ، والعلم ، والتاريخ الصحيح ، حجة عليية دامغة أسفر عنها الطب الحديث ترد هذه الفرية .	
المبحث الثالث : أول ما نزل من القرآن ، وآخر ما نزل منه :	١٠٩ - ١١٧
(٣١ م - الممثل)	

فوائد هذا البحث . الأقوال في أول ما نزل من القرآن
(١) القول الأول : أول ما نزل صدر سورة اقرأ (٢) القول
الثاني . صدر سورة المدثر (٣) القول الثالث . أول ما نزل
سورة الفاتحة . القول الرابع . أول ما نزل البسملة - مناقشة
الأقوال وبيان أن القول الأول هو الراجح .

١١٧-١٢٧ آخر ما نزل من القرآن - فيه أقوال عشرة - رأى المختار

أن آخر ما نزل هو قوله تعالى : « وانقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ... » الآية - الإجابة عن باقي الأقوال - زعم أن آية « اليوم أكملت لكم دينكم . » آخر ما نزل من القرآن خطأ مشهور وقع فيه بعض العلماء المتأخرين - ما المراد بكلمة الدين في الآية ؟

١٢٧-١٣١ أوائل وأواخر مقيدة بموضوع خاص : - أول ما نزل في

الحجر وآخر ما نزل فيها - أول ما نزل في الجهاد وآخر ما نزل فيه - أول ما نزل في شأن القتل وآخر ما نزل فيه - أول ما نزل في الأطعمة وآخر ما نزل فيها - أول ما نزل من سورة التوبة وآخر ما نزل منها - أول سورة نزلت بمكة وآخر سورة نزلت بها - أول سورة نزلت بالمدينة وآخر سورة نزلت

١٣٢-١٣٥ المبحث الرابع : أسباب النزول : القرآن منه ما نزل بسبب

ومنه ما نزل من غير سبب - المؤلفات في أسباب النزول ما هو سبب النزول ؟ - طريق معرفة سبب النزول - من يرجع إليهم في معرفة سبب النزول - قول الصحابي في سبب النزول - قول التابعي في سبب النزول - التثبت في سبب النزول . فوائد معرفة سبب النزول :-

١٣٦-١٤٣ القاعدة الأولى - الاستعانة على فهم الآية وإزالة الإشكال -

أمثلة خمسة لذلك - خطأ وقع فيه الزركشى في البرهان ، ولم يتنبه له محقق الكتاب ونقله السيوطى فى الإتقان فى ذكر عثمان بن مظعون بدل أخيه قدامة بن مظعون فى مسألة شربه الخمر متأولا وقد نبهت عليه -

الفائدة الثانية : يعين على فهم حكمة التشريع - الفائدة الثالثة . رفع توهم المحصر فى بعض الآيات القرآنية - الفائدة الرابعة تعيين المبهم فى بعض الآيات - الفائدة الخامسة . عدم خروج السبب من حكم الآية - الفائدة السادسة . تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب - الفائدة السابعة : تثبيت الوحى ، وتأكيده الحكم فى ذهن السامع .

١٤٣ - ١٦٠ - التعبير عن سبب النزول - تعدد الأسباب والمنزل واحد - لذلك صور أربعة مع ضرب الأمثلة لكل صورة - تنبيه مهم - تعدد المنزل والسبب واحد - عموم اللفظ وخصوص السبب - رأى جمهور العلماء أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب - رأى البعض أن العبرة بخصوص السبب - اتفاق الكل على أن الحكم عام - تنبيهات مهمة - ثمة الخلاف بين الجمهور وغيرهم - أدلة الجمهور - أدلة غير الجمهور .

١٦١ - ١٦٥ مثال للفظ خاص نزل على سبب خاص . آية ، وسيجنبها الأتقى . . . ١٦٦ - شبيهه بالسبب الخاص مع اللفظ العام .

١٦٦ - ١٧٠ المبحث الخامس . حديث نزول القرآن على سبعة أحرف ، الحديث متواتر الروايات الواردة فى الصحيحين وغيرهما فى هذا المعنى ✓

١٧١ - ١٧٤ ما يستخلص من الروايات . التيسير على الأمة ، التوسعة فى الالفاظ لا فى المعانى - التوسعة فى حدود المنزل من الله لا بالهوى

الصحيفة

الموضوع

والتشهي ، الأمة مخيرة في القراءة بأى حرف منها - التوسعة
كانت بعد الهجرة - حرص الصحابة البالغ على المحافظة على
النص القرآنى .

١٧٤ - ٢٠٠ الأقوال فى الأحرف السبعة . تشعب الأقوال حتى وصلت
إلى خمسة وثلاثين قولاً . — القول بأن الحديث مشكل -
ورده ، القول بأن المراد بالسبعة التسكثير لا التحديد ، ورده -
القول الثالث . وهو سبع ألفاظ (لغات) فى المعنى الواحد ،
وهو المختار عند جمهرة العلماء وعندى ، ورد ما ورد عليه من
شبهات ، منزلة اللغة القرشية بين لغات العرب - القول الرابع .
المراد سبع لغات متفرقة فى القرآن كله ومناقشته - القول
الخامس . لابن قتيبة - القول السادس ، لابن الفضل الرازى -
القول السابع . لآبى بكر الباقلانى - القول الثامن . لابن
الجزرى ، نقد هذه الآراء الثلاثة - القول التاسع ومناقشته ،
الأحرف السبعة ليست هى القراءات السبع بالإجماع - القول
العاشر . المراد سبعة أنواع من الكلام ... اختلاف المرويات
فى تحديد الأنواع ، نقد هذا رأى من جهة الرواية (السند)
والدراية (المعنى) . المحامل الصحيحة لما روى فى بيان الأنواع
أقوال أخرى باطلة ورد لها .

٢٠١ - ٢١٨ إزالة شبهة فى أحاديث مروية فى هذا المعنى وبيان مفصل
الحق فيها - إزالة شبهة أخرى حول ما روى من تغيير
بعض ألفاظ القرآن بألفاظ أخرى - إجماع علماء الأمة على
عدم جواز إبدال لفظ قرآنى بأخر بمعناه - زعم للمستشرق
« بلاشير » فى جواز القراءة بالمعنى ، ومتابعة تلميذه الدكتور

مصطفى مندور له فى زعمه والزيادة عليه ، رد هذه المزاعم
الباطلة الآثمة - جملة الأقوال فى الأحرف السبعة ونقد هذه
الكثرة

موقف الشيعة من حيث الأحرف السبعة . منهم موافق ،
ومنهم مخالف ، وطعن فى صحة الحديث ، وهم الأكثر ،
الرد عليهم - هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع
الأحرف ؟ آراء العلماء فى هذا .

٢١٩ — ٢٣٢ المبحث السادس : المكي والمدنى : أهمية البحث ، المؤلفون
فيه - آراء العلماء فى تعريف المكي والمدنى ، وبيان رأى
المختار - أنواع السور المكية والمدنية - عدد السور المكية
باتفاق ، والسور المدنية باتفاق ، والسور المختلف فيها -
الضوابط التى يعرف بها المكي والمدنى ، بميزاتها القسم المكي -
مميزات القسم المدنى .

٢٣٢ - ٢٥١ الشبهة التى أثيرت حول المكي والمدنى . تتلذذ بعض المسلمين
والعرب على المستشرقين والمبشرين ونقلهم لأرائهم ،
وإذاعتها بين شباب المسلمين باسم العلم وحرية البحث . رد
بعض العلماء الأزهريين وغيرهم عليهم ، الشبهة الأولى -
الشبهة الثانية - الشبهة الثالثة - الشبهة الرابعة - الشبهة
الخامسة - الشبهة السادسة .

٢٥٢ - ٢٦١ صلات تتعلق بالمكي والمدنى : الأولى : الحضرى
والسفرى - الثانية : النهارى والليل - الثالثة : الصيفى
والشتائى - الرابعة : ما تأخر حكمه عن نزوله ، وما تأخر
نزوله عن حكمه . الخامسة : ما حمل من مكة إلى المدينة ،

الصحيفة

الموضوع

وما حمل من المدينة إلى مكة ، وما حمل من المدينة إلى الحبشة . وما حمل من المدينة إلى بلاد الروم - السادسة : ما نزل مفرقا ، وما نزل جمعا - ضرب أمثلة لكل ما تقدم .

٢٦٦ - ٢٦٦

المبحث السابع . جمع القرآن وتاريخه ، الجمع بمعنى الحفظ في المصدر ، حفظ النبي ﷺ للقرآن ، حفظ الصحابة رضوان الله عليهم له ، حديث أنس في أنه لم يحفظ القرآن غير أربعة ، والإجابة عنه بما يشفى ويكفى ، حفظ الألوف للقرآن حتى وصل إلينا كما أنزله الله .

٢٦٧ - ٢٨٤ كتابة القرآن في عهد النبي ﷺ مفرقا ، لم لم يكتب في مكان واحد ؟ السبب الباعث على كتابته في عهد النبي صلى عليه وسلم - كتابة القرآن وجمعه في عهد الصديق أبي بكر - رضى الله عنه - تولى زيد بن ثابت - رضى الله عنه - هذه المهمة الشاقة ، معاونة بعض كبار الصحابة له كعمر - رضى الله عنه - السبب الباعث على كتابته في هذا العهد ، ما امتاز به الجمع في عهد الصديق الصنف التي كتبت في عهده هي التي تحظى بالثقة والاطمئنان ، الصنف التي كانت عند بعض الصحابة لم تقتصر على النص القرآني ، بل جمعت بعض أدعية ، وتفسيرات .

كتابة القرآن في المصاحف في عهد عثمان رضى الله الجماعة الذين قاموا بكتابة المصاحف - كتابة المصاحف مكرمة لسيدنا عثمان - إجماع الصحابة على ما ارتآه عثمان - شهادة سيدنا علي له واعترافه بفضلته في كتابة المصاحف - هل يجوز حرق كتب العلم ونحوها ؟ - السبب الباعث على كتابة المصاحف - ما امتاز به جمع القرآن في عهد ذي

النورين عثمان - ما امتاز به الجمع في عهد عثمان - متى عرف
تسمية القرآن بالمصحف ، عدد المصاحف التي وجهها
عثمان إلى الأمصار - السبب في تعدد المصاحف - هل
توجد المصاحف العثمانية الآن ؟

٢٨٤ - ٣١١ الشبهة التي أوردت على جمع القرآن وردها، رد دعاوى

المستشرقين والمبشرين على القرآن - ومنهجهم في البحث .

الشبهة الأولى . الزعم بأن الصحابة لم يحموا على كتابة
المصاحف .

الشبهة الثانية: دعوى أن بعض آيات القرآن لم تتواتر .

الشبهة الثالثة : الزعم بأن القرآن زيد فيه ما ليس منه .

الشبهة الرابعة : دعوى أن بعض القرآن لم يكتب في

المصاحف .

الشبهة الخامسة : مزاعم بعض الشيعة من أن القرآن قد نقص

منه بعض الآي والسور

الشبهة السادسة : مزاعم صاحب « ذيل مقالة في الإسلام »

وهي أن القرآن قد أسقط منه ما هو منه وزيد فيه ما ليس منه

الشبهة السابعة . قول السيدة عائشة « كان فيما أنزل من القرآن

عشر رضعات . . »

الشبهة الثامنة : زعم أن قول النبي « لو كان لابن آدم واديان

من مال . . » من القرآن ! !

الشبهة التاسعة : حديث « كان مما أنزل الله آية الرجم . . »

وبيان مفصل الحق فيه

الشبهة العاشرة : الزعم بأن سورة « لم يكن الذين كفروا »

قد نقص منها ما هو منها

الشيبة الحادية عشر : روايات يوم ظاهرها سقوط شيء من القرآن وبيان الحق فيها

رد عام عن الشبهة بعد الردود الخاصة

٣١٢ - ٣٢٠ المبحث الثامن : ترتيب آيات القرآن وسوره

الآية في اللغة ، وفي الاصطلاح ، معنى الفاصلة ، اختلاف الآيات طويلا وقصرا

فوائد معرفة الآيات ، عدد آيات القرآن ، السبب في الاختلاف في عدد الآي ، لمعرفة رؤوس الآي طريقان : توقيني ، وقياسي ، معرفة الآيات توقيفية . أي لا مجال للرأي فيها ، عدد كلمات القرآن وحروفه ، ترتيب الآيات توقيني بالإجماع ، ترتيب آيات القرآن ليس بحسب النزول وإنما يرجع إلى المناسبات والروابط البلاغية

٣٢٠ - ٣٣٤ السور وترتيبها : معنى السورة لغة ، واصطلاحا ، معرفة

السور توقيني ، هل يقال سورة البقرة مثلاً ؟ الحكمة في جعل القرآن الكريم سوراً - عدد سور القرآن - لا يجوز إطلاق السورة والآية على إصحاحات التوراة والإنجيل وقرآنها - أسامى السور ، التسمية توقيفية أم اجتهادية - كلام حسن جيد للزركشي في هذا المقام ، تعقيب للإمام السيوطي على كلام الزركشي صاحب البرهان ، لم لم يفرد لموسى عليه السلام سورة تسمى به ؟ وكذلك آدم عليه السلام ؟ وداود عليه السلام ؟ جواب للؤلؤف لم يسبق إليه ، تقسيم السور باعتبار الطول والقصر ، الطول ، والمتون ، والمشاني ، والمفصل ، وبيان أقسام المفصل ، تقسيم السور من حيث عدد الآيات اتفاقا واختلافا ، ترتيب سور القرآن ، مذاهب العلماء في هذا

الصحيفة

الموضوع

لا يجوز مخالفة ترتيب المصحف عند كتابة المصاحف وطبعها بالإجماع ، ترتيب السورة في التلاوة مندوب وليس بواجب

٣٣٥ - ٣٣٧ المبحث التاسع ، كتابة القرآن ورسمه

الكتابة عند العرب ، بمن تعلوها ؟ وجودها في العرب قبيل الإسلام إرهاب لبعثة خاتم الرسل - الإسلام والكتابة ، الإسلام رفع من شأن الكتابة والعلم ، استفادة القرآن والسنة النبوية بذلك - سبق النبي ﷺ إلى إزالة الأمية من منذ أربعة عشر قرناً

٣٤٦ - ٣٤٨ كتابة القرآن الكريم ، كتاب الوحي ، رسم المصاحف العثمانية ، ما معنى الرسم ؟ أشهر الكتب المؤلفة في الرسم القواعد التي اتبعت في رسم المصاحف ، الحذف ، الزيادة ، الهمز ، البدل ، الوصل والفصل ما فيه قراءتان موترتان وكتب على إحداها

٣٥٨ - ٣٤٦ رسم المصحف توقيفي أم اصطلاحى ؟ .

مذهب الجمهور أن الرسم توقيفي - أدلتهم على هذا - أقوال الأئمة في التزام الرسم العثماني - هل صار النبي قارئاً كاتباً بعد أن لم يكن قارئاً كاتباً ؟ رأيان للعلماء ، وأدلة كل فريق - كونه صلى الله عليه وسلم صار يعرف الكتابة وإن لم يحسنها لا يخل بالمعجزة الكبرى وهي القرآن - فوائد الرسم العثماني : اتصال السند بالقرآن الكريم - الدلالة على أصل الحركة - الدلالة على بعض اللغات الفصيحة - الدلالة على معان خفية دقيقة تدرك بالذوق والوجدان - تعليقات جيدة للشيخ المراكشي - اجتهادات للثوفا في تحليل رسم بعض الآيات .

٣٥٨ - ٣٦٥ مذهب الإمام الباقر ، وابن خلدون في أن الرسم
اجتهادي - أدلتها - الرد عليهما .

رأى الشيخ العلامة عبد العزيز الدباغ في كتابه والذهب
الإبريز، في أن الرسم توقيفي - كلام حسن له في هذا - رأى
ثالث للإمام العز بن عبد السلام ، وهو وسط بين الرأيين -
رأى جديد للمؤلف جدير بالبحث والنظر ، وهو المحافظة
على الرسمى العثمانى بالنسبة للمصاحف ، وكتابة الأجزاء ،
وكتب العلم ، والمجلات ونحوها على الرسم المعروف ،
تيسيراً على الطلاب ، والتلاميذ والقارئین .

٣٦٦ - ٣٨٧ الشبهة التي أثيرت حول كتابة القرآن ورسمه :

حمل لواء الإفك في هذا بعض القسس ، والمبشرين ،
والمستشرقين ، اعتمادهم على روايات ضعيفة ومكذوبة .

٣٦٧ الشبهة الأولى ما روى أن بن عثمان قال : إن في القرآن لحناً
ستقيمه العرب بألسنتها . . . ، والجواب عنها .

٣٦٩ الشبهة الثانية : اعتراضهم على قراءة « والمقيمين الصلاة ،
وزعمهم أنها من لحن الكتاب والجواب عنها .

٣٧٠ الشبهة الثالثة : ما روى أن ابن عباس كان يقرأ حتى تستأذنوا
ويقول حتى تستأنسوا ، من خطأ الكاتب .

٣٧٣ الشبهة الرابعة : ما روى عنه أيضاً أنه كان يقرأ « أفلم يأتين ،
فقيل له أنها أفلم يأتيس . . . ، فقال : أظن الكاتب كتبها
وهو ناعس والجواب عنها .

٣٧٤ الشبهة الخامسة : كان يقرأ أيضاً « ووصى ربك ، بدل وقضى
ربك ، والجواب عن ذلك .

٣٧٦ الشبهة السادسة : كان يقرأ « ولقد أتينا موسى ، وهرون
الفرقان ، وضياء ، بغيروا وقبل ضياء ، والجواب عن ذلك

- الصحيفة
- الموضوع
- ٣٧٧ الشبهة السابعة : ما روى عنه في قوله تعالى « مثل نوره كشكاة فيها فيها مصباح ، قال هي خطا من الكاتب هو أعظم من ذلك إنما هو مثل نور المؤمن والجواب عن ذلك
- ٣٧٨ الشبهة الثامنة إنكاره قوله تعالى « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وكان يقرأ ، بما آمنتم به والجواب عن ذلك
- ٣٧٩ الشبهة التاسعة ما روى عن السيدة عائشة وقولها ما سئلت عن الآيات « إن هذان لساحران » والصابئون والنصارى ، « والمقيمى الصلاة ، فقالت هذا من خطأ الكاتب ، والرد على ذلك .
- الشبهة العاشرة زعمهم أن في هذه الآيات لحنا وهي « والصابرين في البأساء والضراء ،
- « وأسروا النجوى الذين ظلموا » ثم عموا وصدوا كثير منهم ، « فأصدق وأكن من الصالحين ، والجواب عن ذلك بما يشفى ويكفى
- ٣٨٤ الشبهة الحادية عشرة : ما روى عنها أيضا في قوله تعالى « والذين يؤتون ما آتوا . . . » وأنها « والذين يؤتون ما آتوا ، وترجيحها الثانية على الأولى ، والجواب عن ذلك .
- ٣٨٥ الشبهة الثانية عشرة : ما روى عن خارجة بن زيد بن ثابت أنهم قالوا لزيد : أوهمت إنما هي . « ثمانية أزواج من الضان اثنتين . اثنتين . . . » ، والجواب عن ذلك ،
- رد عام على كل الشبه المذكورة
- ٣٨٧ شكل القرآن . معناه هل كان يعرف العرب الشكل ؟ من وضع الشكل المعروف ؟ .
- ٣٨٨ إعجام القرآن . معناه هل كان النقط معروفا قبل الإسلام رأيان - أول من نقط المصحف
- ٣٩٠ - ٢٩٢ ما استحدثت في كتابة المصاحف . - حكم نقط المصحف وشكله وما شابه ذلك - احترام المصحف

٣٩٣ - ٣٩٩ المبحث العاشر . ثبوت النص القرآني بالتواتر المفيد للقطع واليقين . -

حفظ النبي للقرآن - حرص النبي على تلقي القرآن - معارضة جبريل النبي بالقرآن - تكرار المعارضة في العام الذي توفي فيه النبي صلى الله عليه وسلم - الحفظ عن ظهر قلب خصيصة للقرآن بخلاف الكتب السماوية الأخرى - الحكمة في تكليف الأمة الإسلامية بحفظ القرآن - الأدلة على وجوب حفظ القرآن على الأمة الإسلامية .

٣٩٩ - ٤٠٢ حفظ الصحابة للقرآن - عنايتهم إلى الحفظ - بالفهم ،

والعلم ، والعمل - اعتمادهم في الحفظ على التلقي الشفاهي والسماع من الرسول ، أو بمن سمع من الرسول - تفاوت الصحابة في الحفظ - المشتهرون بالحفظ والإقراء من الصحابة والصحابيات

٤٠٣ - ٤٣٤ العوامل المساعدة على حفظ القرآن ، واستمرار تلاوته

(١) التبعيد بالقرآن في الصلاة وغيرها .

(٢) الترغيب في قراءة القرآن وحفظه . (٣) الأمر بتعهد القرآن والتحذير من نسيانه ، نسيان القرآن كبيرة

(٤) إرتباط بعض الوظائف الدينية ، والدينية بحفظ القرآن

(٥) تفرغ بعض الصحابة ومن بعدهم لحفظ القرآن ، وإقراءه

(٦) إشتهار العرب بقوة الحافظة ، وسيلان الأذهان ، وصفاء

النفوس (٧) العلم بأن القرآن هو أصل الدين ، ومنع الصراط

المستقيم ، ودستور المسلمين الأول (٨) إعجاز القرآن وسحر

بيانه ، وعجائب أسلوبه ، وإشباعه لفطرة العرب اللغوية ،

والنفسية (٩) تيسير الوسائل لحفظه في المساجد ، والمدارس

والكتاتيب ، والبيوت - أثر الكتاب في تحفيظ القرآن ،

وتنشئة الكثيرين من مشاهير الأمة الإسلامية ، وجوب إحياء

الكتاتيب ، الكتاتيب في السودان - أمل ورجاء

٤٣٦ - ٤٦٨ مسائل متفرقة في أدب تلاوة القرآن وحفظه : -

- (١) قراءة القرآن من أفضل القربات إلى الله (٢) نسيانه كبيرة (٣) استحباب الوضوء لقراءته (٤) مسنوية قراءته في مكان طاهر (٥) استحباب استقبال القبلة حين قراءته (٦) سنية التعوذ قبل القراءة (٧) قراءة البسملة (٨) هل تحتاج قراءة القرآن إلى نية ؟ (٩) ترتيل القرآن (١٠) تدبر القرآن وتفهمه . (١١) تحسين الصوت بقراءة القرآن (١٢) الجهر بقراءة القرآن والإسرار به أيهما أفضل ؟ (١٣) أيهما أفضل القراءة من المصحف أم من الحفظ (١٤) إذا ارتج على القارئ ماذا يضع ؟ (١٥) هل يجوز قطع القراء للكلمة ؟ (١٦) لا يجوز قراءة القرآن بالعجمية مطلقا (١٧) لا يجوز القراءة بالشواذ . (١٨) مراعاة ترتيب المصحف في القراءة (١٩) استيفاء حروف القراءات . (٢٠) الاستماع للقرآن والإنصات إليه (٢١) السجود عند قراءة آية سجدة (٢٢) الأوقات المفضلة للقراءة . (٢٣) التكبير عند قراءة السور القصار . (٢٤) يسن الدعاء عند الختم . (٢٥) يسن إذا فرغ من ختمه أن يشرع في أخرى (٢٦) حكم التكسب بالقرآن . (٢٧) بكره أن يقول نسيت آية كذا (٢٨) اختلاف العلماء في وصول ثواب قراءة القرآن للبيت .

٤٦٨ - ٤٧٤ حكم الاقتباس وما جرى مجراه - ما يجري مجرى الاقتباس - لا يجوز تعدى أمثلة القرآن

٤٧٤ - ٤٧٦ لا يجوز كتابة القرآن بغير الحروف العربية .

٤٧٧ أهم مراجع الكتاب .

٤٧٨ فهرس الكتاب .

٤٩٤ تصويب لبعض الأخطاء

٤٩٥ التعريف بالمؤلف

(استدراك)

في ص ٦١ سقط سطر ١٦ « هامش رقم ١ ، ونصه ، دحية بكسر الدال
رجل من الصحابة كان معروفاً بجمال الشكل والصورة ،
السطران الأخيران في ص ١٤٠ موضعهما في نهاية الفائدة الثالثة ص ١٤١
وهامش ص ٢١٢ مكرر من هامش ص ٢٠٧ ،
وفي ص ٣٢٢ سطر ١٦ وقع سقط ونصه ، لأنه جعل سورة الفيل
وسورة لابلان قريش
وفي ص ٣٤٩ سقط في منتصف السطر الثالث ونصه ،
« كلمة الربا تكتب بالواو والالف ، كما جاء في الرسم العثماني ،
ولا تكتب في القرآن بالياء أو الالف ، لأن رسمه سنة متبعة ،
وفي كتاب المحيط البرهاني في فقه الحنفية ما نصه ،
« وهناك بعض أخطاء أخرى لا تخفى على القارئ الفطن ،

• التعريف بالمؤلف •

(١) أسرة « أبو شهبه » من الأسر العربية العريقة ، التي اشتهرت بالفروسية ، وحب الجهاد في سبيل الله كما ينبي . عن ذلك لقبها ، تركوت أصولها في عدة قرى من محافظة البحيرة ، ثم نزح بعض فروعها قديما إلى بعض قرى محافظة كفر الشيخ ، ومحافظة الغربية

(٢) ولد في ١٥/٩/١٩١٤ في قرية « منية جناح » ، مركز دسوق .

(٣) وقد نذره والده من يوم ولادته للقرآن الكريم ، وحضور العلم بالأزهر الشريف ، فما أن بلغ الرابعة حتى ذهب به إلى كتاب القرية وقدرى هذا الكتاب أجيالا بالقرية منهم جيل والده رحمه الله

(٤) أتم حفظ نصف القرآن في الكتاب في سن التاسعة ، إلى جانب تعلم القراءة والكتابة ، وأصول الدين والسورة ثم فتحت المدارس الأولية فدخل مدرسة بلده فآتم حفظ القرآن بها وأخذ الشهادة الأولية في سن الثانية عشرة تقريبا .

(٥) وفي عام ١٩٢٥ دخل معهد دسوق العلى الدينى ، فأخذ الشهادة الابتدائية مئة ، وفي عام ١٩٣٠ دخل معهد طنطا الثانوى وأخذ منه الشهادة الثانوية وفي عام ١٩٣٥ دخل كلية أصول الدين إحدى كليات الأزهر المعمور

(٦) وفي عام ١٩٣٩ أخذ الشهادة العالمية وكان من الأوائل فدخل قسم الدراسات العليا شعبة التفسير والحديث ، وبعد دراسة خمس سنوات دراسة لا تعرف الكلل ، ولا الملل نجح في الامتحان التمهيدي لشهادة العالمية من درجة أستاذ سنة ١٩٤٤ أمام لجنة من كبار العلماء ثم اشتغل بتأليف رسالة الدكتوراة ، (٧) وفي نوفمبر عام ١٩٤٦ نوقش في رسالة العالمية من درجة أستاذ الدكتوراة مناقشة علنية أمام لجنة خماسية من كبار العلماء فحصل عليها بدرجة الإمتياز .

(٨) وفي ديسمبر من هذه السنة عين مدرسا بكلية أصول الدين ، وما زال يترقى من مدرس إلى أستاذ مساعد ، إلى أستاذ حتى وصل إلى مرتبة العمادة (٩) وفي أكتوبر ١٩٦٩ عين أول عميد لكلية أصول الدين ، أول كلية في أول فرع أنشئ للجامعة الأزهر بأسبوط . وما زال يسير بالكلية قدما حتى

أكملت سنواتها الأربع عام ١٩٧٢ - ١٩٧٣ . وما زال يسعى حتى أنشئت بفرع الجامعة كليتان أخريان . كلية اللغة العربية وكلية الشريعة الإسلامية والقانون (١٠) في مطلع حياته العلمية أعير إلى المملكة العربية السعودية للتدريس

بالمعهد العالي السعودي بمكة المكرمة ، وللمشاركة في إصلاح التعليم الديني ووضع مناهجه وقد قضى أربع سنوات بجوار بيت الله الحرام هي ربيع عمره ، وفي سنة ١٩٦٣ أعير إلى كلية الشريعة بجامعة بغداد فمكث فيها عاما ، وفي عام ١٩٦٦ أعير إلى الجامعة الإسلامية بأم درمان بالسودان فمكث فيها نحو ثلاث سنوات (١١) يكتب في كبرى المجلات العلمية والدينية في مصر وفي غيرها من

بلاد الاسلام والعروبة ، من منذ ربع قرن أو يزيد ، والتي محاضرات وحضرن ندوات في مصر ، وفي غير مصر

(١٢) أذاع في الإذاعة والتلفزيون في مصر ، وفي المملكة العربية السعودية وفي العراق ، وفي السودان .

(١٣) غنى بالتأليف في القرآن وعلومه ، والسنة وعلومها والدفاع عنها ضد المبشرين ، والمستشرقين وأتباعهم ، وألف في ذلك كتباً كثيرة

(١٤) كون مدرسة علمية من تلاميذه ومريديه في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية والعربية تعزز بالقرآن وعلومه ، والسنن وعلومها ، والتأليف فيهما وإجلاله محاسنها وما أكثرها . وتقديم هذه العلوم والمعارف في لغة سهلة مستساغة ، وفي عرض حسن جذاب .

المؤلفات المطبوعة

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم (٢) أعلام المحدثين (٣) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ج ١ ، (٤) في أصول الحديث (٥) علوم الحديث (٦) دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين (٧) شرح المختار من صحيح مسلم بن الحجاج (٨) رسالة في الإسراء والمعراج (٩) في رحاب السنة : الصحاح الستة (١٠) الربا في نظر الاسلام وحلول للمشكلة ، وهناك كتب أخرى تحت الطبع ،

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٣٩ لسنة ١٩٧٢ . القاهرة الحديثة للطباعة